

عالم الفكر

المجلد الثامن - العدد الثالث - أكتوبر - نوفمبر - ديسمبر ١٩٧٧

- التحول السياسي من الشيوعية إلى الديمقراطية
- مألوف - ستجور وحضارة الإنسان
- الفعل الشيوعي في رواية الأمكن
- اندريه مالرو: فكري الإنسان



رئيس التحرير: أحمد مشاري العدواني
مستشار التحرير: دكتور أحمد أبو زيد

عالم الفكر

مجلة دورية تصدر كل ثلاثة أشهر عن وزارة الإعلام في الكويت * أكتوبر - نوفمبر - ديسمبر ١٩٧٧
المراسلات باسم : الوكيل المساعد للشئون الفنية - وزارة الإعلام - الكويت : ص.ب ١٩٢

المحتويات

التراث

٣	بقلم التحرير	التمهيد
١٢	الدكتورة فحى شيخه	التحول السياسى من الشيوعية الى الديمقراطية
٤١	الدكتورة جوزين جودت عثمان	مارلو - سنجور وحضارة الانسان
٩٩	سلوى مطر	العقل الثورى في رواية الامل
١٢٩	الدكتورة عزة هيكل	اندره مارلو « قنر الانسان »

آفاق المعرفة

١٦٣	الدكتور عبد العزيز أمين	من وهي العلوم
-----	-------------------------	---------------

أدباء وفنانون

١٩٥	دكتور حلمى مرزوق	جوانب غير معروفة من شعر شوقي
-----	------------------	------------------------------

عرض الكتب

٢١٥	عرض وتحليل الدكتورة عليّة حسن حسين	دبة البيت
٢٣٣	عرض وتحليل الدكتورة سامية حسن الساعاتي	سوسيولوجيا العمل المنزلي

الدراسات التي تنشرها المجلة تعبر عن آراء اصحابها وحدهم

اندريه مالرو

تقديم

جيد : لا يوجد انبياء او بلهائ في كتبك .
مالرو : انني لا اكتب لكي اثير اللل في النفس ، اما عن
البلهائ فهناك الكثيرون جدا منهم في الحياة الواقعية .
(عام ١٩٢٨)

حين التقى اندريه مالرو لأول مرة بالجنرال ديغول عام ١٩٤٣ بادره ديغول بقوله : « الماضي
أولا » . وكان ذلك في رأى مالرو مدخلا غريبا للمثل هذه المقابلة الهامة ، ولكنه أجاب مع ذلك : -

« الأمر بسيط .. لقد خضت معركة ، ولنقل انها من أجل العدالة الاجتماعية ، او اذا
اردنا مزيدا من الدقة من أجل ان نعطي الناس فرصتهم ... كنت رئيسا مع رومان رولان
للجنة العالمية المعادية للفاشية ، وذهبت مع جيد لأحمل الى هتلر - الذي لم يستقبلنا - الاحتجاج
على قضية ديمتروف والذين اتهموا كذبا بحرق الرايخستاج . ثم كانت حرب اسبانيا وذهبت
لأقاتل هناك .. ليس في الفرق والاولوية الدولية التي لم تكن قد تكونت بعد ... اذ كان الحرب
الشيوعي لا يزال يفكر في الأمر ... ثم كانت الحرب الحقيقية (الحرب العالمية الثانية) وأخيرا
جاءت الهزيمة ... ومثل الكثيرين غيري اخترت فرنسا ... عندما عدت الى باريس سألني
البير كامى : هل سنضطر يوما الى أن نختار بين روسيا وأمريكا ؟ ... لم يكن الاختيار في نظري
بين روسيا وأمريكا ولكنه كان بين روسيا وفرنسا ، حيث كانت فرنسا الضعيفة تقف وجها
لوجه أمام روسيا القادرة القوية . لم أعد أؤمن بحرف مما كنت أؤمن به حينما كانت فرنسا
القادرة تقف بمواجهة الاتحاد السوفيتي الضعيف . ان روسيا الضعيفة تريد جبهات شعبية ، اما

روسيا القوية فتريد ديموقراطيات شعبية... لقد قال ستالين امامى « في بداية الثورة كنا ننتظر الانقاذ على يد الثورة الأوروبية ، اما الآن فالثورة الأوروبية تنتظر الجيش الاحمر » . لست اؤمن بثورة فرنسية يقوم بها الجيش الاحمر ، ولا اؤمن بالعودة الى عام ١٩٣٨ » .

« وفي مجال التاريخ ، فان الواقع الرئيسي الاول الذى ساد السنوات العشرين الاخيرة هو في نظري ، أولية الأمة ، وهو شيء يختلف تمامًا مع الوطنية . فهو لا يبنى على التفوق ولكن على الخواص المميزة » (اندريه مالرو - لا مذكرات - الجزء الاول - الترجمة العربية مع بعض التصرف) .

هذه الفقرة الطويلة المبررة من حديث مالرو تكشف لنا عن عدد من النواحي الهامة في حياته وتفكيره ومواقفه ونظريته الى الحياة والانسان ، كما تبرز بعض جوانب شخصيته الفذة التى تجمع بين حب المفامرة بحيث ملأت حياته ورواياته ، وحب فرنسا الذى املى عليه ان ينخرط في سلك المقاومة بعد الهزيمة ، وان يقف موقف العداء من الشيوعية بعد ان كان ضالعا معها ، وان يقارن في مواقف كثيرة بين (الوجود الفرنسى) و (الوجود السوفيتى) الذى يحاول ان يطمسه في المستعمرات ودول العالم الثالث ولكن دون جدوى ، بل ان حبه لفرنسا كان يعلو عليه ان يقارن دائما بين مبادئ الثورة الفرنسية والثورة الروسية وما حققته كل منهما للانسانية . سبق ان التقيت ، ثم التقيت مرارا بعد ذلك بهذا الوجود لفرنسا . ان روسيا السوفيتية لم تطمسه . ان الالة تصطنع للبلاد الحديثة النوعا مهرة اكثر مما تصطنع برويتاريا عاملة . وفي كل مكان يدعو الشعب الى الثورة وليس البروليتاريا ، فان دعوة الثورة الفرنسية وحماس المعركة المعلن من اجل العدالة ، من سان جوستالى جوريس الى ميشيليه وعلى الاخص فيكتور هوجو ، هذه الدموة تحتفظ بتأثير يصارع الماركسية على اقل تقدير . وفي افريقيا وفي امريكا اللاتينية ، حتى عندما كان تكتيك الثورة روسيا كانت لغتها لا تزال فرنسية . لقد رايت في برشلونة ايام الحرب الاهلية اكواما من كتاب (اليؤساء) بين (باكتوين) وكتابات تولستوى النظرية (لا مذكرات) . كذلك تكشف هذه الفقرة عن مدى حب مالرو للحرية وإيمانه بالانسانية الذى يجب ان يعطى الفرصة كاملة لتحقيق وجوده ، ومن اجل الانسان والحريّة تطوع مالرو في عدد من الحروب للدفاع عن المستضعفين . وقد اعطاه هذا كله بغير شك ابعادا جديدة في نظره الى الانسان والمجتمع والحضارة الانسانية .



والشيء الذى يلفت النظر حقا هو انه على الرغم من شهرة اندريه مالرو ورغم الدور الذى لعبه في الادب والفن والسياسة بحيث أصبح يعتبر واحدا من اكبر المفكرين الذين اثروا في سير الثقافة المعاصرة ، فان هناك كثيرا من نواحي حياته - وبخاصة حياته المبكرة - لا تزال غامضة بل ومجهولة تماما . والظاهر ان مالرو نفسه كان يحب ان يحيط نفسه بالقموض ، او على الاقل يترك بعض جوانب حياته وبعض نشاطه وبعض الاحداث التى تعرض لها في منطقة الظل بعيدا عن الضوء . وحتى الذين يزعمون انهم على بعض الصلة الوثيقة به لا يعرفون في الحقيقة كثيرا عن حياته الخاصة فيما عدا بعض الحقائق الاساسية عن مولده عام ١٩٠١ في احدى العائلات البرجوازية

في باريس ، وعن ميله في ايام الصبا والشباب الى الترف وحب الظهور والتباهي في اول الامر الى ان اصطلد بوقائع الحياة القاسية المريرة في الهند الصينية حين ذهب الى كمبوديا للتنقيب عن الآثار والبحث عن كنوزها فوجد نفسه غارقا في اذنيه في مآسى البشر تحت وطأة الاستعمار . كذلك هناك معلومات كافية عن المآسى الشخصية التي تعرض لها في السنوات الاخيرة من حياته وبالذات منذ اوائل الستينات ، حين قتل ولده الصغيران في حادث سيارة عام ١٩٦١ ، ثم موت صديقة عمره الكاتبة لويز دو فيلموران Louise de Vilmorin عام ١٩٦٦ قبل ان يتحقق ما تمهدا عليه من اتمام الزواج بوقت قصير ، وذلك بالاضافة الى ادمانه الخمر والمخدرات تعلق الاقل في فترات محددة من حياته ، الى جانب سوء حالته الصحية . ولكن كل هذه امور يمكن ان تضاف الى رصيده الهائل من التجارب في الحياة التي انعكست في كتاباته ، بحيث نجد احد النقاد يقول ان اهم واروع اعمال مالرو كانت حياته .

هذه الشخصية الفذة المتعددة الجوانب والتي تبدو متناقضة لاول وهلة ، كانت ولا تزال موضوعا للبحث والتحليل بقصد ردها الى نوع من المنهجية والاطراد والنظام والترتيب ، وذلك عن طريق دراسة انتاج مالرو وتصنيف اعماله الى (اتجاهات) رئيسية ، والزعم بان كل اتجاه من هذه الاتجاهات يميز مرحلة معينة بالذات من مراحل حياته . وتمثله هذه المحاولات على انه كان مغامرا اول الامر ، وحين سُم المغامرات وحياة المخاطر ، ونال كفايته من الرحلات والحروب انقلب بروايات ومفكرا ادبيا ، وحين فكر في التقاعد من ممارسة هذا اللون من النشاط تحول الى (عالم الفن) فاصبح ناقدافنيا . ولكن مثل هذه المحاولات لا تخلو من السلاجة الناجمة عن البساطة في التبسيط ، لان مالرو دخل (عالم الفن) منذ كان في الثامنة عشرة من عمره ولم يفسدده قط على ما يقول لارمان هوج Armand Hoog . فلقد احب مالرو وهو في تلك السن الفن الشرقي ، وحضر محاضرات عنه في مدرسة اللوفر ، ثم قام هو نفسه بالقاء محاضرات عنه في متحف جيميه Musee Guimte ومع انه مارس كثيرا من الوان النشاط الادبي والسياسي والثقافي فان هوج يحب ان يجعل مهنته الحقيقية – او على الاقل المهنة التي تمسك بها طيلة حياته – هي نشر كتب الفن . ومنذ بدايات كتاباته لم تخل رواية من فقرات تمكس نظرات عميقة في الفن .

ولقد رأس مالرو بعثة اثرية الى الهند الصينية وهو في الثالثة والعشرين من عمره للتنقيب عن الآثار الكمبودية ، ولكن اتصاله بثوار كمبوديا الذين كانوا يكافحون للتحور من الاستعمار الفرنسي دفع الحكومة الى تليفق تهمة له بمحاولة تهريب بعض الآثار ، وحكم عليه بالسجن ثلاث سنوات ، لولا ان ابرى للدفاع عنه بقوة عدد من كبار المفكرين والادباء الفرنسيين من امثال الندريه جيد والندريه موروا والندريه بريتون ولوى اراجون مما اضطر الحكومة لاطلاق سراحه . وزار مصر وبهرته حضارتها القديمة وفنها الاصيل الذي اوحى اليه بكثير من الآراء . ويقول في ذلك في كتابه (لا مذكرات) : « لقد التقيت في مصر بالآراء التي ظلت لعدة سنوات تحكم وتوجه تفكيرى في الفن .. ولد اولها من ابي الهول ولم يكن قد تخلص من الرمال .. ولكنه لا يزال يتحدث بلغة الاطلال التي اخذت تستحيل الى مواقع اثرية » وظل ارتباطه قويا بمصر وآثارها الى ان اسهم في الحملة لاتقاذ معابد النوبة « مكتبة المتحف تعرض ايضا الخطبة التي القيتها من اجل انقاذ آثار النوبة » ، وتعرض صورا فوتوغرافية كثيرة للامعمال الجارية .. انا اذكر صخور اسوان

المستديرة السوداء يعكسها نيل بلون أنهار الجحيم .. لا شك ان هذه الصخور لم تتغير منذ الوقت الذي اخذ فيه فلوير الشاب مرض الزهري من فتاة تدعى كوتشيك هاتم، كان منبرها باسمها، قدر انهياره باسم ملكة سبا، ومعناه على ما اظن: السيدة الصغيرة .. وجدبته مملكة سبا فقام برحلة مليئة بالخطر اليها - « كيف ادخلت في رأسى منذ ثلاثين سنة ان اعثر على عاصمة مملكة سبا، كان للمغامرة الجغرافية عندئذ فتنة فقدتها .. فيم كانت ولا تزال شاعرية سبا؟ الملكة بلقيس؟ قليل من النساء قد دخلن التوراة، وقد جاءتنا من المجهول بفيلها المتوج بريش النعام .. (الخ) .. مملكتها تنتمى الى الحضارات الضائعة .. وحين تولى وزارة الثقافة في فرنسا حقق انجازات هائلة في الفن ونشر الثقافة الفنية واتقاز كثير من الكنوز وتشجيع الاعمال الفنية والفنانين .. لقد عهد الى الرسام الشهير شاجال مهمة رسم سقف الاوبرا في باريس، واشرف على ترميم قصر فرساي الشهير، ونفض التراب عن كثير من اعمال الفن الرائعة في اللوفر نفسه . ولقد كان يؤمن - كما يقول في كتابه الضخم « اصوات الصمت » بان الفن هو بمثابة الدين، وان كل فن انما هو ثورة ضد قدر الانسان ومصيره ونوع من الثار من العالم المعادى، وان الفن الاوروبى ليس يعد كل شيء سوى فن واحد ضمن فنون كثيرة لدى سائر البشر .

وربما كان ذلك هو ما دفع موريس بلانشو Maurice Blanchot الى ان يقول « اننا نعرف ان مالرو يهتم بفن التصوير والرسم ولكننا نعرف ايضا انه يهتم بالانسان » . وهذه مباداة لها مغزاها لانها تبين الى حد كبير اهتمامات مالرو، ولكن الاهم من ذلك انها تعكس العلاقة القوية بين الفن ومصير الانسان وقدره - او الوضع الانساني على العموم - كما تظهر في كتابات مالرو . وتتبع هذه العلاقة ومحاولة ابرازها هي التي تجعل من مالرو في حقيقة الامر ليس مجرد روائي او دارس للفن، وانما تجعل منه في الوقت ذاته مؤرخا وباحثا في الحضارات والثقافات وبخاصة الحضارات القديمة، والى حد ما الثقافات (البداية بحيث تصطبغ بعض كتاباته بصيغة انثربولوجية واضحة، وتجعل منها مصدرا للمعلومات الانثروبولوجية الموسوعة في قالب قصصى جذاب . ورغم اعجابه بانجازات الحضارة الحديثة فانه يعتبرها مجرد حضارة واحدة ضمن حضارات كثيرة عرفها الجنس البشري خلال تاريخه الطويل، تماما مثلما يعتبر الفن الاوروبى مجرد فن واحد ضمن فنون كثيرة .. « على الرغم من ان شبابى عرف الشرق شيئا بعربى عجوز يسير على حماره بينما يخط العالم الاسلامى في نومه الذى لا يقهر، فقد اصبح المثلثا الف من سكان القاهرة اربعة ملايين، وينداد تستبدل الزوارق البخارية بقوارب البوص والقار التي كان فلاحوها البابليون يصطادون بها، وناهت ابواب طهران المظلمة بالفسيفساء في غمار المدينة كما تاهت بوابة سان دينيس .. امريكا تعرف منذ زمن بعيد المدن التي اطلقوا عليها اسم القطريات (والتي تتسع وتنتشر وتتشعب في كل مكان)، ولكن هذه المدن لم تكن لتمحو حضارات اخرى ولم تكن ترمز الى تحول صور الانسان » . (لا مذكرات) .

ويقدر ما كان مالرو يهتم بالحضارات القديمة التي اندثرت (وان تكن خلفت وراها معالم حية تتمثل في آثارها الرائعة كما هو الحال بالنسبة للحضارات مصر القديمة) بقدر ما يهتم بالاحداث الجارية في المجتمعات المعاصرة على مختلف درجات تطورها . ومن هنا كان يعزج في كتاباته بين الماضى والحاضر .. حضارة مصر القديمة وما يمثلها ابو الهول بحاضر مصر وما يمثلها اتقاز معاين

النوبة .. وهذا المزج الذى يسيطر على معظم كتاباته يتخذ اتجاهات ومتاهات مختلفة وبخاصة حين يتكلم فى رواياته عن تجربته فى الشرق الاقصى حيث اندمج فى احداثه السياسية المعقدة ، بحيث نجد **ادويند ولسون** Edmund Wilson يقول فى عام ١٩٣٤ ان مارلو اسقط المشكلات الحضارية والثقافية بكمبوديا القديمة من اجل المشكلات السياسية الراهنة على ما فعل بالذات فى رواية «**الغزاة**» Les Conquerants التى تدور حول احداث الثورة الصينية ، وتعرض لهذه الاحداث بطريقة تدل على فهم ومعركة وريقة بها وبالقوى المتعارضة فى الصين الحديثة بوجه عام . ولقد قال **تروتسكى** Leo Trotsky عن رواية «الغزاة» انهم يسمون هذا الكتاب رواية «، ولكن الذى اراد امامى فى واقع الامر هو سجل تاريخى موضوع فى قالب خيالى للثورة الصينية خلال مرحلتها الاولى المعروفة باسم مرحلة كانتون » .

والمهم هنا هو ان ذلك المزج بين الحضارات القديمة والثقافات العديدة المعاصرة ، او بقول آخر الرحلة عبر الزمان وعبر المكان والتي تكشف فى مارلو عن روح المغامر الانثروبولوجى او الانثروبولوجى الى جانب روح المغامر الاركيولوجى انما تعكس فى آخر الامر الرغبة العميقة الصادقة فى فهم طبيعة الانسان ووضعه فى هذا الكون .



ولقد خضع مارلو لفترة من حياته ، وبخاصة بين عامى ١٩١٨ و ١٩٢٣ لتأثير عالم الانثروبولوجيا الشهير **ليو فروبنويس** Leo Frobenius الذى كانت سمعته الدولية قد انتشرت فى كل انحاء العالم فى ذلك الحين . والمعروف ان فروبنويس الذى ولد عام ١٨٧٣ كان قد بدأ عددا من الرحلات فى افريقيا - وبخاصة فيما كان يعرف حينذاك باسم الكامبيرون الالمانية - امتدت حتى عام ١٩٠٤ ، وكتب عددا كبيرا من الكتب والمقالات حول الثقافات الزنجية ، ووجدت كتاباته صدق عميقا فى الاوساط العلمية واوساط المثقفين فى العالم قبل الحرب العالمية الاولى . وقد ترجم كتاب فروبنويس عن **تاريخ الحضارة الافريقية** فى نهاية الحرب العالمية الى اللغة الفرنسية ، وذلك فى الوقت الذى كانت فيه باريس تشهد انتشار موسيقى الجاز وتتعرف بعمق على فن النحت الزنجى . ومن هنا دخل مارلو الى هذا العالم (البدائى) بشعوبه وثقافته وافكاره واساطيره وطقوسه وتعاليمه الغريبة عن الثقافة الاوروبية ، والتي تكشف على اى حال عن جوانب جديدة من الطبيعة الانسانية . وقد زاد ذلك من شغف مارلو بالرحلة والسفر والمغامرة للدراسة واكتشف المزيد من المعرفة .

ولقد شغل مارلو نفسه ببعض الافكار التى شغل بها فروبنويس من قبل وبخاصة المشكلة الرئيسية التى كان فروبنويس قد اثارها حول :هل لفكرة الانسان اى معنى على الاطلاق ؟ ، وهو سؤال وجد كثيرا من الاهتمام وحاول الكثيرون الاجابة عليه ، وتراوحوا اجاباتهم بين السدين يرون ان الانسان ليس الا نتاجا للظروف التكنولوجية والاقتصادية والثقافية اى انه محصلة لعوامل وضغوط خارجية ، والذين يرون ان الانسان هو ما يفعل او ما يصنع كما ورد على لسان احدى شخصيات مارلو نفسه ، وليس نتاجا لما يصنعه الآخرون او يريدونه منه . فالانسان وليد ارادته ، وهى فكرة آمن بها مارلو ، ووجهت حياته وتفكيره وانتاجه ، بل وعلاقاته مع الناس واصحابه بهم

وارعباطه بهم . وقد ظهرت هذه الفكرة بوضوح في روايته « اشجار الجوز في التنبرج » وان لم تغل منها كتاباته الاخرى التي تمجد اعلاء الارادة الانسانية على كل العوامل والنوى الخارجية التي لا يمكن انكار الدور الذي تلعبه - رغم ذلك - في تشكيل حياة الفرد . ولكن المشكلة التي يبدو انها كانت تشغل بال مالرو في كل ما كتب هي - كما يقول هو نفسه - كيف يمكن ان يساعد الانسان على ان يدرك ان في استطاعته - وبدون ان يستعين بالدين - ان يبني عظمته على ذلك العدم الذي يكاد يسحقه .. وفي « اشجار الجوز في التنبرج » التي ظهرت عام ١٩٤٣ يقول :

« اننا نعرف انه لم يكن لنا حق الاختيار ان نولد ولن يكون لنا حق الاختيار ان نموت ، مثلما لم يكن لنا حق اختيار آباءنا او امهاتنا . كذلك نحن نعرف اننا لا نستطيع ان نفعل شيئا حيال الزمن ، وان ثمة هوة واسعة عميقة .. تفصل بين كل فرد منا وبين الحياة الكونية . وحين اقول ان كل شخص يشعر بين جنباته بشعور عميق عن وجود القدر ، فاني اعنى انه يحمل في داخله شعورا عميقا - مأساويا في بعض اللحظات ان لم يكن في كل الاحيان - بموقف اللامبالاة الذي يقفه العالم منه » .

والواقع ان مالرو نفسه يقول عن شخصيات رواياته انها تقوم اساسا على فكرة الحاجة او الرغبة في ترجمة نسق معين من القيم الاخلاقية من طريق افراد معينين من الناس . ولذا كانت رواياته تزخر بالافكار ، بل وابسطا بالمبادئ الانسانية والاخلاقية الراقية العميقة عن الانسان ووحده - تلك الوحدة المفروضة عليه والتي لا مفر منها ولا علاج لها ، ولهفة الانسان الغريبة للتخلص من الزمن والانتصار عليه ، والتزامه بان يتحمل عبء الحرية والدفاع عنها بحيث يضحى بحياته في سبيل تلك المبادئ والقيم التي يعتنقها فيتحدى الموت ، ويعتبر ذلك هو التوكيد النهائي للبقاء « الحقيقي » او الحياة « الحقيقية » .



في بحثه عن ماهية الطبيعة الانسانية ومحاولته الوصول الى فهم اعماق للسلوك الانساني اهتم مالرو اهتماما خاصا بنواحي العظمة ومظاهر النبل والسمو والتعالى في السلوك ، باعتبارها اهم اللامع التي يجب ان تتوفر في الشخصية الانسانية التي تركز على الارادة الحرة الطليقة التي يستعين بها الانسان في صنع نفسه والتحكم في مصيره وقدره . فهذه اللامع هي التي تتوفر في الانسان الذي يقهر الصعاب ويتغلب على كل ما يصادفه من عقبات ، والذي يشعر شعورا عميقا بان له في هذه الحياة رسالة يتعين عليه ان يحملها ويؤديها وينفذها ايا ما يكون لمن ذلك .. ثم هو الانسان الذي يتسمك بشدة وقوة وايمان بوطنه ، ويعتز به كل الاعتزاز وخاصة حين يمر هذا الوطن بازمة شديدة كتلك التي كانت فرنسا تمر بها تحت وطأة الهزيمة والاحتلال . والمعروف انه حين عقد الروس والامان اتفاقية عدم الاعتداء عام ١٩٣٩ نيل مالرو افكاره اليسارية ، ثم قاد احدى فرق المقاومة اثناء الحرب العالمية الثانية تحت اسم (بيرجين) وانه التقى بشاول ديجول قرب نهاية الحرب ، ثم تحول بعد ذلك الى الديبلوماسية المحافظة ، وهي حركة قولت بكثير من الانتماء والنقد والهجوم من المثقفين والمفكرين الفرنسيين الذين وصفوه بالانتهازية فقال لهم عبارته المشهورة

« لقد تزوجت فرنسا » . وفي الالامذكريات جملة عميقة الى ابعد حدود العمق وردت على لسان بيرجييه (مالرو) مخاطباً صاحبة الفندق الفرنسية حين قدمت اليه بعض الخدمات البسيطة وأبدت نحوه قليلا من العطف بعد ان وقع في ايدي الألمان أيام المقاومة .. « اشكرك يا سيدتي ؟ لقد كنت رائعة .. كنت تشبهين فرنسا » ثم هو يقول في موضع آخر : « ان ما يهمنى في اى انسان هو الحال الانسانية » ، ويهمنى في الانسان العظيم وسائل عظمته وطبيعته ، وفي القدس طابع قداسه ، وبعض الملامح التى تعبر عن صلة خاصة بالعالم اكثر مما تعبر عن الطابع الفردى .

ومن الطرف ان عددا من النقاد لاحظوا ان روايات مالرو تخلو من الشخصيات الشريرة حقاً ، لان الشر الحقيقى العميق المتأصل يتنافى مع العظمة والسمو والنبيل والتعالى ، ولا يمكن ان يتوفر نوع البشر الذين يهتم بهم مالرو في كتاباته ، والذين يكرسون انفسهم لصنع التاريخ وتغيير الوضع المولم للانسان ، والذين يتميزون بالبطولة والعطاء والتضحية ويقفون من القضايا الانسانية موقفاً ايجابياً بحيث يحملون عن غيرهم اعباء الحياة ، ويبعثون في نفوسهم الهدوء والراحة والطمأنينة كما هو الحال بالنسبة لديجول مثلاً ونهرو . وهذا النوع من الهدوء مختلف اشد الاختلاف عن الرضا بالواقع . انه الهدوء الذى ينجم عن التحريض على رفض هذا الواقع ، والامل في حياة اكثر اشراقاً واكثر ابتساماً ، والعمل من اجل ذلك .

وتتجلى هذه العظمة في كثير من الافعال والانتجازات التى حققها اشخاص معينون يتميزون بالارادة الصانعة الخاصة ، ويستشهد مالرو على ذلك بما كتبه سكوت Scott مثلاً ، وهو يموت في القطب الجنوبي « لقد فعلت ذلك لكى ادلك على ما يمكن للرجل الانجليزى ان يفعل » . كذلك الحال بالنسبة للذين ذلّلوا طريق خيبر الذى يعتبره مالرو احد الرموز او العلاقات الدالة على الارادة الانجليزية ويصفه بانه (طريق ملحمى) ويصف الذين ذلّلوه بانهم لم يموتوا وانما حفروا حقاً وعن جدارة اسم انجلترا على هضبة البامير . ولقد كان ذلك العمر ميداناً لكثير من المارك حين وقف الوطنيون هناك يهيلون جوانب من الهملايا على الطوابير الانجليزية فيبيدونها ، ولم ينج من الابادة الا ملازم واحد . وحين سئل : اين الطابور ؟ اجاب الملازم بروح الفكاهة وروح اسبرطة : « انا الطابور » .. فهذه اذن اتماط من الشجاعة والبطولة والتحدى والعظمة تهر النفس ، وتعتبر في نظر مالرو المعيار الحقيقى الذى يجب ان يقاس به الانسان العظيم .



ولكن هذه العظمة تتجلى بافضل واعلى صورها في اثنين من الساسة وكبار قادة الامم في العصر الحديث ، اولهما هو نهرو ، والثانى ، وربما كان في نظر مالرو اعظم الاثنين ، هو ديغول .

لقد هزه من نهرو هدهوه وسكينته وموهبته في اسكات ما يسميه مالرو « قطع البشر » حين ظهر اليهم نهرو بشخصيته القوية المتفردة الهادئة . ولكن لعل اكثر ما اعجبه فيه هو ما يسميه ايضا « ميزة الانسان » ، لان الموهبة وحدها ليست كافية . ولقد ذكر له نهرو انه لا يزال مؤمناً بما سبق ان كتبه في الماضى . « قيل ان العمل الالاعنيف خرافة ، ولكنه كان هنا (في الهند) هو

الوسيلة الوحيدة الواقعية للعمل السياسى . ولكل عمل سىء نتائج سيئة .. حتى فى السياسة .. وهذا فيما اعتقد قانون من قوانين الطبيعة يضارعنى صحته اى قانون فيزيائى او كيمائى » . ثم قال اثناء الحديث : - « كنت اذكر راماكيشنا وقوله (لا يمكن ان يظهر الله حيث تكون الكراهية او العار او الخوف) ، ولكننى اذكر ايضا غاندى وقوله (افضل للانسان ان يناضل من ان يخاف) » . فروح النضال كانت تكمن وراما اللاعنف ، واللاعنف لا يعنى ابدا السلبية او الاستسلام .. ولقد سجن نهرو ، ولم يكن السجن بالنسبة اليه مجرد حادث عابر كما هو بالنسبة لكثير من الماضيلن ، وانما كان غاية .. ويذكر مالمو انه اثناء زيارته لنهرو وبعد العشاء اصطحبه نهرو عن طريق سلم حلزونى مع بعض كبار المدعويين الى مسرح صغير اقيم تحت الارض .. « وبعد ان جلسنا مال نحوى وقال (كان السجن بالنسبة اليك حدثا عارضا ، وكان بالنسبة اليها غاية . وكلما اتى القبض على واحد منا كان غاندى يبرق اليها مهتئا . وفى تلك الايام كان يقول : تطلب الحرية بين جدران السجون واحيانا فوق اعواد المشائى ، ولا تطلب ابدا فى المجالس والمحاكم او المدارس ») - لا مذكرات .

الا ان الشخصية التى يبدو انها فاقت فى نظره فى عظمتها وقوتها وجبروتها اى شخصية اخرى عرفها مالمو عن قرب كانت هى شخصية الجنرال ديجول ... رجل الفعل ، الذى يهب نفسه للقضية التى يؤمن بها .

وكانت هبة ديجول او عظمته تتبدى بوجه خاص من تلك المسافة التى يشعر بها الناس دائما وهو ينهمر حتى وهو يتلطف معهم ، وهى نوع من المسافة الفريدة التى لا تظهر بين ديجول وغيره ممن يحدثونه فحسب ، بل انها تظهر ايضا بين قوله وشخصيته ، وهى اشبه شيء بالمسافة التى يشعر بها المرء امام العقول الدينية الكبيرة التى تبدو كلمات اصحابها العادية وكان لا علاقة لها بحياتهم الداخلية . الا ان هذه المسافة لاتمنى عدم وجود اتصال قوى بين ديجول ومن يحدثه ، ولكنه اتصال يصعب تفسيره نظرا لوجود تلك المسافة . اى ائمة اتصالا قويا رغم الشعور بهذه المسافة او ذلك البعد ، وهذا فى رأى مالمو مظهر من مظاهر العظمة الحقيقية . فديجول يفرض على الانسان الاحساس بشخصيته الشاملة ، ومع انه كان دائما سيذا مهذبا فى معاملة الآخرين - حسب تعبير مالمو - فان المرء كان يشعر دائما انه فى وضع الشخص الذى يتعين عليه تقديم كشف حساب له . « لقد رايت جنرا لا يحب الافكار ويحييها فى الطريق تحية لاتكاد تحص .. كل امرئ يشعر امامه بالمسؤولية لانه كان يتحمل المسؤولية فى مصير فرنسا ... هذا المصير الذى استولى عليه وملا حياته وفكره وكان لزاما عليه ان يكتشفه ويؤكده » . (لامذكرات) .

ويقانر مالمو فى الاملا مذكرات بين ديجول ونابليون لبيين مايقصد اليه فيقول : « ما ان يخلع الامبراطور دوره ، بل وفى بعض الاحيان وهو يتقمص هذا الدور - حتى يظهر نابليون السريع الغضب او الممثل ، زوج جوزفين ومدبر المقلب . وكانت الحاشية كلها تعرف هذا الشخص . اما الجنرال ديجول فى حياته الخاصة ليس عند معاونيه بالرجل الذى يتكلم فى الشؤون الخاصة ، ولكنه فقط الرجل الذى لا يتحدث فى شئون الدولة .. لا يرضى لنفسه الانسياق وراء انفعالاتها ولا التوائى عن ضبطها . وكان يتقبل من طيب خاطر فى اثناء الحفلات او فى المناسبات التى يختارها

بنفسه ان يخوض في حديث سطحي ، ولكن ذلك لا يمدو ما تلميه عليه الكياسة التي لاتنفصل عن شخصه ... نابليون قد انزع جاراته ، اما الجنرال فهو في رأى جاراته متباعد وجذاب (جذاب معناها يحسن الاصغاء) لان هذا الرجل حتى وهو يحدث عن أطفاله لا يزال هو الجنرال دييجول ... » . بل ان مالرو يذهب الى ابعدهم ذلك للتدليل على قوة شخصية دييجول كرجل أفعال حين يعزو اليه انه هو وحده الذى كان قادرا على انتشار فرنسا من وهبتها ومن الاضطراب السياسي والتخبط الذى وجدت نفسها فيه ، وانه كان يريد حقيقة - وحده - ان يقف في وجه الدول الشيوعية بفرنسا اخرى قوية ومستقلة ، ويعترف بان الناس لم يكونوا يعرفونه ، وبخاصة في المستعمرات ، « فهو لم يضع شيئا لاستمالة قلوبهم ولا حتى معرفتهم ، وكان يمتلك من الهيبة اكثر مما يمتلك من الشعبية » .



في الصفحة الاخيرة من رواية « **قصر الانسان** » يقول جيسور موجه حديثه الى ماى : « انت تعرفين هذه العبارة (لابد من تسعة أشهر لصنع انسان ، ويكفى يوم واحد لقتله) . وقد عرفنا - انا وانت - ماتنطوى عليه هذه العبارة من صدق بقدر ما يمكن ان تعرف ... ماى ، اسمعى : ان الامر لا يحتاج الى تسعة أشهر فحسب ، بل لابد من خمسين عاما لصنع انسانا ... خمسين عاما من التضحيات .. ومن الارادة .. ومن ... أشياء كثيرة ! وحين يتكون هذا الرجل ، وحين لا يعود فيه شيء من الطفولة او المراهقة .. وحين يصبح رجلا حقا - لا يصلح عندئذ الا لان يموت » . (**ترجمة فؤاد كامل**) وحين نضج مالرو واكتملت رجولته وتفكيره وكتاباته ، جاءه الموت في نوفمبر ١٩٧٦ ، وهو في الخامسة والسبعين من عمره .

وفي روايته « **الطريق الملكى** » La Voie Royale يقول مالرو على لسان احدى شخصياته « ان ما ينقل على هو - كيف استطيع ان اقله ؟ - قدرى الانساني ، وقصورى وحلودي الضيقة ، وانه لابد لى من ان تتقدم السن واشيخ ، وان الزمن - ذلك الشيء الكريه - لابد من ان ينتشر في كيانى انتشار السرطان » - وقد انتشر السرطان بالفعل في رئة مالرو حتى قتله .

ومهما كانت الآراء في مالرو وادبه وفننه وتفكيره بالذات في مواقفة السياسية اثناء حياته ، فقد شعرت فرنسا والعالم اجمع بفداحة الخسارة حين ماتت ، وخرج مفكر فرنسا وادباؤها وفلاسفتها جميعا لتحية البطل الذى مات ، وشاركتهم في ذلك مثقفو العالم . وخرجت فرنسا عن بعض تقاليدها العريقة لتحيته حين اطلقت اسمه على المسرح الفرنسى الذى يقع امام مسرح الكوميدي فرانسيز الشهير ، وهو اجراء لم يسبق له مثيل في الاغلب ، حيث تقضى التقاليد ان يمر خمسة اعوام على الاقل على موت اى شخص قبل ان يطلق اسمه على اى مكان عام ... ولكن مالرو لم يكن بالنسبة لفرنسا ولل فكر والثقافة مجرد « اى شخص » .

ولقد كتب الكثير عن مالرو أثناء حياته ومنذ مات في أعام الماضي . والدراسات الاربعة التي تقدمها هنا قام بها ن لأول مرة في تاريخ هذه المجلدة - اربع سيدات من المتخصصات في الأدب الفرنسي الحديث ، وهذا أسهام جدي وجديد يضاف الى تلك الكتابات العميقة التي ظهرت في مختلف أنحاء العالم حول الاديبي الشاعر المغامر الفنان السياسي اندريه مالرو . وهي تحية من المفكرين والمثقفين العرب الى أحد رجال الفكر والثقافة العالميين الذي اتيح له ان يعرف عن قرب بعض ملامح الحضارة العربية في بعض مراحل تاريخها القديم او الحديث وان يكتب عنها بعمق وفهم وتقدير .

ضحى عبد العزيز شيخه

اندريه مالرو التحول السياسي من الشيوعية الى الديجولية

ان الطريق السياسي الذي ملكه أندريه مالرو لم يكن طريقا سويا ، ولم يظل في اتجاه واحد ، فالرجل الذي كان يعيل للعقيدة الشيوعية في الثلاثينات من هذا القرن لم يلبث أن أصبح من أكبر معارضي ، بل ومحاربي الشيوعية في وزارة الجنرال ديغول . هذا التحول الضخم لا يدل بأي حال من الاحوال على ضعف او تهاون من قبل الكاتب الاديب بل يأتي في اطار مرحلة تطور ونضج اعمق واكبر .

لقد كان من رأى أندريه مالرو أن الوفاء المتحجر لا يمكن أن يعتبر دليلا من دلائل القيم وذلك على حد قول الكاتب الفرنسي فيكتور هيجو الذي كان قد كتب في مؤلفه *مذكرات أحد نواب ١٨٣٠* : « انه لثناء باطل أن يقال عن رجل ان اعتقاده السياسي لم يتغير منذ أربعين عاما فهذا يعنى ان حياته كانت خالية من التجارب اليومية والتفكير والتعمق الفكري في الاحداث . انه كمثل الشئ على الماء لركوده ، وعلى الشجرة لموتها (١) » .

لقد كان لمالرو مكان ومواقف في كل منعطفات هذا القرن . فقد اشترك في الاحداث التي كانت نتائجها المرجوة لاحداث تغييرات هامة في مصائر الناس : « فقد كان في شنجهاى عندما

(١) فيكتور هيجو ، مذكرات أحد نواب ١٨٣٠ - أكتوبر .

كان يتحدد مصير الكومنتنج ، وفي برلين لانقاذشالمان وديمتروف . وكان في ميديين مع الطير الجمهوري ، وكذلك في تولوز داخل احد معتقلات الجستابوحيث أطلقت القوات الفرنسية بالدخل سراحه . وكان في الالزاس على رأس كتيبة الالزاس لورين التي كان قائدا لها الممارك وحرص على المحافظة على الكنائس وقتل ، واخيرا كان مع دييجول عندما شت حكمته (٢) » .

يعتبر اندويه مالرو الوحيد من بين المفكرين الذي لم يكتب بالكتابة دفاعا عن قضية يؤم بها ، بل عمل ايضا في سبيل هذه القضية .

لقد اراد مالرو ان يقاوم ما اعتبره عبث الوجود الانساني ، والذي يتميز به مصيره الحياة ، والذي يحده الموت وينتهي . وقد كان مالرو دائم التفكير في الموت ، وقد كان ذلّا مشغله الشاغل . فقد خيم شبح الموت عليه طيلة حياته اذ رأى الموت يختطف كل من احبهم فقد مات ابنه منتحرا في عام ١٩٣٠ ، وقتل شقيقاه كلود ورولان في عام ١٩٤٥ ، كما قتل ولداه في حادث سيارة في عام ١٩٦١ .

وقد نتج عن انشغاله الشديد بالموت ان حاول مقاومته بشتى الطرق والوسائل ووجد ان الانسان انشاء بحثه عن وسائل مقاومة الموت يستطيع مثلا ان يلجأ الى الدين والايماء لمساعدته ، فهما قد يشكلان وسيلة فعالة في هذا المجال . لكن مالرو يرفض هذا العون من قبل الدين فهو يريد ان ينقذ الانسان من مصيره المحتوم بواسطة وسائل بشرية .

اتخذ الكفاح في اعمال مالرو اشكالا وصورا مختلفة ومتعددة فذكر منها كفاح الغمام وكفاح الثائر ، وفي نهاية المطاف كفاح الانسان الواعي بمصيره كاتسان . وفي روايته «الفرقة اختار جارين (بطل الرواية) طريق الثورة لانه وحده الذي يستطيع ان يولد الاحساس بالكرامة الانسانية عند الجائعين البؤساء الذين يملأون المدن الصينية » والذين يقضى الموت على دهشتهم من وجودهم في الدنيا بعد ان عاشوا طيلة ثلاثين عاما من الاصابة بالجدا . والسل او الزهرى وسط لا مبالاة لاحد لها من الآخرين (٣) » . كما سمح الثورة بازال الاضطهاد الذي يحوم شخصية الفرد ، وفي نفس الوقت تساعد الثورة على خلق هذه الكرامة التي لا غنى عنها للانسان .

» لكن هذا الطريق من وجهة نظر مالرو يعتبر مرفوضا ولا يجب التفكير فيه فهو - اي مالرو - وان لم يكن يخشى المخاطر التي يجلبها مثل هذا الارتباط الا انه لا يوافق كلية على طرق العمل التي تترتب عليه (٤) » .

(٢) BIOUSDEFRE (Pierre de), Malraux, Editions Universitaires, Paris, 1969, 127 p. p. 70.

(٣) مالرو « الفرقة » ص ٢٨٠ .

(٤) MOSSUZ (Janine), Andre Malraux et le Gaullisme Paris, Armand Colin, 1970, 313 p. p. 17

بعد أن اختار طريق مالرو الثورة في فترة ما من حياته نجده يرفضه في النهاية ، لانه لم يجد فيه الحل والملاج الناجع لمأساة الانسان أمام الموت القاهر ، ووجد أن الوسيلة المثلى للكفاح ضد هذا العدو القاهر هي أن يصر الانسان ويرشده ويوميه بمصره المحتوم . ويضع مالرو « الانسان نفسه في مواجهة الموت فهو - أى الانسان - بسبب وجوده وتفكيره كإنسان ينفى عن نفسه حتمية مصره » ويصبح « انسانا رافضا وعدوا قويا لقوى القدر (٥) » .

وتعتبر السياسة في نظر مالرو هي المجال الأمثل لممارسة الافعال التي تمكن الانسان من التعبير عن نفسه وتأكيد وجوده . كما يعتبر ارتباطه بقضية الشيوعية في الثلاثينات ثم تحولوه الى الديجولية اعتبارا من عام ١٩٤٥ مرحلتين متتابعتين لهذا المسلك الطويل في الكفاح ضد عدوه الموت وضد « موكب الضغوط التلازمه ، مثل الشر والاضطهاد والعبودية والقيود المتنوعة (٦) » وقد اثار مثل هذا التحول من جانب مالرو دهشة الكثيرين ، كما أن الكثيرين اعتبروه تحولاً جذرياً ومتناقضاً من الشيوعية الى الديجولية .

وهنا نجد من الواجب علينا أن نطرح سؤالاً يتبادر الى اذهان الكثيرين وهو : هل كان اندريه مالرو بالفعل ماركسيا ؟ للاجابة على هذا السؤال الهام نقول ان مالرو في فترة الثلاثينات من هذا القرن كان زميلا للشعوب الشيوعيين ، وشارك في معاركهم وفتحى ببسالتهم وإثنى على شجاعتهم في كل من الصين والمانييا وفي اسبانيا .

ففى آسيا كما هو الحال في أوروبا « كان الشيوعيون دائما اول المضطهدين واول من يشترك في المارك (٧) » وفى ذلك الوقت كان لزاما على كل مفكر واع وملتزم بقضية الحرية أن يساير الشيوعية اذا ما أراد أن يقاوم الديوقراطية البرجوازية او بالاحرى الفاشية « . (٨) »

فمثل هذا الفكر يتبنى الشيوعية للوقوف في وجه البرجوازية التي تفوح منها « رائحة الموت » او الوقوف ضد الاضطهاد الراسمالي . وهكذا نجد أن جارين أحد أبطال مؤلف الغزاه يقول « ومن المؤكد اننى لا اشعر تجاه البرجوازية التي انتمى اليها الا بالاضغراب والكراهية الشديدة ... واشعر في اعمالي باحقاد قديمة ضلدها وهى السبب الاول في ارتباطى بالثورة (٩) » .

وفى رأى الناقد الفرنسى روجيه ستيفان أن مالرو « لم يرتبط بالشيوعية الا بقدر ما كانت النظرية الماركسية لا تتجاوز مرحلة المنهج الثورى وبقدر ما كان هذا المنهج يبدو بالنسبة

(٥) Ibid, p. 18

(٦) MOSSUZ (J.) op.cit., p. 19

(٧) GAILLARD (Pol.), Malraux, Paris, Bordas, 1970, 224 p., p. 176

(٨) Id., Les Critiques de notre temps et Malraux, Paris, Garnier, 1970 191 p.

Article de Roger Ste phane, Les Silences de Malraux, p. 126.

(٩) مالرو : الغزاة ص

له وسيلة فعالة من وسائل التصدى للتخريب الفاشي (١٠) « ولكن أندريه مالرو لم يعتنق كلية الفكر الماركسي للثورة ونحن نعتبر أن رأي جان بيار يكون أكثر حسما في هذا الشأن فهو يؤكد أن « فكر مالرو لم يتوقف لحظة عند « الحقيقة الماركسية (١١) » فهو لم يستيق من العقيدة الماركسية الاتهام التفؤل البرجوازي والتنبؤ بهذه « الساعة الجديدة التي سوف تكون صعبة للغاية » والتي سبق أن تنبأ بهارامبو (١٢) « وهكذا نجد أن الماركسية لم تكن تشكل في نظر مالرو دينا ولا عقيدة ، وإنما كانت تشكل ارادة رفض عنيد ومتحمس للهزيمة . وكذلك تشكل أيضا إحدى الوسائل الأكثر فعالية لكفاح الانسان ضد المهانة . وهذا يتفق مع ما يقوله كيو في رواية « قدر الانسان » اعتقد أن الشيوعية سوف تعيد الكرامة وتجعلها ممكنة لكل من اناضل معهم « ويقول أيضا في تعريف الكرامة انها « عكس أو نقيض المهانة (١٣) »

« فالشيوعية اذا تعيد للانسان الاحساس بالكرامة والخصوبة (١٤) »

وقد اكتشف مالرو أثناء كفاحه ضد عبث الوجود الانساني ان الاخاء الانساني هو اقوى حصن يمكن ان يقام ضد عدوه القدر وهو حساس للعون النفسى الذى تجلبه المشاركة في قضية مشتركة للانسان الذى يعانى من مأساة العزلة .

فالشيوعية اذا في نظر مالرو لا قيمة لها الا بقدر ما تقدم من قيم تحررية تمنح الانسان الاحساس بمسئوليته وذاتيته . ولكن الاسلوب الذى تطورت به الشيوعية في الاتحاد السوفيتي في الفترة من ١٩١٧ - ١٩٤٧ جعلت مالرو يجزم بانفلاس الشيوعية على الاقل في هذا البلد . وتعلق على ذلك الناقد الفرنسى جان بيار موسوز فتقول « لاحظ أندريه مالرو انحدارا مظلما جعل من الشيوعية نظاما استبداديا مطلقا . فهو اذا يقاوم بشدة النظام الستاليني (١٥) »

وعلى ذلك عندما خانت الشيوعية أو الشيوعيون المبادئ الاساسية والانسانية التى فتنته ، وكانت سر انضمامه لها ، اعتبر مالرو ان تضامنه مع الشيوعية قد انتهى وكان رد فعله غاية في العنف ضد ما اعتبره « خيانة الآمال العريضة وتفيرا للطبيعة واستسلاما لارادة الاستعباد » وهكذا حين أصبحت الشيوعية سلاح قمع وعدوان واداة للظلم ، وعندما بدت في صورة مضادة للفردية تمنع الانسان من ان يعبر عن نفسه بحرية ، بل أكثر

(١٠) Stephane (R.) op. cit. p. 126

(١١) PICON (Gaetan), Malraux par lui-memo, Paris, Editions du Seuil, 1955, 192 p., p. 91

(١٢) Ibid., p. 92

(١٣) مالرو : قدر الانسان ص ٢٤٢ - ٢٤٣

(١٤) مالرو : مقدمة عصر الاحتقار .

(١٥) Mossuz (J.) op. cit. p. 108

من ذلك تجمله يحتقر نفسه ويملؤه الخجل ، حينئذ قطع مالرو كل علاقة له برفاق الطريق القدامى .



وتظهر لنا بؤادر الخلاف بين مالرو والشيوعية من خلال أعماله الروائية قبل القطيعة النهائية بينهما . فقد بدأت هذه الروايات تشكل من قيمة القضية السياسية وعلى الاخص القضية الشيوعية وتظهرها وكأنها تمثل تهديدا للحرية الشخصية للإنسان . فنجد أن رواياته **الفزاة** ، **وقدر الإنسان** ، **والامل** (١٩٣٧) تكون مجموعة من الأعمال تعلن كلها أن الإنسان لا يستطيع ، دون أن يقلل من قيمته كإنسان ، أن يحرم من حقه المقدس في الحرية .

وهذا ما يعكسه لنا حزن جارين وأساهفي قوله « عندما افكر انى كنت طيلة حياتى أبحت عن الحرية ... من يمكن أن يعتبر حرا هنا منظمة العمل الدولية أو الشعب ؟ أنا أم الآخرين (١٦) » أما في رواية « **قدر الإنسان** » فنلاحظ أن آراءه إبطالها حول قيمة الشيوعية متناقضة في أغلب الأحيان ، فمثلا يجد كيو في الشيوعية وسيلة للوصول الى الكرامة الانسانية ، وعلى النقيض من ذلك نجد أن كونج يعتبرها مرادفة للمهانة . ونجد أن كلا من بيني وهمرلش يرى في الشيوعية طريق الخلاص . بينما لا تجد فيها ماى الا تعبيرا عن التعصب الفكرى . وينتقد مالرو أيضا من خلال أعماله الروائية استبداد الرأى عند الحزب الشيوعى وهذا بالضبط ما تفصح عنه كلماته فلوجين في رواية « **قدر الإنسان** » حتى لو كنت من عمال شنغهاى فسيكون من رأبى أن الطاعة للحزب هى الموقف المنطقى الوحيد . وفى روايته **(وقفت الاحتفال)** يندد مالرو بوحشية أى سياسة استبدادية ، ولكن مساوئ الحزب الذى ينادى بتعطيل أى فكر فردى تظهر في رواية « **الامل** » فيقول أن كل الذين لا يبدون الاستعداد لامتناع ومسايرة السياسة الشيوعية محكوم عليهم ، كما يقول على لسان جلوكين « بالتغيير أو بالموت (١٧) »

ففى رأى مالرو أن الحزب الشيوعى لا يتميز فقط بقتل الحرية الشخصية للفرد لكن بالإضافة الى ذلك فهو حزب انتهائى على الرغم من استبداده بالرأى . وتعكس رواية « **الفزاة** » ذلك فنرى أن برودين لا يتردد في قبول أموال البرجوازية حتى يدفع لتواته روايتهم . وكذلك نجد في رواية **قدر الإنسان** أن فلوجين يقر صراحة بأن الحزب الشيوعى يستغل « الكومنتج » و **شائع كاي** شكله ويضخى بالمناضلين الشيوعيين في شنغهاى . وتظهر لنا نفس هذه الروح الانتهازية حيث نفهم من كلام فلوجين أن الفرصة سانحة أمام الحزب لاستغلال تشن في حالة ارتكابه محاولة اغتيال **شانج كاي** شك ويبدو اذا أن الانضمام الى الحزب الشيوعى يهدم كل مظاهر الاسالة في الإنسان .

ولا بد لنا أن نشير في هذا الموضع الى أنه على الرغم من إطار أعمال مالرو الروائية يدور حول الثورة فلا يمكن بحال أن يقال أن مالرو كان كاتباً ثورياً بالمفهوم الماركسى ، والدليل على

(١٦) الفزاة ص ١٨٩ .

(١٧) الامل ص ٢١٥ .

ذلك أن رواد حركة النقد الماركسي لم يتخذوا بكتابات مالرو . ففي عام ١٩٣١ كتب تروتسكي بعد ظهور « الغزاة » أن مظاهر التعاطف من قبل الكاتب تجاه الصين الناشئ لا يمكن التشكيك فيها ولكنها فسدت من المبالغات الذاتية والنزوة الفنية (١٨) « ويضيف تروتسكي » لو تفهم وتشبع الكاتب جيدا بالماركسية لكان من الممكن أن يتجنب المغارقات الحممية التي من هذا القبيل (١٩) « وكتب عنه الناقد الفرنسي كلودروا فقال « ان فهم مالرو للماركسية غير عميق وأنه من السهل ومن العدل اذا استرجعنا الماضي أن نجد فهمه غير كاف لها ، والذي يريد أن يتعرف على ماركس من خلال أعمال مالرو فسوف يجهل كل شيء من تطور ونمو التحليل التاريخي ، وكذلك يجهل الطريق الذي أدى ماركس للتحول من المشاهد المذكورة في أعمال مالرو الى العمل الثوري نفسه (٢٠) » أما جايتان بيكون فيرى أن « الثورة الشيوعية مرتبطة في أعماله بالرمزية البحتة فقط وليس بالفوضى (٢١) »

ونقول جانين موسوز بعد أن بحثت عن الأسباب التي أدت بمالرو من زمالة الشيوعية الى التقية الكاملة مع الفكر الشيوعي أن هذه الأسباب ليست معروفة معرفة أكيدة .

ويبدو أن الأسباب التي دفعت مالرو الى أن يقاطع الشيوعية لا ترجع الى التفكير في الآراء الفلسفية ، بل ترجع الى التفكير في العوامل السياسية والاقتصادية والدبلوماسية المحددة . فهذا التفكير أوضح له عمق الخلاف وبعد الشقة بينه وبين الشيوعية . واعتبارا من عام ١٩٣٧ أصبح كل مفكر حر يعرف أن الاتحاد السوفيتي البلشفي يتحول الى دولة ذات حكم مطلق تشمل نظاما معنويا وتزمتا وطنيا ونظاما بوليسيا وتحقيقا تعسفيا وتعديبا وقتلا (٢٢) «

لقد بدأ الاستبداد الستاليني واضحا للعيان ، ومع ذلك فلم يجاهر مالرو رسميا بشيء ضد الشيوعيين أو ضد الاتحاد السوفيتي بل حتى يصل به الحال لدرجة أن ينصح انغويه جيد بعدم نشر كتابه « العودة من الاتحاد السوفيتي » .

لكن سرعان ما تبدأ الحرب العالمية الثانية ودخلها الاتحاد السوفيتي منضمًا لمعسكر المانيا الفاشية وأصبح الاتفاق السري بين ستالين وهتلر على تقسيم مناطق النفوذ واحتلال ستالين لدول البلطيق وفنلندا يمثل أسبابا كافية من وجهة نظر مالرو تغية من أي التزام ، وهكذا انفضى الاتفاق المضاد للفاشية بين مالرو والشيوعيين وأصبح مالرو حرا في أن يقطع علاقاته مع الشيوعية .

(١٨) TROSKY (Léon), La Revolution Etrangée, in p. GAILLARD, Les Critiques.....p. 38

Ibid, p. 39 (١٩)

ROY (Claude), Le Marxisme de Malraux, in p. GAILLARD, Les Critiques.....p. 118. (٢٠)

Interrogation a Malraux, in Esprit, Octobre 1948 (٢١)

STEPHANE (R.) op. cit. p. 127 (٢٢)

وقد قال مالرو شارحا التحول الذي طرأ على النظام السوفيتي واسباب زوال تعاطفه مع الشيوعيين « ان الايدولوجية الاشتراكية في مقدمتها ماركس لم تلق بالعدل ابدا في سلة المهملات وعندما طلب مني الحزب الشيوعي ان اتوجه الى برلين مع اندريه جيد لتسليم احتجاجات أوروبا كلها ضد الحكم على ديمتروف: الذي كان بريئا من جريمة حرق المجلس التشريعي الألماني فلم يكن الموضوع يخص البروليتاريا وحدها (...) ولم تكن ناضل لنستبدل الرأسمالية بهذه القوة الرابعة التي آل اليها بوليس الدولة (٢٣) »

وهكذا اصبح مالرو يرى في الخمسينات ان الخطر الحقيقي الذي يجب التصدي له ومواجهته قبل أي خطر آخر لم يعد الفاشية بل الستالينية ، أي الاستعمار السوفيتي ، الذي أصبح يهدد حرية الجميع . وكذلك من بين الاسباب الاخرى التي ادت الى القطيعة بين مالرو وبين الشيوعية موقف بعض الشيوعيين اثناء حرب المقاومة الفرنسية « فقد انتاب مالرو الشعور بأن الكثير منهم كانوا يحاولون الحصول من أعضاء المقاومة الآخرين على كل المعلومات التي يريدونها دون أي مقابل (أي دون مقابلة هذا الاجراء بالمثل (٢٤) » وهذا هو نفس ما صرح به الجنرال ديغول عندما قابلته فيما بعد فقال له ان الشيوعيين يستفيدون من الموقف لصالحهم الخاص لكن دون الاشتراكية (٢٥) » .

لكن يجب علينا ان نلاحظ ان كل هذه التحفظات التي ابداءها مالرو تجاه الشيوعيين الفرنسيين لا يمكن ان تمثل حكما اجماليا او كليا فنجد أنه أحيانا كان يمتدح بعض الذين قابلته منهم اثناء المقاومة وكان يقول عنهم أنهم رجال عظماء . وأحيانا كان يراوده الحنين حين يعود بفكره الى اخوة الكفاح القدامى ، وهذا يبدو فيما كتبه عام ١٩٤٥ عند رجوعه الى الجبهة « اثناء عودتي الى جبهة القتال (...) كنت أفكر في زملائي الشيوعيين باسبانيا وفي اسطورة البناء السوفيتي على الرغم من البوليس السياسي وفي الجيش الأحمر وفي المزارعين الشيوعيين في الكوريز لقد كانوا دائما مستعدين لاستقبالنا على الرغم من وجود الميليشيا ... » (٢٦) لكن هذا الحنين لرفاق الكفاح القدامى كان يتوقف عندما تصبح العلاقة ليست بين شخص وآخر ، بل بين مجموعة ومجموعة أخرى .

واعتبارا من ذلك الوقت بدأ مالرو حملة الهجوم ضد الحزب الشيوعي الفرنسي لأن الشيوعية لم تعد تمثل في نظره الا نقيضا للديمقراطية وهذا ما صرح به « لا توجد ديمقراطية عظيمة الا في البلاد الاسكندنافية وفي البلاد الانجلو - سكسونية او بمعنى اصح في البلاد التي لا يوجد بها حزب شيوعي . » (٢٧) وأنه من الآن فصاعدا سوف يقف في وجه اقامة أي حكم

CITEPAR G. PICON, Malraux par Lui meme, p. 96

(٢٣)

MOSSUZ (J.) op. cit., pp. 49-50

(٢٤)

. مالرو الاذكريات ص ١٢٩ .

. مالرو : الاذكريات ص ١١١٨ .

Cite, Par MOSSUZ (J.) op. cit., p. 107

(٢٧)

شيوعي في فرنسا ، وأنه سوف يقاوم التلاحم بين حركة التحرير الوطنية والجبهة الوطنية « التي تسيطر عليها اغلبيه شيوعية حتى لا يصبح مجلس ادارة المقاومة المتحدة في ايديهم » (٢٨) ولتبع هذه السيطرة الشيوعية على حركة التحرير الوطنية في فرنسا بلبل مالرو اقصى ما يستطيع كعضو مجلس ادارة للوقوف ضد هذا التلاحم . وكانت العداوة للشيوعية في ذلك الوقت تعنى اولاً وقبل كل شيء العداوة للستالينية « بالنسبة لهؤلاء الرجال على حد قول مالرو فان الستالينية تعنى تقيض كل المعانى والقيم التي كانوا يناضلون من اجلها » . (٢٩)

وفي رايه ان الستالينية قد خانت القضية الثورية « ان ثورة اكتوبر حاملة الامل العظيم قد غرمتها لاند طويل موجة الحكم الاستبدادي » (٣٠) وتعتبر « دعوة الى المفكرين التي وجهها عام ١٩٤٨ من حزنه وخيبة امله » لم يكن متوقعا ان الغد المشرق سيصبح هذا العويل الطويل الذي ياتي من بحر قزوين حتى البحر الابيض ، وان غنائهم سوف يتحول الى انين المساجين « ان الستالينية تعتبر اذا في نظره جريمة بشعة ارتكبت ضد الفكر الانساني . ومن ثم فان الشيوعيين الذين يمثلهم في فرنسا الحزب الشيوعي الفرنسي يشكلون في نظر مالرو اخطر اعداء البلاد الذين يهدفون للوصول بها الى الهلاك والدمار . ان هذا الحزب الشيوعي يمثل خطرا كبيرا ، ومما يريد من خطورته انه ليس حزبا كسائر الاحزاب الاخرى ، بل انه عميل لقوة اجنبية هي الاتحاد السوفيتي . ويمكن القول ان انتقاده للنظام والحزب الشيوعي وموجهه ليس له اسباب ايدلوجيه فقط بل له اسباب اخرى ايضا اكثر خطورة . « فقد طرأ تغيير جعل من الستالينية ظاهرة تتمتع ب نطاق الحدود الروسية ذلك هو مولد قوة عسكرية سوفيتية حقيقية » (٣١) وعندما كان يفكر مالرو في هذه القوة العسكرية التي يتمتع بها الاتحاد السوفيتي محاولا معرفة قدراتها كان يشعر بشيء من الخوف من ان تصبح خطرا على فرنسا .

وبناء على ما تقدم يمكننا القول بأنه في نضاله ضد الستالينية لم يفكر الا في مصلحة فرنسا وانه لذلك سرف يتبع مبادئ جازسيا احد ابطال روايته الامل الذي قال « لا يمكن ان نتصور العمل الا مقرونا باساليب العمل ، فليس هناك فكر سياسي الا عند مقارنة شيء مادي بشيء مادي آخر ومقارنة امكانية بامكانية اخرى » (٣٢) ولما كانت الامكانية الوحيدة المتاحة لفرنسا في ذلك الوقت لمقاومة خطر اقامة الستالينية هي الديجولية فقد انضم اليها مالرو بقوة وكتب عن ذلك في **اللامذكرات** « لن يستخدم الحزب الشيوعي المقاومة ضد الجنرال ديغول » .

عندما قابل مالرو الجنرال ديغول لأول مرة في يونيو ١٩٤٥ قال له « ان الحدث الاول في ميدان التاريخ خلال العشرين عاما الاخيرة هو اولوية الوطن » (٣٣) ونضيف نحن فنقول انه ان كان

(٢٨) مالرو : **اللامذكرات** ص ١١٤ .

(٢٩) مالرو : **اللامذكرات** ص ١١٦ .

(٣٠)

MOSSUZ (J.) op.cit., p. 114

(٣١)

MOSSUZ (J.) op.cit. p. 115

(٣٢) مالرو : **الامل** ص ٢١٦ .

(٣٣) مالرو : **اللامذكرات** ص ١٢٦ .

الحدث الاول بالفعل فقد كان ايضا الاكتشاف العظيم بالنسبة لمالرو نفسه ، والذي كان سببا في بدء التزامه بالديجولية .

ويمكن القول انه عند التحول من الشيوعية الى الديجولية مر بمرحلة انتقالية تمثلت في اكتشاف الوطن . وكانت المقاومة هي التسيهيات السبيل لهذه المرحلة الانتقالية فلم تكن حرب ٣٩ - ١٩٤٥ صراعا طبقيًا ولكنها كانت تضالا ضد امبريالية اشد خطرا من غيرها لانها كانت في نفس الوقت عنصرية .

وهكذا امتزح النضال في سبيل العدل والحرية بالنضال القومي واشترك جميع المفكرين سواء منهم من كان من اليمين او اليسار في هذا النضال ضد النازية فعلى سبيل المثال نجد ان اراجون وهو من الكتاب الشيوعيين يتغنسى ويقول « حزبي اعاد لي الوان فرنسا حزبي حزبي شكرا لدروسك » (٣٤) ويقول مالرو « اثناء المقاومة تزوجت فرنسا ولم اكن الوحيد » (٣٥) وقد بدت فرنسا في نظرة في هذه الفترة في اجمل صورها من الاخاء والتضامن « (.....) كانت فرنسا تتمثل في تلك الفلاحة التي تراك مارا وائت محاط بدورية المانية فتتصور انها سوف تنفلد حكم الاعداء فتتقدم نحوك خطوة وتنظر اليك فتشعر برمز الصليب في منطقة لا يذهبون فيها الى القداس (٣٦) . وقد ساعدت عدة عوامل على ظهور وطنيته الشديدة : اولها مشاهدته لوت زسلاء النضال والجنود الذين استشهدوا على ارض الوطن وكان من المستحيل ان لا يؤثر ذلك فيه تأثيرا بالغا » وتحول حب الوطن الى ولاء الرجال ووفاء للمتطوعين الذين حاربوا تحت قيادته « وكما كان لزاما عليه حتى يلغي فكرة مواجهة الموت ان يضع من الآن فصاعدا الوطن قبل كل شيء » (٣٧)

ومن بين الاسباب الاخرى التي ساعدت على ظهور وطنيته ما شاهده اثناء زيارته لمانيا بعد الحرب ، وما رآه من مناظر الهدم ، فتصور يخوف شديد ما كان يمكن ان يحدث لفرنسا لو انتصر هتلر فقد كان من الممكن ان يصبح الوطن الحبيب « د'را شاسعة للموتى » (٣٨)

وهكذا نرى ان خوفه وحرصه على وطنه زادا من ارتباطه به فلاول مرة في حياته يحارب مالرو على الاراضى الفرنسية وفي سبيل وطنه فرنسا « في عالم اندريه مالرو سوف تبقى آثار هذا النضال الجديد ان تمحي ابدا ، وسوف يكون لوطنه منذ ذلك الوقت قيمة اكبر لم تكن له من قبل » (٣٩) وسوف تبدو له نتائج هذا النضال اكثر فاعلية لانه كان يحارب لمصاحبة وطنه وليس لمصلحة الآخرين » .

ARAGON (Louis) La Diane Francaise

(٢٤)

(٢٥) مالرو : الالامعات ص ١٢٥ .

GABRIEL D'AUBAREDE

(٢٦) حديث ادلى به الى جابريل دوباريه .

Mossuz (J.) op.cit., p' 35

(٢٧)

Ibid, p. 36

(٢٨)

Ibid, Loc. cit.

(٢٩)

فهم مالرو فجأة في ذلك الوقت سبب فشل ١٠ ٢٠ لورانس في بلاد العرب وفشل بر عند قبائل موسى وفشل « جارين » في كاتون وفشل فانسان برجييه في السهوب الأفغانية « ان التهجين لا يجدى مع الاجسام الغريبة فحتى اسبانيا الجمهورية اضطرت للانفصال القوات الدولية التي ساعدتها بكل بسالة وكان ذلك أمرا صعبا عليها وبعطينا كل من ثوار ٩٢ والثوار الصينيين والجمهوريين الاسبان نفس الدرس وهو وجوب العمل في وطننا نفسه قبل اى مكان آخر » (٤٠) وهذا نفس ما صرح به الكاتب لجانين موسو أثناء حاصمهما بتاريخ ٢٢ أبريل ١٩٦٨ « لا يمكن صناعة وطن الآخرين » (٤١)

اذن فقد اكتشف مالرو وطنه ونظرا لحرصه على مستقبله فقد بدأ يتساهل عن القوى تتصارع داخله وكلنا عن مستقبل النظام السياسى الفرنسى . واعتبارا من ذلك الوفسوف يبدأ مالرو القتال والنضال في ميدان آخر ليس ميدان المقاومة او الجبهة بل ميدان السيد واصبحت فرنسا من الآن فصاعدا هى الأهم بالنسبة لمالرو ، واصبح للفكرة الوطنية والاك بجانب شخصية بطل تمثل الأمة قيمة خاصة لديه فهى الوحيدة التى يمكن ان تدوم .

لقد اصبح واضحا لمالرو في عام ١٩٤٥ والاعوام التالية ان القوتين الحقيقيتين الوحيدتين تمتلكان الفرصة لحكم فرنسا هما الديجولية والشيوعية . ولكن كما ذكرنا مالرو يرفض الشيوعية التى انحصرت في ذلك الوقت في الصورة «لستالينه فقط والشيولا يمكنه انقاذ فرنسا بعد سنوات الحرب . ولكن الديجولية هى الوحيدة التى بوسعها انقاذها فالشيوعية تبغى صراع الطبقات ولكن الديجولية تهدف الى « تجميعها » .

والجنرال ديغول هو الرجل الذى يستطيع ان يفرض على فرنسا سياسة تتمثل في العذوالحرية وهى السياسة التى كانت تتبعها فرنسا على الدوام . فالديجولية اذ في نظر مالرو . وكانها الأمل الوحيد في البقاء . وعلى هذا نراه يعرف الديجولية للجنرال ديغول فيق « أثناء المقاومة كانت الديجولية في نظري شيئا يشبه الاهواء السياسية في خدمة فرنسا كنفية انكرة فرنسا في خدمة الاهواء السياسية سواء كانت يعنيه أم يسارية وبعد ذلك اصبح شعورا بالنسبة لى » (٤٢)

ولكن السبب الرئيسى لتفريق الديجولية في نظر مالرو هو انها كانت تمثل الاسطورة الوطالديجولية ليست عقيدة من السهل تعريفها مثل الماركسية او الفاشية ولكنها « حركة سوطنى » (٤٣) وإرادة وطاقة .

والديجولية كما يتصورها اندريه مالرو « تجد مكانها في التقاليد الوطنية الثورية بميشليه وبيجي وباريس والجنرال ديغول ، نجد ان مالرو يتغنى بالثورة والوطن دون ان يفر

(٤٠) Gaillard (Pol) Andre Malraux, p. 190

(٤١) Entretien avec J. Mossuz, 22 avril 1968

(٤٢) مالرو : شجر الزمان الذى يقطع ص ٩٥ .

(٤٣) Carrefour, No. 195, Mercredi 31 mars 1948

بينهما » (٤٤)) وتعتبر أيديولوجيته الديجولية إيمانا منه بقدرتها على إقامة عالم أفضل ليس بمقدور احد غير شارل دييجول ان يبنيه ، اذ بالنسبة لاندريه مالرو فان الديجولية بدون دييجول « لا يمكن تصورها » (٤٥)

ربما يبدو مفيدا ان تتوقف قليلا للبحث عن اسباب هذه الثقة الكاملة من قبل مالرو نحو شارل دييجول ترى متى وكيف تقابل الرجلان ؟

لقد قابل مالرو الجنرال دييجول لأول مرة في باريس عام ١٩٤٥ وذلك على العكس من الحكاية التي روت انهما تقابلا على جبهة الألزاس لورين في خريف عام ١٩٤٤ . وينفى مالرو نفسه هذه الرواية بقوله « ان المشاعر التي تربطني بالجنرال دييجول قديمة على الرغم من الرواية التقليدية حول مقابلتنا الاولى والتي هي من نسج الخيال، فمن المؤكد ان الجنرال دييجول لم يقل عنى في الألزاس العبارة الشهيرة التي قالها نابليون عن جوفه (« اخيرا قابلت رجلا ») وذلك لسبب بسيط هو ان على جبهة الألزاس لم يحدث ان قدم الكولونيل برجييه (الاسم الحركي لمالرو) الى الجنرال دييجول » (٤٦)

حقا تمت محاولة تقارب بينهما في نوفمبر ١٩٤٠ بعد هروب مالرو الاول من الاسر فقد كتب مالرو لرجل ١٨ يونيو (دييجول) يعرض خدماته كطيار ولكنه لم يتلق ردا على خطابه فاعتقد ان اشتراكه غير مرغوب فيه وذلك بسبب اشتراكه في حرب اسبانيا . ولكنه فيما بعد اكتشف ان خطابه هذا لم يصل على الاطلاق الى الجنرال دييجول . ولكن في ذلك الوقت ورغم ذلك كان مالرو قد فهم نداء رجل ١٨ يونيو (دييجول) الذي جاء فيه : « مهما حدث فان شعلة المقاومة لا يجب ان تخبو ولن تخبو » (٤٧)

ولكن قدر لمقابلتهم الشخصية الاولى ان تتم بعد ذلك بخمس سنوات اى في يونيو ١٩٤٥ . وقد تمت اول محاولة تقريب بين الرجلين باسم فرنسا ، وقد أعطانا مالرو شرحا تفصيليا لهذه المقابلة الاولى وللظروف التي تمت فيها وللعوامل التي ساعدت على نجاحها وذلك في مؤلفه اللا مذكرات . ففي ذات مساء اتصل به تليفونيا شخص غامض لم يفصح مالرو عن اسمه او شخصيته في روايته وأبلغه ان لديه رسالة شغوية هامة يجب ان يوصلها له وطلب ان يقابله مساء اليوم نفسه . وبعد مضي بضعة ساعات وصل الزائر الغامض وسأل مالرو دون سابق مقدمات ان الجنرال دييجول يسألك باسم فرنسا هل انت على استعداد لمعاينته « وعلق مالرو على ذلك بقوله « كانت العبارة غريبة » (٤٨) وقبل مالرو الدعوة وانتظر تحديد موعد المقابلة الاولى مع الجنرال دييجول .

Mossuz (J.) op.cit. p. 135

(٤٤)

Carrefour, No. 284, 23 Janvier 1952

(٤٥)

(٤٦) مالرو ، اللا مذكرات ص ١١٤ .

(٤٧) شارل دييجول ، خطابات وكلمات (١٩٤٠ - ١٩٤٦) ص ٤ .

(٤٨) مالرو اللا مذكرات ص ١٢٣ .

وقد كشفت جانين موسوز من شخصية هذا الزائر الغامض بقولها « يبدو أن الزائر الغامض لم يكن إلا جاستون بفلسكى الذى تعرف وأعجب بمالرو عند مقابلته عند كورنيليون مولينييه » (٤٩)

وبعد ذلك بايام تلقى مالرو دعوة لمقابلة الجنرال ديجول في وزارة الحرية ، وتعاقب جانين موسوز على هذه المقابلة فتقول « من اللحظات الأولى ساد تفاهم حقيقي وانفاق عميق بين الرجلين (٥٠)

وقد بدأ على الفور حديث غريب بين اندريه مالرو والجنرال ديجول ، فقد كانت كلمات الجنرال مختصرة وفي صورة أسئلة قصيرة كان يرد عليها الكاتب الفرنسى بأسهاب ، ويبدو من وجهة نظرنا أن الجنرال كان يود معرفة « ماضى » هذا الرجل في الفترة التي لم يكن يعرفه خلالها والتي كان يتوقف عليها مصير ومستقبل علاقتهما بعد ذلك . ويبدو أن مالرو فهم ما يدور بخالد الجنرال فنراه يرد عليه يشبع فضوله ويرغبه قائلا : « لقد تطوعت في نضال من أجل العدالة الاجتماعية ان صح القول او لاكون اكثر دقة لاعطاء الانسان فرصته » (٥١) وكان مالرو حتى ذلك الوقت قاد النضال خارج حدود فرنسا الى ان جاءت بعد ذلك « الحرب الحقيقية ثم بعد ذلك تلتهما الهزيمة لكثيرين غيري تزوجت فرنسا » (٥٢) . وكاننا نطق مالرو بالكلمة السحرية التي تفتح جميع الابواب وهي « فرنسا وحب فرنسا » ثم تناول الرجلان بعد ذلك بالحديث مسائل اخرى ، وأدى اتفاقهما في الراى وتلاقى وجهتى نظرهما الى زيادة قوة التفاهم بينهما .

لقد تحدثت مالرو في هذا اللقاء بافاضة في المواضيع التى تحتل المكانة الأولى في تفكيره ، وهى اكتشاف الوطن والشيوعية وخطورتها وموقف المفكرين ... الخ ولم يكن ديجول يقاطعه بالمرة رغبة منه في اعطاء الكاتب الفرصة في التعبير عن نفسه ومن آرائه وتصوراته وآماله بكل حرية .

وبعد ان تعارفا وزال الجمود وذاب الجليد بينهما وتلاقت وجهتا نظرهما واتفقا في الراى بدأ يفكران معا في الموضوع الذى يشغلهما ويسبب لهما الارق وهو مستقبل فرنسا ، فقال ديجول « لقد امدت الجمهورية ويجب عليها ان تعيد بناء فرنسا » (٥٣) ومنذ هذا اللقاء فصاعدا فسوف يعمل الرجلان بكل جهد لتحقيق هذا الطم المشترك .

شكل الجنرال ديجول وزارته في يوم ٢١ نوفمبر ١٩٤٥ وكان مالرو وزيرا للاعلام بها ونجد لدينا في الالامذكرات تعابقة على هذا المنصب الهام والدور الذى لعبه فيقول : « لقد كانت مهمة مفيدة وكان المراد منها يصفة خاصة منع كل حزب من ان يستغل الموقف المصالحه » (٥٤) ولقد كانت مهمة

(٤٩)

Mossuz (j.) op.cit. p. 53

(٥٠)

Mossuz (j.) op.cit. p. 53

(٥١) مالرو : الالامذكرات ص ١٢٥ .

(٥٢) مالرو : الالامذكرات ص ١٢٥ .

(٥٣) مالرو : الالامذكرات ص ١٢٥ .

(٥٤) مالرو : الالامذكرات ص ١٢٦ .

وفي ٢٠ يناير ١٩٤٦ ترك ديغول الحكم وهو بينهم « نظام الاحزاب بالتحيز » وكما كان متوقعا فان اندريه مارلو ترك الوزارة في نفس الوقت وبعد رجل ١٨ يونيو في عزله فقد كان محلا عليه ان يتصور الدبجولية بدون بطلها شاول ديغول وقرالا يعود ابدًا الى اعضاء الحكم طالما ان الجنرال ديغول لم يعد للحكم مرة ثانية ويتناول مصر فرنسا بين يديه .

ولحسن الحظ ان الديجوليين لم يفقدوا الاامل ابداً ، ورفضوا البناء في عزلة دون عمل او نشاط ، وكان هدفهم الذي وضعوه نصب اعينهم هو اعادة الجنرال ديغول الى الحكم . وحتى يتهيأ هذا الرجوع يجب عليهم ان يتعدوا الى « حركتهم » لئلا يجدوا انهم متخلفون عن التنظيمات الاخرى الموجودة . يكون مزودة بروح المقاومة ويجب عليهما ان تحاولا تجميع كل فئات الوطن تحت قيادة رجل واحد » (٥٦) .

كان هذا هو الحلم الذي يراود مالرو أيضا وللعمل على تحقيق ذلك نشأت حركة تجمع المشب الفرنسي في يوم ٦ إبريل ١٩٩٦ وعين مالرو مندوبا للدعاية بها . لم يكن العملاقان مالرو وديجول متفقين على طول الخط بخصوص الطرق والوسائل التي يجب ان يسلكها التجمع للوصول الى الحكم .

لقد حاول المارون ان يطبق المعادلة التي عطاها «لجارسيا» في رواية **الامل** وهي «لا توجد فكرة سياسية الا عند مقارنة شيء مادي بشيء مادي آخر او مقارنة امكانية بامكانية اخرى (..). وليس بمقارنة تنظيم برغبة او حلم تغير شامل» (٥٧)

وكان الماروتيني ان يكون التجمع باعثا على تغيير شامل جديد ، ومع ذلك فقد حلوه ديجول حينما تقابلا لأول مرة عام ١٩٤٥ قائلا « لاتدع الامر يلبس عليك فان فرنسا لا تريد ثورة بعد الآن فقد مضى زمن الثورات » (٥٨)

لكن كان هدف الماروان يكون التجمع « حركة ثورية » تستولي على الحكم حتى لو اضطرت إلى استخدام القوة وانف وان تاتي بسياسة اجتماعية . ومن ذلك تقول جالين موسوز « كان المارو يكرس التجمع ليستولي فجأة على الحكم وان يحرر فرنسا المكبلة بالقعود » (٥٩)

(٥٥) مالمو : اللامذكرات ص ١٣٦ .

J. Mossuz op.cit., p. 64

(06)

(٥٧) مالرو : الامل ص ٢١٦ .

(٥٨) مالرو : اللامذكرات ص ١٣١ .

J. Mossuz, op.cit. p. 67

(७१)

ولكن كيف يمكن الوصول الى الحكم ؟

هناك امكانيتان يمكن استغلالهما للوصول لهذا الهدف اولهما احتمال قيام الحرب العالمية الثالثة والتي يكون الاتحاد السوفيتي مسئولاً عنها ، وفي هذه الحالة يهب الديجوليون الذين في الحكم لسد الطريق امام الشيوعيين . اما الامكانية الثانية فتكون بخلق موقف ثوري يهيء السبيل لانقلاب يقوم به الديجوليون .

لكن تجمع الشعب الفرنسي جاء مخيباً لآمال كل من مالرو وديجول ، وبالتالي ابتعد عنه مالرو تدريجياً . اما اسباب انفصاله عنه وزوال المحبة تجاه هذا التجمع فهي عديدة . منها ان مالرو لم يتخل نهائياً عن حلم العدالة الاجتماعية ، وكان يتحتم على التجمع في تصوره ان يرفع القيم التي يدافع عنها حزب اليسار بوجه خاص ، كما كان مالرو بالاضافة الى ما سبق يحلم بنظام ديغولي كريم وبرجال ديغوليين في خدمة الانسان ، وكان يحلم برؤية الجنرال ديغول ملتفا حوله الرجال الذين قابلتهم منذ سنوات في صفوف المناضلين ضد الفاشية الذين حاربوا في مقاومة الكوريز وكل من كانوا يكونون في نظره شعباً بأكمله (٦٠)

هذا التجمع بعد ان غمرته اقلية من حزب اليمين أصبح هو نفسه تجمعا لليمين . وسبب آخر لغفور مالرو ولخيبة املة وهو غياب المفكرين الذين كان يحلم بتجمعهم حول ديغول . وفي عام ١٩٥١ رفض مالرو ان يكون ممثل تجمع الشعب الفرنسي في الانتخابات التشريعية وبذلك الرفض عبر عن ارادته ورغبته في قطع كل الصلات بينه وبين تنظيم لايرجو منه شيئاً .

وفي عام ١٩٥٣ حل ديغول التجمع وسمح لزملائه بحرية التصرف كل حسب مايراه وهكذا انتهى عمر تجمع الشعب الفرنسي . وعندما تكلم عنه مالرو بعد ذلك بعدة سنوات فانه لم يخف مرارته قال « منذ ان بدا فيه التجمع بتصرف كحزب مشابه للأحزاب الاخرى فقد كل معنى له في نظري » (٦١)

ان اشتراك ومساهمة مالرو في نشاط هذا التجمع ، وكذلك جهوده التي قام بها لانجاحه تستحق منا كثيراً من الاهتمام . فقد كان مالرو بصفته كاتباً لحد قول جاثين موسو « الؤسيط الامثل بين الجنرال ديغول ومجموعة من القراء المجهولين » (٦٢)

وقد حدد مالرو لنفسه المهمة التي يقوم بها، وهي الكفاح لنشر الديجولية وفي نفس الوقت فضح الشيوعية وسوف تتولى المجلة الشهرية تحقيق هذين الهدفين اللذين سوف يكمل بهما التجمع وكانت هذه المجلة تسمى « حرية الفكر » وكان العنوان وحده يمثل برنامجاً ومجاهرة بالعقيدة . ولكن للأسف لم تدم هذه المجلة واختفت نهائياً عام ١٩٥٣ .

Mossuz (J) op.cit., p. 89

(٦٠)

٦١) جاء في جريدة الحدث « L'Evenement » عدد ١٤٨٥ ، السبت ١٨ فبراير ١٩٥٠ .

Mossuz (J) op.cit., p. 74

(٦٢)

التحول السياسي لاندريه مالرو من الشيوعية الى الديجولية

وبصفة مالرو مندوبا للدعاية عن التجمع فقد أراد ان يرتبط بالديجولية في مظاهرها « التاريخية » والمظيمة وكان تجمع الشعب الفرنسي يهيم بوجه خاص لانه يبدو كتعبير وفتى للديجولية « (٦٣) كما يجب على الديجولية ان تمثل « مدرسة طاقة » (٦٤) لكل الفرنسيين .

من اجل ذلك كان على التجمع ان يسلك طرقا مختلفة عن طرق واساليب الاحزاب الاخرى تتميز بانها مجردة تماما من الخسة والدناءة . ولكي يعمل على ايجاد اتصال مباشر بين الامة بأسرها والرجل الذي سوف يمثلها بدا اندريه مالرو حملات « السلام العام » التي كان يهدف من وراءها الى اثبات متانة وقوة الروابط التي تجمع بين الجنرال ديغول والشعب الفرنسي .

لكن كما ذكرنا من قبل لم ينجح الشعب الفرنسي في اداء المهمة المحددة له طبقا لاحلام وآمال كل من الجنرال ديغول وصحبه من الديجوليين ، وبدا اندريه مالرو يكسر وقته كله لكتابة أعماله الفنية العظيمة التي كان قد بدأ العمل فيها عام ١٩٣٥ . واستمر كذلك حتى عاد ديغول الى الحكم في مايو ١٩٥٨ فأسرع مالرو بالحضور اليه من فينيسيا وقال له ضاحكا « لدى شعور بانى ذو فائدة » .

وللمرة الثانية نجد مالرو يقص علينا في **الأمم** ذكريات لقائه مع الجنرال ديغول في باريس في فندق لا بورز . ويشرح عودة ديغول الى الحكم فيقول « لم تفارقه ابدا العزلة الشديدة التي تركها ليبدأ المفاوضات ، وكذلك ليتولى مصر فرنسا الذي كان يلاحقه منذ سنوات طويلة . لم يطرأ اى تغيير على حديثه الرصين مع هذا الظل . وفي هذه الايام التى كان يعتبر فيها الأشخاص الذين يطالبون بعودته بشدة فاشيين والتي كان فيها اكثر من يهاجمونه هم الشيوعيون والتي كانت فيها فرنسا محكوم عليها بتلاحم الاحزاب المستبدة لم يكن يفكر هو الا في اعادة بناء الدولة » . (٦٥)

ولقد استمر اندريه مالرو وزيرا للثقافة في حكومة ديغول حتى عام ١٩٦٦ . وظل التزامه بالديجولية يتسم بنفس الدرجة من الامانة ولاخلاص النادرين والحق ان اخلاصه كان تاما فلم يحاول ابد خيانة التضامن الذى يربطه بالحكومة على الرغم من انه لم يكن يوافقها على طول الخط « ولابد ان سكونه في بعض الاحيان وكذلك في بعض المواقف كان شاقا عليه » . (٦٦)

كذلك اصبح مالرو المدافع الكبير عن الديجولية التى سوف تسلك « سياسة التاريخ » والتي تمثل في نظره قيمة اكبر من « سياسة رجال السياسة » . (٦٧)

Mossuz (J.) op.cit., p. 78

(٦٣)

(٦٤) جاء في جريدة التجمع ، Le Ressemblment عدد ٥٢ ، السبت ٢٤ ابريل ١٩٤٨ .

(٦٥) مالرو : **الأمم** ص ١٢٩ .

Gaillard (p.) Andre Malraux, p. 183

(٦٦)

(٦٧) جاء في جريدة التجمع Ressemblment ، عدد ١٤٨ ، السبت ١٨ فبراير ١٩٥٠ .

وظل مالرو يبذل ما في وسعه جاهدًا لهدم الادعاءات التي يسوقها اعداء الديجولية . وكان يرد على الذين يتهمون النظام بالفاشية ورئيس الدولة بأنه دكتاتور بقوله « ان الجنرال ديغول ليس فاشيا والدليل على ذلك اننى معه ، ولدى اربع عشرة اصابة في سبيل الحرية » . (٦٨)

ولقد ادرك مالرو ببعد نظره وشفافيته ان سبب هذا الاختلاط بين الفاشية والديجولية يعود في المقام الاول الى عدائهما للشيوعية. ومن ثم فقد عمل على وضع تمييز بين هذين النظامين ، فقال ان لكلا النظامين عدوا مشتركا هو الشيوعية ولكنهما يحاربانها لاسباب متناقضة « فالنازية تحاربها لكونها شيوعية اما الديجولية فتحاربها لانها الستالينية » . (٦٩)

ف عندما تكون الديجولية هي الحاكمة والسائدة فان ذلك يبشر ببداية عصر جديد هو عصر الأمل ، وسوف تولد فرنسا من جديد وسوف تعود الى صورتها الحقيقية. ولكن لكي يتم تحقيق ذلك كله فيلزم كما اوضح مالرو ان يتعاون الفرنسيون ويتكاتفوا ويتحدوا ويجمعوا صفوفهم حتى يبدؤوا بناء وطنهم من جديد ولتعالى اساليب العالم الحديثة .

لقد ظل اندريه مالرو في الوزارة بجوار الجنرال ديغول بصفته وزيرا للثقافة وذلك حتى عام ١٩٦٩ . لكن عندما سقط ديغول في الاستفتاء بعد احداث مايو ١٩٦٨ ترك الحكم . ومثلما حدث في المرة الاولى تبعه وزيره وصديقه الحميم في عزله دون اى تفكير او تردد .

وهكذا ينتهى فصل من حياة ديغول الحافلة وسدل الستار على تدخله في تاريخ فرنسا بعد ان ترك بصماته وآثاره التي لن تنسى . ويشرح ديغول بنفسه الدور الذي لعبه بالنسبة لوطنه فيقول « لقد كان بينى وبين فرنسا عقد (. . .) لقد كان عقدا دون ما سند من حق ورائى وبدون استفتاء وبدون اى شيء على الإطلاق ، لقد كتب على ان آخذ على عاتق الدفاع عن فرنسا وكذلك الدفاع من مصيرها ، ولقد استجبت الى نداءها الصامت والامر الذي لا يحتتمل الرفض » . (٧٠) لقد كانت فرنسا متسلطة على ديغول ، كما كانت البروليتاريا متسلطة على لينين وكما كان الحال بالنسبة لماو والصين ونهرو والهند (. . .) . لقد تزوج ديغول من فرنسا قبل زواجه من ايفون فاندرو » . (٧١)

ربما يفسر لنا ما سبق السبب الرئيسي لهذا الاتفاق القوي الذي لم يشهد اى صدع ولم يمر بفترات فتور والذي جمع بين الرجلين العظيمين لمدة تجاوزت العشرين عاما والذي بدأ منذ مقابلتهما الاولى في عام ١٩٤٥ . وتعتقد جانين موسوز ان مقابلة الرجلين كانت اشبه ما تكون بمقابلة « رجلين يشعران بالوحدة والعزلة ، رجلين يميز بينهما وبين سواهما توفّر موهبة التنبؤ ليهما ، رجلين استبعدا بسبب ذكائهما التنبؤى . لقد كان ينتاب كلا منهما شعور غير

(٦٨) محاضرة القاها مالرو في ساوباولو ، يوم ٢٦ اغسطس ١٩٥٩ ونشرت بجريدة لوموند يوم ٢٨ اغسطس ١٩٥٩ .

(٦٩) مالرو ، شجر الزان الذي يقطع ، ص ١٩ - ١٨ .

(٧٠) مالرو ، شجر الزان الذي يقطع ، ص ١٩ .

(٧١) مالرو ، شجر الزان الذي يقطع ، ص ٢٠ .

عادي بالمعظمة ، وكانا يبحثان على الدوام عن هذه المعظمة وبفضل ذلك كانا متشابهين « (٧٢) وينسب « بيردي بواذيفر » اسباب هذا التوافق والانسجام بين الرجلين الى ما اسماه « مزلة متشابهة وشغف متشابه بالانفعال التي تنسم بالمعظمة » وكذلك الى تمتع كل منهما بنفس قوة الإرادة وقوة الاحتقار . (٧٣)



على ضوء ما تقدم يمكننا اذا القول بان المزلة المشتركة هي التي قربت بين الرجلين .
فمن جهة كان شارل ديغول يقف وحيدا في عالم التاريخ وربما كان نداء ١٨ يونيو بمثابة اعلان لهذه الوحدة القاه الى كل من يريد ان يضمهم الى عالم التاريخ هذا . « (٧٤) ومن جهة اخرى كان اندريه مالرو يقف وحيدا هو الآخر حتى عندما كان في وسط الزحام وهو يناضل مع الآخرين ، وحول هذا المعنى تقول جانين موسوز « ان انضمامه الى هذه الماركة كان يحتوى على صفة ميتافيزيقية ملحة كان الهدف من اقحام نفسه في قضية اجتماعية هو ان يتحدى الموت وينكره ويتغلب عليه . وهكذا نظرا لعدم استبلاعه ان يمزج اهدافه بالاهداف الآخرين فقد ظل وحيدا وسط الجماعات الاكثر التماسا ، والحشود الاشد ازدحاما » (٧٥) وعلاوة على هذه الوحدة التي جمعت بينهما يمكننا ان نضيف صفة اخرى مشتركة ايضا بينهما هي الحلم بالمعظمة والرؤى وهي صفة تعتبر من اشد عوامل تفاهمهما . ومصادقا لذلك نجد ان مالرو كتب في الالامذكرات « الذي يعنى (٠٠٠) في اى رجل عظيم هي الوسائل التي توضح عظمتة وطبيعة هذه المعظمة » (٧٦) .

لقد فتن كل من الرجلين بقوة شخصية الآخر ، كما وجد كل منهما لدى الآخر نفس الموقف الاخلاقي تجاه الاحداث التي دافع عنها بقوة . وحول ذلك تقول جانين موسوز ان « كلا منهما قد جعل من الإرادة التي بمفردها تساعد على الفعل مبدءا أساسيا » . (٧٧)

لقد وجد كل من ديغول ومالرو عند الآخر تجسيدا للأمال والاحلام التي كان ينشوها دون الوصول اليها .

وتضيف الكاتبة الفرنسية فنقول « لقد قابل اندريه مالرو رجلا (تقصد ديغول) على الرغم من انه كتب فانه قد نجح في فعله واصله الى النهاية المرجوة (٠٠٠) . ومن ناحية اخرى فقد قابل ديغول رجلا افعال استطاع ان يجعل من أعماله الروائية عالما مطابقا لعالم القرن العشرين » (٧٨)

Boisdeffre (p.de) op.cit., p. 7

(٧٢)

Mossuz (j.) op.cit., p. 55

(٧٤)

Ibid, Loc. Cit.

(٧٥)

(٧٦) مالرو ، الالامذكرات ، ص ٢٠ .

Mossuz (j.) op.cit., p. 55

(٧٧)

Ibid, p. 56

(٧٨)

لقد بدا ديجول بالنسبة لمارلو منذ اول لقاء بينهما كرجل استطاع ان يحقق احلامه « اما بالنسبة لمارلو فقد اكتشف رجلا عظيما » . (٧٦)

ولم يقتصر الامر على ما سبق ذكره فقد مرزا نقاد آخرون قاموا ببحث اسباب التفاهم التام بين مارلو وديجول الذي كان ماثرا للاعجاب الى موقفهما الموحد ضد الشيوعية او الستالينية .

ويجدر بنا ان نذكر هنا جزءا مما كتبه موريالك في جريدة الفيجارو : « عندما كان باريس (BARRES) في الخامسة والعشرين من عمره ممثلا لحزب بولنجيه بمدينة نانسي كان دوره يتلخص في ان يقوم باتباع حصان اسود ورجل ذي لحية شقراء يرتدى الزي العسكري ، اما مارلو وهو في عنفوان الشباب فنجدته يرتبط بقائد يعتقد انه ليس بقادر على تغيير المصير الفرنسي فحسب بل ايضا على منع تحقيق اطماع ستالين في اوروبا .

في الواقع ان كفاح هذا الرجل الذي يمكن ان نقول عنه انه مثل سيدنا داوود غير مرتبط بأي سن او زمان كان كفاحا موجها قبل كل شيء ضد ستالين العظيم . لقد كان يحارب ستالين اكثر من انه كان يحارب مع ديجول .

هل ينبغي ان اقول ما افكر فيه صراحة ؟ انني اعتقد ان اندريه مارلو كان يتميز بشيء من الكبرياء لدرجة انه يعتبر ديجول ووقلة تعسدا لعيبته » (٨٠)

هذا ورأي نقاد آخرون في المعاونة بين فانسان برجيه (Vincent Berger) وآنفر باشا في رواية « شجر الجوز في اللاتنبرج » تجسيدا مسبقا لما سوف يكون عليه التعاون بين مارلو وديجول بعد ذلك .

ف نجد برجيه يقول في رواية « شجر الجوز في اللاتنبرج » انه من الصعب علينا الآن نظرا لقوات الوقت ان نؤثر على الاحداث لذا لا يمكن الاستخدام رجل ، وهذا الرجل لا يمكن الا ان يكون آنفر باشا » . (٨١)

ويعلق جابيتان بكون على ذلك قائلا « علينا ان نستبدل اسم آنفر باشا باسم ديجول وربما سوف نتوصل الى فهم شخصية وتفكير مارلو بالاسم » . (٨٢)

اما بيير دي بواذر فيقول ان مارلو تبع الجنرال ديجول كما تبع « برجيه » آنفر باشا ، وذلك لكي ينتزع من ايدي افراد مقاومة سبتمبر ورجال السياسة في الجمهورية الرابعة فرنسا التي كانت مفككة ومشتتة التفكير » (٨٣)

(٧٦) Ibid, loc. cit.

(٨٠) Mauriac, article parudans le Figaro, cite par Gaillard (p.) Les critiques.- p. 14

(٨١) مارلو ، شجر الجوز في اللاتنبرج ص ١٢٦ .

(٨٢) Cite par Gaillard (p.) Les critiques.....p. 109

(٨٣) Boisdeffre (p.de) op.cit., p. 20

وبالنسبة لجورج مونان فمن رأيه أن مالرو قد وجد في ارتباطه بديجول والتزامه بالديجولية الفرصة التي كان يحلم بها لكي يلعب الدور الذي قد يتمناه فكتب « وهو نفس مالرو الذي أعطى الى بركن في رواية الأمل تلك الصرخة الصادرة من شخصية إنسان ذي طموح بسكالي : « أريد أن اترك أثرا على هذه الخريطة » والذي يمكنه أن يفهم شخصية الرجل العسكري الذي كانت كلمته الأخيرة في مؤلفه حد السيف تعد مدحاً وتعظيماً لأصحاب الطموح الكبير الذين لا يجدون سبباً للحياة سوى أن يتركوا آثاراً بصماتهم على الأحداث » . (٨٤)

ويذكرنا هذا التوافق الفكري القائم بين الرجلين بأساطير القسرون الوسطى الشهيرة وبالصدقة التي تربط الأمير بشاعره والمسيديفارسه . وسوف تغلب الصداقة والتفاهم المتبادل بين ديجول ومالرو على جميع العقبات ، وسوف تواجه الفشل وخيبة الأمل والمصائب بشتى أنواعها ، ولسوف يظل مالرو وفيما على الدوام لديجول ، وكان الأخير وثقا كل الثقة أنه إذا تخلى عنه الناس أجمعين فسوف يبقى مالرو على الدوام بجانبه ولن يتخلى عنه أبداً .

لقد قرن مالرو وديجول مصيرهما معاً ، وذلك لأنهما أرادا أن يجسدا مصر فرنسا ، وفي اعتقادي أن السبب الحقيقي للصداقة والتفاهم والترابط بينهما يكمن في هذه الظاهرة . وهذا يوافق ما عبر عنه مالرو نفسه عندما كتب بعد زيارته الطويلة لديجول في كوابسي في ديسمبر ١٩٦٩ « أياها الليل اهبط بطء تحوطك زوينة الثلوج . هذه هي نهاية زمن هذا الرجل وزماني . نهاية زمن مسيرة غاندي نحو المحيط ليجمع الملح ، ومسيرة ماو نحو التبت ليستقبل الصين » (٨٥)



إذا خطر لنا أن نحاول اكتشاف الجنرال ديجول في أعمال مالرو لوجدنا أنه ظهر فيها ثلاث مرات ، ونجد أن الكاتب حاول في كل مرة أن يحدد ملامح القائد وتعبيراته ويسجلها ، وهكذا اكتملت لدينا صورة حية للجنرال ديجول من خلال ثلاث فترات متباعدة . كانت المرة الأولى خلال اللقاء الأول بين الكاتب و « رجل ١٨ يونيو » في عام ١٩٤٥ . وجاءت المرة الثانية بعد ذلك خلال المقابلة الثانية التي سجلها الكاتب في الالامدكرات عام ١٩٤٨ . أما المرة الثالثة فقد وقعت في ديسمبر ١٩٦٩ . ولحق أن النقاد قد اعطوا أهمية كبيرة لصورة ديجول في أعمال مالرو وذلك باعتبارها انعكاساً لصورة الجنرال في مخيلة الكاتب ، وحول هذا الموضوع يقول بول جيايار « كان الجميع يرتقبون الصورة التي سوف يدونها ديجول في كتابات مالرو ولم يخيب الظن فقد بدا بسيطا للغاية ووقورا ودقيقا لا يقبل أي تجاوز » . (٨٦)

وفي الفترة التي امتدت من لقاءهما الأول في عام ١٩٤٥ وحتى عام ١٩٦٩ تكتمل الصورة وتعطي لنا نموذجا للجنرال ديجول في صورة حية ومعبرة وجذابة في نفس الوقت .

Mounin (Georges) article in P. Gaillard, Les critiques.....p. 109

(٨٤)

(٨٥) مالرو ، شجر الزمان الذي يقطع ص ١٤٩ .

Gaillard (P.) A. Malraux, p. 151

(٨٦)

قبل اللقاء الأول بين الرجلين لم يكن دييجول في نظر مالرو إلا بطلا لاسطورة ، ولكن بدون ملامح محددة ، و فجأة يتجسد بطل الاسطورة امامه فاراد مالرو لاول وهلة ان ثبت كل شيء بواسطة الكلمات فكتب بعد اللقاء « لقد كنت احتفظ في ذاكرتي بصورة محددة من وجهه نحوالي عام ١٩٤٣ ارايى رفايل (Ravanel) وهو احد قادة المجموعات غير النظامية صورة له ، وكانت صورة نصفية وصلتنا بالبراشوت ولم تكن تعرف ان الجنرال دييجول كان طويل القامة لهذه الدرجة (. . .) فحتى عام ١٩٤٣ لم تكن تعرف وجه الرجل الذي نحارب تحت قيادته » (٨٧) لقد نظر الكاتب الى وجه القائد ولم يغيب شيء عن نظره وبعد مفاجأة اللحظات الاولى حاول مالرو ان يكشفه الشيء الذي يميز وجه الجنرال فكتب « لم أكتشفه ولكني اكتشفت الشيء الذي يجعله مخالفا للصورة ، فقد كان الغم في الحقيقة أصغروا الشارب أكثر سوادا ونجد ان الذي اثر بشدة في نفس مالرو هو « النظرة النفاذة المركزة » . (٨٨) ثم تزداد الصورة اكتمالا باضافة بعض التفاصيل الصغيرة بعد المقابلة الاولى بعدة سنوات وذلك في المقابلة الثانية التي تمت في عام ١٩٥٨ فنجد ان مالرو يعود بذاكرته الى دييجول الذي قابله في المرة الاولى ويلاحظ على الفور التغيرات التي طرأت على ملامحه فكتب بعد ذلك يقول « لم يكن شاربه الذي ظهر فيه الشيب واضحا وكان فمه ممتدا بتجاعيد عميقة حتى اللذن » ثم يضيف مالرو « ربما يجلب التاريخ قناعة معه » (٨٩) لقد ترك الزمن بصماته على ملامح القائد هذه الملامح التي زودت بمسحة من « الطيبة الظاهرة ولكنها ما زالت وقورة (. . .) . كانت كلماته وتعليقاته تتم عن الدوق وأحيانا عن روح الدعاية وعندئذ كانت العين تصغر وتلمح وتستقبل النظرة العميقة لبرهة وجيزة بعين القيل بآبار » (٩٠).

ثم يتم الجزء الثالث من صورة الجنرال دييجول نتيجة المقابلة التي تمت في ديسمبر ١٩٦٩ فقد كتب مالرو عنها قائلا « ان عشاء الايام الاخيرة من الحكم قد اختفى (. . .) كانت قامته الطويلة التي انحنت قليلا الآن تملأ فراغ الحجرة الصغيرة التي كانت تدفئها النار المشتعلة في المدفأة » (٩١) لقد كان مالرو ملاحظا لادق التفاصيل ولم يفتر شيء ونجده يضيف « لقد اكتشفت وأنا أشد على يده الى أي حد كانت بدا هذا الرجل الطويل القامة صغيرين ودقيقتين » (٩٢) وقد جعله هذا لاكتشاف يتذكر الزعيم الصيني ماوتسي تونغ اذ حسب قوله كانت « ايدي ماو المحترقة من الماء المثلج تبدو كأنها ايدي شخص آخر » . (٩٣)

وهكذا فما بين اللقاء الاول في عام ١٩٤٥ الذي سجله مالرو في **الامذكرات** وحتى اللقاء الاخير عام ١٩٦٩ نجد أن ملامح دييجول وصورته تغرض نفسها علينا حية ومثيرة للمحبة .

(٨٧) مالرو : **الامذكرات** ص ١٢٥ .

(٨٨) مالرو ، **الامذكرات** ، ص ٢٥ .

(٨٩) مالرو ، **الامذكرات** ص ٢٤٢ .

(٩٠) مالرو ، **الامذكرات** ، ص ١٥٠ .

(٩١) مالرو ، **شجر الزمان** ، ص ١٧ .

(٩٢) مالرو ، **شجر الزمان** ، ص ١٧ .

(٩٣) مالرو ، **شجر الزمان** ، ص ١٧ .

هذا ولم يكتف مالرو بتحديد وتسجيل ملامح رجل ١٨ يونيو ولكن أراد أن يعرفه لنا كما مره هو واحبه فنجده يكشف لنا عن جوانب شخصية دييجول من خلال اقواله عموما ومن خلال صمته خصوصا الذى يبدو أكثر لباقة ، وهكذا يكشف الجنرال دييجول عن نفسه بنفسه ، وكما حدث بالنسبة لصفات الجنرال الجسمية فسوف نجد أن طباقة وأخلاقه هي الأخرى سوف تتطور من لقاء الى آخر أو على الأصح من حديث لآخر .

نجد في عام ١٩٤٥ أن شخصية دييجول فرضت نفسها على مالرو بسبب ما أسماه « شكل صمته » (٩٤) ففي أثناء هذا اللقاء لم يتكلم دييجول بل كان يوجه الأسئلة ولكن ليس بالأسلوب الفاسر العابر الذى يميز الاستجابات بأسلوب آخر متميز قال عنه مالرو « أنه يجب دقة الفكر ويمكن أن نتكلم بخصوص دييجول عن نوع من البعد الداخلى لم أجده فيما بعد إلا عند ماوتسي تونج » (٩٥) لقد كان صمت الجنرال يبدو وكأنه تساق لموجه الى محدثه . وقد ثبت في ذهن مالرو منذ اللقاء الأول ذكرى هذا البعد الداخلى فكتب عنه يقول « هذا البعد القريب كان يبدو وكأنه ليس فقط بينه وبين الشخص الذى يتحدث اليه ولكن بين قوله وطبيعته هو أيضا » (٩٦)

لم تكن أقوال دييجول تكشف شيئا من حياته الشخصية ، وكانت شخصيته القوية تفرض نفسها على محدثيه وتحدث ما أسماه مالرو بالحضور المركز وهو ما لم يجده الا عند « الشخصيات الدينية العظيمة (...) ولهذا السبب فكرت في المتصوفين عندما تحدث (دييجول) عن الثورة » (٩٧) كان دييجول يفرض « الشعور بشخصية كاملة وكان لكلامه « الوزن الذى تعطيه المسئولية التاريخية لبعض التصريحات البسيطة جدا » (٩٨) .

ان كل هذه التعليقات التي دونها مالرو بعد اللقاء الأول لا تكشف شيئا عن ذاتية دييجول، فهي لم تكشف له الناحية الشخصية من هذا الرجل الاسطوري .

لقد تمكن اندريه مالرو من خلال المعيشة لمدة طويلة بجوار القائد أن « يتعود على بعض السياقات الفكرى وعلاقة دييجول نفسه بالشخصية الرمزية التى يسميها دييجول في مذكراته أو بالأصح التى كتب مذكراتها حيث لا يظهر شارل أبدا (٩٩) فقد حرص دييجول على أن يخفى حياته الشخصية ، وعمل على أن يظل دائما الجنرال دييجول الرجل الاسطورة وذلك حتى بالنسبة لأقرب المقرين اليه من زملائه واموانه ومساعديه، فلم يكن باستطاعة المحيطين به ان يدعوا أبدا انهم يعرفون « الرجل الخاص » الذى يمكنه ان يتحدث عن موضوعات شخصية ، اذ لم يكن يترك أبدا شخصية الاسطورية أى الجنرال دييجول . وعن ذلك الأمر يقول مالرو في الالامذكرات « لقد كان يبدو للجميع فيما عدا أفراد أسرته كصورة مهذبة لشخصيته الاسطورية (١٠٠) ولقد عمدت

(٩٤) مالرو ، الالامذكرات ، ص ١٢٤ .

(٩٥) مالرو ، الالامذكرات ، ص ١٢٤ .

(٩٦) مالرو ، الالامذكرات ، ص ١٢٤ .

(٩٧) مالرو ، الالامذكرات ، ص ١٢٤ .

(٩٨) مالرو ، الالامذكرات ، ص ١٢٥ .

(٩٩) مالرو الالامذكرات ص ١٥٠ .

(١٠٠) مالرو الالامذكرات ص ١٥١ .

مذكراته الى استبعاد شخصية شارل كلية ولم تظهر الا دييجول فقط ، والسبب في ذلك في رأى مارلو يسترعي الانتباه فهو يقول « لان الحياة هي التي شكلت شارل اما القدر فهو الذي شكل دييجول (١٠١) » . فشارل اذا انسان عادي صنعته الحياة بطولها ومرها كأي انسان آخر ، اما دييجول فهو شيء آخر مختلف تماما ، فهو الرجل الاسطوري الذي أعده القدر وشكله ليحتل المسؤولية الفخمة مسئولية تغيير مصر فرنسا وانقاذها .

لقد لاحظ مارلو انثناء مقابلته للقائد عام ١٩٥٨ أن دييجول يمتاز بالروح العسكرية التي تتبعها فكرته من الفعل . وفي رأيه أن تكوينه العسكري قد اثر على فكره والدليل على هذا أنه ينظر الى الحكومة « كاداة نضال في سبيل تنمية فرنسا » (١٠٢) ثم يسوق لنا الكاتب دليلا آخر يتميز به غالبية الرجال العسكريين المتمرسين بالحياة العسكرية وهو سرعتة في صنع القرارات « لأن القرار التاريخي لا يمكن فصله عن الوقت الذي صنع فيه » (١٠٣) . نستخلص من ذلك أن حياته العسكرية قد لعبت دورا هاما في تشكيل شخصيته كقائد اسطوري .

ثم يلتقي الرجلان وجها لوجه : رجل كان له تأثير ضخم في التاريخ لا يمكن أن ينسى ، وكاتب كان دائم الاخلاص له وكان يعتبره القائد والقوة والمثل الذي يحتذى ، وظل على رأيه هذا طوال حياته ، ويحاول مارلو في هذه المرة الثالثة والاخيرة أن يسجل هذا اللقاء أيضا في عمل أدبي لا ينسى يقول عنه الكاتب والناقد الفرنسي جان جروجان « أن هذه الصفحات تكشف أكثر من أي اعترافات من دييجول من الداخل نرى فيها جوانب فكره وروحه كما كشفها لصديقه وهو يتقدم نحو نهايته » (١٠٤) . وسوف يؤكد لنا مارلو ذلك شخصيا وذلك في مقدمة كتابه « أن كل ما يقوله الجنرال دييجول هنا يكشف عن شخصيته وأحيانا من نواح سرية (١٠٥) لقد أراد مارلو هنا أن يصور لنا لأول مرة دييجول الرجل وليس دييجول القائد وذلك على خلاف سابق نهجه . لقد أراد كما صرح فيما بعد « أن يعطي صورة من الجنرال دييجول داخل التاريخ وخارجة ... لم اهتم بصورة فوتوغرافية لقد حلمت بعمل للجريكو ، ولكن ليس عملا من جريكو يكون الموديل فيه من صنع الخيال » (١٠٦) .

تعتبر هذه المقابلة الثالثة التي رواها لنا مارلو أكثر اللفة ، فقد كشف فيها دييجول جانباً أكبر من طبيعته الدائية ومن حياته الخاصة عندما كان يسترجع بعض المذكرات العائلية ، ورغم كل ما ذكره دييجول نجد أن مارلو يستخلص في نهاية الأمر أن من المستحيل معرفة جوانب شخصية شارل الخاصة من خلال الحديث مع دييجول فيقول « لقد كان يعبر عن مصر فرنسا وكان لا يزال يعبر عن هذا المصير حتى عندما كان يعلن عن انفصاله عن هذا المصير . ان الالفة مع دييجول

(١٠١) مارلو الالذكريات ص ١٥٢ .

(١٠٢) مارلو الالذكريات ص ١٥٥ .

(١٠٣) مارلو الالذكريات ص ١٥٥ .

Grosjean (Jean) Les Chenes qu'on a bat Preface.

(١٠٤)

(١٠٥) مارلو ، شجر الزان الذي يقطع ص ١١ .

(١٠٦) مارلو ، شجر الزان الذي يقطع ص ١١ .

التحول السياسي لاندريه مالرو من الشيوعية الى الديمقراطية

لا تعنى جواز الحديث من شخصه لأن ذلك يعتبر موشوعا محرما على العكس من الحديث عن فرنسا (...) أو الموت (١٠٧) .

لقد قال مالرو يوما لصديق له « ان قوة الجنرال دييجول تكمن فيما فعل وفيما يفعل » . ان جزءا كبيرا من هيبة وقوة الجنرال دييجول يأتى من أعماله وقت الحرب والمقاومة وهو ما يسميه مالرو « ما فعل » .

لقد حافظ مالرو طوال حياته على تسجيل هذه الناحية الهامة من شخصية رئيسه ، ولقد اعتبر الجنرال دييجول قدوة ومثلا للبطل القومي الذى يجب أن يحتذى ، فهو وحده الذى استطاع أن يواجه العدو بجراحة وشجاعة دون خوف أو مواربة ، وهو الذى استطاع على حد قول مالرو أن يقول « لا للعدو وللخيانة دون تباطؤ أو مراوغة منذ اليوم الأول » (١٠٨) .

لقد أحس مالرو بحساسيته وشفافيته منذ اللقاء الأول بينهما عام ١٩٤٥ أنه قد اكتشف أخيرا الشخصية الحقيقية التى كان دائما يحلم بلقاءها ويتطلع الى العمل بجوارها . لقد كان دييجول يمثل وقتئذ أسطورة الوحدة الوطنية لمعظم الفرنسيين ، وكان بالنسبة لمالرو يمثل شيئا أكبر ، وفي ذلك تقول جانين موسوز من دييجول « كان يمثل أسطورة ولكن لديه أيضا سمات الابطال الذين فتنوا مالرو طوال حياته » (١٠٩) .

لقد رفض دييجول الاحتلال والعدوان الالمانى من اليوم الاول وهب بشجاعة منقطعة النظير للدفاع عن وطنه الحبيب فرنسا الذى كان يشن من ضربات العدو المجرم . لم يقبل دييجول أن تموت فرنسا أبدا فكيف تموت وهي غنية برجالها من حوله . منذ الأيام الاولى للاحتلال جمع كل الفرنسيين الذين « يريدون ألا تموت فرنسا » .

ولكى يتمكن من تحقيق هذا الهدف النبيل الذى كان يعد حلما في ذلك الوقت غامر دييجول بكل شيء وضحي بالنفس والنفيس في سبيل وطنه . لقد كانت فرنسا على الدوام هي شغله الشاغل ولا شيء غيرها ، لقد تزوج دييجول من فرنسا على حد تعبير مالرو المفضل وكان دائما يمثل مصرها .

لقد تجسد امام مالرو اثناء اللقاء الاول مآذره بوضوح في اللامذكرات حول دييجول فوصفه بأنه « الرجل الذى أراد أن يتحمل مسؤولية مصر فرنسا وهو رجل تسيطر عليه فكرة ثابتة . رجل يشغل فكره فقط هذا المصير الذى استطاع أن يكتشفه وأراد أن يعبر عنه » (١١٠) وهكذا من نص كلام مالرو نكتشف بسهولة ويسر أن مصير فرنسا قد اقترن بمصير الرجل الذى التقى

(١٠٧) مالرو ، شجر الزمان الذى يقطع ص ١١

(١٠٨) مالرو ، خطابات تالين ص ٣٦ .

(١٠٩)

Mossuz (j.) op.cit., p. 271

(١١٠) مالرو ، اللامذكرات ، ص ١٢٥ .

به في اول لقاء بينهما عام ١٩٤٥ ولقد كان هذا اللقاء بحق لقاءً تاريخياً انعكست آثاره على الصداقة التي ربطت بينهما بعد ذلك .

ثم تمضى الأيام والسنوات مليئةً بالحن والخطوب ، ها قد مضى ما يربو على العشرين عاماً على اللقاء الاول وبدء الصداقة بينهما فنجد مالرو يتساءل عما يمثل ديجول ليس للفرنسيين فحسب بل للعالم الثالث أيضاً ، ثم يجيب أن ديجول كان يمثل بالنسبة للفرنسيين الذين استجابوا وانضموا له والتفوا حول رايته « أحد الرجال الذين بدونهم تكون فرنسا مختلفة عما هي عليه ، أما بالنسبة لشعوب العالم الثالث التي تكافح الاستعمار وتطلع الى الاستقلال فقد جسد ديجول الاستقلال (٠٠٠) لقد أعاد فرنسا الى صورتها التي أحبتها في الماضي دول كثيرة (١١١) لقد بدأ ديجول بالنسبة للاروكت تحقيق للأمانى التي كان يحلم بها كل الفرنسيين ، فهو بطل من أبطال التاريخ كما أن « مجده مرتبط بالمشاعر التي جمعها » (١١٢) .

يتضح لنا من أعمال مالرو القيمة أن ديجول كان واعياً تماماً لنفسه ولقيمة عمله فنجد أنه يقول لمالرو « لم يكن ما أقوله هو المهم بل كان الأمل الذي أحمله معى هو المهم لقد أعدت وجود فرنسا لأنى أعدت أمل العالم في فرنسا » (١١٣) ومن هذا المنطلق فقد سمي ديجول الجزء الأول من مذكراته « مذكرات الأمل » .

لقد كان شادل ديجول يمثل دور المنقلب بالنسبة لفرنسا الذى حمل مسئوليتها كما سبق وحملتها البطلة الشهيرة جان دارك وكما حمل كل المنقلبين مسئولية اتباعهم . ولقد بدأ هذا الرجل وكأنه رائد لحركة دينية فقد أعاد بناء فرنسا ابتداءً من العقيدة ، وفى ذلك يقول مالرو « أن أى عقيدة تشتمل على إرشاد ربانى في سبيل المسيح أو في سبيل فرنسا تعتبر معدية للغاية ، أن إيمانها بفرنسا لم يكن كافياً ليصبح الجنرال ديجول ولكن بدونها لكان منتصراً دخيلاً على المنتصرين الحقيقيين ، أو مهزوماً تميز بشيء من البسالة » (١١٤) .

أن رجل ١٨ يونيو يبدو فى نظر أندريه مالرو مثالا للمفكر صانع الأحداث الذى استطاع أن يفكر ثم يحقق عملاً عظيماً ، وقد تطابقت أفعاله مع أفكاره ونجد أن « الرجل ذو الشخصية » الذى يتحدث منه ديجول في كتابه « حد السيف » هو نفسه الذى سيصبح قائدا لفرنسا الحرة بعد ذلك .

أن إعجاب مالرو بديجول كان لا حد له ، كان ديجول يمثل أعظم شيء بالنسبة له وفرنسا فقد جاء فيه في مؤلفه « شجر الزان الذى يقطع » أنه « آخر رجل عظيم سوف يشغل فرنسا » (١١٥) وهو يجد مكانه في صفوف أعظم رجال العالم ولقد كرر مالرو عدة مرات مكانة ديجول بين الرجال العظماء في العالم فيقول مرة « كان الجنرال ديجول الرجل الوحيد الذى يمكنه

(١١١) مالرو ، شجر الزان ، ص ٤٠ .

(١١٢) مالرو ، شجر الزان ، ص ٤٠ .

(١١٣) مالرو ، شجر الزان ، ص ١٢٣ .

(١١٤) مالرو ، شجر الزان ، ص ٢١ .

(١١٥) مالرو ، شجر الزان ، ص ١٥١ .

أن يأخذ مكانا بعد غاندى وماوتسى تونج وآخرين فهو وحده الذى يمثل الاسطورة القومية» (١١٦) وهذا الشعور نحو دييجول هو ما أحس به مالرو منذ البداية . ففي عام ١٩٤٨ عندما كان يعمل مالرو مندوبا للدعاية لتجمع الشعب الفرنسي كتب في جريدة التجمع « منذ ثمانى سنوات واجه رجل تسيطر فرنسا على فكره جميع الاصوات التى اذمت انها اصوات الواقع والعقل واجهها بقوله « لا » التى تحدد من بعدها تاريخ بلادنا » (١١٧) وأخيرا نجد في الالمذكرات بعد لقاءهما الأول ما أحس به مالرو وأعجب به وشده يرباط لا ينقسم الى دييجول فيقول « لقد كان مطابقا لاسطوره » (١١٨) .

ان الشيء الذى كان يضايق دائما العديد من قراء اندريه مالرو الذين كانوا في وقت ما من أشد المعجبين بأدبه وبأعماله الروائية هو انضمامه لتجمع الشعب الفرنسي R.P.F. ثم اشتراكه في حكومة الجنرال دييجول التى كانت بعيدة في نظرهم كل البعد عن اليسار . ونسوق هنا بعضا مما عبر عنه ايمانويل مونييه Emmanuel Mouniea في مجلة الفكر عام ١٩٤٨ عن هذا الموضوع فقال « حقا اذا كان مالرو كما يؤكد في كل مناسبة وكما تدل قيمة أعماله ما زال مخلصا لعقيدته السابقة فان موقفه اليوم ليس سهلا (١١٩) . لقد كان الاعتقاد السائد في فرنسا وقتئذ ان مالرو قد قطع الصلة بما كان يعتبره قدوة ومثلا في سنوات شبابه ، وكذلك قطع الصلة وتخلى عن الأفكار التى جعلته يشترك في كفاح المناضلين بالصين وأسبانيا ، ومن هنا جاء الاتهام الموجه الى مالرو بأنه قد تحول بسهولة من اليسار الى اليمين وأنه انضم الى « الحزب المضاد » وكان البعض قاسيا ومتطرفا في حكمه على مالرو الى حد ادانته بالاتجاه في طريق نهايته المحتومة وهي الفاشية . والامر الغريب الذى زاد من قسوة اتهامهم له هو ان اندريه مالرو لم يحاول من جانبه قط ان يدحض هذه الافتراءات والشبهات التى حامت حوله ، ولم يحاول أبدا ان يرى نفسه أو يدافع عنها وهو ما نراه غريبا في رأينا .



بعد هذه الدراسة التفصيلية للفكر السياسي عند اندريه مالرو يمكننا القول بان التطور ايدولوجي عند الكاتب يمكن أن يتصف بالاتصال وليس بالتقطيع كما ادعى البعض من أعدائه . وذلك لان الاتجاهين اللذين سلكهما في التزامه السياسي وهما اليسار ثم اليمين يحتويان على أوجه تشابه لا يمكن تجاهلها وانكارها ، فاذا ما قمنا مثلا بمقارنة مبادئ الشباب بمبادئ فترة النضج الفكري نجد ان هناك اشياء كثيرة تدل على الاخلاص الفكري لمبادئه فعندما أصبح اندريه مالرو المتحدث (الشاعر) باسم تجمع الشعب الفرنسي ونظمه ، وعندما انضم كلية للديجولية لا يصح ان نقول أنه قد قطع اتصاله بمبادئه تشابه . ونجد ان اليساريين الذين كانوا في فترة ما رفاق طريقه وعلى نفس دربه لا يفهمون جيدا مغزى عمله وتعاون مع الجنرال دييجول . ويعود سبب هذا الفهم الخاطئ الى الصورة غير الصحيحة التى كانت مأخوذة منه واعتباره رجلا ثوريا في البداية ثم شيوعيا انضم الى صفوف الماركسيين وانخرط فيهم .

لكن في رأينا ان اندريه مالرو على وجه اليقين لم يتوغل أبدا في طريق الماركسية العظم فهو لم ينضم مطلقا الى الحزب الشيوعي الفرنسي وعندما وقف يوما يناضل بجوار بعض افراده خلال الثلاثينات كان هدفه هو مقاومة الفاشية فقط .

(١١٦) مالرو فجر الزان ص ١٥١ .

(١١٧) جريدة التجمع Le Ressement عدد ٦٢ ، ٢٦ يوليو ١٩٤٨ .

(١١٨) مالرو ، الالمذكرات ص ١٢٥ .

Cite par Moossuz (j) op.cit., p. 264

(١١٩)

لم يكن مالرو أبدا خائنا لعهد قطعته على نفسه تجاه الشيوعيين كما أنه لم يحث أبدا بهذا العهد وعندما صار دييجوليا لم يتخل عن آماله وأمانه التي عبر عنها في أعماله « قدر الإنسان » و « الأمل » . وفي رأي أن جابتان يكون كان محقا في قوله عن هذا الموضوع « في حالة مالرو تبدو لي القطيعة مع الشيوعية وكأنها توصل إلى الوحدة والمخاطرة وليس السهل (. . .) فلقد كان مالرو مع الشيوعيين في الوقت الذي كان فيه من الصعب على المرء أن ينضم إليهم ، ولقد تركهم في الوقت الذي كان فيه من السهل على المرء أن ينضم إليهم » (١٢٠) .

إن محاولة مالرو للشيوعية لم تكن في يوم من الأيام صدى أو انعكاسا لليمين الكلاسيكي فلقد انفصل هو نفسه عن تجمع الشعب الفرنسي عندما أصبحت تسيطر عليه أغلبية من اليمين . كما يمكن القول أن محاربته للشيوعية لا تشبه محاربة « القوة الثالثة » لها ولا يمكن أبدا تلخيصها في مجرد ادانة الحزب الشيوعي الفرنسي . ويرجع السبب الرئيسي لمعاداته للشيوعية إلى أنها لم تعد تعمل على تحرير الإنسان كما كانت تلمي ، فقطع صلته بها أي أنه قطع صلته بإيدولوجية لم يعد لها معنى بالنسبة له ولكنه في نفس الوقت لم يتخل أبدا عن مبادئه الأساسية وظل محافظا عليها ومتمسكا بها .

وهكذا يبدو لنا أن أفكاره في مرحلة الشباب لا تتناقض مع أفكاره في مرحلة نضجة بل تكملها ومن ذلك قول جانين موسوز « من وجهة نظر مالرو تبدو الديبجولية في صورتها التي يشعر بها وبداق عندها وكأنها تحقق ثلاثة مطالب هي الحرية والإخاء والسلطة (. . .) فالديبجولية هي وحدها التي تسمح بإقامة الحرية الحقيقية (. . .) وتعني الديبجولية الإخاء أيضا (. . .) الإخاء بين المواطنين المتحدون والمتجمعين في صورة شعب واحد . وأخيرا فالديبجولية كما يتصورها مالرو هي ظهور السلطة في المكانة الأولى على مسرح الأحداث ، وإن السلطة التي تعطى لرجل هي الوحيدة التي يمكن أن تكفل حرية الأفراد ، وهي الوحيدة التي يمكن أن تقدم المثل الأعلى الذي يجب أن تعمل من أجله كل الطاقات (١٢١) إذا فقد بدت له الديبجولية وكأنها الصيغة الوحيدة التي تستطيع أن توجد وتحافظ على الإخاء بين أفراد الشعب الفرنسي ، وقد بدأ دييجول مالرو كالرجل الوحيد القادر على « إعادة بناء فرنسا » إذا فلم تكن الديبجولية إلا مسيرة الإخاء التي تجمع رجالا أحرارا يقومون قائد إلى تحقيق هدف عظيم . أما في مرحلة كفاحه ضد الاستعمار والتي أثارت جدلا كبيرا فقد كان هدفه في الهند الصينية وفي كفاحه ضد الفاشية في فرنسا وألمانيا وروسيا هو دائما خدمة قضية الحرية ، ولم يكن هدفه أبدا الدفاع عن العقائد المتطرفة التي كانت تسمى بكل قواها للسيطرة على العالم . إذ لم يعتقد مالرو وبنيتي الأيدولوجية الماركسية وحول ذلك تقول جانين موسوز « لقد كان التزامه محددا بقيمة ثمرة هذا النضال وهي الحرية التي كانت تهددها الفاشية وليس العقيدة الشيوعية التي كان ينتسب إليها بعض المناضلين » (١٢٢) وعندما سافر إلى برلين مع ألفريد جيب André Gide بصفتها مندوبين عن الحزب الشيوعي الفرنسي للدفاع عن ديمتروف لم يكن الدافع وراء عمله هذا مساندة الشيوعية بل كان هدفه الدفاع عن حرية الإنسان . وكذلك عندما سافر إلى موسكو بعد سفره إلى برلين بشفعة أشهر مدعوا من قبل مؤتمر الكتاب السوفييت لم تكن الكلمات التي ألقاها في هذه المناسبة تتضمن مديحا للنظام القائم في الاتحاد السوفييتي ، بل كانت تتضمن مطالبة عنيدة مصررة بالحرية .

- (١٢٠) PIGON (G.) Le Rupture avec le communisme, in P. Gaillard, Les Critiques.....p. 110
(١٢١) Mossuz (j.) op.cit., pp. 244-245
(١٢٢) Ibid, p. 246

التحول السياسي للندرية مارلو من الشيوعية الى الديجولية

لسوف تبقى الحرية دائما بالنسبة لمارلوجها معبرا ونبيلا لا يمكن أن يمحي بأى حال من الأحوال . ومن أهم مظاهر هذه الحرية حرية الفكر للأدباء وهذا النوع من الحرية غير موجود في الاتحاد السوفييتي . فالنم مثلا خاضع للنظام الستاليني وعندما يضطر الفنانون أن يصمتوا على مضمون أو يخضعوا للقوانين الظالمة خوفا من الهلاك نجد أن مارلو يتور باسم الحرية .

وهكذا نرى لزاما علينا الانشور أو تجاهل الدافع الانساني والتحررى الذى كان على الدوام الطابع المميز للالتزامه السياسي ، وسوف يجد هذا الالتزام ضالته المنشودة في الالتزام بالديجولية التى تبدو وكأنها على حد قول جانين موسوز « نهاية المطاف لبحث طويل » (١٢٣) ويبدو وكأنه وجد أخيرا « نجمة الثابت » الذى كان يبحث عنه وهو الجنرال ديغول . وبناء على ذلك فإذا اعتبرنا هذا المبدأ نقطة انطلاق لا يمكن أن ننظر الى تحوله نحو الديجولية وكأنه نقطة ضعف في خط سير فكره السياسي ، فقد كانت الديجولية كما اتضح لنا تلبية لمطالب مارلو الأساسية والمستمرة وهي الحرية والإخاء والسلطة .

بناء على ما تقدم يمكننا أن نستخلص أن التزام اندويه مارلو السياسي بالديجولية لم يكن دليلا على الإخلاص لمبادئه السابقة فحسب ، بل يمكننا أن نعتبره انتصارا لها . فلأول مرة لم ينتهج مارلو منهجا فكريا وسياسيا لبضعة أشهر أو سنوات قارئة في حياته بل اعتنق والترم الديجولية كنهاية لمطافة الفكرى والسياسي ، وعندما وجد فيها بغيته نجد أنه تحمل بشجاعة

مسئولية هذا الالتزام واشترك اشتراكا فعليا في الحكم الديجولي . ولكن يجعل هذا الحكم الحبيب الى نفسه فعلا وحتى يجعل الديجولية من المطالب الأساسية الثلاثة الحرية والإخاء والسلطة حقيقة واقعة كان لزاما على مارلو أن يساند على طول الخط الرجل الذى يجسد بالنسبة له الاسطورة القومية .

لقد كان مارلو يناضل على الدوام في جميع مراحل حياته من أجل قضية نبيلة كانت لها أهمية أساسية في نظره وهي قضية الانسان . ونجد هذا واضحا في التصريح الذى أدلى به في عام ١٩٤٦ حيث قال « ان المسألة التى مطرح نفسها علينا الآن هي معرفة ما اذا كان الانسان قد مات أم لا على هذه الأرض القديمة أوروبا ... ان الانسان اليوم يجد نفسه مضطرا ليس فقط الى الاجابة على ما أراد أن يفعل وليس فقط ما يريد أن يفعل بل أيضا على ما يعتقد أنها طبيعته » (١٢٤) ويمكننا القول ان مسيرة مارلو الفكرية والسياسية لم تكن الا محاولة منه للإجابة على هذا السؤال .

• • •

أخيرا ونحن بصدد ختم مقالنا لا نجد أبغ من أن نسوق للقرارى عبارة لجانين موسوز نستشهد بها على صحة رأينا فيما رأيناه من أن تحول مارلو من الشيوعية للديجولية ، ثم التزامه التام بها كان استمرارا لطريق ومنهج اختطه لنفسه طوال حياته فنقول « ان الديجولية التى انضم اليها اندويه مارلو لا يمكن اعتبارها انشقاقا ، ولكن كالتزاماته السابقة محاولة للتوصل الى مثل لا يتغير الا وهو ايجاد الانسان الحر في عالم الإخاء . لقد اتخذت محاولات مارلو صورا مختلفة وبدت أحيانا ذات وجهين لكن لم يتغير مغزى بحثه ومغزى إرادته الاكتشاف منه » (١٢٥) .

Mossuz (j.) op.cit., p. 273

(١٢٣)

Ibid, p. 286

(١٢٤)

Mossuz (j.) op.cit., p. 287

(١٢٥)

قائمة بأسماء المراجع التي ورد ذكرها في البحث

I. Oeuvres de MALRAUX :

أولاً - أعمال مالرو

1. *Les Conquérants*, Paris, Le Livre Moderne Illustré, 1933, 189 pages.
2. *La Condition Humaine*, Paris, Gallimard, 1946 284 pages (Collection Folio)
3. *L'Espoir*, Paris, Gallimard, 1937, 505 pages (Collection Folio)
4. *La lutte avec l'Ange*, I-Les Noyers de l'Altenburg, Editions du Haut Pays 1943
5. *Antimémoires*, Paris, Gallimard, 1967, 605 pages.
6. *Les Chênes qu'on abat*, Paris, Gallimard, 1971, 151 pages.
7. *Oraisons Funèbres*, Paris, Gallipard, 1971, 139 pages.

II. Etudes consacrées à Malraux :

ثانياً - أبحاث عن مالرو

1. Biosdeffre (Pierre de), André MALRAUX, Paris, Editions Universitaires, 1969, 127 pages (Classiques du XX^{ème} siècle)
2. Gaillard (Pol) André MALRAUX, Paris, Bordas, 1970, 244 pages.
3. Id. ; *L'Espoir de Malraux*, Paris, Hatier 1970, page (Profil d'une oeuvre)
4. Id. *Les critiques de notre temps et Malraux*, Paris, Garnier, 1970, 191 pages,
Cet ouvrage comprend des articles de :
—Berl (Emmanuel) *L'Intellectuel et La Révolution*.
—MAURIAC (François) *Le Romantisme au pouvoir*.
—Picon (Gaetan) *La Rupture avec le Communisme*.
—Bor (Claude) *Le Marxisme de Malraux*.
—Stéphane (Roger) *Les silences de Malraux*.
—Trotsky (Léon) *La Révolution Etranglée*.
5. —Harris (G.T.), André Malraux, *L'Éthique comme fonction de l'Esthétique*, Paris, Minard, 1972, 153 pages.
6. —Mossuz (Janine) André Malraux et le Gaullisme, Paris, Armand Colin, 1970 313 p.
7. —Picon (Gaetan) *Malraux par lui-même*, Paris Editions du Seuil, 1955, 132 pages
8. —Id. André Malraux, Paris, Gallinard, 1945, 127 pages.

چوزين جودت عثمان

مالرو، سنجور وحضارة الانسان

اندرية مالرو ، وليوبولد سيدار سنجور

قد يتساءل البعض عن العلاقة التي تربط بين هذين الاسمين ، وما مدى اوجه الشبه او الاختلاف بين اديبين يتمتعان بمكانة خاصة في تاريخ الفكر المعاصر .

فالى اى حد تصل المقارنة بين اندرية مالرو وليوبولد سنجور ؟ اسمان يبدوان على التقيض في اول وهلة . فقد يبدو من العجيب ان نتحدث عن نقاط الالتقاء او حتى مجرد التشابه بين مؤلف « القند الانساني » (١) اى مالرو وبين مؤلف « اغاني الظلال » (٢) اى سنجور .

ذلك ان مالرو كاتب فرنسي بمعنى انه اوروبي ، اما ليوبولد سنجور فهو شاعر افريقيا السوداء الناطق بالفرنسية .

ولكن يقرب بينهما اكثر من عنصر ، مما يجعل المقارنة بينهما هامة ومشعرة ، الامر الذي سنتناوله في بحثنا هذا .

لم تتح للكثير من الناس في التاريخ - تلك الفرصة التي يتحدث عنها الشاعر الفرنسي «شارل بودلير» ألا وهي: «أن يعيش المرء حياة يقترب فيها العمل بالخيال» .

فالعمل والخيال اقترنا بالفعل في حياة وانتاج مالرو ، كما اقترنا في حياة وانتاج سنجور وهناك أكثر من لقاء بين الكاتبين ، لقاء فكري أيديولوجي (Ideologique) ولقاء فني استيتيكي (Esthetique) وأخيرا لقاء أخلاقي روحي (Ethique) .

١ - **الاتقاء الذهني الفكري** : الذي يرتكز على الإيمان المطلق بالفريقيا الغد ، والاعجاب الشديد بشخصية الجنرال شارل ديغول .

٢ - **الاتقاء الفني الاستيتيكي** : الذي يقوم على مفهوم معين للفن ، ألا وهو اصدق وسيلة لتحقيق الذات لنفس البشرية من خلال الحضارات . ووسائل التعبير الفني عند مالرو أساسا هي : الرسم والنحت ثم الموسيقى والرقص ، وعند سنجور هي : الموسيقى والرقص والنحت ثم الرسم . ولكن اللقاء هنا يأتي من أن كل عمل فني هو خلود للانسانية ووسيلة مقدسة لتمر عبات القدر وانطلاق الانسان .

٣ - **الاتقاء الروحي الاخلاقي** : الذي يتلخص في موقف سنجور ومالرو تجاه مفهوم معين للانسان الحديث ، والتمسك بقيم اجتماعية مثل الارتباط الاخوي ، والانتماء الى الجماعة التي نعيش فيها ، والاعتقاد في ضرورة مزج الحضارات المختلفة لخلق حضارة القرن العشرين وهي الحضارة الانسانية (٣) . فالحضارة في المجتمع المعاصر لا يمكن أن تكون الحضارة قائمة على مزج الحضارات المختلفة للانسان عبر العصور المختلفة وعبر الأجناس والأديان والقارات ، مما يؤدي بالضرورة الى ايجاد موقف اخلاقي معين يسلكه الانسان أينما كان تجاه أخيه الانسان في أي مكان وزمان .

• • •

١ - **الاتقاء الأيديولوجي** :

« أن المرء ليس ما يفكر وإنما المرء ما يفعل » .

تلك العبارة وردت على لسان (Vincent Betger) « فانسات بيرجييه » بطل قصة مالرو « أشجار الجوز في التنوير » (١) ويقصد مالرو بهذه العبارة ، أي بلفظة « الفعل » : أقدام المرء

(٢) كلمة الانسانية Humanisme توضح وتعيّن معنى اعتبار الانسان ركنا رئيسيا في الفلسفة وهي - تختلف عن كلمة الانسانية (Humainite) التي استعملها معلمي الترجمة ونحن متفقون مع الدكتور معهد غاب استناد الفلسفة بالجامعة الاهلية عندما استعمل هذه الكلمة فيما كتبه عن علاقة الاسلام بالثقافة والانسانية في عدد ١٩٥٩ من مقال « هذا هو الاسلام » (دار الشعب) .

على فعل الحدث نفسه ، فالفعل عند مارو هو الذى يحدد الإنسان تماماً ويميزه من غيره من المخلوقات .

ذلك هو مفهوم مارو الذى مارسه فعلاً في حياته كما مارسه في إنتاجه .

إن حياة مارو معروفة للجميع ، كما نعرف أيضاً نشاطه السياسي وشغله لمناصب وزارية وثقافية هامة ، وكلنا نعلم الدور البطولي الذى لعبه هذا الكاتب الديجولى في المقاومة الفرنسية أثناء الحرب العالمية الثانية .

وإذا ما عدنا بالذاكرة الى سنوات ما قبل الأربعينات وأينا : مارو شاباً فتياً أى في الثالثة والعشرين من عمره ، يكثر من رحلاته الى الشرق الأقصى وينظم حركات تضامنية تحررية مع شباب الهند الصينية المعروف آنذاك باسم « آنام الفتية » فبلاد الآنام هذه - وهى جزء من الهند الصينية - كانت خاضعة للاستعمار الفرنسى . فقاوم مارو هذا الاستعمار بل استنكره وندد به في أعماله وبفكره .

وهكذا يبدو لنا منذ بداية حياته أن تلك الحياة ما هى إلا استجابة لأحداث توالى عليه . كما أن إنتاجه الفنى ما هو إلا تلبية لنداءات ومحاولة إجابة عن تساؤلات في فترة تتميز بكثرة الأحداث الفنية والسياسية التى اشتترك فيها بالعمل وبطريقة إيجابية . نحية مارو كما يعلم الكثير منا - تعتبر مسيرة من تاريخ ميسى الى تاريخ الإبداع الفنى ، وإنتاجه الفنى ما هو إلا لقاء الإنسان بالقدر . بمعنى أن كل ما كتبه أندريه مارو هو تعبير حقيقى وفعلى نتج عن موقفه وفعله تجاه الأحداث التى طرحها عليه القدر . وأعمال مارو الأدبية تحليل شغوف للمصير البشرى الذى طالما راود فكره فكتب عنه الكثير ، ولا تكون مقالين لو قلنا انه كتبه .

إيمكن أن ننسى أنه مؤلف « القدر الإنسانى » .

ودور مارو الذى لعبه بجانب الوطنيين الإسبان في المقاومة الإسبانية يظهر لنا بجلاء في بعض أعماله الأدبية خاصة روايته « الأمل » (٥) .

وأخيراً لا يقل نشاط مارو في المجال الثقافى والفنى البحث عن دورة في المجال النضالي .

فأعمال مارو الفنية تكاد تكون لاحصر لها . ونذكر منها أهمها : -

- اللامذكرات : (٦) .

- الحبلى والغيران : (٧) .

L'Espoir	(٥)
Les Antimemoires	(٦)
La Corde et les souris Hotes de passage Les chenes qu'an abat Tole d'Obsidienne Lazare	(٧)

- الذي يتجزأ الى : -
 - زوار ماريق .
 - اشجار الزان التي تقطعها .
 - رأس السبع البلورية .
 - عازر .
 - مرميات (٨) .
 - افراء الغرب (٩) .
 - عطارد (ساتورن أو بحث عن الرسام جويا) (١٠) .
 - أصوات الصمت (١١)
 - التحف الخيالي (ويشمل عدة أعمال في الفنون التشكيلية) (١٢)
 - تحول الآله (١٣) ويشمل : مابعد الطبيعة
 - اللاواقعية (١٤) .
 - اللازمى (١٥) .
- وفضلا عن كل هذه الأعمال فهناك نشاط ملحوظ ومستمر للارو في المجال الثقافي نفسه ،
فما أكثر ما كتبه من أبحاث ومقالات ومحاضرات عن مفهوم الثقافة ودلائلها ودورها في حضارة
القرن العشرين ، وما يمكن ان تقوم به من دور خطير في تحديد معالم الانسان المعاصر ؛ فالإنسان
في مفهوم مالرو إنسان شامل متكامل ومزيج من مختلف حضارات البشر .
- وهذا المفهوم هو بعينه منهج شاعر القارة السوداء ليوبولد سنجور ، ومفهومه عن الثقافة والإنسان .
- وليوبولد سيدار سنجور وإن كان غنيا عن التعريف (١٦) فهو شاعر ومفكر أولا وقبل أن
يكون سياسيا ناجحا وزعيما مناضلا . فترئيس جمهورية السنغال لم يقتصر على النضال من أجل

Oraisons funebres	(٨)
La Teutaton de l'occident	(٩)
Saturne (Essai sur Goya)	(١٠)
Les Voix du silence	(١١)
Le Music Imaginaire	(١٢)
La Mitamorphose de Dieux	(١٣)
L'Fuie	(١٤)
L'Intemporel	(١٥)

(١٦) ولد ليوبولد سيدار سنجور يوم ٩ أكتوبر من عام ١٩٠٦ في قرية « جوال » على بعد حوالي مائة كيلو متر
من جنوب العاصمة السنغالية دكار . وبعد أن حصل على شهادة الإجازة من باريس بدأ حركة نضال من أجل
استقلال بلاده من الاستعمار الفرنسي واستقلال دول إفريقيا كما ناضل من أجل مكانة الرجل الأسود في العالم المعاصر
وخلق هو ورفيق نضاله وفكره الشاعر المارتينيكي أيميس سينير - مفهوم « النوجية Negritude » كما
اشترك سنجور أثناء الحرب العالمية الثانية مع المقاومة الفرنسية ضد الغزو النازي .

تحرير بلاده واستقلالها الذى ناله عام ١٩٦١ وانما كرس كل جهوده في تعريف ونشر قضية الزنجي الحديث (Negre Nouveau) الذى هو اساسا عضو هام في المجتمع المعاصر فهو يشغل مكانة لها اهميتها في الانسانية الحديثة حيث الانسان مزيج من مختلف الحضارات من بينها حضارة افريقيا السوداء .

وبعبارة ادق فالانسان الجديد في مفهوم سنجور هو تطعيم الرجل الابيض الذى يضعف وتتلاشى فيه قيم ومعان حضارية بدأت تضمحل تحت تأثير حضارة الآلة والتكنولوجيا الحديثة تطعيمه بدم الرجل الاسود ، دم القارة الفتية الذى سيحيى البشرية بقيمه وتراثه الحضارى الاصيل .

يجوز لنا أن نقول عن مالرو كما نقول عن سنجور أن كليهما « شاعر » مناخل وفنان مؤمن بالانسان كما سنرى في بحثنا هذا . فلا عجب في أن نرى مالرو يكتب أول مكتب من مؤلفات سنة ١٩٢٠ بحثا معنونا « اصول الشعر التكميبي » (١٧) ، ولا عجب أيضا أن نرى الشاعر الأسود يعمل بالمقاومة وبناضل طول حياته من أجل استقلال الشعوب السوداء لكل مافعل ومكتب محوره هو تكامل الحضارات والأجناس وأحياء أمجاد وتراث الجنس الأسود عن طريق استرداد الرجل الأسود لمكانته الحقيقية في المجتمع المعاصر . كل هذا يظهر ويتلخص في شعر سنجور في فكرة العودة الى الوطن الأم - (افريقيا) .

ولكن الذى يقرن اعمال سنجور باعمال مالرو عاملان : -

اولهما : نظرية تكامل الحضارات ومزج الأجناس لخلق الانسان من جديد .

وثانيهما : إيمانها برسالة الفن كعنصر أساسي يركز عليه المجتمع .

فإن سنجور عندما يتحدث عن تجربته الشخصية يتفنن أيضا بكل آمال وطموح وآلام أبناء جنسه ، وبالتالي فهو يعبر بصديق عن تجربة حقيقية تعرض لها : ألا وهي بحث الانسان عن ذاته وعن حريته وتحقيق مجتمع مؤمن بالقيم الحضارية الاصيلية ، وهذا فعلا - كما سوف نرى - ما يصبو اليه مالرو من خلال تجاربه في الفن والسياسة والحياة .

فكلاهما مولع بالفن مؤمن برسائله الحضارية القيمة كعنصر اساسي يركز عليه مجتمع القرن العشرين المتفتح لكل الحضارات والمؤمن بالقيم الثقافية العريقة التى تخلق الانسان ، بمعنى أن الانسان هو الذى يسيطر على العالم ولا يخضع لسيطرة الآلات وعبودية الايديولوجيات المزيفة في المجالات السياسية والاجتماعية .

وتركت الحرب بصماتها الاليمية على مالرو وعلى سنجور فقد مارسا التجربة المروعة التي جعلتهما بهجتم المجتمع السلام والبناء والقيم الحضارية بدلا من مجتمعات الخراب والدمار واستغلال الشعوب بعضها البعض نتيجة لهذه الايديولوجيات المزيفة التي تجعل قلة قليلة مسيطرة ، ودكتاتورية تتحكم في مصير البشرية جمعاء وتديفهم للهانة والنذل فتمحو من وجوههم ومن قلوبهم الامل

الإنسانية . ويؤكد مؤلف « اللامذكرات » هذه الحقيقة في إحدى مقالاته وذلك عندما يطرح بجديّة هذا السؤال : « ماهو الفن ؟ »

فإن السؤال الثاني يأتي على الفور ألا وهو : « ماهو الإنسان ؟ »

فمفهوم الفن إذن عند مالرو هو تعريف للإنسان ، ودلالة على كيانه البشري الذي يصنع القدر ويتمرّد عليه حينما يخالف معايير ومقاييسه وطموحه لتحقيق ذاته .

الفن إذن ليس خضوعاً للقدر ولكن بفضل يتغلب الإنسان على القدر وعلى المصير المحتوم ويخلق العالم طبقاً لطموحه وآماله ، وبذلك يصبح هذا الفن السلاح المقدس الذي يفتّح به الإنسان العالم وإن لم يستطع الفزّو الفعلي المادّي للموس فعلى الأقل يتحرّر من الاغلال والقيود والسيطرة أيا كانت ، وينطلق انطلاقاً الحرية معبراً عن ذاته في أعماق أصعاقها ؛ وماعمل سنجور الشعري إلا صرخة انطلاق .

• • •

لقد كانت أول مقابلة بين مالرو وسنجور في بداية عام ١٩٦٦ وفي مدينة دكاك بالسفغال وقد ترك هذا اللقاء في نفس مالرو انطباعات من شخصية سنجور ومن إفريقيا عامة ، أوضحه مالرو نفسه في مذكراته حيث يقول في أحدهما : (١٨) .

« دكاك مارس سنة ١٩٦٦ .

قدم الرئيس ليبولد سنجور ، رئيس جمهورية السفغال في دكاك المجمع مجموعة من النحت الإفريقي الموجود في إفريقيا ، وهي تتكون من ستمائة قطعة .

وهناك أيضاً قالب القناع الشهير الذي يظهر الفن الإفريقي لكل من دورين (١٩) وفلامينج (٢٠) ولغنائين كثيرين غيرهم . وقد أقيم المعرض في المتحف الجديد المصنوع من الزجاج والصلب الذي أتم الرئيس بناءه مؤخراً .

ولقد ذهبت أمس إلى المعرض لأنني أعرف بالخبرة أنه لا يمكن رؤية شيء أثناء الافتتاح ولا اعتقد أنني شعرت يوماً إلى هذا الحد بمدى تحول الآلهة حتى عندما كنت أعمل في المتحف الخيالي للنحت ؛ أن متحفنا هذا للإنسان وماهو إلا معرض لعلم الأجناس وفيه تقص الآلهة لبعضها البعض قصة الهيبة وعلى بعد بضعة كيلو مترات من هنا توجد قرى كثيرة وغريبة وهي تتميز بالاكواخ المخروطية الشكل .

Hotes de passage (١٨) لؤاد مارين

(١٩) (رسام فرنسي ١٨٨٠ - ١٩٥٢) (Deraïu) .

(٢٠) (رسام فرنسي ١٨٧٦ - ١٩٥٨) (Vlaminck) .

ولا تصبح الالهة أبدا تماثيل بهذه الدرجة الاخاذة الا بعد تجردها الكامل وهؤلاء فضلا عن ذلك يكونون عادة من الاجداد ، ان للغرب قدسية وللصين موتاهما اما افريقيا فلها اصنامها ؛ وقد اشتركت منذ بضع سنوات في احتفالات تحرير السنغال ومن قبل كنت قد طالبت باسم الجنرال ديجول التحرر لبلاد افريقيا الاستوائية القديمة من السيطرة الفرنسية ...

... تشاد ، جمهورية افريقيا الوسطى ، الكنفو ، وجابون ، وقد كانت افريقيا الاستوائية هي افريقيا قلب الظلمات كما وصفها جوزيف كونراد - وهي ايضا الادغال تتروصد للعوامس . وفي تشاد ... في فور لامي عند رحيل ليكلارك كان عدد السكان ستة ملايين نسمة ، ولكنهم اصبحوا الآن خليطا من خمسين الف نسمة ، وعندما اردنا الرئيس تومبالباي وأنا الذهب من قصره الى عربته الكاديلاك وطولها ٢٠ مترا ، كان علينا اختراق مجموعة من الراقصين العراة الذين طلوا اجسادهم باللون الأزرق ، وفي الميدان الكبير كان - هناك عشرة آلاف من المنتهين الى القبائل تزهيم نفس الرجفة ...

سوف تفتح قريبا الجمعية الوطنية - ما صعب هذا التناقض بين افريقيا الماضي وافريقيا اليوم ! ومن حولنا كانت تشاد ما قبل التاريخ وافريقيا اللانهائية التي رايتهم الطائفة والشمس تشرق فوقها .

وهاهي رقصة « الرجال الفهود » تقام في وسط دائرة من النساء يحملن على رؤوسهن الجرات .

بالامس كانت كلمة تشاد تعني بعض الوظائف المتناثرة في عزلة الصحراء البعيدة ، اما الآن فتشاد تعني كل هذه الجموع التي لا ادرى من اين آتت . ويبدو لي هنا في افريقيا الظاهرة نفسها التي شاهدتها في آسيا من قبل فمن أي سافانا برزت هذه الجموع التي منذ الآن وصاعدا تبدو كأنها جاءت من كل مكان ؟

وكان على الرئيس تومبالباي أن يقيم دولة من هؤلاء الراقصين ، المطيلة اجسامهم باللون الأزرق ، وحاملتي الاقنعة والفرسان الكارولينيين (٢١) اسلام افريقيا السوداء ووثنيتهما وعلى امتداد الطريق من دكا الى برازافيل ترتفع المباني الحديثة لتشاد الجديدة ، هذه المباني التي تعلو الرقص العريق وتعد الاسم الصاخبة بقيام الدولة ...

... كان رفاقي يرقبون انزال علم فرنسا ورفع علم تشاد بغضب مالوف لم أشاركهم فيه . فقد انسقت الى الثورة كما كانت مفهومة سنة ١٩٢٥ بدافع من كراهيتي للاستعمار الذي مرفته في الهند الصينية .

أحد المحافظين الفرنسيين الذين حكموا تشاد في الآونة الأخيرة ويدعى مارسيل دو كويت كان ليبراليا وقد دعا الكاتب « أندريه جيد » لزيارة تشاد . وكفني هنا يوميات جيد : « توجد بعض المستشفيات ولكنها لم تستطع أن تعوض المشاريع ذات الامتيازات الكبرى » ، ويرجع

لنا الفضل نحن الديجوليين في أن كل هذه الأعلام القومية ترفرف على سماء أفريقيا فقد نفذنا ما وعد به عيشا خصوصنا منذ أمد طويل ، وإذا كان أسلافنا قد انبهروا بالابراطوريات فقد انبهرت أنا بالمغامرة التي قادتنا الي الميادين الأفريقية اللامتناهية حيث يصرخ الراقصون المطلية اجسادهم ، قادتنا أيضا الى الحدائق التابعة لقصور رؤساء الجمهوريات حيث يتحدث الرجال السود بعضهم البعض أمام المنفرجات المنبهرات في زيهن القومي كما يحدث في قرطاجنة (٢٢) .

فكما رأينا بأدى ذى بدء هناك لقاء أندريه مالمو بأفريقيا السوداء فمالرو تعلم ان يكشف أفريقيا من خلال زياراته لها .

« فبين الزيارة البرونوكولية للرئيس سنجور بين افتتاح متحف الفنون الزنجية بذاكار، ذهبتم الى منطقة كازامانس ، اذ كنت أحلم بها منذ امد بعيد ، ربما بسبب تغني سنجور بهذه المنطقة التي تعرف بمنطقة الجزر » (٢٣) .

• • •

وفعلنا هناك قصائد عديدة للشاعر الاسود تغني فيها بجنوب السنغال اي الكازامانس . تلك المنطقة الشبه استوائية ذات الخضرة الخصبة والمستنقعات العديدة والغابات الشاسعة، وخاصة غابات - النخيل الذي هو الشجرة المفضلة عند الشاعر الأسود ؛ وعلى سبيل المثال نذكر هذه المختطعات من ديوان « حبشبات » وعنوان القصيدة : « رسائل الى الاميرة - الماركية دانييل دي بينفيل » (٢٤) :

« وصلتنى رسالتك يا اميرتي، في قلب البلاد العالية بين غامبيا وكازامانس حيث مكثت عند الاجداد القدامى ... » .

ولكننا لانستطيع ان نتحدث عما كتبه سنجور عن أفريقيا ، لان كل ما كتبه سنجور هو «فريقيا ، فهي الامل والحلم والواقع والحاضر والمستقبل ، منبع الحياة وموطن الجمال ، ورمز الامومة والاثونة والحب في مؤلفات شاعر أفريقيا الاسود .

ويستطرد مالمو حديثه قائلا عن القارة الشابة العريقة : -

« ولكن من وراء كل هذا بدلا من المركبات الصغيرة كانت هناك افريقيا الشامخة بمنظرها الخلافة : جزيرة جوريه التي توحى بأجمل اللوحات الفنية ، وتوحى بشهامة الماركي دى بوفلير (٢٥) ومغامراته العاطفية العديدة ، والنساء اى سيدات المجتمع « السنيار » (٢٦) بملايسهن

(٢٢) دواز مارين : Hotes do passage

(٢٣) دواز مارين

(٢٤) والدة زوجة الرئيس سنجور .

(٢٥) الماركي دى بولاي كان فارسا في القرن السابع عشر عين حاكما بجزيرة جوريه من قبل فرنسا وجزيرة جوريه امام ذاكار في المحيط الاطلسي وهي مشهورة تاريخيا حيث كان العبيد السود يرحلون منها الى أوروبا وأمريكا .

(٢٦) السنيار : كلمة تأتي من اللغة البرتغالية بمعنى سيدة من طبقة عالية .

الزاهية الجميلة ، والقمر الزاهي فوق الرأس الاخضر (٢٧) فنسيم جزيرة جورية الممتش كان يهتف على ليل افريقيا » .

وهذه الصورة بالذات تكاد تكون حرفيا في قصائد سنجور ألا وهي « جوال » مسقط رأس الشاعر حيث يقول : -

« جوال » :

أننى مازلت أذكر

مازلت أذكر السيدات السينات في ظلال الشرفات الخضراء ، السينات ذات العيون البراقة الخيالية كضوء القمر فوق الشاطئ ... « (٢٨) .

وعندما يتأمل مارلو من بعيد منظر جزيرة جورية هذه التى تطل على شواطئها دكاك فهو يتذكر بالأحرى كل ماكتبه سنجور عن تلك المنقطة، فنافذة الشاعر في مكتب قصره بدكاك تطل على نفس المنظر ، وكمن مرة نظر الشاعر وأستلهم أجمل ماكتب من تلك المناظر الأخاذة ...

ويحدث مارلو النظر لعله يعيش ثانية هذا العهد الذى أنطوى مع قرون مضت والذى طالما تحدث عنه سنجور وأثر على مارلو حتى أنه أصبح يرى افريقيا بعيون سنجور من خلال ما كتبه .

وتد على خاطره صور السيدات الجميلات بأطرافهن الناعمة التى تتألق تحت ظلال الخشبة الوارفة والورود الحمراء ، بملابسهن الهفافة الرقيقة ... ولكنه لا يشرح بخياله فقط وإنما يعيش أيضا من خلال أعمال سنجور واقع السنغال الحالى، فيذهب ليكتشف بنفسه ماكتبه شاعر السنغال عن الشاطئ والغاية والبئر والقرية والتخضر والتأخر (إذاً جاز لنا هذا التعبير بمعنى المنظر التقليدى للبلاد) فيعجب مارلو بالطقوس والعادات - والتقاليد في نظام اختيار وانتخاب زعيم القرية الذى لم يعد له سوى دور رومانى ، وعن ملوك القبائل الذين يجتازون كل أنواع التحديات حتى يفوزوا عن جذارة بمناصبهم ... فمثلا يقرب حتى الموت ، فان نجح في الصمود يصبح ملكا ، أى أن هناك قيما ومقاييس للشجاعة والاقدام ما زالت حية وقوية في ادغال القارة السوداء تسترعى انتباه مارلو بل تثير إعجابه وتقديره .



ولقصة لقاء سنجور ومارلو ترجع الى امد بعيد ، ولكن الالتقاء هو أعمق ، وطالما وجد في فكر وعمل كل من الكائنين . فما أكثر لقاءات سنجور بمارلو الفعلية ولعل أهمها هو أولها ، حضور أندريه مارلو لافريقيا السوداء من أجل افتتاح أول مهرجان للفنون الزنجية الذى اقيم في دكاك عاصمة السنغال في سنة ١٩٦٦ بمناسبة أعياد استقلال السنغال .

(٢٧) الرأس الاخضر : رأس من الأرض ممتدة في المحيط الاطلسي في منطقة دكاك .

(٢٨) من الخيال الخلال .

ويجب أن نتوقف لحظة عند هذه العبارة الأخيرة أى استقلال السنغال .

فقد يتساءل القارئ ، وما علاقة هذا بذلك ؟ أى ما علاقة استقلال السنغال باندرية مالرو ؟

الواقع أن هناك علاقة وثيقة بين الثقافة ورجل النضال اندرية مالرو في عهد شارل ديغول وبين مولد دولة ناشئة في إفريقيا السوداء السنغال فربطت نفس المبادئ بين قارئتين متناقضتين في الحضارة والثقافة والسياسة آنذاك ألا وهي أوروبا وإفريقيا .

وحدث هذا بفضل رجل واحد حقق الكثير من أجل بلاده : شارل ديغول وعلاقة مالرو بالجنرال شارل ديغول لا تخفى على أحد ، والدور الذي لعبه مالرو سواء في الكفاح مع ديغول في أحياء فرنسا سياسيا وعسكريا ، أو كوزير لديغول في المجال الثقافي ، فكان اندرية مالرو خير سفير لبلاده ليمثل احترام الحضارات وتقوية الصداقة والأخوة بين مختلف الأجناس والشعوب .

فما من أحد لا يعلم الكثير عن وطنية الجنرال ديغول ومفاعله من أجل أحياء فرنسا المعزقة المهزومة في مستهل الحرب العالمية الثانية ضد الألمان ، وما من أحد يمكنه أن يتجاهل الدور البطولي الذي قام به ديغول في صنع فرنسا الحديثة ، وما من أحد من قراء مالرو يمكنه أن ينسى ما فعله مالرو ، وكتاب **الأمل وأشجار الجوز باللاتامبرج** في هذه الحرب الشعواء التي طالما مزقت وهددت كيان أوروبا وتسببت في قيام حركات النضال من أجل استرداد الحرية على الصعيد السياسي فكانت حرب المقاومة ، كما كانت كانت سببا أيضا في قيام حركة فكر واسعة الأبعاد عنها نشأت فلسفة العبث مثلا على أيدي البير كامو واندريه مالرو وآخرين .

وعلى ذكر العبث ، فمن العبث فعلا أن نتجاهل فرنسا في الثلاثينات وما بعدها حقوق الشعوب السوداء في الحرية والاستقلال في تقدير سنجور .

ففرنسا بلد الحرية التي طالما كافحت من أجل تحقيق العدالة والمساواة والحرية ، بلد الفكر والعقيدة الحرة ولذلك فكانت هناك على حد تعبير ديغول ومالرو نفسه حتمية تاريخية واجتماعية تحتم على فرنسا التي تحمل مشعل الحرية أن تترك لبلاد إفريقيا السوداء حق تقرير المصير ، ولذا أيضا وعلى يد شارل ديغول كان اللقاء التاريخي بين سنجور وديغول الذي أثمر عن استقلال السنغال .

أما اصحاب الرئيس الشاعر سنجور وديغول فيمكن أن تلخصها من خلال رؤية لشخصية ديغول نفسه والذي أطلق عليه الشاعر الأسود اسم « الجبلوار » أى الفارس الهمام بأحدى اللغات الساندة في السنغال وهي الولوف .

وترجع قصة سنجور مع ديغول إلى عهد الحرب العالمية الثانية حيث أسر سنجور كجندي في الجيش الثاني للفرق الأجنبية التي كانت تحت اللواء الفرنسي ضد الألمان ، وأصبح الشاعر أسير حرب في معسكر مدينة أميان بفرنسا لمدة ثلاث سنوات تقريبا ذاق خلالها ألوانا من العذاب هو وأمثاله من الرجال السود الذين على حد تعبير سنجور نفسه « قدموا أنفسهم قربانا لكي تعيش

فرنسا . وكان هذا الموقف ينجم عن اعجاب سنجور الشديد بشخصية الزعيم ديجول الخارقة الاسطورية ، فبينما رفضت قوات ساحل الصاجان تحارب مع فرنسا ضد الالمان ، دخلت السنغال الحرب وضحت بجنودها ودماء ابنائها الشهداء الذين يصفهم سنجور في ديوانه « القرايين السود الذى ظهر في عام ١٩٤٨ في قصيدته المعنونه : « Assassinate على هذا النحو : -

« هاهم مددون على طريق الاسر ، على طريق الكارثة .

هؤلاء ، اشجار الحر المحشوقة .

تمائيل الالهة السوداء ملتفين بغلاف براق من الذهب .

هؤلاء شباب السنغال الاسرى المددون تحت تراب ارض فرنسا »

كتب هذه القصيدة في معتقل رقم ٢٢٠ اثناء الحرب العالمية الثانية حيث اسر سنجور مع رفاقه السود عندما اقتحم الالمان فرنسا .

وبناء على ذلك نجد ان في الازمات والشدائد يقف الجميع صفا واحدا ، ويساند المرء اخاه ، فالكف يقف وقفة واحدة وبدا واحدة في مواجهة الصعاب .

وربما يظهر هذا الموقف جليا في موقف سنجور تجاه الزعيم شارل ديجول في قصيدته الشهيرة « الى الجيولار » التى كتبها في معتقل ايمان في عام ١٩٤٠ وهى استجابة من سنجور ورفقائه لنداء الجنرال ديجول لتحرير فرنساقابل وعد منه لتحرير بعض دول افريقيا السوداء من الاستعمار الفرنسى الشيء الذى تم فعلا في حضور مالرو نفسه ! .

« جيولار » ! (٢٩)

لقد انصتنا اليك ، واستمعنا اليك باذن قلوبنا ، وانفجر صوتك براقا في قلب ليل السجن الذى نعيش فيه ، دوى صوتك مثل صوت ملك الغاب وكف انتفضنا حرارة واستجاسة في ذل السجن ومهاتته ! .

اننا كصغار المصافير الذين سقطوا من عشهم ، اجساد محرومة من الامل تتعرض للأذى .

حيوانات متوحشة لكنها مقطوعة الاظافر ، جنود بغير سلاح ورجال عراة .

وها نحن نتخبط ونسوء كالضرب الذى لا يجد الايدى التى تساعده .

اشرف الاشراف قد ماتوا : لانهم لم يقدروا على ابتلاع خبز العار في الاسر .

(٢٩) كلمة الجيولار : وهى تاحدى اللغات القومية في السنغال تعنى الفارس القديم الهامم الذى اشتهر في حفارة الريفيلا السوداء باصانته وشهاتته في الحرب وفي حماية المرأة والنفل والنسيج وهو الفارس الفوار الذى يتحمل به كل شاب في القبيلة والعشيرة ويمنى ان يصل الى مرتبة في الشجاعة والكرم ونبل الاخلاق .

وها نحن واقفون في الفخ ، في قبضة يدوحشية تبدو فيها كالحشرات ، فالجسد العربات
المسحقة والدبابات وقنابل الطائرات ا .

لقد بحثنا عن مأوى ، عن سند ، ولكن كل هذه الآمال كانت تنهال كتلال الرمال لقد بحثنا
عن زعماء وقد كانوا غائبين ، وبحثنا عن رفاق ولكنهم لم يعودوا يعرفوننا ولم نستطع أن نتعرف
على فرنسا .

وصرخنا ليل الأمانا ، ولكن ما من صوت أجابنا . اسياذ الكنيسة قد التزموا بالصمت
واسياذ الدول قد اشادوا بعظمة الضياع الحقيق .

هل هذا هو وقت الزوج ؟! أهذا وقت الرجال ؟! لا ! فالآن ما من شيء يهم سوى
أوروبا ! .

جيلوار !

ان صوتك ينطق بالشرف والأمل والنضال ، وترفرر أجنته في أعماق صدورنا .

ان صوتك سيعلم لنا الجمهورية التي سوف نشيدها في مدينة المستقبل في اليوم
الأزرق . في مساواة الشعوب الشقيقة وهذاذن نرد عليك :

« نعم يا جيلوار ! ها نحن بجوارك وهرن اشارتك ! »

ولعل هذه القصيدة تعبر اصلى تعبير عن اعجاب سنسجور بديجول وعن موقفه كصديق
وكناخ رفيق للكفاح ضد مستعمر ظالم ، جهور ، وحشي ، دنس ارض الوطن الحبيب .

فالصديق لا بد أن يسعف صديقه في وقت الشدة . ولعل اصدق مثال على ذلك هذا البيت
من شعر شوقي في قصيدته « دمشق »

« كلنا في الهيم شرق » !

وهكذا سمع ديجول النداء ووفى بوعده وتحمرت السنغال وعلى أيدي مارلو نفسه ا

ولكن اعجاب مارلو لافريقيا لا يتف عند كونها قارة المستقبل وانما هو شديد الإعجاب
بترائها الفني السخي المعبر ، وبدا نصل الى نقطة اساسية تجمع بين سنسجور ومارلو ، أي الالتقاء
الاستيثيكي (الفني) :

• • •

٢ - الالتقاء الاستيثيكي :

كثيرا ما يتعرض مارلو لامر يرجعه الى حد كبير ، فهو يروى أن الفن في المجتمع البشري
اصبح ذهنيا ، أي اتنا عندما نرى في أي متحف أي تحفة فنية نراها بصيغتنا العقلية ونفسية

بمقاييسها الجمالية التي اعتدناها واتخذناها معايير لقوانين الجمال ، ولكن أين معناها الحقيقي ؟ أين جوهرها الذي يتضمن المعاني العميقة ، والفلسفة دينية كانت أو روحانية التي من أجلها خلقت هذه التحفة ؟ .

ان الأمر يختلف تماما بالنسبة للفن البدائي أو الفن في أقصى الشرق والحضارات القديمة وإفريقيا السوداء ، حيث ان الفن كما يشرحه سنجور ما هو الا تعبير عن ذات الانسان البدائي بغض النظر عن المعايير الجمالية والمقاييس الاستتيكية . ولذا يخلق المرء العمل الفني من خلال رؤيته هو للواقع ، فالفن عبادة وتعبير وليس أداة جمالية وإنما أداة للوصول الى المقدسات وعالم الأرواح والاتصال بالعالم العلوي . وعلى هذا الأساس فالعمل الفني مثل القناع أو التمثال أو الاصنام أو أى تيمة من هذا القبيل إنما هو في حد ذاته تعبير واتصال روحاني مع الآلهة والأسلاف والأجداد ومن ثم فصانع التيمة أو القناع لا يصنعها طبقا لمقاييس جمالية أو معايير استيتيكية ، ولكن يجعلها تحمل معاني ورموزا معينة تعبر عن فلسفة محددة ومفاهيم معينة لأناس ينتمون الى قبيلة أو عشيرة أو معتقداتها ومقدساتها ، وبالتالي فإن هذا العمل الفني يعبر عن مشاعرهم تجاه تلك المقدسات والمعتقدات ويجسد أفكارهم وإحاسيسهم .

والفن في إفريقيا السوداء كما يقول سنجور ملتزم ، بمعنى انه لا يوجد هنالك فن جمالي بالمعنى المألوف . ولكن الفن له شكل وظيفي أى أنه يقوم بوظيفة معينة يؤديها من أجل غرض معين وكل انسان في القرية فنان ، وإن كانت هنالك درجات مهارة تتفاوت في الأداء . ولكن أى شخص في القبيلة يستطيع ان يخلق قطعة فنية أو تيمة أو قناع أو يقوم برقصته ، لأن المقصود من اداء العمل الفني هو الاتصال بالأجداد والآلهة وجعلهم يتأثرون ويحققون الأمنية المطلوبة من البشر ، ثم يملون رغبتهم عليهم بدلالات معينة تبدو للبشر عن طريق العمل الفني نفسه ، فالفن اذن مشاركة وجدانية وعاطفية قبل أى اعتبار آخر . فالرنجى يلمس ويحس العالم المحيط به عن طريق حواسه التي يعبر عنها في كل عمل فنى .

وهنا يتقابل فكر مارلو بموقف سنجور الذى ما زال يعيش فعلا ما تمناه مارلو ، أى إعادة الإبعاد المقدسة والمعاني العميقة لكل عمل فنى .

وهذا هو سر الصداقة والاعجاب الذى كان يربط مارلو بالرسام العالمى بابلو بيكاسو Picasso الذى يعتبر أيضا صديقا للشاعر ليوبولد سنجور ، فعلاقة سنجور بيكاسو وطيدة وقديمة نذكر منها هذه القصيدة المهداة لبيكاسو من ديوان « أغاني الظلال » وعنوانها « قناع رنجى - الى بابلو بيكاسو » :

« نائمة هي هادئة فوق طهارة الرمال .

كوميانات (٣٠) نائمة تستر نخيلة خضراء شعرها الأحمر وجبينها النحاسي

الجفن مغلق والحاجب والمقلة الى الأبد .

هذا الهلال الرقيق ، هذه الشفاه السوداء الرقيقة أين منها الآن ابتسامة الانثى المتواضعة الحنون ؟ .

ورقة الخد ، ورقة الدقن ينشدان توافق الخط والرسم في متحف

يا لك من رأس نحاسية كاملة يصقلها الزمن ،

لا تعرف دنس المساحيق ولا احمرار ولا تجماعيد ولا علامات للدموع او للقبلات .

بالك من وجه خلقه الله قبل ذاكرة الزمن .

وجه فجر العالم ، لا تنفج بحنان حتى لا تثير شهوى .

اننى اصبدك يا جمال بعين « أحادية الوتر »



اكتشف بيكاسو الفنون الزنجية في حوالي الثلاثينات ومن هنا نرى تشابها الى حد كبير بين اسلوب بيكاسو واسلوب الفنون الزنجية . فاولا يعتبر بيكاسو شديد الاحساس بأشكال قديمة للغاية مرت بحضارات عريقة نذكر منها « جمجمة الموتى » « عنكبوت الكابوس » و « ثورة الشمس » و « جواد الموت » ونستطيع ان نرى هاتين الأخيرتين في لوحة بيكاسو المشهورة « جرنیکا » Guernica .

وبذلك فان أعمال بيكاسو تنادى عبر القارات تلك الأقنعة والتماثيل المقدسة بادخال افريقيا التي تجذبنا بسبب ما لا نعرفه عنها تماممثل تماثيل الالهة في مصر القديمة التي لم تعد بالنسبة اليها تجسيدا لموتى اختفوا ، ومثل آلهة سومر التي لا نعتقد فيها الآن ، أو آلهة الهند أو المكسيك أو الشرق الأقصى أو حتى القديسين الذين لم نعد ندعوهم ، أو الأقنعة والاصنام التي لم تعد بالنسبة اليها ارواح الاجداد ، ان كل هذا الآن لا يحمل لنا المعاني نفسها التي كان يحملها لأولئك الذين ابتدعوه ، ولكن يكمن في كل عمل فنى مما ذكرناه هنا ، يكمن شيء ما زال يحيرنا ويستمرى أعجابنا .

وفن بيكاسو يتماشى بل يلتقى مع الفنون البدائية ، فبيكاسو يحيى تلك الفنون من جديد ويقترب منها لانه اساسا يحطم بفنه كل التقاليد ، ولا يعترف بأن هناك شيئا يسمى استمرار اسلوب أو مذهب . فيقول مالرو على لسان بيكاسو (٣١) :

« فليسقط الاسلوب ! هل كان لله اسلوب ؟ ان الله خلق القيثارة والكلب والقط واليوم واليام ، مثلى . والفيل والحيوت ، نعم ، ولكن الفيل مع السنجاب ؟ انما خلق الله ما لم يكن موجودا ، أى خلق من العدم ، وها انا ايضا اخلق من العدم ، وخلق الله ايضا فن الرسم ، وانا ايضا . »

وبذلك وعلى يد بيكاسو وكما هو الحال في الفنون الزنجية فان الخلق الفني يأتي من أعماق
أعماق اللاشعور ، وباطن الانسان بكل ما هو قريب منه اعتاد عليه والفن ، وبكل ما هو غريب
يجعله الانسان ، ومن هنا يأتي الشعور بشيء مالا نعرفه ، أو بفراغ كانت الحضارة الغربية تحاول
أن تملأه بمعتقدات أو تقاليد أو مقاييس ولكن بقي هذا الفراغ الروحاني في القرن العشرين بل
تزايد . فبينما ناشد الفن الكلاسيكي سعادة الانسان في الطبيعة والتوازن بين المرء والأشياء
وجمال الكون ونظامه ، وبينما ناشد الفن المسيحي عموما رضاء النفس بما منحه الخالق ،
نرى الفن في القرن العشرين بحث الانسان على التمرد على الاوضاع وتدمير المعتقدات الزائفة
والتقاليد الخائفة وبدموه الى التعبير الصادق لما يعرفه من قلق وغضب وتوتر من موقفه المهدد
بالحرب والدمار في عالم دون معونة الله .

ولعل سر أجمل عمل فني هو قابليته للتغيير ، بمعنى أن كل واحد يرى فيه شيئا
يختلف عما يراه الآخر . وكل مذهب أو مدرسة فنية تكتشف فيه إبعادا جديدة وأسرارا جمالية
أو فلسفية أخرى ، قد تتعارض مع الاكتشافات السالفة ولكن يستمر العمل الفني ويفرض نفسه
فرضا على الزمن وعلى المفاهيم والنظريات المختلفة التي تكسبه كل مرة بنظرة جديدة .

فهو يحمل بداخله معانيه ، وبالتالي فهو قائم بذاته مستقل عن الذي خلقه وعن الذين
يشاهدونه عبر الاجيال والمصور .

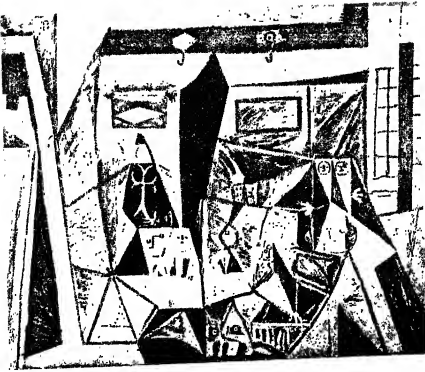
ويضرب مارلو امثالا عديدة في هذا الشأن نذكر منها الآتي :-

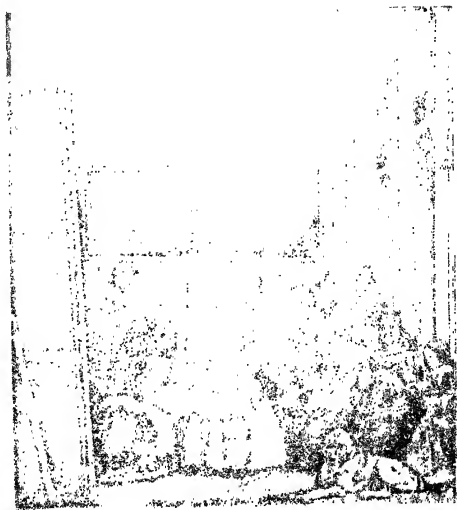
ان الرسام العالي « رامبرانت » (٢٢) مثلال يعد يفهم ويقيم بعد رؤية « فان جوج » (٣٣)
لم يعد يفهم بنفس الطريقة التي كان يفهم بها ويقيم في زمن دولا كروا (٢٤) اذ ان دولا كاروا
كان يرى فيه المقاييس الرومانسية التي كان هو نفسه متأثرا بها ، أما فان جوج فقد رأى فيه كل
عناصر المدرسة التأثيرية التي ينتمي هو نفسه اليها .

ويعتقد مارلو ان ميزة الفن الحديث انه لا يحاكي الطبيعة ولا يسرد ولا يحكى مثل الفن
الكلاسيكي أو الرومانسي ، وإنما هو يحطم الشكل المألوف ويعبر عن رؤيته الخاصة للعالم الخارجى
ولاحاسيس الفنان شخصيا ، ومن هنا يلتقى بالفن البدائي ، فالفن الحديث حطم الشكل
التقليدى وخلق لنفسه معايير شخصية للإبداع للفنى ، مثلما هو الحال في فن بيكاسو مثلا .
وكما هو مبين في نفس اللوحة التي رسمها الفنان الأسباني الكلاسيكي Velasquez « فيلا سكوير »
وبعدها رسما بيكاسو والسماء « الكئين » (Les Menines (٣٥) .

ويتضح اختلاف الاداء في اسلوب الرسم في معالجة نفس الموضوع .

Rembrandt	(٢٢)
Vau Gogh	(٢٣)
Delanoix	(٢٤)
Les Menines	(٣٥) الكئين : هكذا تسمى كل سيدة تصاحب اميرات اسبانيا توصيفات الشرف او مريبات .





ويقول سنجور لصديقه مالرو :

« شاء القدر لييكاسو يوما ما أن تهترمشاعره أمام قناع باوليه (٣٦) Baoule ، كما شاء القدر أيضا لابولينيير أن يتفنى بأصنام الخشب الزنجية كي يغير القرب نظره للفن ويوافق بعد ألفي عام أن يترك محاكاة الطبيعة على حسب المعايير الكلاسيكية التي ليس لي دراية عميقة مثلك يا صديقي بتاريخ تطور الفن ، ولكنني اعترف أن فننا الزنجي هذا إنما أثبت عنه فنون قبله ، فمهدت له الطريق ، فبشرت حضارات قديمة أخرى عن قدمه ، حضارات لها ميزة خاصة في اكتشاف كل ما هو ولاء الطبيعة من الطبيعة ، وكما تكون إفريقيا منطلقا في التعبير الفني بالنسبة للمدرسة بيزنطة التقليدية ! فنحن ونحن فقط هم الذين استبدلوا بمنطق الرؤية منطق اللبس » (٣٧) .

وهكذا يتفق مالرو مع سنجور على أنه يرجع الفضل لإفريقيا السوداء في إيجاد فن معبر قبل أن يكون خاضعا لأي معيار جمالي آخر ، وهذا الفن شديد الحرية في التعبير إذ أنه يجسد الواقع على حسب حواس الزنجي وعلى حسب منطقته وفلسفته للأشياء المجاورة ، معتمدا كل الاعتماد على كل حواسه وليس على قوانين وتقاليد فنية معينة أو مذهب أو مدرسة ، فلا إضاءة خاصة ولا أحجام ولا خطوط ولكن رموزها معاييرها ومفاهيمها ودلالاتها المختلفة عند كل رجل زنجي عندما يرى هذا العمل .

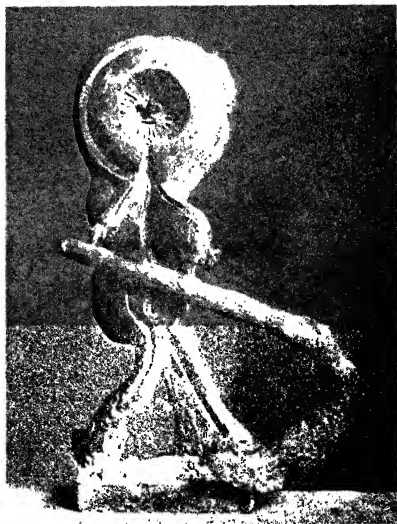
والمدرسة التكعيبية والسرالية الفرنسية قد فهمتا كل هذا ، بل أدركتا أيضا أن أهم سمة للرسم الحديث على قرار الفن الأفريقي يكون التعبير والانفعال ولعل سر نجاح المدرسة السريالية بمختلف تشعباتها وأسمائها اللاحقة يرجع أيضا إلى هذا الانجذاب في الانفعال بالواقع أولا ثم التعبير عنه بالتحرر المطلق عن الخطوط والألوان والأحجام التقليدية .

وهكذا يدعى الفن الواقع تعميما كي يميزه العالم على حسب الرؤية الداخلية للفنان ، ومن هنا تبدو أهمية الفن الأفريقي بالنسبة للفنون المعاصرة . فالفن منذ اكتشاف الغرب لفنون إفريقيا السوداء في بداية القرن العشرين لم يعد أسلوبا فقط أو حتى مدرسة أو مذهب ولكنه هو فن مجرد بلا أي تعريف آخر . أن الفنانين السرياليين تأثروا كل التأثير بالفن الزنجي لأنهم رأوا مثله في ما ولاء الطبيعة ، أي كل الأبعاد المقدسة والخفية التي ترتب الواقع بما وراء الواقع ، أو أن شئت هذا الذي سماه القديس بولس على حد قول مالرو : « بداية الذي لا نراه » . فكل الأشكال للفنون المعاصرة كما يوضح مالرو (٣٨) أصبحت طليقة ليست حبيسة الأشكال التقليدية كما هو مبين في هذا التمثال الخشبي الذي نحت بهيكاسو مثلا . وقد أسماه بيكاسو « الحاصد » (Le faucheur) كناية عن تلك التي تحصد رؤوس العباد مثلا ، والملاحظ هنا تجريد العمل الفني من أي معايير تقليدية للنحت كلاسيكية كانت أو رومانسية أو غيرها ، وإنما يقترب أشد الاقتراب من الفن البدائي وخاصة الزنجي .

(٣٦) باوليه : قبيلة من إفريقيا السوداء ذات حضارة عريقة مشهورة بهاراتها في النحت وصنع الأنتية الذهبية .

(٣٧) « زوار مارين » ص ٣١ .

(٣٨) داس السيج البلورية .



من هنا يلتقي هذا الاتجاه الحديث في الفن بخط المقدسات فيبدأ بينهما الحوار ، وهذا ما يحدث بالفعل في الفن الزنيجي . فالنسن يأتي بمقدساته أيضا وهي كاملة فيه مستقلة به لانه يحمل الحقيقة الداخلية لكل انسان ، ولكن ميزة الفن الزنجي انه لا يؤدي الى العزلة بل يؤدي الى الاتصال بالآخرين فبينما يعبر تصوير الأشياء الطبيعية في الفن الاوروبي فقط عن مقدرة الفنان في الرسم فان تصوير الأشياء في الشرق الأقصى يكشف لنا عن الحياة ، لماذا ؟ لانه كما يوضح مالرو سواء كان في الشرق الأقصى أو في أفريقيا فالأشياء تعبر عن رؤية الفنان لها وعن احساسه بها ، بمعابرها المقدسة له ، وبذلك يلتقي بالمظهر الخارجى للأشياء ويبدله بعملية خلق من جديد بكل أبعاده المقدسة . وكما يوضح مالرو ، بل كما وضع سنجور مرارا نفس الفكرة ، هناك عملية مشاركة وجدائية ومشاركة كلية بين خالق الشيء أى الفنان ، والشيء نفسه حتى انه يصبح هناك أيضا في المرحلة التالية عملية سيطرة وتملك من قبل الأخير على الشيء ، فالفنان عندما ينحت التيمة أو القناع انما هو يسيطر بخلقه هذا على القوى الخفية التى وراء هذا الشيء ومن ثم يسيطر على عنصر من عناصر الطبيعة المحيطة به فيغلب عليها ، ومن هنا أيضا تأتى المعتقدات الكثيرة حول مقدرة السحر في الفنون في أفريقيا السوداء وفي أقصى الشرق وعند قدماء المصريين .

فكما رأينا فان مالرو شديد الإعجاب بكل فن بدائى لانه معبر ولانه يعيد الأبعاد المقدسة لعملية الإبداع الفنى . وربما هذا هو الذى شدته نحو الفن الزنجي بالذات الذى غير مفهوم الفنون في القرن العشرين . ورأينا كم كانت نظرة سنجور تلتقي بأمال مالرو بالنسبة لمقدرة أحياء الفنون الحديثة بحيث تحقق للمرء الوصول الى الجمال فحسب ولكن التحرر من الرؤية التقليدية ، وبالتالي إعادة تكوين العالم الخارجى على حسب أهوى أحاسيس ورغبات الانسان . ومن ثم فهي عملية سيطرة الانسان على الطبيعة لا خضوعه لها ، ورأينا أيضا سر الفنون الزنجية واتحاحها للعالم الحديث . فالفن في أفريقيا طالما يعبر عن مدى اتصال المرء بالعالم الخارجى والعوالم الخفية ، يحمل معه قدرته الفريدة في الدوام ، ويحمل معه أيضا أبعاده الدينية ، فالفنان مثل رجل الدين يتجاهل الواقع أو ينقص من قيمته لانه مثله والاق بأنه يحمل في نفسه مصدر الخلود ، وان كان طبعيا خاضعا الى حد ما لحضارته ومجتمعه وتاريخه ، ولكنه يتخطى كل هذا بل يسبقه في عملية تغيير الواقع وإعادة صياغته من جديد . وهناك صلات خفية تربط بين كل فن صادق في التعبير عما يبحث عنه الانسان في أى مكان في عملية الخلق هذه ، بل هناك حوار خفى يربط بين كل الفنون عبر القرون والحضارات ، فلا عجب اذا رأينا تشابها كبيرا بين تماثيل بيكاسو الفخارية وبين تماثيل قبيلة البنان (٣٩) ، ولا عجب أيضا ان نرى عمل كراسي الملك العجوز للفنان « روه » (٤٠) يشبه الى حد مدهل ملوك الداومى في افريقيا السوداء .

واللاحظ بالنسبة لمارلو كما هو الحال بالنسبة لسنجور ان هناك ايضا نقطة تشابه كبيرة على النمطين الستاتيكي (Statique) التاملي والديناميكي (Dynamique) الحركي عندما يتاملان اي عمل فني .



١ - النمط الديناميكي :

ان الشيء الغريب والهام الذي يجمع بين مارلو وسنجور في هذا المجال هو انهما كليهما يتخذ الفن وسيلة للاقدام على الفعل ، على الحدث في الحياة ، ويؤمنان بأنه بفضل الفن يقبل المرء على الاقدام على الفعل (الحدث) في صنع التاريخ . فبالنسبة لمارلو رأينا كيف لعب الفن دورا في حياته ورأينا كيف ذهب الى اقصى الشرق كي يتعرف على حضارة الصين والهند الصينية العريقة ، وطاف العالم بحثا عن معرفة الحضارات والفنون المختلفة . وهذا يبدو واضحا في « الطريق الملكي » (٤١) مثلا حيث نرى البطل كلود فانيك (Claude Vannec) يفاخر بحياته بحثا عن تحف فنية في الأدغال ، تلك التماثيل التي ترجع الى عهد بعيد في حضارة الخمير (Khmer) بالصين .

اما بالنسبة لسنجور فالمعروف انه كرجل اسود لا يتخذ اي خطوة الا عن طريق فن من الفنون . فكما ذكرنا من قبل فان كل تعبير او انفعال للزنجي انما هو اتخاذ موقف في الحياة من خلال الفن ، او بعبارة ادق كلما يحتاج المرء الى الفعل او الحدث عبر عن هذا في عمل فني ، نحت او رقص او شعر .

وارتجال الشعر هو اكثر الفنون للرجل الأسود وهناك العديد من انواع الشعر كالرثاء والمدح والتفاخر ونحت الشباب الى الصيد ، والحصاد ولعب الرياضة والاقدام على الحرب ، والتشبيه بالاجداد .

وكل هذا ينعكس في شعر سنجور نفسه الذي يترجم كل حدث الى شعر غنائي او حماسي

حقا يمكننا ان نقول ان الزنجي يفنى حياته » (٤٢) .

ويضيف سنجور متحدثا الى مارلو :

« هل تعلم يا صديقي ان فلاحينا في السنغال اخترعوا رقصة لخطبة التثنية وان موسيقانا تصاحب دائما الاحتفالات والمسابقات الرياضية وفي النهاية استطيع ان اقول ان كل فن زنجي ليس الا شعرا » (٤٣) .

من هنا يمكننا أن نقول أن الفن الزنجي أساسا وقبل كل شيء حوار . فهو حوار مع العالم الآخر ، وحوار مع المشاهد له ، وحوار مع الحضارات المختلفة الأخرى لأنه أساسا وقبل كل شيء مخاطبة للوجدان ، وللأحاسيس البشرية في محاولة لسيطرة الإنسان على الطبيعة وصهرها في قالب يناسبه ويجعله يتوادم مع واقع حياته .

إن الموسيقى والرقص شيئان في دم كل زنجي يولد بهما وتجريان في عروقه ، ويستطرد الحديث بين سنجور ومالرو في هذا الصدد على النحو التالي فيقول سنجور لمالرو :

« إن اندر به جيد يقول إن أغانيكم الشعبية بالنسبة لأغانينا تبدو في غاية الفقر والبداية ، وأذكر أن النفس المسكين الذي كان يعلمنا التراويح الدينية في صباتنا في الكنيسة ، بأنه من مسكين ! أنه كان يتعذب ! لأنني أنا واصدقائي كنا بالفطرة نرقص ونثب ونلهو على إيقاع الأبدى وأنغام الجاز ! .. »

والآن بدأت أوروبا تكتشف أسرار ومزايا الآلات الموسيقية الزنجية الإيقاعية مثل الطبول والتام تام الذي سبق كل آلة في الوجود .

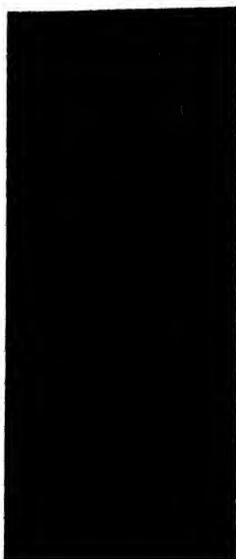
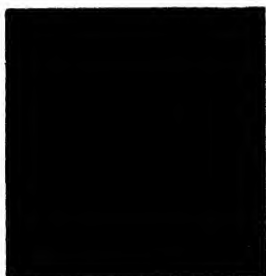
هل تعرف ما هو روح الموسيقى عندنا ؟ إنه الإيقاع بالضرب بالأيدي أولا ! .

ويكمل مالرو الحديث قائلا : -

« إن لديكم أيضا موسيقى غطت العالم بأسره أعني موسيقى « البلوز » في الولايات المتحدة تلك الموسيقى الوليدة لأجيال من الألم والعذاب للجنس الأسود .

ويجب علينا هنا ملاحظة أن كانت كل الفنون تتساوى طالما هي تعبر عن الفرض الذي من أجله وجدت ، هناك فنون غير معروفة على الإطلاق مثل الرسم الذي لا يعرفه سوى الفن الحديث في إفريقيا مثلا ، أما الفنون التقليدية التي تعبر عن التراث الحقيقي لإفريقيا السوداء فهي كما نعلم الرقص والموسيقى والنحت ، وخاصة نحت الأصنام والأقنعة .

وهنا لكل مناسبة قناع ، فللرقص والحرب والأعياد والمواسم يلبس أفراد القبيلة قناعا معيناً ملائماً للمناسبة ويشارك في الاحتفال فيتحذ هذا الاحتفال شكلاً دينياً يتقمص فيه الفرد بشخصية ومعاليم القناع الذي يلبسه ، كمن يتغلب على صعوبات الطبيعة ، مثل الجفاف أو الكوارث الطبيعية أو المرض أو العقم أو ما إلى ذلك ، وبالطبع هناك أقنعة لأرواح شريرة كما هناك أقنعة لأرواح خيرة وأقنعة لالهة الشر والخير والقيم المختلفة . فكل قناع له معانيه وفلسفته وشكله ومعايره ويتخذ شكل القناع أحجاماً مختلفة ، فمنها الذي لا يبلغ طوله إلا بضعة سنتيمترات ومنها ما يبلغ طوله بضعة أمتار ، وأحياناً يظهر القناع وحده ، وأحياناً يركب القناع على جسد تمثال بأكمله كما هو مبين في هذه الأشكال في فن قبيلة الدوجون (Dogon) في وسط إفريقيا السوداء .





فالقناع حاضر وموجود في كل مناسبة تقليدية لانه يعتبر الأداة الرئيسية في الاحتفاء بهذه المناسبة ، ومن « أغاني الظلال » نذكر مطلع هذه القصيدة للشاعر الأسود : « يا أفنعة يا أفنعة !

انت أيها القناع الأسود وانت أيها القناع الأحمر ، وانتم الأفنعة ذات اللون الأبيض والاسود أيها الأفنعة في الانحاء الأربعة التي تفتح منها الروح تحيا اليكم في السكون .

تحية اليكم في السكون !

وتحية خاصة اليك يا جدى ايها القناع ذوراس الاسد « (٤٤) .

ففضل القناع اذن تأى روح الجد وتنطق في علامات ودلالات معينة يكسف غنيا عراف القرية الساحر عن ارادة الجد باخاذا موقف معين نجاة مناسبة معينة او حل نزاع او اسكال او ما يعادله ، فبفضل القناع اذن يعيش الموتى مع الاحياء ويفرغون احترام ذكراهم وارادتهم .

وهناك انواع عديدة من الأقنعة فمنها الذى يصور الاسد او الثور او المساح ، أى حيوانات مقدسة لها ميزتها كطلمس في القبيلة ، ومنها ما يجسد شكل احد افراد الاسرى المونى الغدائى، ومنها الذى يجسد فكرة الجمال او الشر او الخضوبة او الحصاد الخ ...



قناع « دوجون » يمثل نوعا من انواع القناعات المسماة



فنّانة نيفة من الكونغو خاصة بمراسيم الموت

فنّانة نيفة من الكونغو خاصة بمراسيم الموت



قناع خشبي يمثل « ناميا لاية السيدات الحوامل في الريشيا
السوداء »

وهنا يلتقي نكرا مالرو وسنجور حيث أن مالرو كثيرا ما كان يتحدث عن المعنى الحقيقي للقناع ، ذلك المعنى الذى يبدو واضحا كما رأينا فى إفريقيا السوداء الذى افتقدناه فى الحضارة الحديثة ، إذ أن فى كل متحف نرى الأفعنة العديد من أقصى الشرق ومن أدغال إفريقيا ، ولكن نشاهد من الخارج بنظرة ذهنية فقط وليس عاطفية ، أو بعبارة أدق متعاطفة مع القناع نفسه مثلما هو الحال فى المكان الذى صنعه القناع ، وكثيرا ما تحدث مالرو عن هذه النقطة بالذات فى المتحف الخيالى وفى أصوات الصمت فأشار الى المعنى الاساسى للقناع بالنسبة للذى

يشاهده ، وأشار الى القاميس الجمالية التى يخضع لها صنع القناع ، بل تناقش مع سنجور نفسه من هاتين النقطتين .

وهذا الموقف يتقابل مع حضارات أخرى مثل حضارة الشرق الأقصى ، حيث أن الفن اساسا مشاركة وجدانية وعاطفية وأنفعالية مع الفنان وتحته ، أو بعبارة أدق وماخلق . فلا يوجد فى إفريقيا فن جيد وفن ردىء ، وإنما هو الفن بمعناه المقدس المطلق ، أى تصوير الواقع من خلال رؤية مقدسة . ونفس الشيء يحدث فى حضارة سومر القديمة وفى الشرق الأقصى ، فهى عملية الخلق بعينه ، على غرار الخالق سبحانه وتعالى وماخلق . ولذا فكل عمل فنى قديم يحمل معه وينبثق منه هذا الظهر المقدس وهذا العمق الدينى الذى يجعله يوحى للإنسان المعاصر بمعان خفية من الروحانيات والأبعاد التى ترتقى بالإنسان الى أسماى وأعلى معانى الرؤية الجمالية ، فإن كانت اللامع تختلف تماما والقاميس الفنية تكاد تتعارض من الناحية الجمالية والاستثنائية عامة فالتحفة الفنية فى هذه الحالة تخلق مناخا واحدا ، وينبثق منها احساس واحد مثلما نستطيع ان نتأكد منه من خلال هذه الاشكال المختلفة لفكرة الخصوبة ، التى تبعد كل البعد فى هذا الشكل الوضع أدناه عن المعايير الجمالية المعتادة ، ولكننا نحس بمعناها العميق من خلال التركيز المناطق الخصبة فى المرأة كالبطن والندى .

رأينا كيف أن النحت يعبر فى مظهره السائد فى إفريقيا السوداء أى أن نحت القناع ونحت التماثيل له فلسفته وله أهمية بالغة فى حياة القبلية .

ورأينا أن لكل مناسبة فنا الذى هو لغتها وميلها . للتعبير ، مثل الميلاد والحصاد والظهور والزواج والموت والحرب ، وهذه المناسبات لها موسيقاها وقصتها الخاصة .

حتى أن الشاعر الأسود يقول فى هذا الصدد شعر صام خالدا :

« اننا رجال الرقص ، الذين لا تثبت خطاهم الا اذا ضربوا الأرض ضربة قوية بأقدامهم فتنتطق ! » (٤٤)

(٢) - النمط الستائيكى التاملى : هناك شيء آخر وهو موقف الفنان نفسه من أى عمل فنى آخر ومدى تأثيره به ، وهو الوضع التاملى المتعمق الذى تحمله التحفة الفنية ، فلدينا

بالنسبة لمالرو كما رأينا أعمال عديدة عن فلسفة الفن والتأمل ، أهمها سيكولوجية الفن (٤٥)
 البعيد حيث يحدق ويتفحص مالرو كل تحفة فنية يراها أو يتمنى أن توجد بالمتحف الخيالي
 من نحت ورسم وقطع زجاجية ونسيفساء وصور فوتغرافية ... الى آخره ... ومن هنا نمره
 انتاج مالرو في فلسفة الفن وإيجاد العلاقات والصلات بين مختلف الفنون عبر القرون .



ربة الخصوبة في حضارة ما بين النهرين القديمة
 (متحف العراق الحالي)



نفس القطعة مكبرة

كذلك الحال بالنسبة لسنجور الذي كثيرًا ما يتأمل القطع الفنية فتوحي له بالتراث الذي
والتفاخر مثلما نراه يشاهد القناع الذهبي الشهير «البولية» حيث يتغنى الشاعر في فعاله
بالخطوط والرموز والإيقاع لهذا القناع المشهور.

ويستطرد المرو قائلا إن علاقتنا بالفن منذ أكثر من قرن لم تتوقف عند كونها ثقافة بدوية،
فتتخذ الاتجاه الذهبي البحث أكثر فأكثر.

فمعلوماننا أكثر من أحساسنا الفني التقائي - وبالتالي فالزائر الذي يقوم بزيارة لمتحف الدولة
مثلا يعلم تماما أنه عندما يشاهد رسومات جوياء أو مايكل أنجلو فهو لا يشاهد سوى تحفة
من أعمال هؤلاء العباقرة وإنما وجدانيا وعاطفيا، فهو لا يشعر بتلك الرهبة الرائعة والانفعال الم

الذى احس بهما الفنان نفسه عندما خلق هذه التحفة مجرد صورة تعكس اول انطباع فقط للأحاساس الحقيقى الذى حاول أن يعبر عنه الفنان والمساءر العميقة التى هزته حينما خلق هذا العمل المبدع ، وهناك كثير من الامثلة لمثل هذا الموقف نذكر منه مع مالرو نفسه الاحساس بالرهبة العظيمة والتقوى التى تملك الفنان عندما قدم لنا « المسيح النقى » المعروض بمدينة بريبيثوه بفرنسا والتابع لمدرسة كولونيا للفن .

وهنا نستطيع أن نلمس الى اى حد يمكن للفنان أن يعبر عن احساس صادق ، وكيف ينتقل هذا الاحساس الينا نحن الذين يشاهدون هذه التحف الفنية من خلال القرون والاجناس والثقافات المختلفة .

وكلنا نشعر بالاعجاب ونشترك سويا في دنيا الفن للمتحف الخيالي وان كلمة اعجاب لا تكفى وانما نستطيع أن نقول أننا نشترك وجدانيا وعاطفيا هذا الذى يعبر عنه الفنان العظيم .



ان مالرو شديد الاحساس بالرسم وبالنحت. اما سنجور فهو شديد الاحساس بالموسيقى وبالنحت . ولكن الذى يجمع بين الاثنين هو الربط بين الاحساس بسبب والانطباعات التى تنتج من رؤية منظر معين فى الطبيعة فيترجم كل هذا الى ابداع فنى بمعالجة فنية ترتكز على تأثير كل منهما للفن من الفنون او لاكثر من فن ، فالحياسة عامة ترى من خلال هذا الفن ، ومن زاوية معينة تخدم مقوماته .

ونستطيع ان ناتي بمثل لما نقوله من رواية « الامل » لمارلو عندما نرى ان احد الابطال وهو لوبيس (Lopez) النحات لا يرى الواقع الا من خلال فنه ، حتى انه عندما يصف رجل الكنيسة يسترعى الانتباه فيه انه مهمل المنظر ، لحيته بيضاء قبيح المنظر ولكن « يتمتع بيدين يستحقان الرسم » .

والحرب بالنسبة لنفس « لويز » تعنى فرصة المرء لكى يسخر الفن فى خدمة النضال الوطني فيقول : -

« لقد نعطي الجدران العارية للرسمين ياصديقي وهيا ارسم و ارسم ، ان الذين يعرفون امام هذه الجدران ونحن نتحدث اليهم ، يحتاجون الى الحوار . لا يمكن ان يخلق فى جماهيرى عندما لانجد شيئا نقوله للجماهير . ولكننا يمكن ان نناضل سويا ونفعل حياة سويا نضع اسسها معا، وفى هذه الحالة يكون لدينا كل شيء نقوله سويا » .

اما موقف سنجور من الفن فما علينا الا ان نذكر ان كل مظاهر الحياة بالنسبة للشاعر الاسود هى فن ، فالرقص والموسيقى والنحت جزء لا يتجزأ من حياة كل زنجي ، فهو يعبر عن كل مظاهر الحياة بهذه الفنون ، حتى ان طبول التام تام نفسها تعتبر لفة قائمة بذاتها ، يتحدث بها سكان الادغال من فوق الجبال والوديان .

وعندما يتحدث سنجور عن الموسيقى والرقص الزنجي او يتأمل ايا من الاعمال الفنية ، زنجية كانت او من حضارة البحر الابيض المتوسط العريقة التى طالما تفاخر بها سنجور على اساس ان هذه المنطقة منبع الحضارات والمدنية، نستطيع ان ندرك الى اى مدى تتقارب افكاره مع افكار مالرو ، فالتحفة الفنية تلعب دورا عاما عند هذين الكاتبين حيث تجعلهم يتأملون طبيعتها ومعناها ومدى صلتها بالفنون الاخرى او بتراث آخر .

ومن ثم يكون الفن بالنسبة لهما ذا طبيعة تأملية هامة ، فيتأثران به وينفعلان معه ويوحى لهما بعلاقات بعيدة ومشعة بين مختلف الشعوب، ومن هنا ناتي عملية « فلسفة الفن » عند مالرو وعند سنجور التى تؤدي بهما الى مواقف مميزة تجاه الحضارة عامة .

ان الفن فى مفهوم سنجور ومالرو طبق ليس حبيسا او مرتبطا بمنهج سياسي او اى اهتمام آخر غير اهتمامه للقيمة الذاتية النابعة منه نفسه ، يمكن للفن ان يخدم فكرة او مذهب او فيما برجوازية او اشتراكية او شيوعية او ما الى ذلك .

وطالما ان الفن يعبر عن ذاته فقط ، وينفعل الى ابدى مؤمنة بيقينه بل مؤمنة بقدسيته وبحبته الحرفيون المهرة المؤمنون بما يفعلون فانه فن بمعنى الكلمة ، وفن نحت يستحق أعجابنا وتقديرنا

ومحاولتنا لفهمه وهذا هو الحال بالنسبة للفن المصري القديم ولن الصين وسومر والفن الزنجي ،
لأننا نستطيع ان نرى ان الإبداع الفني يلتصق فيه كما رأينا من قبل بأسمى معاني العبادة في الدين ،
بل الفن نفسه يضع الطريقة المقدسة الوحيدة للوصول الى الروحانيات والمقدسات في محاولة
لاكتشاف أسرار الكون .

فما الفن المسيحي في تقدير مارلو الا البحث عن الله من القرن الحادى عشر الى القرن الرابع
عشر .

وما الفن الزنجي الا البحث عن الانسان في وسط الكون ، أما اذا أخضع الفن الى عوامل
أخرى مات واضمحل وفقد معانيه .



هذا هو الذى حدث بالنسبة لفن النحت ابتداء من القرن السابع عشر حيث فقد النحت
اجبائه الديني المبرر واتخذ الشكل الأكاديمي الذى كان يخدم قضية سياسية واجتماعية وهي
تخليد لويس الرابع عشر مثلا . تماما كالرسم الذى سلك نفس المنهج ، والأمثال عديدة تحت
قلم مارلو حتى يصل الى الفن المسخر في خدمة البروليتاريا ، الملتزم بمبادئ الاشتراكية المتطرفة
او الشيوعية فتدخل الرقابة والسياسة والسلطة وتحد من حرية الفنان وترسم له بالأمر خط
الالتزام الذى يجب ان يتبعه . كذلك هناك عنصر آخر هو ظهور الإنتاج المتزايد بالجملة والرغبة في
الارضاء لرغبة العميل الذى يشتري الفن بالمال .

وهناك فرق شاسع بين الإبداع الفنى وبين الإنتاج الفنى الضخم الذى يرضخ الفن بسببه
لمقتضيات مادية واعتبارات اجتماعية غيرت مجراها في أوروبا قرونا طويلة ، حتى ظهر الفن الحديث
السريالي فعاد بالفن الى أصالته فاصبح لا يرضخ لشخص معين ولا لنظام معين ولا ينافق ولا يتملق
العظماء من رجال الدين ورجال السياسة وسيدات المجتمع ، ولا يحاكى الطبيعة فيقبل عليه عامة
الدوافة ، وإنما يعبر أصدق تعبير عن مأساة الانسان الحديث وبأسلوب يبعد كل البعد عن
الأساليب المتبعة في الفنون حتى هذا القرن ، وبذلك يستعيد الفن أصالته ويتصل مباشرة بكل
فن بدائى تلقائى زنجي كان أو غيره يعبر عن نفسه مجردا من كل شيء آخر سوى رؤية الفنان
البحثة . ويستطرد مارلو في شرحه لنظريته هذه قائلا « انى لا أقول ان براكه (Braque) (٤٦)
يكمل النحت السومرى ولكن بقدر ما يجعلنا نتدارك تلك السمات المميزة للفن في حد ذاته فإنه بأسلوبه
التحررى أعاد لبصرنا ذلك النحت السومرى الذى كنا قد افقدناه . وكذلك الحال بالنسبة لبيكاسو
كما رأينا .

ان زمن الفن لا يطابق زمن الاحياء . فالوقت يقهر الفنان نفسه ولكن عمله لا يفنى عبر الدهر
والأجيال ، ولكن هناك شيئا هاما الا وهو ان الفنان بصفته رجلا فنانى ولكن بصفته فنانا
لا يرحل أبدا من هذه الدنيا لأن عمله يخلد . ويوجد الحوار بينه وبين الأجيال والأجناس ، فمما يكل

« أنجلو » و « روفائيل » و « دوبرلدير » و « بيكاسو » و « مالرو » نفسه وغيرهم أن كانوا رحلوا عن هذه الدنيا ليهضل أعمالهم يعيشون ويخطبون الشر، وهذه هي أهم وأسمى رسالة الفن ، أى إيجاد الحوار على أعلى مستوى ، وهو المستوى الوجداني والعاطفي في الإنسان مع نفسه أولا ومع الآخرين ثانيا .

وكما يقول الشاعر شاول بودلير :

« ان الروائع ، والالوان والاصوات تتقابل » على أساس أن كلا من حواس الفنان تستجيب الواحدة للأخرى ، وتجعله أكثر حساسية لنوع معين من مظاهر الطبيعة ، فبالنسبة لمالرو أقتران رؤية الشجر بمجموعة من الأحاسيس والانفعالات التي تعود به الى الورد في حياته هو او في حياة البشرية جمعاء يجعله يستعيد دائما المواقف في ذاكرته بنفس القوى والتعمق ، ولشدة حساسيته بفن الرسم مثلا .

كثيرا ما يتوقف مالرو عند انطباعه من انعكاس الضوء على منظر الأشجار . فالضوء سواء كان ضياء الشمس أو أضواء جانبية يشغل مكانا هامافى تحديد النظر في كل رؤية ، ويؤثر كل التأثير على البطل بحيث انه يتخذ القرار او يقدم على الحدث تحت تأثير مشهد انعكاس الضوء على الأشياء الجاورة .

فمن خلال الضوء تكتسب الأشياء والمناظر شكلا جديدا يختلف عما تظهر به في واقعها ، فمثلا في رواية « الطريق الممكى » (٤٧) تمكس الشمس نوعا من الضوء الباهت على شاطئ جزيرة سومطره فتبدو المياه مكرة وتبدو اشجار النخيل من بعيد كأنها سور رهيب من الوحوش المفترسة السوداء ، فبعلا النفوس كآبة ورهبا .

ونفس الشيء بالنسبة لضوء القمر الذى يلعب دوره في تكوين الاحداث ، وهكذا نرى ان الضوء هو طريقة المعالجة الفنية الاساسية في ابداع أندريه مالرو الروائى .

ويأتي النحت في المرتبة التالية ، فاندريه مالرو شديد الاحساس بحركة الايدي بهيئة الجسد ، كما يشده دائما احساس عميق بشكل الأشياء . أما بالنسبة لشاعر « اغاني الطلال » فاحساسه بالضوء لا يعتبر أهم معالجة من الابداع الفني ولكن هو الاحساس بدفء الضوء ، أى بحرارة الشمس مثلا وانعكاسها على الالوان ، ألوان طبيعة السنغال من خضرة النخيل وحمرة زهرة الكانا المقتنتين دائما باصفرار زهرة الكاسيا ورمال الصحراء وحمرة الورود التي تتالق مع بريق الشمس على أرض افريقيا، فيأتي الاحساس بالنبات قبل مظهره وأساسا برائحته لتحديد المكان وتغير الفصول بين الحياة والموت اي بين الجفاف والحصاد .

فالرسم لا يستمرى انتباه سنجور في المقام الاول وإنما الذى يستند عليه في معالجته الفنية هو أولا الإيقاع ونمعى بالإيقاع ايقاع الطبيعة في الدرجة الاولى مثلا كالإيقاع الشئلى الليل والنهار ،

وللجفاف والخصوبة ، ايقاع المواسم الدائري ، ايقاع الفلك الذى تدور فيه العوالم فضلا عن ايقاع التحفة الفنية ، فهناك ايقاع اللمس والشكل واللون بجانب ايقاع الموسيقى بمعناه الضيق وايقاع الشعر والنغم وما الى ذلك .

ويقول الشاعر نفسه : « الصورة والايقاع تلك هى المقومات الأساسية لكل فن زنجي وكل زنجي يعيش العالم الخارجي بفضل الصورة والايقاع لانه يجب ان يتأثر بحواسه لا بمنطقه ولا بعقله » .

وأخيرا فهناك قيم مستمدة من مناظر الطبيعة نفسها مثل : الايمان بالنبات ، وحب الاشجار التى تربط الانسان بالبيئة وتوصله بالجيال مضت وبواقع مشحون بالاحاسيس والانفعالات يتجاوب فيها البطل او الشاعر مع الاحداث .

وتجد نفس الشيء في معظم روايات مالرو : -

واكثر من هذا نجد ان هناك ارتباطا وثيقا بين البطل وباقي اشخاص القصة ، وبين منظر الاشجار التى توحى اليهم بأحاسيس معينة . وفى كل الحالات فهم لا يمكنهم ان يتجاهلوا هذا المنظر .

وعلى سبيل المثال : يظهر هذا الارتباط فى قصة « القدر الانساني » : حيث نرى ان جيروور (Gisors) والد البطل كيو Kyo بعد وفاة ابنه لا يستطيع ان يتحمل الالم ، ولكن الشيء الوحيد الذى يساعده على الصمود أمام مآسى الدهر هو جمال الطبيعة والاستماع الى الموسيقى ، بينما لم يستطع ان يهرب من الحياة بالفرق فى متاهات الافيون الذى يتناوله ولكن ينسى جروحه وفشله فى الحياة . ومنظر الطبيعة هو ما يمكن ان يراه من خلف النافذة من اشجار النوبر التى تنشد انشودة الربيع بالرغم من ان كل شيء فوق المدينة حزين .

وبذلك نجد ان هناك تشابها فى كل افكار مالرو وسنجور من ناحية ارتباط الانسان بالمكان الذى يعيش فيه ، فالطبيعة تلتصق به ولا يمكن ان يبتعد عنها أو يتجاهل وجودها .

وفضلا عن هذا الارتباط فهناك ايضا ارتباط وثيق بين مظاهر الطبيعة وبين جميع الفنون الأخرى التى تترجم فى معظم الأحيان رؤية الفنان للطبيعة الموجودة حوله .



وطريقة مالرو والمسلك الطبيعي الذى يسلكه فى قصصه هو تجميع للأحاسيس العام فى احساس معين مركب يتجسد فى لحظة وينطبع على المشهد كما يظهر فى المشهد المذكور تماما .

وبهذه الطريقة نجد ان كل عنصر من عناصر السرد مرتبطة بالآخر بحيث يشكل بناء متكاملًا ويجب كل عنصر منه على الآخر . فهو يختار الاشخاص والابطال - فى عملية الخلق الأدبي تبعًا لتطور الأحداث وطبقًا لما يعطى له الواقع من مناظر ومشاهد ، ولكن الشيء الذى يهمنى هو ان كل بطل يعايش العالم . عند مالرو كما كان سنجور - فى الشعر من خلال احساسه ومشاعره الخاصة . فكل من مالرو وسنجور يتمتع بهذه الحاسة الفريدة التى تجعله مثل الفهد أو النمر أو الأسد يشم من على بعد كبير ، ويرى بريق الضوء ويحس بالحدث قبل وقوعه .

ويمتاز مالرو أساسا بهذه القدرة الفائقة على خلق الجو المناسب للبطل وإيجاد هذه الأساسيس والانفعالات التي تعطي المناخ المطلوب لتابعة القصة ومعايشة الأحداث من وجهة نظر البطل أو الشخصية التي يسلط عليها الضوء .

أما سنجور : يمكن أن ينسى أنه ابن الأدغال ؟ وأنه لا يصف الشيء إلا من خلال إحاسنيسه المتربصة اليقظة دائما ؟ ! ربما يكون هذا هو الربط الحقيقي بين الإنسان والطبيعة ، فالأشجار مثلا هي الصلة الوثيقة التي تربط بين الإنسان وبين البيئة التي يعيش فيها ، ففيها يرى الماضي بتاريخه ، والحاضر بقوته ، والتدبير شائرا .

فعندما يقف الكولونيل بيرجييه (Berger) الذي هو مالرو نفسه ويتأمل ، يحس أن كل شيء تحت الأشجار « من بلور ، وخشب ، وجلد ، أو قش » فرائحة الطبيعة تفرض نفسها فرضا على بيرجييه وتتغلغل إلى أعماقه ، وحفيف أوراق الشجر يجعله « يسمع حفيفا يأتي من تحت هذه الخضرة الخصبة الغلابة » ، فيأتي أيضا بهدير من أجيال مضت ، آتية من أعماق الظلام الحالكة . وربما هذا يعني قدرة الأشجار على الاستمرار في الحياة من الجلد حتى القمة ، تحمل معاني كثيرة بين أوراقها وفروعها . وأول هذه المعاني الصلابة وثانيها الجمال ، وثالثها الصبر والجلد .

وهكذا نرى أن شجرة الجوز المتقلص كما تبدو لا تحتمل ثقل الدنيا وإنما « تتمرعر » وتزدهر في حياة لا تنقطع .

وهناك أيضا ذلك المنظر الذي يراود فكر مالرو فيظهر لنا مرتين الأولى : في الالامذكوات ، والثانية : في الأمل ، وهذا المنظر هو دائرة من الفاكهة الناضجة المتناثرة حول شجرة ، ويرمز قطعا إلى إمكانية تطور ، أو نهضة ، فهذا المنظر يقترب بوجود القس على منبره بالكنيسة وهو يردد في صلاته : -

« وإني الموت لكل شيء ، وإني مولد كل شيء وإني سكنون الأشياء الخفية ... »

وإنما هذه التراتيل كان البطل بيرجييه يفكر في حلقة الفاكهة ، حلقة الجوز الملقى حول الشجرة في منطقة الألزام ، وكان يبدو له وكأنه حلقة أناس أحياء ملتصقين حول جسد يحترق ببطء يمنح الحياة ...

ويستمر دائما في مخيلة مالرو - أو بعبارة أدق إبطان روليات مالرو هذا الاقتران الوثيق بين منظر الشجرة والطبيعة عامة بمواقف معينة تتعلق بأحداث تحدد موقفا إنسانيا ، وهكذا يستمر دائما هذا الربط بين الطبيعة والإنسان ، بل كل عناصر الطبيعة بالإنسان .

فمثلا إن صرخة الغراب تأتي من أعماق الهند حيث يسرخ الكاتب بخياله عبر المحيطات فيعيش لحظة مشاهدة الأشجار المقدسة التي يلف من حولها الرجال مثل عنقود الفاكهة الذي

سبق ان تحدثنا عنه ، ويجول فكر المؤلف تارقي بناريس لتخيل هذا المنظر المألوف لديه ، وبارة يعد به الخيال الى سبورج بالاتنابورج بالانزاس حيث تبدأ للحياة أول البرام من فوق الجور الميت منذ الشتاء الماضي .

وهكذا نرى أن هناك عند الانسان هذه الرغبة في الدوام وفي الاستمرار وقهر الزمن وتحدي الطبيعة . ويرمز الى ذلك منظر اشجار الجوز بالاتنابورج واشجار التفاح ايضا في رواية الامل وحتى منظر الرجال الملتفين حول حلقة النار بيناريس في الهند تدل ايضا في هذه الحركة الدائرة التي تكون هي ، وفي الوقت نفسه تتغير في كل دائرة جديدة ولكنها محتفظة بنفس الشكل الدائري ، تدل ايضا مثل مشهد تاج الفواكه الذي يطق الاشجار ، كل هذا يدل بالطبع على طبيعة الاشياء القابلة للتغير بصفة مستمرة ولكنها في جوهرها كما هي ، وهذا هو سر الحياة التي تعود وتجدد دائما .

ويبدو هذا واضحا في مشهد آخر من نفس رواية اشجار الجوز بالاتنابورج حيث نرى احد الابطال « مولبيرج » (Mollberg) يتحدث بحماس بالغ مع الاخرين بينما يستعرض انتباهه بيرجيه فجأة بالخارج منظر بعض الرجال يحملون جدوع اشجار الجوز تماما مثلما قام جده منذ اربعين عاما بنفس الحركة امام مبنى البلدية المدينة بالانزاس ولكن هذه الحركة ايضا لم يكن يفعلها ايضا رجال القرون الوسطى في الغابة المقدسة بينما كانت النافورة في وسط المدينة بعباها تنعش المساء ؟

وهذه الجدوع ، والخطايون والنافورة انما تجسد بالنسبة الى والد البطل هذا الشعور باللا مبالاة الذي يحمله الانسان تجاه مرور الزمن ،

نفس الحركة انما تتكرر منذ قرون مضت واجيال سلفت وستتكرر في المستقبل .

وهكذا تصبح القرون الوسطى حاضرا مستمرا وتنتقل تذكرا للدوام البشري من الجدوع الى الاشجار المليئة بالحياة ، اشجار الجوز التي تسيطر على القرى من فوق علوها بالاتنابورج فيصفها الكاتب على النحو التالي : -

« أن كثافة الاشجار العريقة تنبثق من كتلتها المثلثة ، ولكن هناك احساس بجهودها المستديمة لاستخراج لرومها بأوراقها الخضراء من هذا الخشب الموج القديم ، الثقل الذي يبدو وكأنه يفرس فرسا في باطن الارض ويثبت فيها لا يخرج منها هكذا . يعطى الاحساس بالارادة القوية أولا ، وبالتغير المستمر ثانيا ، فيجسد شجر الجوز لغنان بيرجيه الرغبة الاساسية لبلوغ الابدية .

ونفس الشيء يتكرر في رواية الامل ، في مشهد اثناء النزول من الجبل حيث يتوقف البطل ويتأمل شجرة التفاح فيرد على خاطره أن ثمرات التفاح لم تكن بعد ، ولكنها وقعت ولتلف من حول ساق الشجرة كالخلخال السميك يدوب شيئا فشيئا مع النجيل . وكانت شجرة التفاح فقط هي التي تنبض بالحياة في وسط الحمى والحجارة التي تكتسب الجبل ، فالنبات وحده ينبض بالحياة التي طالما تجدد ومن حوله هذا الجمود الجيولوجي للجبل .

ويتحدث الشاعر الأسود بدوره عن ذلك المدار الدائري للطبيعة وبالأحرى المدار الدائري للنبات الذى يرتبط بالإنسان ارتباطاً وثيقاً، بل يبدو هذا أوضح وأهم في شعر سنجور حيث الإنسان الأسود تقتزن كل حياته بمظاهر الحياة الطبيعية - وترتبط ارتباطاً وثيقاً بحلول الفصول أولاً وقبل كل شيء .

فدائرة الفصول هى التى تتحكم فى حياة الأفريقي لأنها مرتبطة بالحياة الدائبة القريبة من حياة القرية حيث رأى النهار . ولذلك فمعنى الطبيعة وخصوصاً انعكاس مظاهر الطبيعة على النبات يرمز الى معان كبيرة بالنسبة للشاعر الأسود الذى يرفض أن يكيف حياته على النظام الأوروبي ويرتبط بهذا النظام « الطبيعي » (اذجاز هذا التعبير) الذى يعيشونه فى افريقيا .

وعلى أية حال فما هو أبيض فى أوروبا يكون أسوداً فى أفريقيا ، والعكس ، بمعنى أن فترة الجفاف فى أوروبا ، أى جفاف البرد القارس توازى فترة الخصوبة فى أفريقيا السوداء ، وبالعكس ففترة جفاف الأمطار فى أفريقيا توازى فترة الخصوبة أى الربيع والصيف فى أوروبا . والشاعر حساس للغاية لكل مظهر يشير الى اختلاف الفصول وقدموها فى معادها الدائري .

ولذا نراه يحس بقدوم الربيع بمجرد شمه رائحة الخضر : خضار الأوراق والنجيل من قبل أن تورق الأشجار أو تظهر البراعم ، فهو يسمع ويرى ما لا يسمع ويرى الآخرون من الأوروبيين .

فقدوم الربيع مثلاً يأتي له وهو فى أوروبا على هيئة هففة النسيم القادم ببشائر القارة السوداء الدافئة فيعيش بأحاسيسه دفء أفريقيا حيث الشمس الحارة وموسم الحصاد بينما مازال البرد والصقيع والثلوج تغطى أوروبا ، ولا نبأ له عندما تؤكد أن كل حياة ومشاكل وأحاسيس سنجور تحكمه وتتحكم فيها هذه الحركة الدائرية للفصول الأربعة .

فكل مناسبة هامة أو حدث أو إحساس مرتبط بموسم الحصاد أو موسم الجفاف أو موسم الرياح حتى أنه عندما يحدد ميعاداً يصل به الى أنه لا ينظر الى المفكرة الأوروبية المألوفة المكتوبة فى جيبه أو على مكتبته ولكنه يتحدث عن مفكرة الحصاد .

وأحاسيس سنجور بالنبات يكاد يكون محور كل ما كتب وتحدث عنه لانه يقرن دائماً النبات بالمرأة بتربة أفريقيا عامة فى فكرة الخصوبة والإنجاب والتفتح ، فالبدور تثبت وترعرع وتثمر وتحصد ، والأرض تثمر وتستقل فتزرع وتمزق بطنها ، أى تربتها الخصبة بعمل الرجل الذى يستغلها ويجعلها خصبة ومنتجة تماماً مثلما يقرن الرجل بإنثاه فى فكرة الحب والإنجاب والخصوبة المثمرة . كل هذه الصفات موجودة فى النبات عامة ولكنها تتضح أكثر فى الأشجار . فكل شجرة تلخص معاني كثيرة وتوحى بفلسفة الحياة بعينها .

ويرمز النبات عند الشاعر الأسود للأمل والصبر والتكاتف والقوة . فضلاً عن أنه يمثل أيضاً الظلال والحياة فى المناطق الصحراوية الشاسعة فى أرض السنغال .

فالأشجار أولا تعنى التفاف الجماعة من تحتها فى النظام القبلى للقرية السوداء ، فالرجال يجلسون أسفلها للتشاور فى أمورهم فى رطوبة المساء وسكونه ، ومن هنا يأتى الارتباط بين الإنسان والشجرة . فهي بمثابة الشاهد الذى يسمع ويرى ويحضر كل القرارات الهامة التى يتخذها زعماء القرية وأهل القبيلة لقضاء وتسوية أمورهم اليومية ، ومن هنا تأتى المكانة الخاصة التى تلعبها الشجرة فى حياة افريقيا السوداء . حيث نجد أن كل قرية بها شجرة تسمى « شجرة المشورة » يجتمع تحتها أهل القرية .

والشجرة أيضا تعنى الجمال : بقامتها الفارعة المشوكة كالنخيل والحر ، أو بفروعها الممتدة كأشجار الجميز والصنث والزان والبلوط ، أو بقوتها الجبارة كأشجار البواباب المعروفة فى افريقيا السوداء والتى هي دلالة مميزة للمناطق الاستوائية والمدارية فى القارة السوداء .

والشجرة أيضا تعنى الخضرة أى الحياة لتلك المناطق الموحشة المحرومة من الخضار وتحت ظلا لها يستقر ويستريح الفرد من قسوة الصحراء وحرارة الشمس المحرقة .

والشجرة أيضا نحصل منها على الثمار ، فتطعم وترطب وتروى ، فبالإضافة الى قيمتها الجمالية فهى ذات قيمة انتفاعية .

وأخيرا - وهذا هو الأهم - فالشجرة توحى بفلسفة فى الحياة فعلى حد تعبير الشاعر الفرنسى « بول فاليرى » . (Paul Valéry)

« الصبر .. الصبر
الصبر فى الأنسق الأزرق

فكل ذرة من السكون
فرصة تفتح زهرة وتضج فاكهة ... »

فالنبتات إما كان يوحي بالصبر الأولى طلاما عرفه الإنسان : فهو يزرع ، ثم يروى ويتتبع الزرع حتى يجنى الثمار . وهذه هي الحكمة الكبرى فى حياة البشرية وهى حكمة النبات الذى يمثل دقة الطبيعة فى مدارها الدائرى الذى لا يخلف الميعاد .

وحكمة النبات تتجلى أيضا فى استقرار الحياة ، منذ الجذور الممتدة فى باطن الأرض وحتى القمة الشامخة التى تشق زرقعة السماء .

وسنجور كشاعر ، يتتبع بهدوء وباهتمام بالغ تفتح الزهور ، وعطر الورود وانطلاق الشجرة وحفيف الأوراق ، وكل نوع يوحي إليه بأحاساس معين ، فأشجار الجوافة رائحتها تفيض بالأنوثة وكذلك أشجار الماتجو ، والجمال المشوق يتمثل فى النخيل السنغالي وفى شجيرات اللورا البيضاء والوردية .

وكثيرا ما ينطبق منظر الأشجار على أحاسيس الشاعر نفسه ، فإذا كان تيمسا فيحس بأشجار البواباب الضخمة تتلوى من الألم ، وإذا كان - يرتجف من البرد فى أوروبا - فى الأشجار ترتجف بردا ، أما إذا كان سعيدا متنعشا فإن الأشجار تضحك معه .

وهكذا نرى أنه بينما يشد مالرو منظر معين في الطبيعة كما رأينا في مشهد الأشجار فالأحاساس بمظاهر الطبيعة وخاصة بالنبات يتبلور في ذهن سنجور في حاسة الشم والوتران اللون الأخضر والأحمر والأصفر أي ألوان مظاهر الطبيعة في السنفال نفسها . وهنا نقف لحظة لنأمل ماذا نقصد من عبارتنا هذه ، فهناك بالنسبة لكل فنان تطابق بين مختلف مظاهر الفنون بعضها ببعض وبين مخيلته هو . وملكته الفنية النابعة من بيئته الأصلية بمعنى أن كل فنان يخلق لنفسه في عمله الذي يقدمه لنا مناخا معيناً يستوحى منه الإلهام ويخلق الجو والمناخ المناسبين لما يتحدث عنه ، وقد تحدثنا عن فلسفة الفن والآن لنتناول دور الفن في فلسفة الحياة : فالفن عند مالرو كما هو عند سنجور موقف أخلاقي يؤدي إلى سلوك الإنسان المعاصر تجاه أخيه .



٣ - الالتقاء الأخلاقي (Ethique)

وهناك يأتي على الفن أن يقول :

« أتني لم أجء كي أعطى لكم الجزء الإلهي الذي أتمتع به ولكني جئت كي يسترد الإنسان مكانته الصحيحة في الكون وبصوت خافت أهمس له بعظمته » .

إن الفن الحديث سمح لنا أن نرى كل الاشكال في العالم المحيط بنا بحرية تامة لانتخض لاي اعتبار آخر سوى رؤية المناخ الذي ينبع منه ويترعرع فيه عبر تراثه الثقافي .

فالفن في مفهوم مالرو هو اللاقدونية لأنه المجال الوحيد لاختيار الإنسان ، اختيار ماذا ؟ اختيار موقف أخلاقي ومعنوي .

اختيار تقرير مصير كل إنسان ، أي رفض القدرية والمحتم والتحرر من فكرة المكتوب علينا الذي نستسلم له لأن الفن يعتبر تجربة وانطلاق عن كل مايحول في النفس البشرية ، عن كل ماهو كامن ومكتوب وموقف الإنسان من القدر فإن فكرة الإنسان ماتت بعد فكرة موت الله وكان على الإنسان أحياء نفسه من جديد .

ويعتبر عمل مالرو « سيكولوجية الفن » (٩٩) محاولة لإبراز اعظم مظاهر الإنسان . ويطرح مؤلف سيكولوجية الفن عدة أسئلة في هذا الشأن ولعل أهمها السؤال الآتي : « كيف يمكن للمرء أن يتفق مع العالم الخارجي » سؤال حير البشرية من قبل ، أما اليوم فنزبد عليه سؤالاً آخر كيف يمكن للمرء أن يتفق مع نفسه ؟ على مدى التاريخ نرى أن الإنسان يتفق مع نفسه من خلال هذا الذي يتخطاه دائماً ، فإذا كان المرء اليوم يعتقد أن لشيء يتخطاه ، وأن الإلهة لم تعد أي شيء سوى إثبات لقدرته الفائقة في الإبداع فكان لزاماً عليه إذن أن يجد في نفسه ، ونفسه فقط ، هذا التوافق بينه وبين نفسه .

فان آلهة المتحف الخيالي في مخيلة مارلوهو « الممكن » (Le Possible) وأهم ما يتسم به هذا المتحف هو الكفاح من أجل الحياة ، النضال ضد الموت وتقصده هنامع مارلو الموت بمعنى الفناء وليس الموت المحتم على نهاية كل انسان يرحل عن الدنيا .

فالفناء هنا يعني العدم ، العدم الذى يلاحق البشرية فيقتضى على كل سماتها الانسانية ، ولكن الامر الذى يعنيه مارلو هو ذلك الشعور بالانفعال الاساسي الذى ينتاب المرء امام الحياة ، بادئا في اول الامر بحياته الذاتية امام الخلود .

« لماذا يوجد شيء على شكل هذه التحفة الفنية بدلا من العدم ، بدلا من الا يوجد شيء ؟ » ذلك هو السؤال الذى حير مارلو امام الحضارات القديمة التى تلاثت عبر العصور ، او بمعبارة أدق انقرض الدين عاشوها ورحلوا ولم يعد لهم أثر سوى هذا التراث الفنى يفرض نفسه فرضا على الدهر وعلى القدر ويرمز دائما الى البقاء . فضلا عن انه يحيي لنا هذه الحضارات بكل معانيها ، بذلك تصبح المشكلة الحقيقية في تقدير أندريه مارلو هي ليست توارث الحضارات وتداولها ، ولكن كيف وصلت الينا كل حضارة بتراتها الانسانية وكل ثقافة بمعاملها الخاصة بها وتوصلت الى اذهاننا بتراتها الانسانية وعواطفنا ووجداننا بأعمق معانيها السامية الجمالية والروحانية .

يعتقد أندريه مارلو الذى يفرض معونة الأديان وخاصة المسيحية أن عظمة الانسان ومجده هي في أن يتوصل الى حل مأساة وجوده وحده بدون أى استناد الى قوى دينية . كيف نجعل المرء يدرك انه يمكن ان يقيم عظمته أى معونة أخرى غير تلك التى تتبع من نفسه .

وبيصح في وجه الصحفيين :

ان الانسانية لاعمى ان نقف ونقول :

« أن الذى فعلته لا يمكن لاي حيوان في العالم أن يفعله » .

لا ، بل ان الانسانية هي ان ارفض ما يمكن من نفسى من حيوانية وأن اقول أنني أصبحت انسانا بدون عون الالهة :

ولكن مازالت المشكلة الأساسية غير محلولة بالنسبة له الا وهي « من هو الانسان وماجوهره ؟ وهل هناك أى دلالة أو مفهوم يمكن ان نرسى او نقيم عليه تعريفا للانسان ؟ وكل انتاج أندريه مارلو الفنى والأدبى بل وكل حياته أيضا وماحقق في مجال السياسة والثقافة ما هو الا محاولة إيجاد حل ورد على هذا السؤال المطروح بشغف بل بقلق شديد من كاتب « القدر الانساني » .

هل مات الانسان حقًا ، ألم يبق منه ما يشير الى معانم الانسانية ؟

ففي محاضرة ثقافية في قاعة السوربون يصيح فينا مارلو محاكيًا لـ Nietzsche الفيلسوف الألماني الذى تحدى العالم في يوم ما حينما صرح « الله مات » لم يعد هناك رب فهل الانسان قد مات بدوره « ألم يعد هناك انسان ؟ »

وهذا التساؤل المحير في الواقع لا يقتصر على أندريه مالرو ولكن كثيرا من الكتاب يتساءلون بنفس الطريقة ، والمقصود بهذا السؤال طبعاً القيم الإنسانية التي لم تعد لها ميزة للبشر تحت تأثير التطور والحضارة الحديثة حضارة القرن العشرين التي خلقت للانسان مع التقدم والرخاء كثيرا من المتاعب والمشاكل ، بل المأسى ، مثل الحرب واستعباد الآلهة للانسان الذي لم يعد يعرف هل يمكنه الاستقرار في الحياة ككائن حر مدركا وواعيا .

وهنا يتأمل مالرو مصير القارة الأوروبية فيقول انها تحتضر ، وانها مهددة بالفناء وتراجع نفسها في قيمها مما يؤدي الى انشقاق فظيع بين الانسان والحضارة ، والفن المعاصر ما هو الا التعبير الحقيقي عن هذا الانقسام .

ان القرن العشرين مبصوم ببصمة «القدرة» على النقيض من القرن الذي سبقه ، ولكننا وصلنا الى نقطة بلغت بنا هذه القدرة الى حد يحتم علينا ان نسيطر عليها ما ان نستسلم لها فنموت» .

فيما مضى كان مالرو يؤمن بمثل أعلى واحدهو « بروجميتيوس » Promethee بطل أسطورة الاغريق الذي سرق سر النار من الآلهة فرجع له الفضل في تقدم البشرية .

والمقصود هنا بروجميتيوس هو الانسان الماركسي المعاصر الذي يصنع التاريخ ويغير وجهه تنمية امكانياته المادية والتكنولوجية فقط ، ولكن فيما بعد لم يعد مالرو يقتنع لا بالذهب الشيوعي ولا بالماركسية لانها لم تشبع متطلبات أخرى روحانية في اعمال نفسه ، ولذا توجه الى نواح أخرى : فبدأ يعجب بالأساطير والتاريخ، والثقافة والفن وبالتالي بدأ يقترب من « ابولو » (Apollon) اله البطل الاسطوري الاغريقي الاخر على النقيض من بروجميتيوس ، ومن ثم فرجل ابولو هو الذي يشور على استعباد الآلهة والتكنولوجيا الحديثة ، وهكذا يصل المطاف بأندرية مالرو في أهم مراحل فكره الى ردع حتمية التاريخ ، بالتركيز على سيادة الروح والفكر ، وهذا هو أهم مظهر يؤكد عظمة البشرية .

ولكن ايا كان الانسان المعاصر ، بروجميتيوس كان أو ابولو فمالم شك ان المنطلق واحد عندهما الا وهو تاليه الانسان ، هذه الفكرة التي وردت على لسان أحد أبطال مالرو :

« ان كل رجل يحلم بأن يكون الها » (٥٠) .

ومن هنا جاء الملول الجديد لمفهوم الإنسانية الحديثة في عمل وانتاج مالرو .

فلم تعد النظم السياسية والمذاهب اينما كانت تكفى لتغطية الإنسانية في النفس البشرية ، كذلك الحال بالنسبة للدواقة الفن الذين يكتفون بتقييم التحف من الفنون بالنسبة لحضارتهم هم فقط . الامر تفر وأصبح يشمل مضمون كل البشرية في انحاء الكرة الأرضية على مختلف الاجناس والبلاد والأديان والقارات ، وبالتالي كلمة « حضارة » الآن يجب ان تعنى شمول الحضارات وكل مظهر من مظاهر الفن والحضارة في العالم عبر عن الانسان في اى ركن من الدنيا .

ويتساءل الكولونيل « بيرجييه » (٥١) الذى هو الكاتب نفسه :

« فما الذى يراود فكرى منذ عشر سنوات وانا اكتب سوى الانسان ؟ ان ابنى لم يكن اكبر منى سنا بكثير عندما بدأت هذه الفكرة تسيطر عليه ، فكرة لغز الانسان التى تسيطر على اليوم والننى تجعلنى ربما ابداً فى فهمه ، وهناك شيان جملا فنان بيرجييه (او ان شئت مارلو) يفهم البشرية ، اولهما ايجاد قيم انسانية (٥١) جديدة ترد على هذه المشكلة المطروحة التى لخصها مارلو فى هذه العبارة « ان مشكلتى الآن هى ان اجعل المرء يعى ويندرك مدى انسانية اليوم » ، وثانيهما ايجاد حوار الفن والانسان .

١ - البحث عن القيم الانسانية الجديدة :

ما من شك ان المرء حبيس كما هو فى مصيره الذى يخضع له تماما ولكنه يتطلع فى نفس الوقت الى متطلبات تصمد به دائما الى اسمى وأعلى ، هذا المرء يجب عليه ان يخلق لنفسه قيما انسانية جديدة وصورة للانسان يمكنه ان ينظر اليها فلا يرى تلك الصورة التعيسة لمصيره الآن ، ولكن صورة تسمح له بالسمو وبالتوصل الى مجال اقوى من المصير نفسه ، ولذا كان لزاما على المرء فى عصرنا هذا ان يحاول صنع اسلحه تسمح له بالتغلب على القوى المضادة التى تثقل عليه فى العالم الحديث ، ونستطيع ان نلخص مشوار مارلو فى الفكر بأنه انطلق من العدمية الى الانسانية .

وما هى تلك القيم الجديدة التى يعرضها كاتب الأمل للانسان ؟

يسردها مارلو سردا فى منتهى الوضوح فيقول ، فى خاتمة رواياته **الفضاة** : (٥٢)

« نعلن ان القيم هى : -

ليس الاشعور بل الادراك والشعور ،

ليس الهجرة بل الارادة - ليس شحن الرؤوس ولكن الحقيقة

وأخيرا الحرية كل الحرية فى الاكتشاف » .

كل هذا لا تكمله بهذا السؤال : « الى اين » لاننا لا ندرك شيئا عن هذا ، ولكن نتساءل من اين نبدأ تماما كما يحدث فى العلوم المعاصرة فمام العدمية التى تهدده فى كل مكان يتحتم على المرء ان يختار : خلق موقف اخلاقي جديد لنفسه او الانتحار . والمقصود بالانتحار اما الانتحار الفعلى او الانتحار بوسائل اخرى : الدهنى او الروحانى الذى يفرض على المرء ان يقبل مدلة مصيره فيخضع للقدرية او ان يهرب منه ليخلق لنفسه اللهو عنه بشتى الطرق ، ولكن مارلو يترك اللهو ويترك الانتحار ويختار وضوح الرؤية بشجاعة تامة لمواجهة الحياة وهذا يتجسد فى شخصية « بركن » (Perkan) فى الطريق الملكى .

وبعد كتابة ست قصص أى بعد أكثر من عشرين عاما تكلم مالرو مرة ثانية بوضوح بطريقة مطولة وبأسلوب واقعى عن مشكلة الغرب وفى هذه المرة لم يكتف بعرض مجرد بل ويضع النقط على الحروف .

وقد أبرز مالرو فيما كتب « أصوات الصمت » و « سيكولوجية الفن » تدهور الحضارة الغربية خلال القرن السابع عشر الذى كف فيه للإنسان عن التوجه الى الوجود وخلال القرن الثامن عشر والتاسع عشر الذى شاهد كل آماله وألا فى آلهة المنطق ثم آلهة السياسة حتى أدركته أخيرا اللحظة التى انهارت فيها كل مقدساته السالفة فتحقق هو من حقيقة واحدة أنه لا شيء ، أو يكاد لا يساوى شيئا ، وهنا بدأ دور الثقافة الغربية الحديثة فى التساؤل عن مفهوم الإنسان وعن البحث عن قيمه .

ولكن فضل مالرو يرجع الى أنه لم يكتف بطرح هذه المشكلة التى ظهرت فى أماله الأولى بل أعطى ، أو على الأقل ، عرض حولا من خلال أعماله .

فالإنسان عندما يقدم على الفعل يحل مشكلة لا وجوده ، والفعل هنا لا يقف عند اقدام على صنع الأحداث فقط بل يشمل الفعل الفنى أى الإبداع . فالن وحده اذن ، ولا شيء سواه ، هو السبيل لاسترداد الإنسان الحديث لانسانيته .

وفى الإبداع الفنى سبيل اعمق لاتصال الإنسان بأخيه عبر العصور والمجتمعات المختلفة ، فإذا كانت الثقافات والحضارات تنهار أو تختفى هناك القطع الفنية نفسها التى تحفظ التراث وتعبير عنه ، وأخيرا وهو الأهم ثبت لنا دائما استمرارية قدرة الإنسان الخلاقة بالرغم من العدوانية والشراسة التى تحيط به فى العالم الخارجى .

كيف يعيش الإنسان فى عالم عابث به ، ليس له أى معنى ؟ بل يعيش الإنسان كى يعطى لهذا العالم معنى ولا يترك العبث يلعب به وأهم رسالة للإنسان الماصر هى ان « يعطى معنى للامعنى » على حد تعبير الكاتب الفرنسى الشهير « مونية » (Bmounier) .

ويبدأ مالرو من البداية حيث يبنى نظريته على العندية كمنطلق لكل انسان ومن هذا المنطلق الذى يدفعه الى اقدام على الحياة ، على فعل الحدث ، فيعطى معنى لحياته ، تبلور فكرة الانطلاق من العدم للوصول الى الانسانية التى هى الإيمان بالقيم الإيجابية للإنسان فتترك وراءنا عالما بأكمله من معتقدات وأكسار وتصرفات وإيدولوجيات ، ولنواجه أماننا مصيرنا عاريا مجردا من أى اعتبار آخر . والملاحظ هنا ان ترككك القيم الحضرية والفلسفية مصحوب دائما بالنسبة لإبطال رواياته ، ان مالرو نفسه ترك أوروبا أى الغرب وذهب الى أقصى الشرق للبحث عن مجهول يبنى به الإنسان قيمه وعاله الجديد . فمالرو نفسه هرب من فرنسا كى يتأمل فى هدوء وفى إعجاب عوالم أخرى ، والملاحظ أيضا ان إبطاله على قراره هم يبحثون عن أنفسهم ، فهم لا ينتمون الى حضارة الغرب التقليدية المألوفة لديهم ، ولا ينتمون أيضا الى حضارة الشرق أو البلاد الغربية عليهم اينما كانت ، فلا سبيل اذن لخلق قيمهم لأنفسهم بعد ان يواجهوا مصيرهم بشجاعة وبقفلة ووضوح رؤية تجعلهم يدركون انه لا مفر لهم سوى الاعتماد على أنفسهم فقط كبشر .

ومن ثم أصبح لزاما على المرء أن ينظر لمصيره نظرة متفائلة بناءة من لحظات يأس شديد ، وتمرد على القدر ، وبالرغم من كونه يعلم جيدا أن مصيره يكاد يكون لعبة يلعب بها القدر ، صار لزاما عليه أيضا أن يعتقد في دوام البشرية المهددة دائما بالزوال كما يراها مثلا لينج (Ling) أحد أبطال القدر الانساني فيقول :

« أنكم تعتقدون أن هناك فيما تسمونه الانسان دائما لا يوجد على الاطلاق » بل يوجد هذا الشيء . ومارلو يفكره يؤكد هذه الحقيقة ، فهو لا يؤمن بدوام الانسانية في الحاضر وفي المستقبل فحسب بل يؤكد بها بالنسبة للماضي في كل حضارة قديمة وفي كل مظهر من مظاهر الفنون العريقة .

ويكل أحاسيسه وجوارحه يبحث مارلو مع إبطاله عن هذا الشيء الذي يحقق دوام البشرية ويؤكد معالم الانسانية منذ بداية الحضارات ، هذا الشيء الذي قهر الزمن والموت والتهديدات المختلفة وصمد عبر الأزمنة والأجناس حتى انتقل الانسان من الهلاك ، فهذا الشيء هو الايمان المطلق بقيم إيجابية نابعة من الانسان نفسه ، ولا تستند على أي شيء آخر سواء بقدراته وإمكاناته لمجابهة واقع مصيره ، وهكذا تؤدي فلسفة العدم الى فلسفة الايمان بالانسان أي الانسانية .

هناك بين كل الثقافات التي سبقتنا ترابط وثيق فنحن نعلمنا الآن أن نرى بأعيننا وبأذهاننا ويكل مواطننا ، وبفضل فكرة المتحف الخيالي لكل الفنون نستطيع أن نقارن ونقيم ونكشف العلاقات والصلات بين مختلف الثقافات والحضارات ، « فنوجد لها لغة مشتركة » وهذا الاتجاه واضح كل الوضوح في رواية الطريق الملكي حيث يسترد البطل كلود فانيسك (Claude Vannec) حديثه في هذا الشأن قائلا :

« أن المتاحف بالنسبة لي إنما هي أماكن حيث تصبح كل الأعمال الفنية الماضية أساطير تأتلف حياة تاريخية طويلة في انتظار أن يوقفها الفنان من جديد ويأتي بها الى الحياة الحقيقية » .

فنكون كالخوفين إذ لا نرى أمام هذا المشهد ما تحمله هذه الأعمال الفنية من قيم حضارية وإنسانية تشكل لنا الانسان الجديد بالمقارنة والوصول الى المعنى العميق لكل الفنون فنصل الى الفن العالمي ومنه الى « الانسان » مجرد من المكان والزمان والحضارة الخاصة به .

ولكن متفتحا الى العالم بأكمله تذبذب خصائصه في خصائص كل البشر .

وهنا تنسج فكرة الأخوة والجماعة وتشمل أخوة المجتمعات بأشملها ومحاولة التعمق في العلاقات الانسانية عبر الحضارة ، وهكذا يصل الانسان الى جوهر الاشياء لا الى مظهرها بفضل هذه النظرية الى الفن العالمي وإلى الحضارات المختلفة التي تجمع في معنى واحد هو تعبير المرء من جوهره بفضل تعبيره الفني الصادق ، ولعل هذا الذي يسميه مارلو « الانسانية العالمية » انتصار الانسان على القدر ، بمعنى أن الفنان ، والبطل والقديس يتخللون « بفعلهم » على القدرية ، ومن ثم يؤكدون أنفسهم كبشر في المجتمع المعاصر .

وكلتا التجريبتان مالمو وستجودا لتلقيان في نفس المجال : المعاشة لأحداث الحياة - فالن
مثل الثورة كل منهما مجال شاسع أى حقل واسع النطاق الى أبعد الحدود . فهناك صورة تأتي من
الفن وهناك صورة تأتي من الحياة ولكنهما لتلقيان ولتتصقا والتصاقا وثيقا في مخيلة المؤلف .

ولناخذ مثالا على ذلك في رواية الأمل : ونذكر كيف أن « مانويل » (Manuel) أى البطل كان
أثناء تجوله على طرق اسبانيا يصطحب كلبه الكبير كما صوره مالمو « كان ذات الجسد الممتد
مثل الرسوم البارزة على المباني العتيقة ويمشي على الطريق مثل حركة الشرير الأزلية منذ بدأت
هجرة المسيح الى مصر » .

ومثل آخر من قصته : **أشجار الجوز بالالتانبرج** « هو الذى يعبر عن فرحة جموع
المساجين والصحة وعلامات السعادة التى كانت تبدو على وجوههم مثلما يبدو تماما هذا الشعور
في رسومات يروى (٥٣) .

ويأتى هنا دور المتحف الخيالى كما كان يروق لمالمو أن يتخيله . فأى متحف في العالم هو
من أكثر الأمكنة التى تعكس عظمة الإنسان . فهو يفرض على المرء أن يتساءل عن معاني هذه التحف
الفنية التى تعرض في المتحف ، ومدى علاقتها ببعضها ، ومن ثم فيتساءل المرء عن رسالة الفن
نفسه .

والمتحف الخيالى الذى بدأ في مخيلة مالمو بدأ فعلا يجسده قبل وفاته من طريق افتتاح
متحف يجمع بين مختلف الفنون التشكيلية مثل النحت والخزف .

والمتحف المثالى هو الذى يشعل كل الفنون بشكل يجعل تداول الحضارات مستمرا ويسيرا
من مختلف العصور والاجناس ، مهمته الأساسية الرد على المتطلبات الجمالية المختلفة الكامنة في
أعماق البشر والتى تعبر عن تراث هريق في كل مراحل البشرية ، وهل هناك أجمل وأسمى من
تعارف الشعوب عن طريق الفن ؟

وكل انتصارات نابليون بوناپرت في إيطاليا لم تستطع أن تحضر الى فرنسا سقفا فيه
الفاتيكان الى اللوفر - بينما أن مجرد عرض الموناليزا (أى الجو كونا) (ليوناردو دافنشى في
اللوفر مثلا جعلت حضارة النهضة الإيطالية تزدهر وتنورع في عقول الفرنسيين عبر الأجيال
حتى يومنا هذا بفضل هذا العمل الفنى مثلا .

ونضيف هنا نحن مثلا آخر : أن ما تركه معرض توت غنخ آمون المتنقل في أوروبا وأريكا
منذ سنوات قليلة من تأثير وإعجاب وتقدير في نفوس كل الذين شاهدوه أكثر بمراحل من دوى
أى انتصار عسكري ، أو حتى ما يعمل النشاط الإعلامي والسياسي على الصعيد الدولي من أجل
معرفة مصر ، ومتابعتها قضايها .

(٥٣) بروجيل (بيير) (Purro Brueghel) رسام فلاندى من القرن السادس عشر مشهور بأفاته للوحات
الجمالية التى تعبر عن مشاهد فلاحية ودينية تتخبط فيها جموع البشر .

ان الفن اذن يلعب وحده دورا هاما وخطيرا في العلاقات الانسانية وانطباعات البشر بعضها من بعض وبالتالي فرسالة الفن هي اسمى معاني الرسالات ، وتأتي في تقدير مارلو في المرتبة الاولى قبل الديانات السماوية وقبل الايدولوجيات السياسية ، لانه اصدق تعبير حضاري من العمق الانساني في البشرية .

ولذلك يتعين ان يكون الفن الحديث حلقة تربط بين مختلف الفنون ومختلف الحضارات كي يصل الى المفهوم العصري في تكامل الحضارة العالمية .

فنظرنا الحديثة للثقافات المختلفة يجب ان تكون نظرة احترام وتفتح واعجاب لان كل مايعبر بصدق عن بيئته يستحق ان يعامل باحترام وتقدير وهذا هو الاهم ، يستحق ان نقف عنده فنأخذ منه ونعطى له في حوار مثمر اخوى مثرائنا .

ان كل ابداع فني يكشف عن امكانية البشرية تخطي العصور وتجاوز الزمن وحتى لو ان الحضارات اختفت او ماتت فان فنها لم يمض . فمثلا كما يقول مارلو اننا لا نعرف شيئا عن الفلاح المصري القديم او الفراعنة لكننا نعلم الكثير ونتجاوب فعلا مع الفن الفرعوني القديم ، فنجد التماثيل المصرية في متاحفنا بفرنسا .

وهكذا نرى على حسب نظرية مارلو ان الفن يخاق لنفسه قيمه الاساسية بل قيمه المطلقة . ولعل اهم هذه القيم هي كما ورد مرارا على لسان مارلو قدرة الفن على تحدى القدر .

فالن يرفض العدم والعبث الذي يهدد الانسان في العالم الحديث ويعطى للانسان فرصة تغيير الواقع والأشياء في عالم جمالي مستقل ، متماسك ومميز .

وهكذا فان الفن ما هو الا بحث وهو الشيء الوحيد الذي يمنح للانسان في هذه الدنيا فالقدر يكسر ، والزمن يغير ، اما نحن البشر فنبذل الفن فنختار ونندوم فنحیی أنفسنا من جديد خلال اعمالنا الفنية ...

ان الثقافة في تقدير مارلو في اوسع نطاق لها هي تراث فكري فني وخلقى ويصفها مارلو كالآتي :-

« ان كل ثقافة عميقة عندما تصبح عالمية تبدأ في الظهور لنا في شكل مفارقة تماما كعلم الفيزياء الذي هو مفارقة لغزو العالم الحديث . فلنذكر ان علم الفلك عاش قرونا بأكملها بينما قيل في قليل من الوقت ان الارض لا تدور ، كذلك الحال بالنسبة للثقافة العالمية التي ولدت لنا تساؤلات موجهة تنبع منها ارادة قوية في ازدياد تدارك الانسان لمعنى حياته على الارض » (٥٤) فالانسان هو اللغز الاساسي في الكون .

ويمكننا أن نقول أن مالرو قطع أكثر من نصف الطريق بحثاً عن الإنسان ، أما سنجور فقايله في النصف الآخر الذى قطعه هو كى يلتقى بالوجه الآخر للإنسان المعاصر الإنسان الغربى فأكّد سنجور « بالفعل » ما نادى به مالرو بالفكر .

معنى اعتقاد الشاعر الأسود أنه لا يمكن أن تقوم حضارة إلا إذا كانت شاملة متكاملة تجمع بين كل الحضارات وخصوصاً تلك التى نمرقها بالحضارة الغربية والتى على شبه النقيض من الحضارة الأفريقية ، ولكن هذا هو سير الكون نفسه الذى يقوم على نظرية التكامل والتعارض ، فالإبيض على النقيض من الأسود ولكن لا بد من وجودهما في الحياة سوياً

والليل عكس النهار والشمس على النقيض من القمر ولكن كل هذه العناصر المضادة لازمة لتكوين الكون في مداره وفي فلكه وفي حركته ونستشهد هنا بالآية الكريمة : -

« لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون » (٥٥) .
(صدق الله العظيم) .

وهذا بالضبط ما يعتقد فيه ليوبولد سنجور حينما يتحدث عن نظريته ، أى السكينة التى يسبح فيها الفلك ويدور فيها العالم .

فالزنجى بطبيعته كالرجل الشرقى لا يعرف القلق والضيق في الدنيا لأنه يتلاءم مع الطبيعة المحيطة به ولا يعرف سوى التسبيح والتكبير لهذا الذى خلق السموات والأرض وكل ما عليها وإن كان يحدد بالضبط اسم الله سبحانه وتعالى باسم « مونتو » الأعلى ومونتو يعرف عند الرجل الأسود بكونه أعظم رجل وأكمل الرجال خلقاً وشكلاً ولهذا فهو يستحق العبادة وهو أقوى الكائنات فخلق كل شيء وكل شيء في مكانه ويؤدي وظيفته على خير وجه . فلا تمرد ولا انشقاق ولا قلق في حضارة الرجل الأسود حتى جاء اليوم المشؤم الذى سحق فيه الرجل الأبيض كل شيء وأفتح البلاد واستغل أخاه الأسود أسوأ استغلال عرفه تاريخ العالم الحديث ، فندس المقدسات وحطم الحضارات ورفض الحوار .

ولكن لا بد للظلم يوماً أن ينجلي ولا بد من نقطة شعوب أفريقيا حتى تحقق الحرية وتسترد الكرامة وتوجد الحوار ، فنبش الحضارة الجديدة للإنسان المعاصر هذا هو بعينه خط سير الشاعر الأسود حتى يلتقى فكره بفكر صديقه مالرو وكيف كان هذا ؟

إذا كان أندريه مالرو قد رحل كثيراً مبدياً عن بلاده باحثاً عن مفهوم جديد لحضارة الإنسان المعاصر فإن الجواب على بحثه يوجد بأفريقيا حيث تعلم أن الفن يعبر عن الإنسان ، حيث تعلم الإنسان أن يجد لنفسه فلسفته وحكمة وجوده في هذه الدنيا .

« لا يجب أن يبدأ نحاتونا في نحت أتمعة حديثة على ذوق أوروبا ، أنك على حق ! ولكن الشيء الذى يجب أن يكون هو أن يحس نحاتونا أنهم في منتهى الانطلاق ، في مجال الفن العالمي

بطريقتهم ، ويجب ايضا ان يدركوا ان قوة الانفعال والتأثر بالشيء (التى هى اصدق تعريف للكلمة افريقيا نفسها) قد منحت لهم وهذا سر تفوقهم ، نقطة امتيازهم عن الآخرين في مجال الفنون . ان الافئدة سوف تموت يوما ولكن افريقيا سوف لا تخضع ابدا الى الفن الاوروبى الحديث .

اننا نعلم تماما ان هناك في الطبيعة وفي كل بقعة بها وجود للانسان وستتوصل يوما الى الامساك به ! » (٥٦) .

« في ذات يوم انزعج سرطان البحر (٥٧) المعجوز « كو كروفو » من زوال الحكمة في العالم ، فلا أحد يعير لها الاهتمام الكافي ويتبع ارشاداتها ولذا قرر « كو كروفو » ان تجمع كل الحكمة ويضعها في حبة قرع كبيرة ثم يصعد بها الى اعلى شجرة عالية حيث يخفيها عن الناس ويحكي الاجداد انه بعد قليل من الوقت تعب « كو كروفو » من الصعود وتضايق من حمله الثقيل ومن مجهوده المضخم ولذا فالتى بحبة الفرع من فوق الشجرة فانكسرت الحبة وتبعثرت في ارجاء العالم كله ولذا فهناك اناس اكثر حكمة او اقل حكمة من الآخرين ! » .

هذه هى اسطورة زنجية تعلل درجة حكمة الشعوب ورفيها واصالة الحضارات بين مختلف الاجناس .

والحكمة عند ليوبولد سنجور تتلخص في امرين : -

اولهما العودة الى الوطن الام افريقيا ، والايمان بالانتماء المطلق الى ارض الاجداد والى تراثها العريق هذا من ناحية ، والبحث عن الحكمة عند مختلف شعوب العالم لكي يكمل الحكمة المطلقة التى الى مزيج وخليط من الحضارات لكل الشعوب من ناحية اخرى .

فموقف سنجور من الحضارة المعاصرة ينقسم الى شقين : -

الشق الاول : الانتماء الى الاصل العريق للانسان الاسود بكل مظاهر هذا الانتماء الساسي ، الفنى والفلسفى .

الشق الثاني : هو ايجاد الحوار مع الحضارات الاخرى لبناء المجتمع العالمى المعاصر . ورأينا ان كل ما كتبه سنجور هو افريقيا ، اى ان انتمائه مطلقا على الصعيد السياسى ، والايدىولوجى ، والوجدانى والفنى ...

ويوفاء مطلق استمر الشاعر الاسود على مدى اكثر من اربعين سنة في نشر حجته ، غير مبال بالمفاخر ولا بتقلبات الدهر - فهو يحب مجابهة الحقائق وكم هى مريرة وصعبة ، المواجهة في بلد متخلف وفي قاره فتية خضعت لقرونا طويلة للاستعمار الاوروبى : فكيف اذن الكفاح ضد الفقر والجهل والمرض والتخلف والامية ، والامر من هذا ذل الاستعمار ؟ كيف يكون استرداد

الكرامة ويتم استعادة الحرية وأحياء التراث للقارة الشامخة ؟ لا سبيل إلا في الثقافة أولا ،
فالثقافة سلاح الرجل الأسود ولكن أية ثقافة ؟ الثقافة التي تعتمد على تكامل وشمول الثقافات
وبالتالي إيجاد الفرصة للرجل الأسود لاسترداد مكانته الصحيحة في المجتمع العالمي المعاصر الذي
يعلمه الكثير ولكن أيضا يستفيد منه أكثر .

فلا يمكن لمجتمع يناشد العالمية حيث المنظمات والهيئات الدولية المختلفة مثل هيئة الأمم المتحدة
ومجلس الأمن وما إلى غيره أن يتجاهل الغرب مثلا وجود العالم الثالث التي تعبر القارة الأفريقية
أهم منصر فيه . هذه القارة التي حتما ستلعب دورا هاما في مسرح التاريخ القادم على الصعيد
الحضاري كما تنبأ بهذا تدريبه مارلو نفسه (٥٨)

« .. الآن من يسمع هديرا هائلا مدويا يأتي من أركان الأرض سوى أوروبا ... » وفي نفس
الوقت يعلن عن جنازة عالم قديم ترى هل ينبغي بقدوم أفريقيا ... ؟

أفكر في طائرتي عام ١٩٥٩ التي كنت أجوب بها فجرا مستنقعات التشاد الشاسعة ؟ أفكر
في الجندي الأسود المجهول تحت شمس باريس المتواضعة بميدان الكونكورد ، حيث احتفلنا
يوم ١٤ يوليو بتوزيع أعلام اتحاد دول أفريقية المستقلة ... أفكر في الرئيس سنجور - وفي
الزنجية التي كان يعطنها على الملا ...

... أن سنجور أيضا تنبأ بالدور الذي سيلعبه العالم الثالث على مسرح التاريخ في عام ٢٠٠٠
هل سيقف العالم الثالث أمام الحضارة التي تغزو القمم وتضيق شيئا فشيئا بها ؟

أن مارلو إذن مثل سنجور لا يمكن أن يتجاهل الحقيقة الجلية للقرن العشرين ألا وهي
تكامل الحضارات ومزج الأجناس المختلفة التي فعلا تنادي بعضها البعض بسبب هذا التناقض .

إن عطاء الحضارات المتبادل يساعد على ازدهارها وفتحها ويوجد السكينة والسلام في
سير مشوار العالم القادم على غرار مسيرة الكون نفسه التي طالما تغنى بها سنجور في شعره ، لم
يعد من الممكن ما يعتقد سنجور أنه حتى على الصعيد الداخلي لاى بلد أن نتجاهل بعض
الحقائق الخاصة بالإنسان المعاصر .

« ... أن ندرس الإنسان في ماهيته فقط فلا نعود إلى أصله وجنسه وتاريخه ويئس منه
وجغرافيته ، فهذا موقف خاطيء ومائع وغير واقعي أن كارل ماركس عرف الإنسان على حسب
نظرية العلم الحديث بأنه حيوان على المستوى يفعل نفسه ويتكون في الطبيعة وبواسطتها في
المجتمع المحيط به وبواسطته . » (٥٩)

ويرجع فضل سنجور فيما كتبه وأخذ به دائما في أنه يعيد الرجل الأسود على كل
المستويات إلى الجماعة الأساسية التي ينتمى إليها ثم يعطيه فرصة التفتح الكامل تجاه

الحضارات المختلفة وخصوصا حضارة الرجل الابيض الذى كان العدو الاول والذى أصبح أهم صديق . وبذلك تتحقق في افريقيا نفسها أولا ما ينادى به مارلو وما حلم به وحققه سنجور اى « الافريقانية » (L'Africanite) خليطا سعيدا موافقا بين الزوجية (Negritude) والعربية (Arabite) والخطوط التالية هي تفتح القارة كلها الى العالم الخارجى فتعطى وتأخذ بدلا من أن تعطى وتمنع دائما حتى إيماننا المعاصرة نفس الثروات البشرية والاقتصادية التى سلبها المستعمر الابيض من ارض افريقيا .

آن الاوان اذن أن تمتنع افريقيا الآن بثروتها أولا على الصعيد الاقتصادى والسياسى والفنى ، تزدهر فنونها العظيمة لتعرف للعالم اجمع انها اصدق تعبير للانسان في البحث عن ذاته ومن وضعه في العالم ، ثم تأخذ من الحضارات الغربية ما يلائمها وما يتواءم مع تكوين الرجل الاسود وبيئته ولا تحاكي ولا تقلد تقليدا اعمى ، ولا تخضع لعبودية جديدة تحت ستار «الثقافة» أن ابشع انواع الاستعمار هو الاستعمار الفكرى ، الذهني الذى يعرف الآن بالاستعمار الجديد .

وكثيرا ما يحلر سنجور الشباب الاسود بل شباب افريقيا كلها من الوقوع في هذا الفخ المريع الذى ينصبه لنا ثقافة الاستعمار الغربى . فالثقافة وان كانت متفتحة الى كل التيارات وهذا شيء طبيعى بل مرغوب ، لا يمكن ان تأتى من الخارج فتلطم علينا لطحا بدون صلة ولا ارتباط لتقاليدنا الدينية والاجتماعية والاخلاقية ، ولا تترامى البيئة والظروف التى نعيش فيها ولدا - يصبح الرجل الاسود عبارة من مجرد دميه هزيلة تقلد تقليدا اعمى كل ما يفعله الغربيون ولا يمكن لها ان تصبح انسانا بمعنى الكلمة لان جوهرها لا يتلاءم مع هذه الحضارة . ثم أن هناك شيئا آخر يجب ان يؤخذ في الاعتبار فحتى اذا حدث أن قلد المرء شخصا آخر من حضارة وثقافة مختلفة تماما عنه فان هذا الشخص لا يحمل له الا الاحترار والتسفيه والاستخفاف به ، لان الذى ينسب اصله لا أصل له على الاطلاق ، وبالطبع يصبح موضع سخرة واحتقار للجميع ، فلا مكان له لا في مجتمعه الاصلى ولا في المجتمع الجديد الذى يحاول أن يجد فيه مكانا دون جدوى .

والحقيقة ان هذه الظاهرة حدثت بالفعل لكثير من السود بعد حركات الاستقلال في افريقيا ، ولذا فقد ادرك سنجور هذه الظاهرة الخطيرة وقد نجا هو شخصيا منها عندما تدارك الموقف في صباه وحسن بشدة انجذابه الى فرنسا وكل ما يأتى من فرنسا وخصوصا ثقافتها العالية وحضارتها البراقة ولكنه كان دائما يتذكر ايضا انه اسود وان موطنه الاصلى السنغال وقد عانى الكثير لكى يخرج منتصرا من هذه التجربة الصعبة التى تلخص في الآتى :-

أن سنجور شاعر أسود ورجل ثقافة فرنسى ...!

والثقافة هي شغل سنجور الشاغل فهو مؤمن تماما بأن الثقافة هي التى تصنع الشعوب ، وتكون الرجل ، وبالتالي يصنعها الانسان وانتصرا بالفعل سنجور فجمع واشتق من الحضارة الغربية ما يعجبه وما يلائمه فقط ورفض منها الآخر ، ونذكر أنه ابن السنغال قبل كل شيء ولذا احتفظ بأصانته « وطعمها بثقافة الفرنجة » وربما هذا الذى انقذه هو اولا الاعتزاز بأصانته

وثانيا فتفتح المطلق على كل حضارات العالم فهو مؤمن تماما بان « الزنوجية هي انسانية » (٦٠) حتى انه تجنب الكثير في هذا الشأن .

ولقاء الانسان بالانسان يكون اولا مع ابناء الجنس نفسه ولكن يمكن لعنى الاخوة ان يمتد فيشمل رجال النضال في ماساة واحده وضد عدو واحد وهذا يبدو اكثر وضوحا عند مالرو مثلما نرى في هذا الموقف من روايته « المصير الانساني » فلا يحتاج المرء ان يقدم نفسه للآخر ولكن يتم لقاء الاخوة في همسة أو لمسة يد ، وهذا هو مآثره في قصيدة سنجور : البحر الابيض المتوسط : (٦١)

« واردد اسمك : ديا للو !

ويذكر تشد على يدي ، وافكارنا تتلاقى في نصف الليل ، ليك ، ليل لغتنا الشقيقتين .

كنا في البحر الابيض المتوسط ، ملتقى الاجناس الفاتحة وزرقته لم تر عيناى مثلها في المحيط وابتناسمت على مليون شفة من الضوء الناصع ...

... وكنا نتحدث عن افريقيا وكان النسيم الدافئ ياتي لنا برائحة الخلابة اكثر دفئا من روائح المرأة السوداء

كنا نتحدث عن الوطن الاسود في المساء على الجبال وكفانا تتجاوران في اخوة ومحبة فكانت افريقيا تعيش هنا على مرسى الافق بوجهها الاسود المضيء ... وكنت اردد اسمك : ديا للو .

وكنت تردد اسمي : سنجور »

ان فكرة الاخوة في افريقيا السوداء عريقه منذ الازل ، وهي مرتبطة بالتراث المعنوي والديني والروحاني ومفهوم الاخوة في الشرق الاوسط او بمعنى اصح في البلاد العربية توغل عن طريق الفتوحات الاسلامية الى اعماق افريقيا السوداء وهذا المفهوم مرتبط بنظام الحياة البدوي القبلي ، فالانتماء الى القبيلة يقوى روابط العلم والخال والقريب والنسب ... ، واكثر من ذلك فمجرد « المعرفة » بمعنى التعرف على شخص بمجرد ان يذكر انه ينتمى الى شخص آخر معروف لدينا . فالتفاخر بالنسب والانتماء القبلي والارتباط الاسرى والاحساس بالاخوة وكل معاني الرجولة والشهادة ، والسعي لنجدة الآخرين في وقت الشدة في كرم : كل ذلك يعتبر من العلامات المميزة للتراث الحضاري الافريقي وكثيرا ما تنفى شاعرنا سنجور بهذه الصفات الحميدة : فعندما يخاطب زميل الصباور فيق الكفاح : الشاعر ايميه سنيرير (٦٢) يقول له في قصيدته الشهيرة : **خطاب الى شاعر :**

S : La Nigritude est un humanisme

(٦٠)

S ; Hostes Nories (Mediterrance)

(٦١)

(S : Chants d'Ombre Letter a un poete)

(٦٢) الغاني الغزل :

« الى الاخ الحبيب والصديق ... تحية وسلام جاد واخوى ... »

سأنتظره - »

ان معنى **الاخوة** يتخذ اقصاه عند سنجور حيث يشعر الشاعر بأنتمائه الى ابناء دمه في المحنة ، بل يمتد هذا الشعور فيشمل كل اصدقاء الاسر ايا كان لونهم او جنسهم او عقيدتهم .

فالتضامن الانساني لمواجهة موقف صعب او محنة هو الذى يربط بين المرء واخيه ، وهو الذى يميز الانسان عن الحيوان ، فالاخوة يمتد احساسها الى كل مظلوم ومقهور ومفهوم تحت قبضة عدو غاشم أو نظام قانع غاشم : ولذا يرى سنجور في معنى الاخوة اعمق الابعاد فيقول عن رفاق الاسر :-

« مختلفى الملامح والهيئة والملبس والعادات واللغات ، ولكن في عمق الا عن نفس انشودة الالم تحت الجفون المريضة . »

فالكافر والتكايل والصومالي والموريتاني والغاني والفيني والباباره واليوبو - والماندياجو اخوة .

وليد الرعاة وعامل المناجم والفلاح والحر في والطالب والقناص وكل العاملين البيض في النضال اخوة .

وها هو ذا عامل المناجم بجبال الاستورى، وعامل الميناء يلغريول واليهودي والمشر من المانيا ودويون ودويوى وكل ابناء سان دوني « (٦٣) نفس الموقف الانساني ينجلي ويتبلور في اعمال مارلو بشكل ملحوظ يوضحه لنا موقف كيوتشين (٦٤) في السجن .

فعندما مات كيو على ايدى قوة الصينيين عرف كاتوى معنى اليأس والرعب فكان يتخيل الموت البشع مصرع رفيقه البشع .

وكان يعلم ايضا ما بشاعة مصيره هو ايضا والزلاء الذين التقى بهم في هذه الزنزانة الكئيبة السوداء الضيقة فبدأ يشعر بالوحدة المريرة ولكنه ايضا تداركا للموقف الرهيب اراد ان يفعل شيئا من اجل هؤلاء الذين يتقاسمون معه نفس المصير والذين لا يعلم عنهم شيئا ولكن يحسن بوجودهم من انفسهم المضطربة فقط . فكان يرجع انه ما زال منهم على قيد الحياة وسط اشلاء الجثث الملقاة في الزنزانة ولذلك قرر ان يتقاسم معه كل ما تبقى له لانقاذ نفسه من المصير المحترم الا وهو جريمة الزنيخ التي كان يحتفظ بها لنفسه لينتحر قبل ان ياتي الجنود

فينفذوا فيه الحكم ، وبما انه كان لا يستطيع الحركة خوفا من أن يوقظ انتباه الحارس فهمس لسوان وهو الوحيد الذي كان يعرف اسمه قائلا لها ياسوان ضع يدك على صدرى برفق وخذ منى جرعة الزرنيخ الخاصة بى فور ان تصل يدك الى جسدى كن حذرا فليس عندى الا لاثنتين فقط » .

وهكذا ضحى كانوى بنفسه فى سبيل انقاذ اثنين من التعذيب المهين والهلاك فقدم نفسه للهلاك بدلا منهما وأعطى لهما فرصة الانتحار بدلا منه لانه يؤمن بروح التضامن . التى تربط بينهم فى مثل هذه الظروف .

وهناك فرق كبير بين المذهب الايدولوجى وبين معاشية حياة الجماعة . ولذلك فما اكبر الفجوة بين الشيوعية كمذهب وبين حياة الشيوع أى مشاركة الجميع فى كل موقف وهذا وحده هو الذى يجعل معنى الاخوة مطلقا وملموسا .

فبينما يرى « كيو » (Kyo) فى الشيوعية نوعا من الوصول الى الكرامة نجد أن هذه الشيوعية نفسها تعنى بالنسبة لـ « كوينج » وهو بطل آخر فى نفس القصة - المذلة والاستبعاد وبينما يرى الابطال الآخرون « بيه » و« هلمرسن » فى مذهب الشيوعية هذا وفى الاتحاد السوفيتى طريق الخلاص والامان . فترى « مى » أن هذا المذهب لا يعنى الا ضيق الافق والنصب الفكرى . فالشيوعية لا تعنى الجماعة ، والمذهب - السياسى لا يعنى الاستقرار الاجتماعى . فالفرد مرتبط بجماعة معينة وليس بمذهب سياسى .

ولذلك فالواقع بالنسبة لبطل قصة « زمن الاحتجاز » (٦٥) ليس له الا وجه واحد هو الحياة الجماعية وليس تطبيق الشيوعية ولذلك فهو عندما يضرب الحائط فى سجنه فلا يكف عن ضرباته حتى يسمع نداء أخويا يأتى اليه من أى مكان ، ولذلك أيضا نستطيع ان نقول ان تلك الضربات إنما ترمز الى ايمان مطلق بالاخوة البشرية .

وعندما يسمع فانتسان بيرجيه (٦٦) رجال الأعداء يتحدثون فى الظلام فاصواتهم لا تعنى بالنسبة اليه اصوات الألمان ، ولكن تعنى صوت البشر أجمعين .

« لأول مرة فى هذا الظلام الحالك ، سمع أبو الشعب الالماني الشعب فقط ، وبما الرجال أى البشر » .

فالدمد الذى يربط بين الذين يتحدثون والذين ينصتون ليس دم قومى وإنما هو دم خفى يظهر وقت القتال وتلاشى أمامه كل حجة وكل مصلحة وكل حرب ليحل محلها انطلاق عميق ينبث منه شعور التلق وشعور الاخوة معا ولتقتيان دون فصل بينهما بانطلاق الى أبعد الحدود يأتى من أعماق الدهر » .

وبهذه الطريقه يكشف لنا مارلو عن مفهوم الصداقه او الاخوة التى يلتقى فيها الروء باخييه فيشعر انه انسان امام لا انسانية القنء . ويتمثل ذلك فى هذه الرواية (اشجار الجوز بالانبرج) فى اطلاق الفاظ السامة على العدو وهذا الشعور يصعد ويتخطى الامم والشعوب والزمن ، وهاهنا نجد الرمز القوى الذى يرمز الى صلابه الشعور باخوة الانسان يتجسد لنا فى شماغه اشجار الجوز التى تعرض قامتها الهائلة متحدية بذلك كل التحديات ولذلك نجد ان بطل الرواية - فى نفس اللحظة - يتذكر تلك الاشجار العريقه التى تحيط به - فى الريف - من كل مكان والتى تكتسب دائما صفة الابوة حيث انها لا يتحدد عمرها بالسنوات فهى نفسها تحمل علامات الدهر ولكنها لا تخضع له وان كانت تحتفظ بلمسات الرفض عليها . فالاشجار عامة ، وخاصة اشجار الجوز تتحدى الدهر فى شموخها ومثانتها وتعيش الاجيال تلو الاجيال .

ويقول مارلو من ناحية - معلقا عن موقفه من الصداقة والاخوة التى تربط بين بنى الانسان :

« اريد الوفاء فى الصداقة حتى النهاية وليست الصداقة المعلقة على مجرد موقف سياسي » .

ونفس الشيء يحدث بالنسبة للشاعر الاسود سنجور الذى يرى ان معنى الاخوة ليس فقط رباطا وثيقا باهله وابناء جنسه وانما هو رباط بكل البشر فى شتى انحاء العالم وذلك يبدو واضحا فى موقفه وعمله السياسي وخصوصا شعره حيث نجد اكثر من قصيدة تحمل هذا المعنى للأخوة كما رايانا .



ان الفن وحده هو السبيل الوحيد فى اعتقاد سنجور ومارلو لتحقيق الذات وعلان تلك المظاهر التى تجعل البشرية انسانية تتحدى القنء والزمن والظلم ، والظفان والعبودية ، فالفن لغة الشعوب جمعاء ، تربط بين كل حضارات الكرة الارضية ، فتكمل بعضها البعض لتجعل المجتمع الحديث مجتمع ثقافه متحضر وانسانى .

وبالتالى تستطيع القول انه اذا كان عمل مارلو الفنى يسمى كما كان يحلو له ان يقول « باللاقدرية » اى انه التعبير الوحيد عن حرية الانسان فى مجال حياته التى تخضع للقنء فى معظم ظروفها فان الشاعر الاسود هو الآخر يعتبر الفن المخرج الوحيد بل المنطلق الوحيد للرجل الاسود منذ الازل للتعبير من ذاته ، فالزنجى كما نعلم جميعا وكما يقول سنجور دائما « بنى حياته » « ويرقص حياته » ، بل ينحت حياته فكل مظاهر الفن فى افريقيا السوداء ما هى الا انعكاس مستديم لمظاهر الحياة اليومية .

الفن موقف واختيار وتعبير : ان الفن فى اعتقاد مؤلف المتحف الخيالى (٦٧) هو بالدرجة الاولى مع العالم ، فالفنان عندما يخلق تحفته فى اى من الفنون التشكيلية : نحتا كان ام تصويرا ،

أم موسيقى فانها هو يوجد الحوار مع كل ما يحيط به ، بل أن هذا الحوار يمتد إلى الإنسانية جمعاء من خلال هذا العمل الفني ، فإن هذه التحفة تصبح تحفة لكل انسان في كل مجتمع ، فهي نفسها فرسا ، أيا كانت المعايير والمقاييس التي تخضع لها من ناحية الشكل والحجم والملمح فكل منا يحمل في أعماق أصداءه هذا النداء الشديد نحو الجمال الفني ، نحو جمال الإبداع بصرف النظر عن قيمه وعن حضارته وعن تكوينه الشخصي الذي قد يختلف كل الاختلاف بل يتعارض أحيانا مع الحضارة التي ينبع منها وينشعب بها الفنان الخلاق الذي منحنا هذه التحفة الفنية .

ويعطى مالرو أمثالا كثيرة في هذا الشأن منها تحفا فنية من مجاهل افريقيا السوداء ومن حضارات آشور وبابل وسومر والهند والشرق الأقصى ، وحضارة بيزنطة وأمريكا الجنوبية فكل هذه المناطق على اختلاف الأجيال والمصنوعات والحضارات تعطينا تحفا لا يمكن للبشر الاختلاف في أنها تحف ، والكلمة يجمع على قيمتها الجمالية الاستثنائية وخصوصا الذين لا ينظرون إليها إلا من الناحية الجمالية فقط مثل مالرو نفسه . فإن العالم الذي تخلقه لك هذه التحفة يكشف لنا عن لغة مختلفة تماما عن لغتنا الفنية وعن التراث الذي خلقه لنا الأجداد ، ولكن هذه التحفة تحدث إلينا وتتكلم لغة جديدة هي نفس لغتنا لأنها تتجه إلى نفسنا العميقة التامية ، وبالتالي تصل إلى العمق البشري فينا وتحرك فينا أسس المشاعر أي الاحساس بالجمال أمام روعة ما خلقه الفنان والاحساس بالجمال وإن كانت معاييرها تختلف من حضارة إلى أخرى .

بل في خلال حضارة واحدة تختلف عبر القرون مثلما حدث في معايير الجمال عند الإغريق فمقاييس ربة الجمال نفسها فينوس تصبح الآن شبه مضحكة في الحضارة الأوروبية الحديثة - إلا أن هناك شيئا لا يختلف عليه وهو الاعتراف بمقدرة الفنان في التعبير عن ما يجول في نفسه وما يخطر في مخيلته ، وهنا يأتي دور المتحف الخيالي الذي يجمع في ذهن كل منا كل أنواع التحف الفنية العالية بحيث يجمع حضارة فنية مثالية متكاملة تشمل كل ما ينتجته الاحساس البشري في مختلف الأزمان والثقافات .

إن الإنسان موجود بفضل الحضارة ويترك بصماته في العالم حيث هو ملقى بمجرد الصدفة بين زحمة الكون وتراكم المادة وتوالى الكواكب ، وفي سجنه هذا ترجع عظمة الإنسان إلى أنه يستطيع أن يستخرج من نفسه صورا تبلغ من قوتها انكارا للعدم والباطل للوجود الإنسان ؟ ملاح عظيم غامر بحياته تاركا قارة أوروبا القديمة متجها إلى العالم باحثا عن أخيه .

إننا نعيش جميعا في هذه السنوات الأخيرة عملية التطعيم أو المرح هذه التي يتكلم عنها سنجور فمن منا لم يتأثر بالثقافات الغريبة وبحضارة أوروبا ؟

ولكننا نحتفظ بالتراث العربي والأفريقي الذي يجري في عروقنا ، وبالتالي فنحن نحقق يوما ما كان الأمل مالرو وما هو الحقيقة لسنجور ، ولي الشاعر الأسود نداء « بلد النبيل الرطب والأفاني » (٦٨) كما يسمى فرنسا ، وسرع مؤلف القدر الإنساني دقات طبول التام التام في أعمال افريقيا . فالكلمة والتحفة والعمل الفني خير سفر لكل إنسان يود أن يبدأ الحوار ويرسي حجر الأساس لحضارة عالمية جديدة ، حضارة الإنسان .

BIBLIOGRAPHIEI—OEUVRES :

de SENGHOR : Poèmes (chants d'Ombre 1945 - Hosties Noires 1948) - Ethiopiques 1956
Nocturnes 1961 - Poèmes Dicers - Traductions).

Ed. du Seuil - PARIS 1964.

de MALRAUX :

...Des origines de la poésie Cubiste in La Connaissance 1ère année no 1 janvier 20

...Les Conquérants - Paris - Grasset 1928.

...La Voie Royale - Paris Grasset 1930

...La Condition Humaine - Paris - Gallimard 1933.

...Le Temps du Mépris à Paris - Gallimard 1935.

...L'Espoir - Paris - Gallimard 1937.

...Les Noyers de l'Altenberg - Lausanne 1943

...La Psychologie de l'Art - Genève - Skira 1947

...Saturne, Essai sur Goya - Paris - Gallimard 1950

...La Voix du Silence - Paris - Gallimard 1951.

...Le Musée Imaginaire de la sculpture mondiale - Paris - Gallimard 1952.

...La Métamorphose des Dieux - Paris - Gallimard 1957

...Discours au Congrès pour la liberté de la culture - Paris 1952.

...Les Antimémoires : Paris - Gallimard nf. 1968 réédité dans

...Le Miroir des Loimbes - Paris- Gallimard 1975

...Antimémories

...La Corde et les Souris

Hôte de Passage

Les chênes qu'on abat... Lazare

La tête d'Obsidienne

- Oraisons funèbres - Gallimard 1975
- La Tentation de l'Occident - Paris - Gallimard 1975.
- Saturne, essai sur Goya - Paris Gallimard 1975
- Les Voix du Silence - Paris - Gallimard 1975.
- Le Musée imaginaire de la sculpture mondiale - Paris- Gallimard 1975.

La Statuaire

Des bas-reliefs aux Grottes Sacrées.

Le Monde Chrétien.

- La Métamorphose des Dieux - Paris - Gallimard réédité en 1975.

Le Surnaturel.

L'Irréel.

L'Intemporal

II — OUVRAGES CONSULTÉS :

- Pierre de Boisdeffre : André MALRAUX (Ed. Univers. Paris/Bruxelles 1955
- Pol Gaillard Les Critiques de notre temps et Malraux - Paris Garnier 1970
Malraux - Présence littéraire 801 - Bordas 1970
- Gaetan Picon : André Malraux mf. - Gallimard 1945.
Malraux par lui-même - Ecrivains de toujours - Le Seuil 1955
- Pascal Sabourin : La réflexion sur l'art d'André Malraux : origines et évolutions.
Klincksiek 1972.
- G.T. Harris : André Malraux : l'Éthique comme fonction de l'Éthétique -
Letters Modernes - Situation 27 1972.
- Joseph Hoffmann : L'Humanisme de Malraux - Ad. Klincksiek 1963.

الفعل الثوري في رواية الأمل

حينما نشبت الحرب الاهلية الاسبانية في ١٦ يوليو ١٩٣٦ لم يتردد أندريه مالرو في الذهاب الى هذا البلد بعد مرور يومين من اندلاع الحرب لينضم الى صفوف الجمهوريين .

ولقد أكد الكاتب مرارا على هذه النقطة ، اذ أنه ذهب الى اسبانيا من تلقاء نفسه وقبل أن تقرر الدولية الشيوعية ارسال متطوعين للاشتراك في الصراع .

وكان الجنرال فرنكو FRANCO يسيطر في هذه الاثناء على جنوب البلاد ويشرع في الزحف على مدريد مدعما بقوات مغربية وبالفباط الذين انضموا اليه .

ولقد تبين للمالرو - خلال بضعة أيام - أنه من المستحيل تنظيم جيش من الجمهوريين بينما انضحت امكانية الحصول على طيران يتيح لهؤلاء تدمير الطرق وامانة زحف طواير فرنكو ، واستطاع مالرو بواسطة طائرات اشترت تقريباً في اسواق « المخلفات » وبفضل طيارين من مختلف الجنسيات من تكوين سرب « اسبانيا » ESPNA ، وهو السرب الذي سيطلق عليه الضباط ، بعد ثلاثة أشهر ، سرب « أندريه مالرو » .

واشتراك مالرو في ٦٥ مهمة جوية وحارب طائرات موسيلنى الحديثة « سافويا » Savoia وطائرات هتلر « دورنيه » Dornier وحضر الهجوم الذى شنه الجمهوريون ضد قوات فرنكو فى « مدلين » Medellin و « طليطلة » Toledo و « مدريد » Madrid و « جواد لخرا » Guadalupe واشترك أخيراً فى موقعة « ترول » Teruel التى تحطمت خلالها إحدى طائرات السرب ، غير ان مالرو تمكن من انقاذ المتبقين من الحادثة وأرجاعهم سالمين .

ولقد لعب سرب « أندريه مالرو » دوراً هاماً فى الحرب حتى ديسمبر ١٩٣٦ ، ويمكن القول انه بفضلته قد تمكن الجمهوريون من اعاقة زحف قوات الجنرال « فرنكو » على مدريد وتثبيت القوات الفاشية على مشارف العاصمة مدة ثلاث سنوات .

وبعد ان انهار السرب الذى لم تستطع طائراته الصمود أكثر من ستة أشهر ، قام « مالرو » ابتداء من مارس ١٩٣٧ بدورة اعلامية فى الولايات المتحدة حيث ألقى المحاضرات وجمع الاموال والمساعدات والتأييد لصالح الجمهوريين .

ان حرب اسبانيا التى أثارت كثيراً من العواطف والمشاعر ، أثرت أيضاً على الاوساط الادبية والفنية المعاصرة لها ، ولعلنا نذكر مثلاً ان التدمير الفاشى لمدينة « جرنیکا » Guernica قد ألهم « بيكاسو » Picasso احدى لوحاته الشهيرة و « أرابال » Arabal احدى مسرحياته ، بل و « اليوار » Eluard الشاعر السريالى احدى قصائده . وهى أعمال تحمل جميعاً اسم المدينة الباسلة الصغيرة وأثرت هذه الحرب كذلك فى « برنانوس » Bernanos الذى أحنقه موقف الكنيسة الاسبانية فكتب « القابر الكبرى تحت ضوء القمر » Les Grands Cimetières sous la lune و « همنجواى » Hemingway الذى نشر بعد الحرب « من تدلى نواقيس الموت » For whom the bell tolls و « سارتر » Sartre الجدار de Mur ومالرو ، بالإضافة الى نشاطه الدعائى ، روايته « الأمل » L'ESPOIR .



وفى الفترة التى نشرت فيها رواية « الأمل » كان مصر « جمهورية » اسبانيا لم يحسم بعد ، ولقد أثار هذا الكتاب ، الذى ظهر خلال شهر ديسمبر ١٩٣٧ ، ردود فعل عنيفة اختلطت فيها الاحكام السياسية بالاحكام الادبية : اذ ان بعض الناس اعتبره لونا من اليوميات الحربية لمناضل متطوع ، وبعضهم عده مؤلفاً من مؤلفات « الدعاية الشيوعية » لو نوعاً من التقارير الصحفية المتأثرة وليس من شك فى ان الاحداث التاريخية التى يرد ذكرها بدقة فى هذه الرواية تقرّبها من هذا الشكل الاخير من اشكال التعبير ، ولقد رد مالرو ، على « ايف سالج Ives Salgues » الذى لاحظ ذلك بما يلى فى عام ١٩٤٨ :

« تقرير صحفى ، أجل : ولكن بالقدر الذى التزمت فيه بصحة الوقائع ، ومن ثم هذه الوفرة من الاخبار . ولكن هناك أيضاً التفسير الفلسفى للاحداث اذ ان الحرب الاسبانية تمد بمثابة

الضربات لثلاث التي تعلن من مأساة أوروبا: فهي حرب تجريبية بالنسبة للفاشية ، وحرب جس نبض حذر بالنسبة للسوفييت ، واخيرا حرب الوهم الشعاري بالنسبة للجمهوريين .. »

ويضيف الكاتب :

« هذه الحرب كان كل فرد يخوضها من أجل الجميع ، ولا فرد من أجل ذاته ، ولم تتألق البطولة قط مثلما تألقت في فوضاها التي تذكرنا بلوحة « البوراكوس » لفيلا سكيل ... (١)

تقرير عن الأحداث وتفسير فلسفي لها إذن ، ويمكننا ان نضيف الى ذلك « المعنى الميتافيزيقي » الذي تتخذه هذه الاحداث بالنسبة للإنسان . الا ان مالرو حينما يذكر لفظة تقرير لا يقصد بذلك التقرير الصحفي بالمعنى المألوف ولكن التأكيد فقط على صحة الاحداث التاريخية التي يسردها في روايته وهذا ليرد - بلا شك - على النقاد الكثيرين الذين اتهموه بالتحيز للقوميين . وفي هذا المعنى نذكر ، على سبيل المثال ماكتبه « اندريه روسو » في جريدة « الفيجارو » :

« ان مالرو لا يعد نفسه مخلصا للثورة الابتسخر قلعه لها ، وهذه هي نقطة ضعف رواية « الامل » التي تظهر للقارئ في صورة كتاب من كتب الدعاية الشيوعية . في هذه الرواية نرى كل الشعب الاسباني وهو يدافع عن نفسه ضد مضطهديه ، اما اتباع فرنكو فيظهرون كمجموعة من « البلهاء » المفضلين . ولا نجد بجانب الجمهوريين الا ابطالا وشهداء ، اما من جهة الفاشيين فلا نجد الا مغاربة مرتزقة وإيطاليين والماتا ...

وحيثما شرع « فرنكو » في ضرب مدريد من الجو فانه قصد الاحياء الفقيرة وتجنب الاحياء الغنية . الخ .. يمكن القول بانني لا اريد في هذا كله تمييز الحق عن الباطل هذا ببساطة لا يحسب له حساب ولا قيمة له بالنسبة لتاريخ الحرب الاسبانية وهو ايضا يفسد ثلاثة ارباع الرواية .. » (٢)

وليس من شك في ان السياق التاريخي يحتل مكانا هاما في رواية «الامل» وهو امر مرده الى

(١) راجع : GALANTE, Pierre - Malraux, Paris, Plon, 1971, p. 237

والبوراكوس « Borrazhos » هم السكاري ، وتعد هذه اللوحة من اشهر لوحات فيلاس فيلاس كيل Velas Quez في متحف البرادو Prado بمدريد .

(٢) ROUSSEAU, Andret- Un anarchiste total in Le Figureo, 1er Janvier 1938

وهذه الدراسة عن مالرو قد عالجه الكاتب من جديدهت عنوان : ANDREM Malroux, ecivain revolutionnaire in A. Rousseaux Litterature du XX siecle, t. II, ed Varietes, Montreuil, 1944, pp. 53, 54

وراجع كذلك مقالة :

BRASILACH, Robert- Lauserie Litteraire in L' Action Francaise, 6 Janvier 1938

حيث قام « برازيلاك » بتوجيه نفس ملاحظات « روسو » الم ختم كلامه بقوله : « يسمى مالرو قصته « الامل » وهو بالي ، ويهدبها الى زملائه في « ترويل » في الوقت الذي سبقت فيه « ترويل » .

الظروف التي كتبت فيها . ومع ذلك لم يقصد « مارلو » قط كتابة حكايات او تاريخ هذ « الحرب التي هزت العالم ... » (٢) ، الا اننا نلاحظ من وجهة النظر التاريخية ، ان الكاتب يغفل عن ذكر بعض الاحداث التي وقعت في الفترة المعاصرة لموضوع الرواية بينما يتبين ان كل ما يشير اليه حقيقى وصادق (٤) .

واما بالنسبة لغياب اى تعليق على « ايدولوجية » العسكر الآخر ، فان ذلك يرجع الى رغبة الكاتب ، من الوجهة الادبية في تركيز اهتمام القارىء على المشكلة الاساسية التي يشير بها في كتابه الا وهى انتصار الفعالية والتنظيم على « الحلم الفوضى » . ولو كان من مقاصد الكاتب تصوير اتباع « فراكتو » ما كان ليتخرج عن فعل ذلك وفقا لمعطئهم الحقيقية وهى القومية .

« الاصل » ليست اذن وثيقة ، بل عملاروائيا ألفه الكاتب على ايقاع الاحداث التي دارت في اسبانيا بين يوليو ١٩٣٦ ومارس ١٩٣٧ ، اى خلال الاشهر الثمانية الاولى من الحرب الاهلية اما الواقع التي يذكرها « مارلو » فهى : قتل الثورة في « مدريد » Madrid و « برشلونه » Barcelone وسقوط طليطلة Toledo في يد القوات الفاشية ، القتال الذى حذر العاصمة ، سقوط « مالبا » Malga وهجرة سكانها ، استرداد « بريهوجا » Brihuega بواسطة الجمهوريين وانتصارهم في « جواد لخرأ » Guadalaajara . وهذه المجموعة من الاحداث التى تكون هيكل الرواية تنقسم الى ثلاثة اقسام ، اما القسم الاول فهو ذو اسم معبر « الوم الساعرى » L'illusion Lyrique وهو يعلن يوضح عن الموضوعين الرئيسيين لرواية « الامل » : التنظيم و « الاوكاليس » او الحلم (٥) وصراعهما . فهل يستطيع حلم الاخوة الثورى ان يحقق النصر بمفرده ؟ وفى القسم الثانى « المنزائريس » Le Monzanares يتطور الصراع ويتغير

(٢) راجع مقالات : HUGES, E. Y. - The War that Roused the World

In Life, New York, 18 December 1961 and 1st of January 1962

() داجع بالنسبة لهذا الموضوع :

WILHELM, Bernard - Hemingway et Malraux devant la guerre d'Espagne. Porentrú (Suisse) La Bonne Presse, 1966, pb. 83-94,

حيث يبرهن « فيلهلم » على ان الحقيقية التاريخية للاحداث قد لقيت احترام « مارلو » الا انه يلاحظ بعض التناقضات الزمنية بين الواقع ورواية « الامل » .

والقرى من هذه التناقضات - كمجموع مثلا حادثتين في زمن واحد - هو تكثيف المؤلف « الماسوى » لبطل الرواية . ونرى من جانبنا ان دراسة « فيلهلم » تعالج اساسا الجانب « النفسى » في الرواية مثل « وصف العمليات والاسلحة » ، « الملاحظات الجغرافية » و « الزمنية » الخ .

(٥) كلمة معناها الاشتقاقي : « الوهى » وهى تكون : L'APOCALYPSE

عنوان الكتاب الاخير من العهد الجديد ، كتاب القديس حزائلا الذى يشمل مجموعة الاحداث التى اوحيت اليه وخاصة من نهاية العالم وحلول ملكوت الله . والكلمة تأخذ في رواية الامل معنى « الثورة » ، التى تعد الانسان بالحرية والكرامة والاخوة وكذلك معنى « كشف الصداقة والاخوة » - ولقد أبرز مارلو في كتابه : « الامذرات LES ANTIMEMOIRES » لفصيلة لكتاب القديس حزائلا ويستشهد ببعض نصوصه ، لذلك لا يعد اختيار هذه الكلمة اختيارا عشوائيا لان لها دلالة شبيه روحية بالنسبة للكاتب .

اذ ان البطولة وحدها لا تكفى حتى ولو تميزت بالفعالية ، واذا ان الدفعة الثورية لا بد لها - لكي تنجح - من ان تنصب في تنظيم . وفي القسم الثالث والاخير يتحد الحلم والتنظيم ليولدا الامل « L'Espoir » وهو عنوان هذا القسم . وبما ان الكتاب يركز على الصراع وليس على حله ، فان هذا يكشف لنا التفاوت في الطول الذي يميز الاقسام الثلاثة . فمن الطبيعي ان يكون « الوهم الشاعري » اكثر الاجزاء طولا اذ انه يحوى موضوع التنظيم وموضوع الحلم وصراعهما ، والجزء الثانى متوسطا فهو الذى يوضح الصراع ، والجزء الثالث قصيرا لانه يبرز قصور كل حل للصراع ويظهر طبيعته التى لا تخرج عن نوع من التوازن المؤقت الذى يصعب الحفاظ عليه .



من وجهة النظر الميتافيزيقية ، وبالنسبة لأجل العمل الروائي للكاتب ، تقوم رواية «الامل» منذ البداية على تمجيد القيمة التى تجلت في عمله الروائي الآخر « زمن الاحتراق » Le Temps du Yopris ، الا انه بينما يقبل البطل « كاستر » Kassner الثورة برمتها ، نرى معظم المحاربين في « الامل » يتساءلون عما اذا كانت العقيدة الماركسية لا تتعارض مع المطامح الاولى التى املت عليهم تطويعهم . او بعبارة اخرى فان الوسائل التى يستخدمها التنظيم الثورى من اجل الوصول الى غاية محددة كثيرا ما تصطدم بالدفة الاخوية التى حثت هؤلاء الابطال على الانضمام الى « القضية »؟ وانطلاقا من هذه الملاحظة يقوم هؤلاء باثارة قضايا السياسة والاخلاق ، والنظام والحرية وقضية الفصل الثورى : هل يسمح للانسان بتحقيق ذاته او الهروب من حتمية قدره ؟

على النقيض من روايات مالرو السابقة التى كانت تصور لنا بعض الابطال الواضحى الفردية - خاصة بالنسبة لمفهومهم للحياة - فان «الامل» تقدم لنا جمعا من الشخصيات لا يقل عن واحد وستين . ولا شك ان كل واحد منها يحمل هوية ، فهو اما فوضوى ، كاثوليكي ، شيوعى ، مثقف او مرتزق ... ولا يهنا الا بدوره الوظيفى فى الجماعة التى ينتمى اليها . ولكن بالرغم من كونهم فى الغالب ، انعكاسا جزئيا لشخصية جماعة مجردة (٦) فانهم سرعان ما يكشفون لنا عن شخصياتهم الفريدة المؤثرة . ومن بين هذه الشخصيات العديدة ، يمكن اعتبار « مانويل » MANUEL . اكثرها اهمية ، نظرا لبروزه دائما فى الصف الاول وتواجده من اول الرواية الى آخرها ، اما بقية المناضلين فانهم اما يقتلون واما يختفون مؤقتا من الساحة ليظهروا مؤخرا . كذلك يعد « مانويل »

GOLDMAN, Lucien

(٦) هذا التعبير للوسيان جولدمان :

Pour une sociologie du roman, Paris, Gallimard, 1965, p. 220

ولكنه يعبر ايضا عن وجهة نظر عديد من النقاد ، مثل لويس جيليه

GILLET, Louist- L'Espoir in Les Nouvelles

Litteraire, 8 Janvier 1938

الذى يقول : اننا لا اميز جيدا ، لسوء الحظ ، بين الشخصيات :

اريد ان اعرف شيئا عن تاريخهم ، اريد ان اعرف على جراسيا هذا ، على هرنانديز ، على ماتيان او ادمينيز ، ولكن المؤلف يستبعد مراسيم التقديم ويوجز في التعريف ولا يتبقى لنا الا مجموعة من الخطب المجردة ، والاحاديث الباهتة ، الالية من أقصى العالم » .

المناضل الوحيد الذى يتضح نهجه الثورى تمامافى رواية « الامل » فتحن نعاصر فعلا تطوره التدريجى منذ كان شابا يقلد عادات « مونبرناس » MONT-PARNASSE ثوريا عاطفيا مليئا بالحماس، الى ان صار ضابطا يقود فرقة من الجيش الجمهورى ثم شيوعيا ملتزما يسيطر على مواطنه، ان هذه الشخصية تبرهن على نظرية الرواية وهى التطور الحتمى من « الوهم الشعارى » الى النظام كما توهم الينا بالفزى الميتافيزيقى لهذا التحول .



أولا : « وحى الاخوة »

« ان الرجال اذا اتحدوا بالامل والفعل وصلوا، مثل الرجال الذين اتحدوا بالحب ، الى ميادين لا يصلون اليها مفرقين . » (الامل ص ٢٧٩) .

ان الاخوة الحققة تتدفق منذ الصفحات الاولى لرواية « الامل » وتجد لها وسائل تعبير عدة مثل المصاحفات اليدوية وكلمات التحية التى يتبادلها المحاربون والشعب :

« وانطلقت السيارة بين الايدي التى تربت على الاكتاف والابدى المرفوعة بالتحية وكلمات السلام ، وهكذا كان الليل ليل الاخوة . » (٧)

وفى مكان آخر من الرواية :

« كان النقاويون يتصافحون بالايدي ويصيحون : « السلام » وكان هذا الجمع المنتصر يبدو متحدا بفضل هذه الصيحة كما لو كان كورسا مستعمر واخويا » (٨) .

وكذلك :

« كانت التحية الملحة ، المهجورة ، المعادة ، المتكررة او الضائعة بين الحين والحين تجمع بين الليل والناس فى اخوة الهدنة » (٩)

وكان هذا الالتحام بين الجموع وبين الجمهوريين ، وهذا الاتحاد المباشر بين الشعب والمحاربين يظهر خلال الرواية كلها ويشكل خلفية الاحداث الرئيسية . وسوف نرى هذه الجموع

(٧) الامل ص ١٧٠

L'ESPOIR, Paris, Gallimard, 1967

(٨) موضوع الجموع الذى نراه فى معظم الروايات الثورية للكاتب ، يكتب كل معناه فى رواية « الامل » . ويعقب على هذا الجانب من الرواية :

« يوجد فى كتب الفترة الثورية اكثر من التمتع بين البطل والشعب ، يوجد مزج بين تمجيد البطل واسطورة الشعب » .

راجع : PICON, Gaetan Malraux par lui-meme, Paris, Le seuil, 1953, pp. 46,46

(٩) رواية « الامل » ص ٣١٠

وهي تحتل الصدارة عندما يعود الطيارون الذين سقطوا فوق الجبال معبرين بذلك أدورع تعبیر من هذا الالتحام الذي نشير اليه ، ولنا عودة الى هذا الموضوع .

ولا شك ان هذا الحماس الاخرى الذي يلهب احساسات الجمهور يعكس ايضا المواقف الفردية للإبطال ، فلا الخلافات الفلسفية او السياسية التي توجد بين المحاربين بقادة على كبت الشعور الذي يوحدهم ولا شيء يمكنه ان يقف امام وحدتهم التي يملئها المجهود والكفاح المشترك . وعلى هذا النحو نرى ان الفوضوى « بويج » Buig الذي يكره دماء المسيحية يتضح له حينما تجعله الظروف يحارب بجوار الضابط الكاثوليكي « كسيمانز » XIMENS ان الاشتراك في الفعل أو النضال يلقى الكراهية ، ما دمناراهما : « اليوم وهما يحاربان معا في اخوة غريبة »

وهذا الشعور بالاخوة يوجد أيضا عند المرتزقة ، وكثير منهم مثل الروسى « سبرسكى » SBRISKY طلبان يحارب شهرا بأجر وشهرا بلاجر « حتى لا تنقسم النقود ولا الاخوة » (١٠) . اما الالماني « شراينر » SHREINER - الطيار القديم في سرب ديشتون - فانه بالرغم من تحطيمه طائرة أثناء الانطلاق الى الجو لا يجد من زملائه الا صداقة لا حدود لها . وهكذا يبدو انه اذا « كانت الحرب تجمع بين المرتزقة والمطوعين في اطار الابداع الخيالي ، فان الطيران يوحد بينهم كما توحد الامومة بين النساء » (١١)

وبالنسبة لهذه العاطفة القوية التي توحد بين الطيارين فاننا نلاحظ تكرار ذكرها في الرواية ، اذ بينما كانت الطائرة التي يقودها « مانيان » Magnin تحاول خلال مهمة في مايورك أن تنفادى الانوار الكاشفة والقذائف الهادية تبدو « صداقة السلاح لها كأنها - تحمى جسدها بهذه الاضواء المهددة » ويلاحظ قائد السرب « انه لأول مرة منذ انطلاقتهم بدأ هؤلاء الرجال يبرون بعضهم بعضا » بالرغم من الظلام وما أجمل أيضا هذا الموقف الانساني : فلقد كلف « لوكير » بتدمير طابور مدور للفاشست ولكنه رجع الى قاعدته بخيرته وحينما سأل قائده عن سبب ذلك تبين انه فر هاربا وحينما حاول أن يبرر موقفه وبدأ كالأطفال العزيز متلعثما فان قائده « فارغاس » VARGAS يلمه « متألما محاولته تبرير الموقف كطفل تسلق مدرسته هربا مع طعمه ان « لوكير » لم يكن قط جباناً » (١٢)

وتجلى هذه الصداقة التي تربط بين المحاربين في مشهد آخر بين « مانيان » Magnin و « اتينير » ATTIGNIES: إذ ان هذا الأخير ، الذي يخشى من فقدان ثقة زملائه نظرا لفاشسية والده المعروفة ، يتلقى ردا رائعا من « مانيان » حينما يحاول أن يستنكر أفكار أبيه ، يقول له مانيان :

(١٠) « الامل » ص ١٢٥/٠

(١١) « الامل » ص ٦٨/٠ و ٦٩

(١٢) « الامل » ص ٢٤٥/٠

« الصداقة ليست في أن تكون مع أصدقائك حينما يكونون على حق، إنها حينما تكون معهم حتى ولو كانوا على خطأ (١٣) »

وفي موقف « مانويل MAGNIN الذي لا يحتقر الفارين من « طوليطة » بل ويحاول تنظيم صفوفهم معرضا حياته للخطر ، أنه يكاد يكره أمانهم قول « مانيان » :

« ليس من الصعب أن تكون مع أصدقائك وهم على حق بل حينما يكونون على خطأ » (١٤)
ان صداقة السلاح ، كما يبدو لنا ضلي « الأمل » تتوثق عراها بسرعة وسهولة ، هكذا لا يفترق « سيري » SIRRY و « كوجان » KOGAN منذ ان التقيا في الفرقة الدولية ويقول كوجان في هذا الصدد قولته الرائعة : « لم تربطني صداقة برجل قط في مثل هذه السرعة » (١٥)

ولا شك ان النضال يوحى للجميع بهذا الشعور ، الامر الذي يدفع « جرسيا » GARCIA الى قول :

« ان ما نسمعه عبر النافذة ، يا سيد مانيان ، انما هو من وحى الاخوة ، وهو جد مؤثر واني لأفهم ذلك : هذه الاخوة اعظم الاشياء تأثيرا على سطح هذه الأرض وانا لا نراها الا نادرا » (١٦)

ولكن ما هو المعنى الحقيقي للاخوة ؟ انها اكثر من شعور جياش يتيح للانسان فهم وحده ، انها قوة ترفع الانسان وتسمو به الى ما فوق وضعه . هي ليست ملجأ ضد الخزي ولكنها تتيح للإبطال الذين يناضون مجتمعين ضد قوى الاذلال والاستعباد من باوغ اسمى واكمل المشاعر النبيلة التي يحملونها بين أعضائهم ، والتي ماكانوا ليحصلوا بها لو ناضلوا فرادى . وبعبارة اخرى ان الاخوة قوة تسمو بالبشر اكثر منها قوة موحدة لهم ويقول زارع الكروم المجوز « باركا » BARCA في هذا الصدد الى « مانويل » MANUEL

« هذا هو ما أريد أن أقوله لك ، تقيض هذا ، أي الاذلال - كما يقول - ليس من العدالة في شيء . ان الفرنسيين قد فهموا حتما شيئا وعبروا عنه في كتاباتهم السخيفة على جدر مكاتب البلدية : فتعريض المضايقة هو لا شك ، الاخوة » (١٧)

إذا كانت المضايقة هي الاخوة ، فان « كيو » KYO يطل رواية « القدر الانساني » La Condition Humaine يعلن الى « كوينج » KONING : « الكرامة تعويض المدة » .

(١٣) الأمل (راجع قوله الآن) ان الصداقة التي لا تصمد امام اخطاء الصديق ليست بصداقة »

ALAIN, Props, Bibliothéque n.f. de la pleiade, 1960, p.L235

(١٤) « الأمل » هذا القول يوضح مقالة « كاتو » HEMELRICH CATOH الى « هيرليخ » : « لا يجب ان نطالب الرفاق بأكبر من طاعتهم »

LA CONDITION HUMAINE

(١٥) « الأمل » ص ٢٨٥/

(١٦) « الأمل » ص ٢٧٩/

(١٧) « الأمل » ص ٨٩/

ومعكذا نرى أنه بتقريب هاتين الجملةين الآخرين يتحد معنى الأخوة مع معنى الكرامة وتصير الأخوة نفسها محل الكرامة . وهذه العلاقة بين الأخوة والكرامة يعبر عنها أيضا مؤرخ الفن « سكالي SCALI حينما يوضح « الفيار » ALVEAR أن الرجال إذا اتحدوا بأمل والفعل وصلوا ، مثل الرجال الذين اتحدوا بالحب ، إلى ميادين لا يصلون إليها مفرقين . أن هذا السرب في مجموعة لأعظم وأنبيل من كل فرد من أفرادها على حده » (١٨) .

وعلى هذه الشاكلة نرى اللأزم « مورينو MORENO الذي يعرف السقوط واحتقار الذات حينما يحبسها الفاشست ويحكمون عليه بالإعدام . إلا أنه حينما يتمكن من الفرار والالتحاق بزملائه يصور لهم نفسه قائلا : « أنك ، أيها الإنسان ، مثل رجل التزم بمهود نصارت كل حياته ماضيا ولكن هاهي ذى الحياة تنفجر فجأة فتتغير الحقيقة التي تنتمي إليها » ، وفي الوقت نفسه الذي يكتشف فيه هذا الوجه الجديد من الحياة يألف « مورينو » مع كل من يحيط به . وأن هذا الالتفاف لقوى يمكن أن خذلان الماضي والموت لا وزن لهما في حساب القدر بالنسبة للبطل :

« هناك شيء لم أظن إليه وأنا أقدم ضابطا ماركسيا ، إلا وهو الصداقة التي لا توجد إلا في الجانب الآخر من الموت » . (١٩)

ولا يكتفى « مالرو » في « الأمل » بتجديد الأخوة بين الرجال ، ولكنه سيحدد خاصية هذا الشعور وسيعرف سماته في الوقت نفسه الذي سيظلمنا فيه على تطور فكرة الأخوة ، وتحت هذا المنظر ، يمكن القول أن هناك تطورا في فكرة الأخوة نفسها ، ففكرة الأخوة كواقع لم تعد تقدم فقط كقيمة أو طريق نجاة ، مثل ما كان الأمر في رواية :

« القدر الإنساني » La Condition Humaine

و « زمن الاحتقار » Le Temps du Mepris

بل أن الأخوة لتبلغ ، بفضل وجود الجماهير ، بعدا جديدا كما كان الأمر في حال نزول الطيارين الجرحى من الجبل :

استطاع نلاح من منطقة « البارسين » ALBARRICIN اجتياز خطوط العدو وأعلام هيئة أركان حرب الجمهوريين من وجود مطار فاشي ، الأمر الذي يتيح لاثني وأعضاء سره من تدمير مستودع وقود و ١٦ طائرة ، إلا أنه في العودة تقوم طائرات ألمانية من طراز « هاينكلز » HEINKELS بمطاردهم وتنشب معركة جوية فوق « ترويل » TERUEL وكانت النتيجة أن استطاع « مانيان » MAGNIN وموروس MOROS العودة سالمين إلى القاعدة أما طائرة « جاردية » GARDET فتتخطم بعد اصطاتها ويقتل « سعدى العربى » SAIDI ويجرح كل من « تايفير » TAILLEFER و « ميرد » MIREAUX و « سكالي » SCALI و « بوجول »

PUJOL ويشو « جاردية » GARDET . ولقد استطاع « مانيان » MAGNIN أن يحدد بصعوبة مكان سقوط المصابين ثم انطلق مع فرقته المتطوعين لانتقاذهم ..

وتم الانتاخذ محاطا بمظاهر رائعة حقا ، فلقد كان الفلاحون يسرون في موكب خلف طابور الطيارين المصابين وهم ينقلون من « فالديليينارس » VALDELINARES الى قرية « لينارس » LINARES الصغيرة ، الأمر الذي عمق الالتحام - كما سبق ان اشرنا الى ذلك - بين الشعب الاسباني والمحاربين الأجانب . ان العطف الساذج الذي أبداه أهل الجبل نحو الطيارين والاحترام الدني الذي أحاطوا به « النقات » كانا من احدى هذه المظاهر المؤثرة التي يصعب تلخيصها ، فلنرجع الى النص :

« كانت النساء وقد أثقلتها وطأة السنين تؤدي علامة الصليب عند رؤية الدم . ثم رفع رجل يده نحو « جاردية » و « بوجول » ، وأشار بعد ذلك الى الأجساد الممددة فارتفعت جميع السواعد في صمت وهي تشير الى الطائرة المحطمة والى الأجساد التي كان ينظرها الفلاحون قد همدت » .

وأوقف « مانيان » MAGNIN نقالة « جاردية » GARDET لحظة ليتأكد من ان صديقه لم يفقد بصره وحينما يجيبه هذا الأخير بأنه يبصر .. يشعر « مانيان » برغبة في معانقته وهزه ، ثم :

« عادت النقالة الى التحرك وقد غاب نصف قرية « فالديليينارس » خلفها . وحينما جاوزت نقالة « سكالي » SCALI مكان « مانيان » MAGNIN تقدمت امرأة عجوز مشدودة الرأس في مندبل اسود وأعطت للجريح حساء في فتجان . كانت هذه المرأة تحمل سلة بها زجاجة حافظة « ترموس » وفتجانا يابانيا قد يكون أفخم ماعندها . وتخيل مانيان فجأة حافة الفتجان وهي تندس تحت ضمادات « جاردية » وقد رفعت لذلك . فقال للمرأة : يستحسن ألا تعطي من حسائها الى من جرح في وجهه . وأجابت هذه بوقار : ان هذا يمثل الدجاجة الوحيدة المتبقية بالقرية » (٢٠) .

ووصل الموكب أخيرا الى « لينارس » :

« كان حاملو الجرحى مشغولين بأحجار الطرقات وامكانية تآثر الجرحى بسببها .. من جراء اهتزاز النقات يسرون ويبدأ في خطى منتظمة ومتباطئة عند كل لغة ، وكان ابتعاد السير من شدة ملأعته للآلم على طريق جد طويل كما لو كان يملأ هذا الأخدود العظيم ، حيث تصبح بأعاليه المصافير المتخلفة . بضربات متتالية على طبول في موكب جنازى . ولكن لم يكن الموت هو الذي يتلام في هذه اللحظة مع الجبال ، انما كانت ارادة الرجال وكانت مسيرة هؤلاء الفلاحين السمر والنساء الغائبات الرؤوس في مندبل لا يعرف لها عصر تبدو مختالة كموكب نصر جليل أكثر من انخراطها في اعقاب جرحى » (٢١) .

وفى « لينارس » وإمام وجه « جاردية » المشوه رلع الفلاحون إيديهم — تماما مثل فلاحى فالينارس — فى صمت .

• • •

فى هذه اللحظات لا يسعنا الا أن نشرل الكتاب جانباً حتى نتخيل بفكرنا هذا المشهد وقد نقله « مالرو » الى السينما ... ولنحاول أولاً أن نقدم موجزًا عن الفيلم الوحيد الذى أنجزه مالرو وهو « الأمل » ليقدّمه تحية الى الأخوة .

أنجز هذا الفيلم فى برشلونه عام ١٩٣٨ ، (٢٢) أى فى خلال سنة بعد ظهور رواية « الأمل » الا أنه ليس تطويماً للرواية نفسها ولقد أطلق عليه « مالرو » تمييزاً له عن الرواية اسم « سيرا دى ترويل » SIBARA DE TERULE ولقد منعت عرضه فى عام ١٩٣٩ حكومة « دالديه » بفرنسا وحاول الألمان بين ١٩٤٠ و ١٩٤٤ العثور عليه لتدميره (٢٣) ولا يظهر هذا الفيلم الا أبان حكم ديوجل عام ١٩٤٥ ، ويطلق عليه لأسباب تجارية وللإستفادة من نجاح الرواية اسم « الأمل » . وموضوع الفيلم هو تقدم القوات المغربية فى أول الحرب الأهلية نحو قرية لينارس . ويحاولون مناضلو القرية المجاورة « ترويل » إرسال ذخائر الى الفلاحين المهددين ، وكان هؤلاء قد حاولوا صنع بعض القنابل اليدائية ... ويتقدم مزارع الى اللجنة المحلية ويقدم معلومات هامة عن الأراضي المعادية فيقوم القائد « مينوز MUNOZ » (المقابل لماتين MAGNIN فى الرواية) بتجميع الطيارين ويشرع سرب المتطوعين الدوليين فى تدمير القاعدة الفاشية ، وتحطم طائرة عند العودة فيخرج سكان قرية من قرى الجبال لجمع المصابين ونقلهم الى الوادى .

وإذا كنا نعجب الى اليوم لهذا الفيلم فلا يرجع هذا الى دوعة تمثيل الممثلين ، اذا استثنينا « خوزيه لادو » JOSE LADO فى دور المزارع .. ولكن الى القيمة العالية للفيلم . ان الحرب التى خاضها الجمهوريون ضد الفاشست لا تكاد تذكر فى الفيلم والبسوامت التى دفعت المناضلين الى حماية الوطن لا يشار اليها الا لماماً ، على العكس من هذا يركز المؤلف جل اهتمامه فى الفيلم على الأخوة التى تتولد فى الحرب بين الرجال وعلى موقف الفرد أمام الموت وتأثير ذلك على جموع الفلاحين . (٢٤)

(٢٢) راجع بالنسبة للصعوبات التى لاقاها مالرو لتصوير هذا الفيلم أثناء الحرب

MARION, Denis Comment fut Tourni le film Espoir in Magazine Littéraire No. II. Octobre 1967

(٢٣) اذا فشل الألمان فى تدمير هذا الفيلم فهم قد نجحوا فى تدمير الجزء الثانى من مخطوط مالرو

La Lutte avec l'Ange الذى لم يعاود كتابته .

(٢٤) اذا كان تمثيل الرئيسيين لم يكن متقناً فإن دور الجموع الذى قام به فلاحون وفلاحات اسبان حقيقيين كان رائعاً ، ولقد قال انهوبه جيد فى هذا الصدد عام ١٩٤٥ لقد اكتسب هذا الفيلم الان فحاسة ونوعاً من السوفار الواقف المأسوى . فليس به أى تنازل للوق الجموع او لسياسى ويجب . انه يتميز من خلال الاحاديث النادرة لابطال الماسة من خلال مواقفهم وصعوبات وجوههم ومن خلال البساطة الجميلة للصورة بهذا الشعور التام بكرامة الانسان ، وهذا الشعور يؤتى فينا بالقدر الذى يضى اناساً فراقهم لا ينفصلون عن الارضى التى يزعمونها ، فيه دامين بنبالة موقفهم . انهم فلاحون متواضعون ولكن خورة الحادث ترفهم الى مربة لابطال ، والشهداء » .

راجع :

GIDE, Andre-Andre Malraux, l'Aventure Humaine in Terre des Hommes, 1er December 1945

ونلاحظ أن الكاتب لم يستخدم في سيناريو الفيلم إلا حادثة واحدة من حوادث الرواية وهي الفارة التي قام بها الجمهوريون على مطار العدو الخفى والتي تبعتها حادثة سقوط الطيارين الجرحى على الجبل . أن المشهد المنقول إلى السينما يقارب في قوته التأثيرية المشهد الروائي ويثبت تماما في مخيلتنا ، إذ أنه بفضل اللونين الأسود والأبيض والتناقض اللونى بين الطيارين والجموع من جهة وجدران القرية القائمة من جهة أخرى ، ثم مسيرة الفلاحين وهم يحملون الجرحى ، كل ذلك يتخذ أمامنا طابع الأبدية : « وكان يبدو أن الكوكب يفر من صمت الجبال الغريب بصوت قباقيب بين صرخة الكواسر الأبدية وصوت النواح الخفى » (٢٥) .

إلا أنه بصفة عامة ينقص هذا الفيلم بعض الأبعاد الفلسفية التي ترفع من شأن الرواية والتي يستحيل تحقيقها خلال الزمن المتاح للفيلم ، وهذا ما لاحظته الكاتب حينما كتب في « محاولة في سيكولوجيا السينما » : « يبدو أن الرواية تتميز عن الفيلم بميزة عظيمة وهي القدرة على استكشاف سرائر الشخصية » (٢٦)

وأنه ، بلا شك ، من طريق اكتناه بواطن الشخصيات يستطيع الكاتب في رواية « الأمل » أن يكشف لنا عن « ثنائية » الفعل ، لأنه إذا كانت الثورة تتيح لأبطالها هذه الدفعة الجياشة التي تثير من شخصهم وتسو بها ، فهي أيضا حركة سياسية لابد لها لكي تصل إلى أهدافها ، من تنظيم ومن خطة لا علاقة لهما بمصير هذا البطل أو ذاك .



ثانيا : من الحماس إلى النظام

« أن أى فعل لا يمكن أن ينتج إلا باتفاق منفعديه ، وحينما تصدق عزيمتهم إلى أقصى درجة فإنهم لن يتفوقوا إلا على التنفيذ السريع للأوامر ولن يكون لأى تابع امكانية الحكم أو المناقشة » . (آلان : أجاب ، ص ٥٦٢)

إن عالم الاجناس « جرسيا » GARCIA يعبر لأول مرة في رواية « الأمل » عن ضرورة التنظيم العسكري . وكان « جرسيا » قد صار رئيسا للاستخبارات العسكرية بعد مرور شهر من الحرب وأخذ يناقش الأحداث الأخيرة مع « فارغاس » VARGAS ، و « مانيان » MAGIN أنه يقول لقد أحرز « الدوليون » نصرا عظيما في « ميدلين » MEDELLIN وخسر الجنيرالات المتمردون محاولة انقلابهم بسبب البطولة التلقائية للشعب .. ولكن بالرغم من ذلك ، وبينما كان سرب « مانيان » MAGNIN ، يلتقى على « بداخوز » BUDAJOS معلما تحمل ألوان الجمهورية استغل الفاربية فرصة حماس الجماهير ونشوتها للاستيلاء على المدينة ، ومن ثم شرع « جرسيا » GARCIA يؤيده « فارغاس » VARGAS ذو الخبرة الفنية ، يشرح للقائد أن حركة شعبية مثل حركتهم لا يمكن أن تستمر إلا إذا دخلت في اطار تنظيمي، ويضيف موضحا :

« نحن نمثل الشعب ، أجل ، ولكن الثورة ، لا ، بالرغم من أننا لا نتحدث إلا عن هذا . اننى اسمى ثورة نتيجة تمرد ثوود كوادى (سياسية . فنية . وكل ما تريد) تمرست بالنضال وقادرة على الحلول محل الكوادى التى حطمتها » .

باختصار ، يختم « جرسيا GARCIA حديثه بقوله « من الآن فصاعدا ، لا يوجد تحول اجتماعى وبالأحرى ثورة من غير حرب ولا توجد حرب من غير فن أو تقنية (٢٧) » ، وحينما يحتج « مانيان MAGNIN قائلا بأن « القوى المعنوية » ضرورية وأن حماس الشعب بشكل جانبى ايجابيا يرد عليه « جرسيان » بأن « دفعة الأخوة » لا شك من اعظم الأشياء المؤثرة فى العالم ولكنها غير قادرة على الحفاظ بالنصر الا بواسطة تقنية تقابل وسائل العدو :

« وهى الأخوة يريد كل شيء وفى الحال ، ولكن الثورة لا تحصل الا على القليل لتدريجيا وبصعوبة . والخطر المائل هو أن كل رجل يحمل فى قلبه رغبة أو باعنا على الأخوة ، الا أن هذا الشعور يمكن مع مضى الوقت ومع استمرار النضال أن يكون مصدرا هزيمة لسبب بسيط هو أن شعور الأخوة ، كشعور فى حد ذاته ، لا مستقبل له ، حتى ولو زعم انسان أن له مستقبلا . أن وظيفتنا التواضعة ، يا سيد « مانيان » ، هو تنظيم هذا الشعور » (٢٨) .

الإخلاص والسياسة – المثقفون والفعل

« اذا هاجم الثورة « مثقف » ثورى ، فهذا يعنى دوما وضع السياسة الثورية موضع التساؤل باسم اخلاقيات » . (الأمل ص ٣٢٤)

على شعور الأخوة اذا أن يتحول « والا تضى عليه بالفناء » ، أى عليه أن يتجسد فى قوانين التنظيم الثورى . وبما أن الثورة فعل ، « فالفعل لا يمكن تصويره الا فى اطار الفعل (٢٩) » . وهكذا فى اللحظة التى يقرر فيها الأبطال النضال ضد الفاشية ، يجب أن يكون همهم الوحيد هو قيادة النضال بأكثر الوسائل فعالية . وبما أنه « لا توجد خمسون طريقة للكفاح » ولكن واحدة وهى « أن تكون منتصرا » (٣٠) ، فإن الأبطال عليهم أن يختاروا حتما اما التضحية بالفعالية فى سبيل المثل الأعلى واما بالمثل الأعلى فى سبيل الفعالية .

وفى بعض الأحوال ، يكون ، الاختيار صعبا ، وخاصة بالنسبة للمثقفين لأنهم رجال يحسون « بالفروق الدقيقة ، بالكيف ، بالحقبة المحددة وبالطابع التركيبى للأشياء » (٣١) ولهذا السبب كثيرا ما يرفضون الانخراط فى الثورة لأنها – فى نظرهم – لا تعنى بالقيم « الأساسية » للإنسان .

(٢٧) الأمل ص ١٤٠ .

(٢٨) الأمل ص ١٠٧ .

(٢٩) الأمل ص ١٨٧ .

(٣٠) الأمل ص ٣٢٩ .

(٣١) الأمل ص ٣٢٥ .

يعبر « الفيار » ALVEAR المعجوز ، في المشهد الوحيد الذي كرس له ، على موقف المثقف ، اذ حينما يحاول « سكالي » SCALI مكلفا من قبل ابنه « جيم الفيار » JAMES ALVEAR أن ينقله من مدريد ، يرفض المعجوز مفارقة كتبه فلقد عاش حياته كلها في الفن ومن أجل الفن ولا يقبل لاية قوة أن تنتزعه من عالمه هذا. وإذا حاول المغاربة أو فيما بعد الجمهوريون قتله ، فإنه لن يقاومهم « احتقارا » كما يؤكد ذلك لسكالي . ويقول لمنقلبه أيضا : أنهم سيجدوننى مثل الآن في مكتبتى ، و « هل من الصعب حقاً ، يا سيد سكالي ، أن ننتظر الموت (الذى قد لا يأتى) ونحن نشرب في هدوء ونقرأ أشعارا بديعة » ، ثم يتناول ديوانا لكيفيدو ويقرأ بصوت عال :

« ماذا تريد هذه الخشية ، خالية التعقل ، هذه الخشية التى تتولد من تفاهات الحياة ، والتى تغدبها الروح بتقواها » (٣٢)

ان « الفيار » غريب عن الثورة بالقدر الذى يعتبرها تقوم هى أيضا على التعصب أو على عقائد لا تقبل الجدل ، فهو يقول لسكالي : ما فائدة عبودية اقتصادية أقل اذا اضطر الانسان لتحقيقها الى تقوية العبودية السياسية والدينية والبوليسية ؟ « (٣٣) ان الحرب تبدو للرجل المعجوز كما لو انها خلقت لتنزع أوهام المحاربين : فالثورة ، بالنسبة لكثير من الناس ، تلعب نفس الدور الذى كان يلعبه قديما العالم الآخر أو الحياة الأبدية .

« ان بداخل الانسان أملا قظيما وعميقا ، أمل الذى ادين ظلما ، أو الذى لم يلق الا غيابه وجحودا وجبنا فى هذه الحياة ... انه يود أن يعيد الكرة مرة أخرى ... » (٣٤)

غير أن المناضلين سوف يلحظون ان عاجلا أو آجلا ان أى حل جماعى لا يعنى الانسان من المجهود الخلقى ، فمن الضرورى ، كما يقول « الفيار » أن تكون علاقات الرجال علاقات « انسانية » والا تكون محكومة بالموقف السياسى وان يكون الفرد « مسؤولا أمام نفسه » (٣٥) ، وليس أمام قضية مهما كانت سامية . ان « الفيار » يفسح قبل الأحزاب والتقنيات والتنظيمات ضرورة المجهود المتجدد دوماً والذى يبذله الانسان للسمو بذاته :

« ان الأمل الوحيد الذى تعقده اسبانيا الجديدة على نضالكم ، انت وجيم وكثيرين آخرين هو أن يبقى ما حاولنا أن نعلمه للناس طوال سنين عديدة ..

— ماذا تعنى ؟ سألته سكالي .

فالتفت المعجوز « الفيار » وقال بلهجة الحرة :

(٣٢) الأمل ص ٢٣٧/

(٣٣) الأمل ص ٢٣٧/

(٣٤) الأمل ص ٢٣٨/

(٣٥) الأمل ص ٢٣٨/

- قيمة الإنسان .. « (٣٦)

الا أنه اذا كان « الفيار » يريد الدفاع عن القيم « الأساسية » ضد متطلبات الفعل الثوري
وإذا كان لا يثق في الثورة فلا يرجع ذلك فقط الى أسباب أيديولوجية ، ان موقفه يتضح لنا
في آخر حديثه حينما يقطع « سكالي » كلام الأستاذ الممن ويسأله : « هل تعتقد ان «جيم»
قد اخطأ في اختيار الفضل ؟ »

فريد « الفيار » : « إيه ! فلنكن الأرض غاشية ولا يفقد ابني نظره .. » (٣٧)

هكذا يتضح لنا ان موقف « الفيار » تجاه الثورة اتما يرجع الى ان واقع الفعل الثوري
قد انتزعه من عالمه انتزاعا حينما أتت رصاصة على نظر ابنه في إحدى المارك . انه يشبه
شخصية « جيزور » Gisors في « القدر الانساني » La Condition Humaine أي انه
يراقب الحرب من بعيد ولكن حينما تمسه الأحداث يفقد بصيرته ويدفعه الألم الى إساءة
الحكم ، ولقد أشار « مالرو » الى ذلك بطريقة غير مباشرة حينما أفهمنا ان « الفيار » لم يعد
يثق في شيء او في أحد بعد ان فقد الأمل اذ حينما يخبره « سكالي » بأن الأطباء يؤكدون
امكانية شفاء ابنه - وجيم سوف يشفى فعلا - يصيح :

« انهم يكذبون على أي ضابط في هذه الآونة ! »

مخافة ان يقال عنهم انهم فاشست لوقالوا الحقيقة ،

هؤلاء الحمقى ! « (٣٨)

سوف يسيطر هذا الحوار مع « الفيار » على بال « سكالي » طويلا ، اذ ان الجانب
الشمولي للفعل . الذي بدأت تؤكد تجربته الشخصية ، بدأ له كما لو انه يحقق تنبؤات
الرجل المعجوز ، ولقد أوضح عن خواطره امام « جرسيا » الذي قال له :

« لا أعرف أي كاتب قال : انا مسكون بالجنث مثل مقبرة قديمة .. ونحن منذ اربعة
شهور مسكونون جميعا بالجنث ، أي سكالي ، جميعا ، على طول الطريق الذي يقود من الأخلاق
الى السياسة . اذ ان بين كل رجل يفعل وبين ظروف فنه صراعا دمويا ... وهناك حروب
عادلة - مثل حربنا في هذه الآونة - ولكن لا توجد جيوش عادلة وتوجد سياسة للعادلة
ولكن لا يوجد تنظيم عادل . » (٣٩)

وبعد ان فكر « جرسيا » في حالة « أونامونو UNAMUNO الذي يرفض التطوع
ويتلوع امام الفريقين بالالزام الخلقى » يقول : « اذا جاءني مثقف ، أي رجل وظيفته التفكير ،

(٣٦) الأمل ص ٢٨٠/٠

(٣٧) الأمل ص ٢٧٩/٠

(٣٨) الأمل ص ٢٨٠/٠

(٣٩) الأمل ص ٢٣٩/٠

ليقول لى مثل « ميجل » : « أنا أترككم لأنكم لستم عادلين » ساجد هذا الموقف لا أخلاقيا ،
يا صديقي العزيز ! » (٤٠)

« معارضة » أونامونو « اذا معارضة خلقية » (٤١) . ومثله يوضح طبيعة الصراع
الذى يوجد بين المثل الأعلى الثورى وبين الوسائل المستخدمة لتحقيقه : وهى وسائل تستبعد
للقائليا المثقف من نطاق الفعل ، لأن المثقف بطبيعته ضد الثنائية :

« كل وسائل الفعل ثنائية لأن كل فعل ثنائى الطبيعة . وكل ثورى ثنائى وكذلك كل
سياسى . » (٤٢)

وبعبارة أخرى ، ولكي تلخص وجهة نظر « جرسيا » نقول :

ان « الأخلاقية » بالنسبة لرجل ملتزم هى قبوله الظلم باسم العدالة ، أو تخليه عن
العدالة مخافة قليل من الظلم أو لون آخر من الظلم ، وعلى الثورى الحق ان يخضع لمنطق
الأحداث وأن يستفيد منها حتى ولو كانت هذه الأحداث تتعارض مرحليا مع مبادئه العقائدية .

• • •

الكيونة والفعل ،

« اذا أردنا ان تكون الثورة اسلوبا للحياة من أجل ذاتها فانها تصبح حتما طريقة للموت » .
(الأمل ص ١٧٦)

ما فاتمة الثورة إذن « حينما لا تصلح من حال الناس ؟ » يتساءل بقلق القائد الكاثوليكي
« هيرنانديز » HERNANDEZ فهو مثل كل أسباني يتعيب فكرة الموت ويخشى كل ما يعرض
فكرة « خلاصه » وخلص أمثاله للضبياع ، ولذلك فإن ما يضعه موضع التساؤل هو بالذات
قدرة الثورة على حل المشاكل الفردية للمحاربين . إذ انه اكتشف ان الثورة « تجهل آلاف التمهيدات
التي أخذتها على عاتقها » وأنه ليس على الرجال ان ينتظروا منها « حل مشاكلهم » وهنا يظهر
جرسيا GARCIA من جديد ، حينما يعترف له « هيرنانديز » بقلقه ، ليشرح ضرورة التنظيم
الثورى وضرورة التفرقة بين المسائل الخلقية والمسائل السياسية :

« هيرنانديز » . . فكر فيما يجب ان يكون بدلا من التفكير فيما يمكن ان نفعله حتى ولو
كان ما في مقدورنا ان نفعله ضئيلا . ان هذا الموضوع سم بلا دواء - كما يقول جوبا - وهو
موضوع خاسر مسبقا بالنسبة لكل انسان وموضوع لا أمل يرجى منه يا صديقي الطيب .

(٤٠) الأمل ص ٢٢٨/٠

(٤١) الأمل ص ٢٢٧/٠

(٤٢) الأمل ص ٢٢٥/٠

اذ ان الكمال الخلقى وتبالة النفس مسائل فردية لا تتدخل فيها الثورة بطريقة مباشرة وللأسف ليس هناك اتصال بين الاثنين بالنسبة لك الافكرة التضحية بذاك » . (٤٣)

الا ان « هيرنانديز » لن يقبل قط من ، جانبه ، أن يفرق بين ما يجب أن « يكون » وبين ما يستطيع أن « يفعل » . ولذلك حينما يحاصر الجمهوريون منطقة « الكوار » ويطلب منه قائد فاشى توصيل بعض الخطابات الى زوجة « موسكاردو » MOSCARDO يقبل « هيرنانديز » هذه المهمة من طيب خاطر ، الأمر الذى يحير زملاءه .

غير أنه يشرح لهم انه يفعل ذلك عن كرم انسانى لأن زوجة « موسكاردو » مريضة . وبعد ذلك نرى هذا البطل ، المسئول عن الدفاع عن مدينة « توليد » وهو يفره الاسى حينما يرى الجنود يهربون أمام هجوم القوات المغربية، انه سوف يتحمل الى النهاية مسئولياته فقاقد وسوف يحمى مؤخرته بواسطة مدفع رشاش :

« بدأت مؤخرة الجمهوريين تتقهقر بفير انتظام بينما كان بعض زملائهم يداسون بالأقدام . اما « هيرنانديز » فما عاد يفكر فى شيء ، لقد اخل يشد مدفعه على كتفه وكان فى تمام السعادة » . (٤٤)

واستطاع « هيرنانديز » بفضل حركته الفعالة أن ينسى مؤقتاً مأساته ولكنه سرعان ما يجرح ويؤسر ، وفى السجن لا تساء معاملته لأنه تولى ارسال خطابات « موسكاردو » ، الأمر الذى يريد من امتعاضه .

ونراه بعد ذلك وقد تسلط عليه الملل والتشاؤم اللذان يحولان بينه وبين الهرب — مثل زميل له — حينما يقاد الى منصة الإعدام ، انه « متعب لا يرى للحياة طعماً .. أيجرى من جديد ... ومرة أخرى ... » . (٤٥) ان الموت فقط يمكنه أن يحرره من قلقه وعندئذ ينظر الى « الأرض بشهوة ويقول : اينها الأرض الميتة الا يوجد ملأ وسام الا لدى الأحياء .. » (٤٦)

وهكذا يجد البطل — بأسلوبه الخاص — « طريق خلاصه » . لقد بلغ المرحلة الوجدانية التى وصل اليها « جارين » بطل رواية « الطريق الملكى » فى لحظة مفادته للصين : الثورة سستم أو لن تتم ولكنه لن يكون أحد روادها . الا أنه مع ذلك ، فى لحظة الموت ، يعود بذاكرته الى محادثته مع « جرسيا » ويبدو أنه يصوب رأى هذا الأخير : هل كان « كرما » حمله لخطابات العدو ؟ :

(٤٣) الامل ص ١٨٧/

(٤٤) الامل ص ٢١٥/

(٤٥) الامل ص ٢٢١/

(٤٦) الامل ص ٢٢٤/

« ما معنى هذا ، ما معنى نبالة الخلق في عمل مثل هذا ؟ الشهامة ؟ ... ان الشهامة هي ان تنتصر » (٤٧)

ان اسدام « هيرنانديز » HERNANDEZ الذي يختم به الكاتب الجزء الاول من روايته لبالح التعبير لانه يجسد نهاية « الوهم الشاعري » . فهذا الصراع بين الاخلاق والسياسة ، بين الغاية والوسائل ، بين الدفعة الثورية المشبعة بحب الناس لدانهم ، وبين ضرورة تقييمهم بمعيار منفعتهم (٤٨) ، كل هذه التناقضات التي ولدتها ظروف المعركة نفسها تلتقي في احدى اسماء الجزء الثاني للكتاب وهو : « الكينونة والفعل » عنوان يذكرونا بصيغة « جرسيا » GARCIA حينما قال :

« ان الشيوعيين يريدون فعل شيء ماء ، اما انتم المثاليون والفوضيون ، تريدون لاسباب مختلفة ، ان تكونوا شيئا ما ... » (٤٩)

واذا كان هناك جدال دائم بين الفوضيين واتباع « لينين » ، فذلك مرده الى ان الفوضيين يريدون الفكاهة من التزامات العمل المنظم الذي لا ياتي بنتائج ملموسة الا في المدى الطويل . فبالنسبة لهم ليست الثورة الا نضالا يسمح لهم بان يحققوا « كينونتهم » وبان يحصلوا في الحال على ما يتوقون اليه : الاخوة ، الكرامة والحرية . ولا يهمهم بعد ذلك النتائج السياسية للصراع ، فالهم هو التحمس ، هو هذه النشوة التي توصل اليها المعركة . وعلى هذا النحو ، يحاول « النجوس » LE NEGUS ان يفسر الامور للصحفي الامريكي « شاد » SHADE بان هدفه « طليطة » :

« اذا كنا قد سحقتنا هنا وفي « مدريد » ، فان الرجال قد عاشوا يوما بقلوبهم ، اتفهم ذلك ؟ فبالرغم من البغضاء هم احرار ولم يكونوا كذلك قط . انني لا اتحدث عن الحرية السياسية ، وانما عن شيء آخر ! اتفهمني ؟ » (٥٠)

وفي مكان آخر يضيف « النجوس » :

« لا داعي لنسج الروايات ، فالانظمة صنعت للرجال وليس الرجال للانظمة ونحن لا نود اقامة دولة او كنيسة او جيشا . اننا نريد ان نصنع رجلا » (٥١)

صنع الرجال ، « الكينونة » ... افكار يعبر عنها ايضا « بويج » PUIG وهو متطوع من

(٤٧) الاصل ص ٢٢٤/٠

(٤٨) تلاحظ ان هذا الصراع كان موجودة في رواية « الفتاة » اذ كان « جارين » يلوم « بوبودين » على معاملته للرجال كأنهم « الات » وعلى رغبته في « صنع لوار كما يصنع فورد للسيارات » :

(٤٩) الاصل ص ١٨٦/٠ - تلاحظ ايضا انه ، منذ رواية « الفتاة » كان ماثرو يقارب بين التالبيين (تشينج - داي) وبين الفوضيين (هونج) : وكلاهما يكونان برغم اختلافهما متقبة امام التحرك الثوري .

(٥٠) الاصل ص ١٧٥/٠ و ١٧٦

(٥١) الاصل ص ١٧٨/٠

منطقة «كاتالونيا» . لقد قام «بويج» أثناء تمرد «برشوته» بدفع سيارة ضد مدافع العدو واستطاع ان ينجو من هذه العملية الجريئة ، وفي هذا الصدد كتب المؤلف :

« بالرغم مما كان يعرفه عن باكونين ، كانت الثورة في نظره انتفاضة شعبية ، وتجاه عالم بلا أمل كان لا يتوقع من الفوضويين الا ثورات مثالية ، لذلك كانت كل مسألة سياسية تحل بالنسبة له بالجرأة وثبات الخلق » (٥٢)

ولكن الفوضويين حياتهم قصيرة ، ففي محاولة اخرى مثل الاولى ضد الحواجز الفاشية لتي «بويج» مصرعه ... وبذلك حقن ما يصوب اليه : ان يموت «باسمى طريقة ممكنة» بعد ان يعيش يوما «بكل احساسه» ولا شك ان هذا الطعن العظيم بالنسبة للفوضوى نوعا من «اللاقدر» ويقول «لو نيجوس» وهو يفكر في «بويج» على الأرجح : «ان الرجال المصممين على الموت ، ينتهى بنا الامر بان نشعر بمروهم» (٥٣)

ان ما يعتبه «لونيوس» - المتكلم باسم الفوضويين في الرواية - بالخاص على الشيوعيين هو بالضبط «خط» العمل الذى يحدده الحزب ، والذى يمنعهم حينما تمنح الفرصة من انجاز اعمال بطولية مثل عمل «بويج» . وفي هذا يقول حكمة : «ان الذى يخشى الموت ليس ضميره مطمئنا» (٥٤) .

انه يعتبر الشيوعيين غير مخلصين للقيم التى يدافع عنها الجمهوريون ، بينما هم ، النوضيون ، لم يكفوا قط عن خدمة هذه القيم منذ ثورة «الاستورى» - Les Asturias :

« ان يكون الانسان ثوريا ، بالنسبة لكم ، هو ان يكون خبيثا . ولكن بالنسبة لباكونين وكرابوتكين لم يكن الامر كذلك بالمرة . انتم اكلتم الحزب . اكلتم النظام : وبالنسبة للشخص الذى لا ينتمى اليكم لا تعاملونه بامانة او واجب . انتم لم تعودوا مخلصين . اما نحن فقد قمنا منذ ١٩٣٤ ، بسبمة اضرابات للتضامن فقط مسح الآخرين وبدون اى هدف مادي » (٥٥) .

ويرد «براداس» PRADAS الشيوعى عندئذ على «النيجوس» LE NEGUS قائلا : « بصراحة انه من الافضل ان تكون غير مخلصين على ان تكون عاجزين » فالفوضويون ، في رايه ، حتى ولو كانوا « مستعدين للموت » لا يمكنهم ان ينجحوا الثورة الاسبانية لانعدام النظام بينهم ، اما الشيوعيون فلقد اثبتوا ، حسب قوله ، انهم الوحيدون الذين استطاعوا استغلال الظروف في « بناء » الثورة ، ويقول . مستندا الى حجج «جرسيا» GARCIA التى نعرفها :

« لقد سيدنا دولة ثورية وهنا تكون الجيش عمليا بصفاتها الحميدة وبعيونا والجيش هو الذى سينقل الجمهورية والبروليتاريا » . (٥٦)

• • •

(٥٢) الامل ص ٢١/٠

(٥٣) الامل ص ١٣٦/٠

(٥٤) الامل ص ١٣٦/٠

(٥٥) الامل ص ١٧٧/٠

(٥٦) الامل ص ١٧٧/٠

يتضح من هذا أن الحزب الشيوعي هو إحدى الوسائل التي يجدر استخدامها في الدفاع عن : قضية الجمهورية ، أنه إحدى الحقائق الواقعية التي تتبلور حولها الثنائية بين « الكيئونة » و « الفعل » . إلا أنه يتبقى مع ذلك أن الوسائل التي يستعملها هذا الحزب تشبه كثيرا ما قامت ضده الثورة ، ومن ثم سوف يتجاوز الصراع حول مفهوم العمل الثوري الخلاف بين الفوضويين والشيوعيين أو حتى بين المثاليين والشيوعيين ... وعلى هذا فالثورة ليست غير مكلفة بحل المشاكل الفردية للمناضلين فحسب ، بل إن كرامة هؤلاء تظل معلقة حتى تتحقق الأهداف .

وهكذا نرى « مانيان » MAGNIN الواسي بدوره الرئاسة مضطرا إلى اطاعة أوامر المنظمة وطرد « شراينر » SCHREINER الذي يشك في كونه مرشدا فاشيا . إلا أنه بالرغم من اعترافه بفعالية الوسائل الشيوعية بمتب بمرارة على « إينريك » ENRIQUE أحد زعماء الحزب ، لا إنسانية أوامره ، ويعتقد - كما يعتقد « النجوس » - بأن الرجال لهم الأسبقية على الحزب (٥٧) .

غير أنه في آخر الرواية سوف يحير جوابا أمام « جرسيا » GARCIA حينما يذكر هذا الأخير ، أثناء تقريره لنتائج الأحداث ، جملة « لجيرنيكو » GUERNICO : « الشيوعيون لهم كل فضائل الفعل - وهذه الفضائل فقط » ويضيف : « ونحن في هذه اللحظة نحتاج إلى الفعل » (٥٨) .

إن « مانيان » لا يستطيع أن ينكر هذه البنية : « الفعل لا يمكن تصوره إلا في إطار الفعل ... » .

« فالفعل هو الفعل وليس العدالة » (٥٩) .

موقف « مانيان » MAGNIN تجاه الثورة يذكرنا بموقف « روبرت جوردان » ROBERT JORDAN في رواية « همنجواي » : « لمن تدق أجراس الموت FOR WHOM THE BELL TOLLS فهو مثل هذا الأخير يترك فكره « معلقا » (٦٠) إلى أن تنتهي الحرب ويمكن أن ننسب إليه ، ما يكتبه همنجواي عن بطله :

« كان تحت حكم الشيوعيين خلال فترة العمليات، وهناك إسبانيا كان الشيوعيون يهيئون أفضل نظام وأقله واسلمه لتأبئة الحروب ولقد قبل قيادتهم لمدة العمليات لأنهم ، في قيادة الحرب كانوا يشكلون الحزب الوحيد الذي يمكن احترام « برنامجهم ونظامه » (٦١)

إن المخرج الوحيد الذي يتبقى إذا أمام المحاربين هو تطوع أنفسهم لضرورات الفعل وقبول أوامر المنظمة والاعتراف بأسبقية النظام العسكري ... حتى ولو كان ذلك أيضا يناقض المبادئ

(٥٧) الأصل ص ١٣٨/٠

(٥٨) الأصل ص ٢٧/٠

(٥٩) الأصل ص ١٢٠/٠

(٦٠) همنجواي ، في طبعة فرنسية :

E. Hemingway. Pour qui sonne le glas, ed. Heinmann 1968, p. 218

(٦١) همنجواي ، الطبعة المذكورة ، ص ١٨٠/٠

التي دفعتمهم الى التطوع . وكما سيكتب « المارلو » بعد ذلك في « الالامذكرات » Les Antimemoires ، انه منذ اللحظة التي يتبنى فيها المناضل قضية ، فان هذا الاختيار يتضمن في حد ذاته قبول منهج ما وتنظيم ما :

« اذا كانت المعركة مرتبطة بالخلق ، فكل شخص يعرف ذلك ، الا انه قد لا يعرف ان المعركة تتضمن تنظيما خاصا للفعل على الذي اختار النضال ان يقبله في نفس الوقت » . (٦٢)

المرور اذا من حالة الحماس الى النظام ، ومن المفوية الشعبية الى التنظيم التقني يفرض نفسه لنصرة قضية الجمهورية ، وليس الامر الا في ان يكون الرجال شيئا ما ولكن ان يفعلوا شيئا ما ، حتى ولو كانت المأساة التي يشترك فيها المحاربون تتصل بمأساة اخرى روحية . وهكذا يتكون الجيش الجمهوري ، جيش الشعب الذي لم يكن موجودا في البداية ، من خلال الالام والتضحيات حتى يصير اداة علمية منظمة يتيح للجمهورية الانتصار في موقعة « جوادالخرا » GUADALAJARA . وهذا حادث جليل يصوبه رأي الذين اختاروا تحقيق الحرية بواسطة النظام .

ولكن ما مصير العلاقات الانسانية في داخل الاطار التنظيمي للجيش ؟ والى اى مدى يبرر هذا النصر الاخير اختيار الرجال ؟ هلينا في هذا الصدد ان نتبع « مانويل » في طريقه الثوري حتى نرى الى اى حد يمكن ان يلتقى الالتزام الواهي بالفعل مع السعى الميتافيزيقي او الروحي للمناضل .



ثودية « مانويل » وإيثار الفعالية .

« ان الشجاعة امر ينظم ، يحييا ويموت ، وعلينا ان نمنى بها كما نمنى بالبنادق ... ان الشجاعة الفردية ، ليست الا مادة اولية طيبة للشجاعة القوات ... » (٦٣)

منذ الصفحات الاولى للكتاب ، يقدم لنا المؤلف شخصية « مانويل MANUEL » كشاب يوهيمي عين في وظيفة مساعد « لراموس RAMOS » سكرتير نقابة عمال السكك الحديدية ، في المقر المركزي للهاتف بالحطة الشمالية في مدريد . وكان « مانويل » قبل ان ينخرط في جماعة الجمهوريين مهندس صوت في استوديو سينمائي اسباني ، موسيقيا هالما بفنه ورياضيا يمارس بانتظام التزلج على الجليد ، ونراه في بداية الحرب يقود حرب عصابات بطريقة رومانسية واضحة بجانب « راموس » و « باركا BARCA » ومثل جميع المحاربين نراه مفتونا بالاخوة الشاعرية التي تنفتح بين زملاء السلاح ، مكرسا كل همه وفكره الى قضية الجمهورية . واكبر دليل على مشاعره الجياشة بالاخلاص هو تخليه للحرب من « سيارته الصغيرة العزيزة » التي اشتراها ليهذب بها الى جبال السيرا حيث يمارس هواية التزلج على الجليد ، وبفقده هذه السيارة التي

كان جم التعلق بها ، شعر فجأة بنوع من اللامبالاة نحوها : « لم تعد هناك سيارة ، وكان هناك هذا الليل المحمل بأمل غامض وغير محدود ، هذا الليل الذى يجد به كل انسان ما يشغله على وجه هذه الأرض » . (٦٤)

ولكن بسرعة ، ومع تدرجه فى السلك العسكرى ، تعود « مانويل » أن يسيطر على « شعور الاخوة » وأن ينظمه ...

وهناك حادث فى أول الرواية يوعز اليها بهذا التحول فى شخصيته : اذ بينما كان يشاهد منظر فلاح شاب وهو يخضب أصبعه بدم جندى مقتول ثم يكتب على جدار بحروف كبيرة « الموت للغاشيين » تأثر جدا واعتبر هذا المشهد نقطة تحول فى التزامه الثورى : « شيء ما تغير فى داخلى ، ولبقية حياتى ، قال لراموس ، شعرت ، أمام الشخص الذى يكتب على الجدار ، بأننا مسئولون » . (٦٥)

منذ هذا اليوم ، فهم ان بناء اسبانيا الجديدة لن يتم الا بتضحيات جسام من هذا المعسكر وذلك .

وكان ترقية العسكرى سريعا ، اذ فى خلال شهرين من بداية الحرب ، يضعه حزبه تحت قيادة الكولونيل الكاثوليكي « يمينز XIMENES ليتعلم فن القيادة : وبدأ « مانويل » الذى لم يكن منظما من حب فى الطاعة أو رغبة فى القيادة ولكن بالسليقة واحساسا بالفعالية ، يتعلم كثيرا بفضل « النظام الفكرى » الذى يتميز به . ان « يمينز » وكان متشددا حتى فيما يتصل بمسئوليائه الخاصة ، قد بدا بتلقيه خط السير الضرورى للزعيم الثورى وطبيعة العلاقات التى يجب ان تربطه برجاله :

« قريبا سوف تكلف انت نفسك بتكوين شباط جدد . سوف يطلبون المحبة وهذا امر طبعي بالنسبة للانسان ، ولا افضل منه ولكن بشرط ان تفهمهم هذا : ان الضابط يجب ان يحب لطبيعة قيادته - حينما يكون دقيقا ، فعلا وممتثرا - لا بسبب خصائص او مميزات شخصية . اتفهمنى ، يا ولدى ، حينما اقول لك ان الضابط لا يجدر به قط ان يلجأ الى الجاذبية ! »

وفهم « مانويل » ، الذى كان يصنف باحترام ، ان « اعظم اقدار الانسان هو ان يحب من غير ان يلجأ الى الجاذبية » (٦٦) ، ولكنه سرعان ما تبين له ان هذا ايضا « من اصعب الاقدار » كما تنبأ بذلك « يمينز » .

ثم طفت عليه مشاغل القيادة الى ان صار « كولونيل » ولم يعد يهتم بما « يكون الناس ، ولكن بما يفعلونه » (٦٧) ، وعلى هذا النحو أمر بامداد جنديين من فرقته بتهمة التعاون مع العدو ، وان كانت خيانتهم لم تثبت بشكل قاطع ، الا انه لم يعد يستطيع ان يفكر بطريقة اخرى .

(٦٤) الاصل ص ١٩٠

(٦٥) الاصل ص ٨٢٠

(٦٦) الاصل ص ١٥٢٠

(٦٧) الاصل ص ١٢٧٠

ونراه حينما يخرج من المجلس العسكري وقد تعلق به المتهمان والتفا حول ساقيه طالبين العفو ، متخبطا بين شعورى النفاق والاستنكار وغير قادر على القول او الفعل : فهو لم يكن يقدر أن الحكم بالاعدام يقود الناس الى الترحى والى الضغط على النفس ، بالنسبة للحاكم ، لمقاومة هذا الترحى ، وحينما يكشف له الضوء برهة عن وجه مجهول الى هذه اللحظة ، يبدأ يلمس فيه « الوجه الابدى لمن يدفع دائما . . . » - « اذن ، لم تعد تنطق حرفا من اجلنا » صاح الجندى (٦٨) . وتبين « مانويل » فجاءه انه طوال المشهد لم ينس بكلمة ، فهو « لم يشعر قط بحساسية الاختيار الى هذه الدرجة بين النصر والشفقة » (٦٩)

لقد اعدم الرجلان و « مانويل » واثق من انه ادى واجبه ، الا ان ذكرهما وهما ملتفتين حول ساقيه ما زالت تعاوده . انه لا يستطيع الرضوخ الى الوحدة التي تفرضها عليه قيادته ويعترف « ليمينز » بقلقه :

« اننى اتحمل مسئولية هذا الاعدام ، فلقد تم لانتفاذ الآخرين . رجالنا ، ولكن اسمعنى : لم يكن هناك حد تجاوزته من اجل فعالية اكبر وقيادة افضل الا وابعدنى اكثر عن الرجال . اننى اشعر بان كل يوم اقل انسانية » (٧٠) .

ويحاول « يمينز » ان يواسيه وان يجد لمبررات : « الانسان صغير جدا » لكى « يفعل ولا يفقد شيئا من الاخوة » ، ولكن هناك - لاشك - تعويض : « فان ما يفرق بينك وبين الرجال يقرب بينك وبين الحزب . . » وكان « مانويل » يفتقد هذا الاعتقاد ، ولكن يتوجس احيانا نظرا لتجربته المريرة . « تقربنا من الحرب لا يفيد شيئا اذا بعدنا عن الذين يعمل الحرب من اجلهم » (٧١)

وعلى هذا يجيب « يمينز » : ايه ! ماذا تريد يا بنى ؟ ان تحكم بالاعدام وتبقى هادئا . . ؟ انك تعود حتى على هذا . . . » (٧٢) .

ويتدخل الجنرال الروسى « هيريج » HEINRICH لفض هذه المناقشات قائلا « لمانويل » :

« نحن نعمل على تغيير مصير الحرب . هل نعتقد انه يمكن تغيير الاشياء من غير ان نغير أنفسنا ؟ فانك منذ اليوم الذى تقبل فيه قيادة في جيش البروليتاريا . ليس لك حق على نفسك . . . احساسك يمكنك ان تحتفظ به ، هذا امر آخر . ولكن لا بد ان تفقد نفسك مثل ما فقدت شعورك الطويل ونفمة صوتك » . (٧٣)

٦٨) الامل ص ٢٢٢

٦٩) الامل ص ٢٢٢

٧٠) الامل ص ٢٢٧

٧١) الامل ص ٢٢٧

٧٢) الامل ص ٢٤٨

٧٣) الامل ص ٢٥٠

هذا التباعد التدريجي وهذه العزلة المتصاعدة عن الرجال يعبران أيضا عن طبيعة العلاقات التي كانت تميز حياة « مانويل » الخاصة ، فنحن نراه في بداية الرواية يعترف « ليميتيز » بحبه العظيم (Vn) لأمراة تفصلها عنه تربيتها الدينية وتحول بينها وبين الزواج به ، الامر الذي يؤثر عليه تأثيرا شديدا ... بعددسة اشهر بينما كان مشغولا بتنظيم الغافرين « من طليطة » ولع :
« من طليطة »

وهكذا يتخلل « مائول » عن حبيسته لإتهام تشكل عقبة أمام حرية فعله ، وبالنسبة له ، حتى المجندات ، ولهن فعاليات في جانب معين من الحرب ، قد يؤثرن على عزيمة الرجال . (٧٧) « ان الحرب تولد العفة » كما يقول (٧٨) وهذا يدفعنا الى مسألة هامشية ولكنها هامة : فلماذا اتهم « مالرو » بعادته للمرأة ، فالمرأة بالنسبة له وخاصة في أوائل رواياته مثل « الفساة » Les Conquerants و « الطريق للملكى » La Voie Royale لا تمثل الا « القطب الآخر » في لذة الرجل . الا ان الكاتب يفسر هذا الموقف بأنه يتحدث عن المرأة « المحيية » وان ذلك يفرغها طبيعة البيئة التي تدور فيها الأحداث ، اما بالنسبة لعدم أهمية المكانة التي تحتلها النساء في مؤلفاته فان مالرو قد شرح ذلك « لبيبر جلانت » ورد هذه الظاهرة الى نوع من رواياته الذي يتطلب هذا النوع من النماء

وحيثما نعاود قراءة بعض فقرات رواية «لن تدق أجراس الموت» نتضح ملاحظة «المالرو» أكثر . إذ أن « روبيرت جوردان » الذي يفرم « بماريا » يعطينا أحيانا الإحساس بأن أوليس

- ٢٥/٠ (٧٤) الإمل ص
١٥٥/٠ (٧٥) الإمل ص
٣٤٧/٠ (٧٦) الإمل ص
٨٢/٠ (٧٧) الإمل ص
٤٢٢/٠ (٧٨) الإمل ص

يهمل مؤقتا التزامه بالنضال . وعلى هذا التحوييدو لنا ، في فصل الرواية المسمى «بالحب الارضى» وكأنما الزمان معلق بالنسبة للحييين :

وبالنسبة لها لم يكن يوجد الا اللون الاحمر والبرتقالى . او ذهب الشمس المشوب بحمرة على مئنيه المغمضتين ، وكان كل شيء بهذا اللون، نعم كل شيء : الشمول، التملك، الرضا، كانوا بهذا اللون وكان كل شيء يشع بهذا اللون. اما بالنسبة له، فكان معبرا مظلما لا يؤدي الى مكان او الى شيء ، لا يؤدي الى شيء ، ومرة اخرى لا يؤدي الى شيء وهكذا بلا نهاية لا يؤدي ايدا الى شيء . متكتسا بمرققة على الارض بلا هدف كان يطالع هذا المعبر المظلم اللانهاى وهو معلق طوال الوقت بعدم مخرج منه ، هذه المرة ومرة اخرى الى الابد من اجل لاشيء ، الان ، آه ! لو لم نولد مرة اخرى من اجل لاشيء ، والان عبر كل ما نستطيع تحمله الى اعلى ثم الى اعلى ثم الى علو اكبر فالى لاشيء . فجأة « انهار » ثم سعادة « علوية فاخترنا لكل ما كان مظلما وعدما ، اما الوقت فصار سكونا ابديا وكأننا هما الانان هاهنا والزمان معلق يشعرا بالارض تتحرك ثم تفوس تحتهما » . (٨٠)



واضح اذا ان هذه القطعة بمفردها تلبور ملاحظة الكاتب التى اشرنا اليها ، « فمالرو » على العكس من « همنجواى » ، ولكى يبرز الجوانب الماسوية للفصل يركز اهتمامه على العناصر الاساسية التى تكون عالم الحرب وهذا يتناسب تماما في رواية «الامل» مع شخصية (مانويل) فمن الطبيعي اذا ان البطل الذى ضحى بالقيم المباشرة في سبيل القضية الثورية يتبعد عن الرواة الحبيبة حتى لا تشغل باله عن عمله القيادى .

وتلاحظ في هذا الصدد حادثا آخر في الرواية يعل على ان وجود المرأة مضر ، بل وقاتل بالنسبة للمحاربين . لقد شاهد « جرينكو » و « جرسيا » حوارا بين زوجة مناضل وزوجها تنردد فيه الزوجة عن مفادرة مدريد كما يطلب منها زوجها : « يقول انه علي ان اغادر ، اخلت تندب حالها . يقول انه لا يستطيع ان يحارب اذا كنت هنا . . . ولكنى لا استطيع العيش اذا علمت انه يحارب هنا . . . حتى ولو لم اعرف ماذا يدور . . . » وعلق « جرسيا » على قول الزوجة هذا ببرود : « كلهن سواء . اذا رحلت فسوف تتحملة في كثير من الالم ولكنها ستتحمله ، واذا بقيت فسوف يقتل (٨١) »

على النقيض مما يدور في روايات « الطريق الملكى » و « التقدر الانسانى » أو « زمن الاحتقار » ، يكاد يكون شعور الحب غير موجود في رواية «الامل» او يمثل كعقبة في طريق المجهود الثورى . . . الامر الذى يقودنا الى ملاحظة التوازي الذى يوجد في روايات « مالرو » بين الحياة الخاصة للشخصيات ورؤيتها الشمولية للوجود ، ففى هذا الكتاب الذى يمجّد التنظيم العسكرى نرى البطل الذى كرس نفسه للنضال المنظم لا يجد فرصة للتفكير في علاقات عاطفية من اى نوع كانت .

وإذا رجعنا الى « مانويل » وجبنا ان نحوله كان شاملا . وليس الامر فقط مجرد ميلاد زعيم ، او نجاح خارق استثنائي ، انما بصدد تحول جذري ، وهنا يكمن الفرق الجوهرى بين البطل فى روايات مالرو الكرسة للثورة الصينية وبين البطل الشيوعى فى رواية « الامل » الكرسة للحرب الاسبانية . فبنما « جارين » GARINE فى « الفواة » و « كيو » KYO فى « القدر الانسانى » (٨٢) يعرضان الى النهاية الصراع يشور فى دخيلتهما ، ينتهى « مانويل » على العكس من ذلك بقبول ضرورات الفعل بلا نقاش :

« لما كان » مانويل « شيوعيا ، فانه لم يكن يتعامل عن سلامة اسس قراراته ، لم يكن يضع تصرفه موضع التساؤل ، وكل مسألة من هذا النوع كانت لا بد أن تنتهى فى نظره ، اما بتغيير افعاله (وهذا التغيير لم يكن واردا) ، واما برفض التساؤل » (٨٣)

وبعض الملاحظات فى الرواية توحى الينسابال رغم - او فلنقل - بغفل حزمة فى القيادة بان « مانويل » كان محبوبا من قبل زملائه فى السلاح وكان هذا الحب صادقا من غير افتتان . لذلك لا يرى ، بعد حكمه بالاعدام على جنديين هاربين ، فى عيون رجاله الذين يستعرضهم الامودة واخوة :

لم تكن هذه النظرات وهى تخترق نظره فى كل التقاء ، تتسم بالفغوض او اللامبالاة : كانت اخوية باسئ ، مليئة بهذا الظلام » (٨٤) .

بل واكثر من الاخوة :

« كانت نظرات » مانويل « تلتقى بتلك النظرات ، الواحدة تلو الاخرى ، وهى تعقد معها تحالفا بالدم » (٨٥) .

بعد انتصار الجمهوريين فى « جواد لغرا » يحس « مانويل » الذى قطع - اثناء المعركة - كل صلة بينه وبين المتعة الشخصية والذى اعلن « لجارترنر GARTNER انه لا يقلد الموسيقى ، بان اهم ما يحتاج اليه فى هذه اللحظة هو سماع قطعة موسيقى ... فبسماعه سيمفونية لبيتوفن كان يكتسب اليقين - حتى ولو شك أحيانا سبانه يحمل فى طيات نفسه كل الامكانيات الانسانية سليمة وكاملة :

امكانيات الفن والرقه والحب ، ولا شك ان السلام سيبعثها يوما ما فالمستقبل كله ملك له :

« كان يحس بالحياة تزخر حوله بالتنبؤات ، كما لو كانت تنتظره ، خلف هذه السحب الدائنية التى لا يهزها « المدفع » ، بعض الاقدار العمياء . كان الكلب - اللئب ينصت ممددا كما تصوره

(٨٢) فى رواية « زمن الاحتقار » Le Temps du Mepris : كان البطل « كاسنر » Kassner يمثل الصراع ضد كل ما هو « لا انسانى » . الا ان المسألة الخلقية - السياسية لم تكن مطروحة فى هذه الرواية .

(٨٣) الامل ص ٢٤٨/٠

(٨٤) الامل ص ٢٤٦/٠

(٨٥) الامل ص ٢٤٦/٠

بعض النقوش البارزة . في يوم ما سيأتي السلام وسيصبح « مانويل » انسانا جديدا ، مجهولا من ذنوبه كما كان مجهول مناضل اليوم الشخص الذي اشترى السيارة للتزلج على الجليد في جبال السيرا .

ولا شك كان الامر كذلك مع كل واحد من هؤلاء الرجال العابرين بالطرق أو العازفين بعناد أغنيات الحنين الحزينة والذين حاربوا تحت اغطية الرأس المدببة (...) ان الحرب لا تكتشف الا مرة واحدة ، ولكن الحياة تكتشف أكثر من مرة .

كانت هذه النغمات الموسيقية التي تتوالى عبر الماضي تحدثه كما لو تحدثت اليه هذه المدينة ذات الماضي العريق ... وهذه السماء وهذه الحقول الابدية ، ولاول مرة كان « مانويل » يسمع صوتا اهم من دم الرجال وأشد بأسا من وجودهم على البسيطة ، صوت الامكانية اللا محدودة لقدهرم - وكان يشعر في داخله بهذا الوجود متمتزا بهدير الجداول ، مختلطا بدبيب خطوات الاسرى ، متصلا عميقا مثل نبضات قلبه . (٨٦)

• • •

ثالثا : العمل الثوري :

(في عالم بلا امل يصعب التنفس) ، (امل / ص ١٩٩)

هذا السطر الذي نستشهد به يختتم الرواية ، الامر الذي يقودنا الى رؤية للوجود ، كلها سلام وامل ، كما وعدنا بذلك عنوان الرواية .

وليس من شك في أن هذا الكتاب نشر في فترة كان يتوقع فيها الجمهوريون نهاية موفقة لهذه الحرب ، وخاصة وأنه يشير من بين الاحداث الاخيرة الى انتصارهم في « جواد لخرأ » GUADALAJARA إلا انه يبدو لنا معبرا ان «الرو» احتفظ بهذا العنوان بعد الهزيمة السياسية الثوار . فمن الناحية « الفنية » يمكن ان نذهب لمذهب « لوسيان جولد مان » LUCIEN GOLDMANN في تعقيبه على هذا الجانب :

« يرجع رفض الاهتمام بالاحداث اللاحقة على الرواية الى ضرورة داخلية في بناء القصة : إذ ان رؤية الكتاب كانت مرتكزة على التضحية في سبيل النظام بكل القيم من أجل الفعالية ومن ثم فان هذه التضحية ستبدل هزلية وغير مبررة إذا ادت الى الهزيمة بدلا من النصر » (٨٧)

ومع ذلك فرواية « القدر الانساني » انتهت بفشل سياسى وكذلك « كيو » KYO

البطل الثورى الاصيل يموت فى نهاية الرواية بالرغم من وجود فقرات غديدة فى الكتاب توحى بانتصار المناضلين « حتى ولو هزموا أو عذبوا أو قتلوا » ... وبالأمل فى حياة أفضل للجماهير الصينية . ونحن لو فحصنا رواية « الأمل » بهذا المنظور الميتافيزيقى لايقنا بمدى دلالة هذا العنوان وعدم جدوى الأحداث اللاحقة على معركة « جوادلخرا » فى تغيير مضمونه .

« ان القوة الكبرى للثورة هي الأمل » يقول مناخلو (٨٨) الحرب الإسبانية ، وهذا الشعور ، فى الواقع ، هو الذى يلهم ثورتهم ويثبثهم التغلب على مخاوفهم أمام القدر ...

هذا الأمل هو أمل الفلاحين الذين عاشوا فى البؤس ويحلمون بالكرامة واحترام آدميتهم .

ولو فكر فى ذلك « مانيان » وهو يطق فوق قرى إسبانيا :

« كان يتذكر الأراضي البور ، التى لم يكن من حق الفلاحين المرضى من البؤس ان يستصلحوها ... ان الفلاحين النافرين كانوا يحاربون تحت امرته ليرفخوا هذه الجدران الصغيرة ، وهى الخطوة الاولى فى سبيل كرامتهم » . (٨٩)

كان الجميع يحارب فى سبيل تصور معين للإنسان وإذا كان المثل الأعلى الثورى هو الذى يوجب حماس الشعب فلانه كان يجسد لديهم « أملا غامضا وبلا حدود » (٩٠) ويرضى الرغبات ولطامح العميقة الكامنة فى كل فرد .

الا ان الكاتب ، فى الوقت الذى كان يصف فيه قمة الالتزام الثورى ، كان يدين الثنائية الناتجة عن الفعل : فالثورة ، كما رأينا ، كانت تصطبغ بالحماس الذى دفع بالإبطال الى اللحاق بها ، هذا الحماس الذى كان يجب الحد منه بجهدمضن فى سبيل النظام .

وهكذا فان أفضل ما فى الإنسان ، أى تلقائياته الثورية، هو الذى كان يدخل فى صراع مع ضرورات النظام العسكرية والسياسى ... وبهذه الصورة يشك فى قدرة الثورة على حل المسائل الميتافيزيقية للفرد . الأمر الذى يرجع الى ان طبيعة المسائل السياسية وطبيعة المسائل الخلقية لا تنتمي الى نفس النسق كما يقول « باسكال » .

(٨٨) الأمل ، ص/٤٤

(٨٩) الأمل ص/١٩

(٩٠) الأمل ص/١٩

ومن ثم عجز الثورة عن الارتفاع بمستوى الانسان من تلقاء ذاتها ... فلننصت الى « جرسيا » :

« اي دولة وای بناء اجتماعي لا يمكنه خلق نبالة الخلق او رفعة الروح ، ومعظم ما يمكن توقعه هو ظروف ملائمة . وهذا كثير ... » (٩١)

ويوضح « مالرو » في خطابه عن « الميراث الثقافي » :

« ان الثورة لا تعطي للانسان الا امكانية كسب كرامته ، وعلى كل فرد ان يجعل من هذه الامكانية حقيقة ... » (٩٢)

عظمة الانسان لا تعتمد بلا شك الا على جهده الخاص .. ولكن الرجل الملتزم يجد في الفعل ظروفا ملائمة لتجاوز وضعه ببطل افضل ما في طاقته ، وهنا يكمن الامل الثوري ، فالبطل يلقي في صراعه من اجل الكرامة والحرية . محضا وتجارب تناقض القيم التي يناضل من اجلها ولكن امله في المستقبل الذي يعده يكفي لايجاد صلة بين التضحية المؤقتة بهذه القيم وبين العالم الجديد الذي يحلم به .

اذ انه حين ينخرط كلية في فعل له معنى وهدف ، سوف يخرج من هذه التجربة وقد تغير جذريا ، ومن ثم تصبح الثورة ايضا لا قدرا شخسيا وهذا ما يلاحظه « مانويل » في آخر الرواية حينما يقول :

« ان حياة اخرى بدأت بالنسبة له مع المعركة ... » (٩٣)

وانه لفي ضوء هذا المفهوم تكتسب الرواية وعنوانها معناه الكامل .

وانه لجدير بالذكر من جهة اخرى ان يكتب المؤلف ، بعد انتصار « جواد لخر » بان الحرب قد بدأت (٩٤) ، مشيرا بذلك الى ان معارك اخرى قد لا تكون موفقة بالنسبة للجمهوريين ،

ولكن ... طالما ظل المجهود الثوري قائما كما يجب ان يقوم .. فان هذا المجهود سوف يؤكد الرجال « الامكانية الا لا محسوبة لغيرهم » .

• • •

(٩١) الامل ص/٣٢٨

L'Heritage cultural in Commune No. 37, 1936, p.9

(٩٢) راجع :

(٩٣) الامل ص ٤٢٢/٠

(٩٤) الامل ص ٤٣٦/٠

خاتمة :

ان شعور الاخوة الانسانية ، الذى يبرز فى كثير من صفحات رواية « القدر الانسانى » ويغلب على معظم رواية « زمن الاحتفال » يلقى على رواية « الامل » اقوى تعبير له . الا ان قبول حقيقة هذا الشعور كواقع لا يجلب للانسان السلام التام ، اذ انه يتحتم على الانسان ان يؤكد بلا تردد على القيم المختارة ليطرد هواجس القلق...

ان الاحساس بالحياة الجماعية لا يكتسب الا قليلا قليلا ، لان الاخوة المتولدة عن الانفصال المشتركة كثيرا ما تصطدم بالتزامات وضرورات الفعل ذاته .

وليس هناك شك فى ان « مالرو » يؤكد على ضرورة التنظيم كعنصر اساسى لكل جيش ، غير ان روايته تمجد ايضا قبول النظام ، هذا النظام الذى يفرضه الانسان على نفسه حتى ولو كان احيانا قاسيا او لا انسانيا ، اذ ان الانسان الذى برهن على حريته بالنضال حتى ضد نفسه ، جذر من ثم بان يرفض الخضوع للأقدار . ومثال « مانويل » يرينا ان الانسان الذى تخلص من حتميات الوجود يمكنه بسهولة ان « يكتشف سرا مقدسا وبسيطا » ،

الا وهو سر الحياة . (٩٥)

★ ★ ★

عزّه محمد هيكّل

اندريه مالرو قدر الاشياء

ثورة في الأدب

ينفصل القرن العشرون عن الأسلوب التقليدي للقصة المصطنعة تاليفاً ، والتي تتنازع فيها الأجيال على وجه مصنف ومنطقي ، بحيث أصبح تناول الرواية التحليلية والرواية الأخلاقية بالطريقة المعتادة موضوع قضية مطروحة ؛ ويظهر من ثم خط جديد للرواية لا يقوم على الشمول الكامل ، وإنما يركز على الغموض والإبهام . ويقول الناقد البيريس :

« ان رواية لفلوير أو لزولا كانت تحكى . ولكنك تعيش وتحيا **قصة الإنسان** » (١)

وبينما كان بلزاك وفلوير وزولا يوضحون ويشرحون التطور النفسى لشخص رواياتهم .. فقد كانوا يعرفون مسبقاً نهاياتها . أما في أعمال مالرو فكل الشروح والتفسيرات ضمنية .

(١) R.À.M. Albérès, *Histoire du roman moderne*. Editions Albin Michel, 1962. p. 130. (٢) ١٠٤
André Gide, *Journal* 10 Avril 1933.

ولا نعلم عنها شيئا أكثر مما يرى الأبطال ويشعرون به ويفكرون فيه ، ولا يتدخل الكاتب في السرد أبدا لمجرد التوضيح والبيان .

وفي **قصر الإنسان** لا تبدو الشخصيات واضحة ، وإنما تتشكل تدريجيا ثم تتحلل وتتكون من جديد محتفظة دائما بموضعا ، تماما كما يحدث في الحياة بالنسبة للأشخاص الذين نلتقاهم ولا نسعنا التعرف عليهم حقيقة . فالأمر لا يتعلق بتقديم شخصيات للملح في النهاية صورة منطقية واضحة لهم ، وإنما نجد فيهم تعقيدا غير قابل للتحديد ، وعالم متغيرا بالنسبة لكل شخصية وغير متكامل .

وفي **قصر الإنسان** الذي اعتبر بالإجماع أشهر روايات مالرو ، وقد ظهرت في عام ١٩٣٣ وحصلت على جائزة جوتكور ، يقوم الموضوع على تكاثف في الأحداث وتركيزها في وقت ضيق وقد أشار الى ذلك أنفريه جيد في عبارة شهيرة :

« هذا الكتاب الذي اطلعت عليه خلال نشره مسلسلا في إحدى المجلات ، بدأ لي شديد الكثافة ويوقف ثراؤه الاستمرار في تلاوته ، وهو الى حد ما غير مفهوم ازاء وفرة تعقيداته . وقد لاح لي بعد قراءته كاملا ، انه ظاهرا الوضوح ومتسق في عدم انتظامه وعلى درجة كبيرة من الذكاء ورغم ذلك - اعني القول ورغم الذكاء - فهو عميق التداخل في الحياة ومشوب بقلق غير محتمل » (٢)

ولأن الرواية مجزأة الى عدة مشاهد تتعاقب بلا اتصال او تفسير بحيث تفتقر الى اية رابطة واضحة في السرد بين مشهد وآخر ، فيما عدا بعض البيانات المتعلقة بالتاريخ والساعة التي تعين القارئ على الفهم ، وتدل - بالعكس على أعمال متعمد للربط بين الأحداث . ولو نقلنا هذه البيانات يمكن تلمس ما يبدو انه خطة الكتاب .

الجزء الأول : ٢١ مارس عام ١٩٢٧ : بعد منتصف الليل بنصف ساعة ، في الواحدة صباحا ، في الرابعة صباحا ، في الرابعة والنصف صباحا .

الجزء الثاني : ٢٢ مارس ، الساعة الحادية عشرة صباحا ، الساعة الواحدة بعد الظهر الخ .

وبعد ذلك ونجاة في **الجزء الثالث** ، في ٢٩ مارس ، والجزاء الرابعة والخامسة والسادسة ، في ١١ ابريل . وينقلنا الجزء السابع الى باريس في يوليو وتقع الخاتمة في كوبيه .

وهكذا بدلا من الاستطراد التقليدي للسرد ، فان فصول الرواية تستمر وتتتابع مع تفاصيل الشخصيات وفي مختلف الأماكن - ونمر بلاى تمهيد من حكاية الى أخرى . **ويؤكد النقاد انه كان لأعمال مالرو سبق المبادرة في « خلق المفهوم الثوري للأدب »** . ولم تعد الرواية للاستهلاك

(٢) ظهر قصر الإنسان لأول مرة مسلسلا في مجلة لانوفيل ديفي فرانسيز في أوائل ١٩٢٣ ثم ظهرت الرواية في كتاب بعد ذلك مباشرة .

الصرف وانما هي تحقق تعاوننا في الانتاج بين الكاتب والجمهور الذي يدعى للمساهمة بجهود بناءة لاقامة العمل الادبي . « (٢)

وقد لمس مالرو بذاته عدم الاستمرار في معادلة وجيزة مؤداها : انه يمكن فهم كل فن من الفنون فهما ضمنيا لا تصريحيا . (٣)

وغالبا ما قورنت طريقة مالرو بمشهد سينمائي واضح (٥) تمثل فيه الرواية بمجموعة من اللوحات ويوحى تتابعها وتباينها بالواقع والتراء .

ويتردد الكاتب باستمرار بين مشاهد الافعال ومشاهد الفكر وبين التحقيق الصحفي والبلبلية : « ينتقل الانسان فجأة من حالة الثورة الى حالة التمعن والتفكير . فبعد ان ارتكب تشين جريمة قتل اخذ يتسأل عن معنى ما اقدم عليه ازاء قيمة حياة الانسان . كما ان الحوار بين كيو وماسى الذى انصرف الى قيمة الحب قد انقطع بفئة يتدخل كلايك ومعه مستند لسرقة عتاد واسلحة على ظهر باخرة . وكذلك فانه بمجرد تركنا جيزور الذي يستلهم معنى الحياة والالتجاء الى المخدر وشعوره نحو ابنه ، نجد انفسنا فجأة امام ثوار يهاجمون سفينة .



التوازي بين الحياة والرواية

بينما نجد ان الطريق الملكي والفزاة يضعان على المسرح بطلين او ثلاثة ابطال فان قدر الانسان وفقا لما يتم عنه عنوانه ، يحيا عالما واقعيًا على قيد الحياة وهو عالم الصين في عام ١٩٢٧ . وتلدور الاحداث اساسا في شنفهاى بين جماعات الثوار التي تعد للثورة . والحكاية هنا معقدة جدا الى حد القول بان هناك حكايات بقدر عدد الابطال .

وتختلف الثورة الصينية وتباين تبعا لآراء الابطال وحسب ما يتصل الامر بتشين او كيو او جيزور او فيرال او هيمير ليتش او كلايك .. ويؤكد مالرو : « ان الاطار غير اساسي (...) ولكنه ايضا غير عارض . واعتقد انه يوجد في وقت ما اماكن قليلة تتوافر فيها ظروف للبطلة .. » (٦)

(٢) Claude-Edmonde Magny, "Malraux le fascinateur," Esprit octobre 1948.

(٣) Malraux, cite par Henri Dumazeau, La Condition humaine de Malraux. Paris, Hatier (collection "Profil d'une oeuvre"), 1970. p. 68.

(٥) كان اينشتاين سيمور سينماليا رواية قدر الانسان بموسيقى شوستا كوفيتش ولكن حالت دكتاورية ستاين دون تحقيق ذلك المشروع . ولم يتم ايضا المشروع الذي اهدته هاتسون في عام ١٩٧٠ . وفي فرنسا في عام ١٩٥٤ قام تيرى مولينية ومارسيل تاسا بتكرار ابعاد الرواية مسرحيا وكتب مالرو الفصل الاخير منها .

(٦) Lettre de Malraux a Gtén Picon (1934) reproduite en fac-simile sur la page de garde de Malraux par Lui-même de G; Picon, Editions du Seuil.

والسمة الأولى لروايات مالرو هي معاصرتها . ويستغرق الكاتب في المعارك المعاصرة ويحاول أن ييسر للقارئ معاشيتها . ولقد كانت مؤلفاته حتى عام ١٩٤٥ قريبة تماما من الأحداث ، الى حد أن بعض النقاد لم يروا فيها الا تحقيقا صحفيا أميناً للأحداث المعاصرة .

والصحيح انه اذا كان مالرو قد كتب « الفزاة » و « قدر الإنسان » فان ذلك يرجع الى انه في عام ١٩٢٥ ذهب الى الصين التي كانت في أوج الحرب الاهلية . وهناك ، - ولبعض الوقت - يبدو انه باشر منصب قائم مقام قوميسر الكو منتاج المكلف بأعمال الدعاية لدى بوروديني ممثل الاتحاد السوفيتي في اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الصيني .

ولا جدال في أن أعمال مالرو هي نتاج لتجاربه ولقاءاته . وفي هذا المجال فان « سيرة حياته » تميز بين الصور الادبية غير الشخصية لمؤلفات مالرو الاولى عن اثاره اللاحقة . ومنذ عام ١٩٢٦ (اغراء الغرب) أصبحت مؤلفات مالرو « مذكرات خيالية » (٧) لمغامراته الخاصة . وتذكر احدي شخصياته :

« كيف تريد فهم الشيء من غير طريق المذكرات » (٨)

والواقع ان اغلب ابطاله من المغامرين او السياسيين وهم يمثلون تماما مع (خالقهم) في الاحداث والصراعات الحقيقية في كانتون (الفزاة عام ١٩٢٨) ، وفي شنغهاي (قدر الإنسان عام ١٩٣٣) ، وفي ألمانيا (زمن الاحتجاز عام ١٩٣٥) ، وفي اسبانيا (الامم عام ١٩٣٧) ، وفي فرنسا (الصراع مع الملا عام ١٩٤٣)

ولطالما أخذ على مالرو ، وعلى الاخص بالنسبة لـ « قدر الإنسان » القتال الوحشي والتدوق الدموي والتعذيب والميل الى البطولة السقيمة . » (٩)

وقام رد اندريه على مذهب اليه النقاد في سطور واضحة :

« أنا لم اختر هذه الوحشية لانني تلاقيت معها . وكل انسان يستخلص من حياته ، وانني اطالب بهذه وبذلك » . (١٠)

وفضلا من التفاصيل المتعلقة بتاريخ حياة مالرو فان ما يميز روايته على وجه خاص هو التاريخ الذي يتداخل في السرد . فقد اشترك في بطولة الرواية تشايغ - كاي - تشيك الذي كان

(٧) Georges Mounin, „Les Chemins de Malraux“, Les Lettres Françaises, 7 juin 1946.

(٨) André Malraux, La Condition humaine, Paris, Gallimard 1933. Edition consultée : Gallimard (collection Folio), 1946. p. 176.

(٩) Robert Brasillach „Le goût malsain de l'héroïsme“, L'Action française, 10 août 1933.

(١٠) André Malraux, „Réponse à Robert Brasillach“. Lettre du 23 août 1933. Ces deux textes figurent dans les Oeuvres complètes de Robert Brasillach, club de l' Honnête, homme, Tome VII.

وقتل ذلك على رأس القسم المعتدل للكومينتانج ، وبورودين الذي كان في ذلك التاريخ المستشار الروسي للحكومة الصينية . ولعب كيو دورشواين لاي .

ولا جدال في أن الحياة الخاصة للبطل وموته من خيال المؤلف . ولقد ألهمت مالرو زوجته الأولى كلارا جولد شملت مشهد الاعتراف بالخيانة . واستطاع مالرو أن يضع نصب عينيه أندريه جيد عندما ابتدع شخصية جيزور ، وأندريه برتيلو عندما خلق شخصية فيرال . وأخيرا فقد صور الكاتب أصل كلاييك في « اللامدكرات » على وجه دون شخصية الرواية .

وبالنسبة لعدد كبير من المؤلفين وعلى الأخص مالرو فإن العمل الأدبي ليس إلا انعكاسا وصدى للحياة : ويسعنا أن نؤكد أن العكس صحيح أيضا ، وغالبا ماحدث ذلك ، ويؤكد مالرو نفسه :

« أن العالم أخذ يتشابه مع مؤلفاتي . » (١١)

وفي واقع الأمر فإن **قدر الإنسان** ظلت على مدى أربعين عاما رواية أحداث ملتبهة . العالم الثالث والثورة والحرب والشيوعية والنزاع الصيني السوفيتي وموضوع الحرية ، كل ذلك الشغل الشاغل دائما ، وفي الدرجة الأولى ، لاهتماماتنا . وفي هذا الكتاب الذي قام على التنبؤ تكون بعض ما قدر المؤلف خطوطا للمستقبل . ومنذ عام ١٩٣٣ كان مالرو يعلن « أن قدر الصين بين يدي الحرب الشيوعي » ، (١٢) ولقد استيقظ « للاثمالة مليون من الصينيين منطلقين من سبات استمر ثلاثين قرنا وسوف لن يستولي عليهم النورم من جديد » (١٣)

وكان الكاتب قد تنبأ منذ سنوات سابقة بالتناقضات بين الحزب الشيوعي الصيني والشيوعية الدولية . وأعلن أيضا أن قدر الغرب ربما يتوقف على ذلك الحزب .



عالم الرجال

ذهب بعض النقاد إلى حد إنكار عنوان رواية مالرو **قدر الإنسان** واعتبروا أنه مضمّن في شسطه .

ويؤكد الناقد السوفيتي إيليا أهرنيورج أن ما يعنى مالرو ليس هم الصينيون ولا مدينة شنغهاي وإنما ما حلّ باربعة أو خمسة رجال في هذه المدينة في ربيع عام ١٩٢٧ . ويضيف

A. Malraux, cité par H. Dumazeau, op.cit., p. 24.

(١١)

(١٢) قدر الإنسان

(١٣) قدر الإنسان ص ٢٧٩ .

أهريبورج أن رواية مالرو ليست مؤلفاً عن الثورة وإنما هي « صورة راديو جرافية للكاتب مجزأة على عدة أبطال » (١٤) .

ويؤكد أيضاً آدموند جالو في مقال أنطوى على الكثير من التقريظ والثناء :

« أن قدير الإنسان هو قدر معين لنموذج من الناس وخاص بالسيد أندريه مالرو ، ونجده في كل أعماله ، وسمعنا أن نطلق عليه اسم المفكر المفقور » (١٥)

ولو أن الموضوع الظاهر للقدير الإنسان في حقيقته هو الثورة الصينية ، فإن المسألة العميقة في تصوير الحالة المأسوية للإنسان في مواجهة قدره : غموض الوجود ، والشعور العميق بالوحدة ، والتبعية للغير ، وسيطرة فكرة الموت . . . ويرد تماماً الكتاب بعد ذلك على عنوانه ، بأنه يقدم إنسانية معقدة خالية وعلى قيد الحياة .

ومع ذلك فثمة تحفظات يتعين أبدؤها في شأن العالم الخاص بمالرو . فهو يرسم علماً من الرجال أساساً ، حيث تحتل المرأة مكاناً ضيقاً ، وتقول ماى بحق :

« كبير ، ما هذه الإنكار الخاصة بالرجال » (١٦)

وفي الواقع فإن تلك أفكار ومسائل من إيهاء الرجال ، وتشكل جوهر أعمال أندريه مالرو .

ولقد كان عالم الرجال من مميزات روايات ستاندال . وبالرغم من تدخل العاطفة الرومانتيكية ، قدم موريس باريس وهنرى دى مونتلان صورة لنشاط الرجال . وكان أرنست بسيكارى رائداً لعالم الفعل ، وجاء بعده لورانسى في بلاد العرب وأرنست يونجر في الحرب والمغامرة ، وسانت أجزيبيري وهو من رواد الطيارين .

ومحاكاة لكل هؤلاء السابقين استخدم مالرو الحركة كنقطة انطلاق للبحث عن قانون أخلاقي وعن معنى للحياة . وعالمه الإنساني « محدود بالفعل والذكاء الرجالى » (١٧)

ويركز جايتمان يكون على غياب الطفل وندرة وارتباك الشخصيات النسائية في رواية مالرو . والواقع فكثيراً ما نرى أن ليس لأبطال مالرو نساء أو أطفال . ففي قدير الإنسان يشكو هيمير ليتش من وجود زوجة وابن عليل يتعين عليه حمايتهما . وهذه العلاقات الأسرية تحول دوله « والسعادة

(١٤) Ilya Ehrenbourg "La condition humaine vue par un écrivain d'U.R.S.S." Texte écrit en mai 1933, publié dans *Vus par un écrivain d'U.R.S.S.* Gallimard, 1934.

(١٥) Edmond Jaloux. „Une puissance extraordinaire", *Les Nouvelles littéraires*, 16 décembre 1933.

(١٦) قدير الإنسان ص ٦١

G. Picon, *Malraux par lui-même* p. 49.

(١٧)

في أن تكون حواء وتمنعه من المساهمة في الحركة الثورية . كما ان وفاة ذويه ستحقق الخلاص بالنسبة له .

ويكشف كاتوف ايضا في ذاته هناة خبيثة « لا نساء ولا اطفال » (١٨) للجيل ولذونه والحربة.

وبينما لا يضع مارو على المسرح في الطريق الملكي وفي الفؤاة الا رجالا بلا اطفال وعمل بالانساء (فيما خلا ساره ومدام كلاين والداعرات) ، ففي قدر الانسان لا نجد الا اثنيين ماي وفاليري . ومع ذلك فان وجودهما يتصل ويرتبط بزميل كل منهما كيو وفيرال . وتبعاً لما اشار اليه هنري ديمازو : « انها حالة وحيدة في رواية مارو : » (١٩) كيو يحب ماي ، وهي تحبه . ولكنه كاتسان في الدرجة العليا لا يسمح لكل من الجنسين بالحري في التصرف في جسده ، وهو مبدأ مطلوب في الاوساط الثورية في ذلك العصر . ويبين له من ذلك انه ذكر فيه روح التملك والفيرة كالاخرين .

اما عن شخصية فاليري وكذلك المحظيات اللاتي تظهرن في الرواية ، فانهم يوضحن الاهمية التي يعلقها مارو على المشق الجسدي ، والتمييز الاساسي بين ذلك الاحساس وبين الحب . وليست فاليري بالنسبة لفيرال الا الجنس الآخر . ويكرر الكاتب في اكثر من موضع ان التعارض بين الجنسين يكمن في العلاقات .

« بدل من المرأة وتملك من الرجل » (٢٠)

« لم تكن المرأة الا احد قطبي متعة الرجل الشخصية » (٢١)

ولا يرى فيرال في فاليري الا تبعية وخضوعا واذلالا . ووفقا لقوله « ان الرغبة في التعرف الى امرأة هي وسيلة لتملكها او الانتقام منها . » (٢٢)

ويبدى ايضا تشيبن احتقارا شديدا للجنس المؤنث ويفخر « بأنه ليس من النساء » (٢٣)

وعلى ذلك فان التفرقة واضحة بين كل من الجنسين . ورغم ذلك فان مارو يعرف نساء ويحبهن . وهو قد تزوج ثلاث مرات من سيدات مرموقات ، ولكنه كما يقول « ان المرأة بالنسبة لي كائن مختلف - وانا اتحدث عن الفارق وليس عن المستوى - ولا يستطيع ان تصور شخصية نسائية . » (٢٤)

(١٨) قدر الانسان ص ١٥٢ .

(١٩)

H. Dumazeau op. cit., b. 28.

(٢٠) قدر الانسان ص ١٠٣ .

(٢١) قدر الانسان ص ١٠٥ .

(٢٢) قدر الانسان ص ١٩١ .

(٢٣) قدر الانسان ص ٥٤ .

Malraux à d'Astier de la Vigerie, L'Evénement, août 1967, p. 60.

(٢٤)

ولو ان ماى فى **قدر الانسان** قد وجدت الخلاص من العشق الجسدى وتعدت حالة المرأة الملوكة والمحترقة ، فانما يرجع ذلك الى مشاركتها زوجها فى صراع الثورة . وهذه الراء « المسترجلة » (٢٥) تتناقض فى وضوح مع زوجة هيميرليتش والعاملة الصغيرة لكاتوف . ولم تكن بحاجة الى حماية المذكور . « هل عشقت امرأة محمية ؟ » (٢٦) ذلك هو السؤال الذى طرحته على كيو . انها مساوية للرجل ، واتحاد الزوجين يقوى ويشدد بالصراع الرجالى .



العنصر الباسكالى : يؤس الرجل بدون اله

تكن القوة والجمال فى **قدر الانسان** فى تطور الرواية على مراحل متعددة فى ذات الوقت . فمن جهة تمر بالناحية السياسية مما يجعلنا نفهم كيف اعتبر ذلك الكتاب الممتاز وقبل كل شىء رواية ثورية ، ومن جهة اخرى نذكر الانسانية العميقة للمناقشات . ففى كل لحظة ، وعند اقصى عنف للابطال ، فانهم يتساملون فى لهفة عن مأساة قدرهم .

والذى يعطى العمل وحدة عميقة هو ذلك المجال المعنوى ، الذى يجعل للشخص قيمته . ومن خلال جيزور الفيلسوف الفرنسى العجوز ، يسعنا ان نلمس وحدة الرواية اذ اليه يتجه كل الاشخاص ليناقشوا معنى وجودهم . ولقد ابدى تشين حاجته ليراه بعد ارتكابه جريمته .

ويتحدث اليه كيو عن قلقه ، ويبحث فيرال عن صحة جيزور معجبا « بثقافته الفائقة » و « وضع ذكائه دائما فى خدمة المتحدثين » . وكان يبدو لكلاييك ان « جيزور كان الرجل الوحيد الذى فهمه » ، واما عن الفيلسوف العجوز ذاته فكان يرى فى نفسه ما يرى فيه اولئك الذين كانوا يأتون اليه .

ويقارن جوزيف هوفمان بين دور جيزور ودور المنشدين فى المأساة القديمة لانه هو المكلف باستخلاص معاني الانعزال واقوال كل الابطال .

« هذا الشخص يبين على وجه يستبعد كل غموض اين يمكن البحث عن الوحدة العميقة والتعريف ب**قدر الانسان** . » (٢٧)

وهكذا ووفقا لشهادة مالرو نفسه فان العنصر الاساسى فى **قدر الانسان** ليس هو « الاطار » وانما « العنصر الاساسى الباسكالى » (٢٨) لان مأساة مالرو معنوية على الاخص . وكتابه يصور طبقا لما ذكر باسكال (مأساة الرجل بدون اله) . ويشير مالرو فى اكثر من موضع

(٢٥) قدر الانسان ص ٢٨٠ .

(٢٦) قدر الانسان ص ١٧٢ .

(٢٧) Joseph Hoffmann, L'Humanisme de Malraux, librairie Klincksieck, 1963. p. 157.

(٢٨) A. Malraux, Lettres à Gaëtan Picon, 1934.

الى اثر باسكال على انتاجه . وفي الصفحات الاخيرة من « اشجار الجوز في الالتبرج » يتحدث عن النص الباسكالي الشهير :

« نتصور عددا كبيرا من الرجال مكبلين بالاغلال ومحكوما عليهم جميعا بالموت ، وكان بعضهم يلعب امام الآخرين كل يوم ومن يبقى منهم يرى قدره في مصير المائلين له ... انها صورة قدر الانسان » (٢٩)

وبذكرنا ذلك المثال بمشهد اساسي في قدر الانسان يشكله المسجونون في ساحة السجن ، ومثلما هو الحال مع باسكال ، فان عبث العالم والقلق في قدر الانسان والانشغال الدائم بالموت كل ذلك يكون الاسس في اعمال مالمرو .

وتسائل كل شخص الرواية عن معنى الحياة . ولقد اعتنق تشين - الذي تلقى بدماء التعاليم المسيحية الماركسية تحت تأثير جيزور . ولكن الميول السياسية ، عندما حلت محل الماطفة الدينية ، تركت فيه فراغا كبيرا . وتسائل الشاب في قلق .

« ما جدوى الروح اذا لم يكن هناك رب او مسيح » (٣٠) .

ويقارن جيزور مفكرا في معنى الحياة بين القلق المؤلم لتشين والايمان البطولي لكيو . فبينما الاول يائس لان الحياة بلا معنى فان العمل السياسي لكيو وبالعكس « يجعل للوحدة معنى (...) وكان لحياته معنى »

وبالنسبة لميهرلنش فان العمل الثوري هو « الشيء الوحيد الذي له معنى في حياته الراهنة » ويفكر فيرل شانه في ذلك شأن كل اشخاص الرواية ، وحتى الرسام العجوز كما يتأمل في معنى الحياة والموت . ويذهب الفيلسوف جيزور ، وهو هنا يروي عن مالمرو ، الى :

« انه من النادر ان يستطيع رجل تحمل (...) قدره الانساني » (٣١)

وفي محاولة للتغفل في سر قدر الانسان يظهر مالمرو كافة صور القدر ، اى كل ما تتحمله : الوحدة ، والعبث ، والقلق والموت ... هذه كلها مسائل هامة لقدر الانسان وهي ترعب كل الشخصوس وتوجد في كل صفحات الرواية .

ويستعيد مالمرو في ذلك الكتاب صورة الانسانية المحكوم عليها ، وكما قدمها من قبل في الغزاة والطريق الملكي ، وهي تمثل ذات الاسطورة القاسية والدموية من الشقاء والفشل والقدر ، وتشفى كل شخصيات قدر الانسان من وحدة مؤلمة . والفرد منفلق على نفسه ، وعاجز عن الاتصال بالآخرين .

(٢٩) مالمرو شجر الجوز في الالتبرج .

(٣٠) قدر الانسان ص ٥٨ .

(٣١) قدر الانسان ص ١٩٢ .

ولم يكن تشين قبل ارتكابه جريمته يعلم ، كما لم يكن قادرا على التكهن ، بما ينتظره . فقد كان يتأهب لاقتراف فعل كغيره ، ربما كان على درجة اكبر من الاهمية ، ولكنه على اى حال يعتبر كائى فعل عادى ارتكبه حتى ذلك الوقت فقد كان يرى انه سيكون « بعد » هذه الجريمة شأنه كما كان « قبلها » ، وكما لو كان قد اتى بعمل عادى ، ولكن « المجهول » كان فى انتظاره . ولم يكن باستطاعة ذلك العمل ان يدخل ضمن الاعمال السابقة .

« لم يكن هو الخوف ، لقد كان امرا مهولا وقاسيا فى ذات الوقت ولم يعرف له مثيل منذ طفولته : لقد كان وحيدا مع الموت ، وحيدا فى مكان بلا رجال ، ومسحوقا من البشاعة ومنظر الدماء » (٣٢)

كان هناك اذن « عالم الجريمة » الذى لم يستطع ان يتقاسمه مع الاخرين وحتى عندما يجد زملاؤه ، يظل تشين وحيدا « على وجهه غير عادى » ولما يتوجه الى جيزور ، سيده ، آملا ان يجد عنده شيئا من الراحة لا يستطيع الفيلسوف العجوز ان يسدى اليه نفعا . وبأسف ذلك الاخير « لعلة القاتل » . ولكن الذى لم يفهمه جيزور هو ان تشين ، الذى رأى من جديد شركاءه فى الجريمة ، « يبدو بعيدا تماما عنهم » ، ولكن ذلك الفموض يبدو فجأة كأمر واضح لتشين الذى يقول لجيزور :

« انت لم تقتل احدا ابدا . اليس كذلك؟ » (٣٣) ولم تكن وحدة تشين بعد جريمته وانزاله شيئا آخر غير وحدة كل رجل . وايا كان عمق الحب الذى يجيش بصدر جيزور لابنه كيو فان جيزور وحده امام ذلك الحب

« هذه الوحدة التامة وحتى الحب الذى كان يكتنه كيو لم يحره » (٣٤)

وكما هو الحال مع تشين ، ولكن فى مجال آخر ، فان موت كيو بالنسبة لجيزور هو « انفصال » حقيقى ، ووقف تام ليس له ما بعده . ولم يكن يعلم الى اى « تحول » يمكن للموت ان يقهر الرجل . « لم يعد للحياة معنى او وجود » وبعد سطور من الرواية يكرر جيزور :

« ليس موت كيو الالم وحده او التغيير وحده وانما هو تحول تام » (٣٥)

ان فيرال وحيد ومنفلق على « حياته الفردية ومنعزل ومنفرد » وليس هناك ما يمكنه من ان يقهر حواجز ذلك الضمير الذى لا يعرف الاذاته وجسده . وفى العلاقات بين فيرال وفاليري او من خلال زيارة الماهرة الصينية يصطدم فيرال دائما بشخصه .

(٣٢) فقد الانسان ص ١٢ .

(٣٣) فقد الانسان ص ٥٣

(٣٤) فقد الانسان ص ٦١

(٣٥) فقد الانسان ص ٢٧٩ .

وخلافا لما يرى هنرى ديمازو الذى يؤكدانه يوجد عند كل الرجال فيما عدا كلايك الاسم والوحدة ، (٣٦) فقد لاحظنا فى تلك الشخصية ، وكذلك فى باقى أبطال الرواية ، الإحساس المحزن بالوحدة المعنوية . ولم يستطع كلايك الذى نجح فى الإفلات من كل ما يقيم عليه الرجال حياتهم كالحب والأسرة والعمل أن يتخلص من الخوف .

« كان الخوف يغمره ويشمره دائما بوحدته القاسية » (٣٨)

ويتساءل كيو فى لهفة « ولكن من اكون بالنسبة لحنجرى ؟ »

وتظهر المسألة فى قلد الإنسان فى الكشف المفاجيء لسر ذواتنا ، ويدرك كيو مدى غربته . وتشغله هذه التجربة كثيرا ، ويظل يفكر فيها مرارا . وعندما يصرح لاييه عن متاعبه يرد عليه :

« لقد حدث ان وجدت نفسى فجأة امام مرآة ، ولم اعرف على نفسى » (٣٩)

وتستمر هذه التجربة الغريبة فى ذهن كيو ويتذكر مرة اخرى عندما يترك ماى ويدرك حينذاك سبب الوحدة المؤلمة للرجل : ولا يمكن ابدا لاحد ان يكون لغيره مثلما يكون لنفسه . وفى كل كائن « غريب » (٤٠)

(لفظ يتدوره تماما البير كامى) وهو غير معلوم وغير قابل للتعرف عليه .

وتربطنا على ذلك فان التعبير عن الضمير مستحيل ، وليس للرجل اى طريق ليكن مفهوموا ولا يعرف احد الاخر ابدا . وهذا هو الراى الدائم لمالرو . ويؤكد الكاتب ذاته بهامش نصى جابتان يكون :

« كلمة معرفة التى تنطبق على الناس تجعلنى احلم دائما . واعتقد اننا لا نعرف احدا » (٤١) .

• • •

والعالم الروائى لمالرو بدون اتصال . وليس الحوار المتعدد بالكتاب فى واقعه الا حديثا منفردا متتابعا حيث يتحدث كل شخص الى نفسه وما اجل نفسه دون مراعاة للمتحدث الاخر الذى لا يتأثر بحديث الغير .

H. Dumazeau, op. cit., p. 49.

(٣٦)

(٣٧) قلد الإنسان ص ٢١٨ .

(٣٨) قلد الإنسان ص ٤٩ .

(٣٩) قلد الإنسان ص ٤١ .

(٤٠) قلد الإنسان ص ١٩١ .

Malraux in G. Picon, Malraux par lui-même p. 48,

(٤١)

ويلاحظ كيو في قلق ان « ماى بعيدة عن فهمه تماما » .

ويقرر جيزور في اسى ان « احدا لم يعديعرف الآخر » وعندما تنطبق لأول مرة العبارة التى كررها كثيرا « ليس هناك فهم لاحد » على ابنه ، يسيطر عليه بالغ الاحساسات المؤلمة ترهق كل شخص **قدر الانسان** . ولم يستطع تشين طوال سطور الكتاب وحتى وفاته ان يبرا من « القلق الاولى » الذى كان يلاحقه حتى فى احلامه .

ورقم ان مارو يتقارب مع باسكال فى الكثير من النواحي فانه يختلف عنه فى وضوح فى شأن الحلول المتعارضة التى يقترحها كل منهما عن مشكلة القلق . هنا تتدخل وجهات النظر المتعارضة بين هذين المفكرين الكبيرين - وفى الوقت الذى يتييسر فيه لبسكال ان يجتاز قلقه لانه يؤمن بالله ، فان مالرو الذى يرفض العقيدة الدينية يبدو غامضا فى باس عميق . ولا يستطيع جيزور بعد وفاة كيو ان يتغلب على آلامه وانما يأخذ يفكر فى « الحظ المزرى للآخرين بصلواتهم وزهورهم الجنائزية » وكما قال الفيلسوف العجوز : ان الناس كلهم يتألمون لانهم يفكرون .

« وفى الواقع فان العقل لا يفكر فى الانسان الا فى الخلود ، وليس الشعور بالحياة الا القلق » (٤٢) .

ومن هنا يبدو القلق الفظيع لكيو « من ان يكون مجرد رجل » . وطبقا لنظرية «ارادة القوة» لنييتشه التى تقول برفع الرجل الى مرتبة السوبرمان (هكذا قال نيتشستر) ، يؤكد مالرو ان كل شخص يحلم « بالافلات من قدر الانسان » و « ان يكون اكثر من رجل فى عالم الرجال (. . .) وانها ارادة الالهية : ان كل رجل يحلم بان يكون الها » (٤٣)

ومن هنا يبدو عيب الوجود ، لانه من اللحظة التى يستشعر فيها الشخص القلق من انه الى موت عادى - « ذلك الشقاء فى ان يكون رجلا » - ويفهم حينذاك ان كل بحث يؤدي الى سراب . ومهما كانت ارادته فى الوصول الى اللانهاى فان جهوده مقضى عليها بنهاية الفرد . ولو بدا قدر الانسان غير محتمل فمرجع ذلك ان مال مشروعاته وذاته الى الموت .

والرجل لعبة القدر الذى كان يرى ان يسيطر عليه لانه عاجز امام الموت . ويعترف جيزور بانه :

« يمكن ان يخدع الشخص الحياة طويلا ولكنها تنتهى دائما بان تجعل منا ما نحن عليه » (٤٤) .

وفى قدر الانسان فان الموت حاضر ومائل فى صفحات الرواية . ويستهل الكتاب بالجريمة التى ارتكبها تشين وينتهى باعدام الثوار . وكل شجون مالرو فى شغل بالوت . ويبدو ذلك

(٤٢) قدر الانسان ص ٢٨٢ .

(٤٣) قدر الانسان ص ١٩٤ .

(٤٤) قدر الانسان ص ٢٨٠ .

الموضوع بمق في الرواية الى حد انه يظهر في اسلوب الكاتب واستعاراته : فكيو في ضيق « من شعور مجهول هدام كالزمن او الموت » .

وبعيدا عن ذلك فان المؤلف يكرر :

« الشيء الوحيد في ذاته والذي كان قويا كالموت » كل تلك الصور الفنية بالفهم تعطي معنى للنص وتبرز اولوية ذلك الموضوع .

والفطيع في الموت انه « يحول الحياة الى قدر » . وبدءا من الموت ، لا يمكن تعويض أى شيء

وتلك الصيغة الشهيرة للأمل يوضحها احدها شخص الرواية : « الشيء الرئيسى في الموت انه يجعل ماسبقه غير قابل ابدا للعلاج : التعذيب والاقتصاب الذى يتبعه الموت ، انه لامر فظيع حقا . » (٤٥)

والموت هو الذى لا رجعة فيه . وعندما يضع نهاية للوجود بلاعودة فانه يعطى وجها للظلود لمن كان على قيد الحياة .

ولكن الموت لا يحل شيئا ، فهو ليس حلالا لمأساة في قدر الانسان ، وليس مفتاحا في البحث عن قيمة الحياة ، كما انه ليس ردا على تساؤل الانسان .

ولو كانت حياة الرجل خالدة فهل تكون أكثر احتمالا ؟ لا ، يجيب جيزور ، لان الرجل يهوى الى القوة الكاملة لا الخلود . وما الموت الا احد أوجه القدر . وذلك الاخير هو الذى يسحقنا :

هناك ايضا بجانب الموت الوحدة والأذلال والالم والتعذيب . . . وليس فقط الموت هو الذى يشقى كيو ولكنها ايضا الوحدة :

« من السهل ان يموت الانسان عندما يموت وحده » (٤٦)

وقلق كل شخص قدر الانسان ليس بمبعثه الموت ، وانما في ان يكون محدودا بالتبعية والانتفاء والذى يدوم جنود القطار المسلح الى الياس، ليس هو الموت ، ولكنه الفيض من عدم القدرة على الدفاع عن النفس ، والشعور بالشلل والتكبير بالقيود .

وربما نتقبل الموت مثلما فعل المجوز جيزور كما يصح حتى ان نبتهى الموت لذاتنا وليس لمن نحب ولا لاولادنا مثلا . ولقد كان جيزور متصلا بالرجال ومتعلقا بالحياة عن طريق كيو وبعد وفاة ابنه تملكه حزن شديد .

(٤٥) مارلو الامل ص ٢٢٦ .

(٤٦) قدر الانسان ص ٢٥٦ .

« لقد هوى الى ذاته ولم يعد للعالم من معنى » (٤٧)

وهكذا ، وتبعاً لما رو ، فان الرجل مقيّد في عالم لا معنى له ولا يمكن الافلات منه الى الخلود ، وهو فاقد لكل سبب لمعنى وجوده . ولكن ما لرو كرجل عملي لا يقع في التشاؤم . فهو يعمل ويقيم عملاً ايجابياً يصبو الى السيطرة على القدر . وكان يلوح لكىو ، كما هو الحال مع خالقه ، انه « اذا لم يتمكن من ان يهيمن على الموت فانه يواجه حالة قاسية من الدعر »

ويرفض مالرو بشدة الخضوع للموت ، وليست كل مؤلفاته الا ارادة السيطرة على الانشغال بالموت والقدر . ولقد قال جابرتان بكون :

« لا شك في ان سارتر كان محقاً في قوله بان الرجل في رأى مالرو وكذلك هيدجر هو كائن الى موت » . ويصحح مالرو في الهامش :

« وبدلاً من القول الى موت نقول خضوع الموت ؟ فان الظاهر قد يبدو متشابهاً » . (٤٨)

ونشير بداهة الى الحلول الخاطئة التي يعرضها جيزور . فالفيلسوف المعجوز يرى انه يتعين نسيان التلق بالمخدر او العشق الجسدى .

« يجب تخدير الانسان (هكذا يقول) - ذلك لبلد الافيون والا سلام الحشيش وفي الغرب المرأة . وربما يكون الحب على الاخص الطريق الذى يلبأ اليه الغرب للتححر من قدره الانسانى » (٤٩)

ويوضح الكاتب عدم جدوى تلك الوسائل ، ولقد حللنا من خلال فيرال فشل العشق الجسدى الذى يعجز عن الانشغال بشيء آخر غير ذاته ، فهو ليس سوى رغبة في اذلال المرأة ، ليشعر ذاته بان فيرال يعمل على امتلاك كائن آخر ، ويظل بعد ذلك منطوياً على نفسه في وحدته . والمخدر اداة اخرى للتهرب من الانشغال بالموت ولكن ذلك السبيل للافلات من الواقع ليس الا وهما وليس هروباً حقيقياً . وعندما يلجأ جيزور الى المخدر ليتحرر من نفسه وينسى آلامه يقول : « ثمة عوالم للتأمل بفعل الافيون او بدونه حيث كل شيء بلاية قيمة » (٥٠) .

وهناك وسيلة خاطئة اخرى هي الميسر الذى انتقاد اليه كلايبك بالمخاطرة بحياته وعلى الاخص « بحياة آخر » يتمثل باحساسات قوية يعجز عن ان يجدها في حياته المتواضعة . ويدين الكاتب جبن تلك الوسيلة التى لا تعرض المقامر الى خطر حقيقى ، وليست بالتالى الا « انتحاراً بلا موت » .

(٤٧) قدر الانسان ص ٣٦٤ .

G. Picon, Malraux par lui-même. p. 75,

(٤٨)

(٤٩) قدر الانسان ص ١٩٢ .

(٥٠) قدر الانسان ص ٥٠ .

وأوهام كلايك طريق أيضا لنفى وجوده . وحتى يتمكن من التذليل على تحمله الحياة يتمين عليه ان يتغيب عن حياته ويخوله كل شيء لذلك . الكحول والخيانة وتغيير الحالة المدنية ...

« كلا فلم يكن للرجال وجود طالما تكفى سترة للأفلات من ذواتهم ، وللعثور على حياة أخرى في ميون الآخرين » (٥١) .

فليس هناك اذن سلام متاح في الهروب خارج قدره . ولا تتوانى عوالم فيرال وجيروز وكلايك من كشف فشلهم . وليس العشق الجسدى والفسق الا « جنات مصطنعة » .

ومن جديد يفرض نفسه هنا التقارب مع باسكال . وذلك المجهود المستمر واليائس للأفلات من ذاته هو الموضوع الاساسي للترفيه .

« الشيء الوحيد الذى نجد فيه العزاء من يؤسنا هو الترفيه وهو أيضا مبعث تعاستنا لانه هو الذى يمنعنا اساسا من التفكير في انفسنا ويجعلنا نلوى بلا ادنى شعور » (٥٢) .

ولا يتوقف مالرو عند تلك المرحلة اليائسة ، فهو يؤكد ان فى الامكان دائما وجود سلام « لو كان الرجل قادرا على اجتياز حياته بقدره وتمدى قدره فى الحرية بان يكون ذاته » .

وعكس ذلك الترفيه الذى لا يؤدى الى نتيجة ما وال طول الخاطئة ، يعارض الكاتب قيمة حقيقية وخالدة . ولكي يقهر اغراء اليأس لا تكفى ارادة الحياة ، لان الحياة للحياة بلا أى معنى . ويوضح الكاتب ان الامر لا يتعلق بالحياة فقط .. وانما بالتغلب على كل ما يرهق الرجل : الوحدة والاذلال والهزيمة

ولكن الاحساس بالانسانية المقضى عليها لاحتمية الفشل ، بدلا من ان يجعل مالرو يرفض كل قيمة معنوية فقد دفعه الى الاعتراف بالبطولة والكرم والاخاء والكرامة



ولا جدال فى ان تلك القيم الخالدة هي دعامة للدين وتجد تعبيراتها الاخذاء فى عدة تجارب دينية ، ولكن - وعلى سبيل التحديد - فان أهمية وطرافة كتاب مالرو تمثل فى استعادة ذات القيم خارج كل دين واعطائها تفسيراً وبريراً جديداً ، لأن الفضائل المعنوية لا قيمة لها الا بتعاملها مع الاخلاص والمأطفة للانسان الذى يعبر عنها . ولقد مبر الكاتب بنفسه بوضوح ودقة عن الوحدة المعيقة « واستمرار » مؤلفه وفكره . وهو يؤكد ان المسألة الكامنة فى كل كتاباته تبدو فى التساؤل التالى :

« كيف ننبه الرجل بأن بوسمعه ان يقيم عظمته ، بدون دين ، على الفناء الذى يسحقه » (٥٣) .

ويحاول مالرو ، مثل نيتشه فيما مضى ، ان يجد خارج كل عقيدة دينية سبيلا لرجل لتجاوز ذاته واسترداد فكرة التقديس .

ويصور **قدر الانسان** تماما ذلك البحث عن المطلق ، والبحث فيما هو اعلى من الرجل اى فيما يدموه للحياة ، الامر الذى لا يختلف عما يدموه للموت .

لذلك يجعل مالرو ابطاله يواجهون دائما الموت . ولكن اذا لم يوجد هناك الخلود فلماذا يكون الرجل متاهبا للمخاطرة بحياته ؟ ويجب بطل **قدر الانسان** على ذلك السؤال الاساسي : « ما قيمة الحياة لمن لا يقبل الموت من اجلها » (٥٤) وحالة تشين خاصة . فهو يبدو لنا اللوهلة الاولى كبطل يفاخر بحياته لقضية الثورة . وتبينت لنا فيما بعد البواش التى دفعته ليقول : انه مأخوذ بجريمة القتل . ويصبح الازهاب بالنسبة له امرا جذابا يفتنه . ويحاول مع ذلك التخلص من ذلك القدر المأساوى بمحاولة « الموت فى ارفع مراتبه » وتلك الشخصية المعقدة « روح طموحه واضحة الى حد ما ومنفصلة بعض الشيء عن الرجال او مريضة » تحاول ان ترفع من شان عمله وتعتزم ان تضحي بحياتها فى سبيل قضية الثورة . لان لو كان قدرها هو الموت فيتعين السيطرة عليه - لانتفاء الخلود الذى لا يؤمن به تشين وخالفه - والتأكد من مدة غير فترة الوجود الفردى . ويمثل انتصار تشين فى أن يموت بمرأى وشهادة بي الذى يقول له :

« انت الذى تكتب ، سوف تقوم بالتفسير »

وليست شخوص مالرو بمغامرين عاديين ، فهم يريدون دائما ان يلحقوا الموت فى بطولة تتماثل مع حياتهم . ولم يكن لكثير واحد واحد وهو فى سجنه وقد علم بالحكم بامداده : ابتغاء الموت بدلا من تحمله : لان « الموت امر سلبي ، ولكن قتل النفس عمل ايجابى » ويبتلع البطل قرصا من السيانور الذى يحتفظ به كل مجاهد فى جيب حزامه .

ويعد ان اعطى كاتوف السيانور بكرم الى اثنين من زملائه الفرعين ، يواجه بشجاعة فائقة الموت الفظيع الذى يفرضه عليه القاتلون بتعذيبه ! ، وتقوم بطولة تلك الشخصية المثيرة على الرغبة فى الموت بدلا من انتظار السقوط والاذلال .

وتذكرنا تلك البطولة غير العادية ، والى خدميين ، ببطولة كيو الذى لا يسمح برؤية مجنون يجلبه حارس السجن فى وحشية ويحول قسوة ذلك الاخير : الى شخصه . وبالنسبة لكثير مثلما هو الحال بكاتوف ، فان المبدأ واحد : ابتغاء الموت لا الاذلال .

وننتقل الآن الى موضوع رئيسي في كتاب مالرو وهو : كرامة الانسان .

• • •

تأكيد كرامة الانسان

لنتقديم افضل تعبير عن ارادة الكرامة ، اقتضى الأمر ان يبدأ مالرو بتصوير الامتحان في احط درجاته الذي يفرضه رجل على آخر . ومبررات الاذلال في **قدر الانسان** متعددة . ولا يذكر البؤس ابدا لذاته . فالكتاب يعمل على ان يبين آثاره على الوجود الانساني . فهو لا يؤدي الى الالام وحدها ، والانهيار الجسدي ، ولكن آثارها اعظم واخطر من ذلك : فهي تلحق بالكائن ذاته وتسليه ماديا ومعنويا . ويقول الكاتب « هؤلاء الفزائون الذين يعملون ستة عشر ساعة يوميا منذ طفولتهم والشعب الجريح والمريض والجائع » (٥٥) .

ويبدو مالرو الذي كان في عام ١٩٣٣ لا يزال في عهده الشيوعي كأنه يتعامل مع موضوع من وحى كارل ماركس . ففي الصراع بين الطبقات لا ينصرف بحث البروليتاريا الى تملك الاموال المحرومة منها وحدها وانما تحاول ايضا الحصول على استقلال يقلل من شأنها الحرمان منه .

ويقول ماركس في **وثائق عام ١٨٤٤** :

« ان رفع الاجور (. . . .) ليس الا سدادا لاجور اعلى للعبيد ولا يمهّد للعامل مستقبله ولا كرامته الانسانية » (٥٦) .

والكرامة التي لا يوجد بدونها كيان انساني حقاً لازمة ايضا للرجال لزوم العلاقات المادية لهم . ولقد كانت فكرة الكرامة هنا غرضا اساسيا للثروة ومطلبا للعديد من المفكرين الذين اهتموا بالمسائل الاجتماعية . ويؤكد روجيه مارتان دي جاود :

« يجب ان يعطى الفرد ليس فقط نصيبه المادى في ارباح العمل وانما ايضا ذلك النصيب من الحرية والراحة من العمل والرفاهية ، وبدون ذلك لا يستطيع ان يتشكل مع كرامته كرجل » (٥٧)

ويدين اراجون في شدة النظام الرأسمالى الذى لا يترك للمحرومين الا « المسوت والالم والاذلال » (٥٨) .

وفي **التهاب لسارتر** ، يقول اوريستى لاجيت بين ضربتين من السيف .

(٥٥) **قدر الانسان** ص ٢١

Karl Mar, Xanuscrits de 1844. (٥٦)

Roger Martin du Gard, *Oeuvres complètes*, Gallimard (Bibliothèque de la Pleiade), 1955. Tome II, L'Été 14 p. 371. (٥٧)

Louis Aragon, *Les Beaux Quartiers*, Denoël et Stocl, 1936, p. 319. (٥٨)

« من العدل أن تسحق إيهما النذل القدر وأن تقوض إمبراطوريتك على أناس أرجوس ، ومن العدل إعطاؤهم الاحساس بكرامتهم » (٥٩) .

وكما هو الحال عند مالرو فإننا نبعد عن المذهب الماركسي للصراع بين الطبقات بينما تقدم رؤيته نقاطا مشتركة مع العديد من المفكرين اليساريين وحتى الشيوعيين المتطرفين منهم .

وعن مالرو فإن الصراع بين الثوار هو صراع قبل كل شيء من أجل الكرامة وإبعاد مرمى من أن يكون قهرا السلطة وانتقاما للضمير الذي طال المدى باذلاله والذي لا يسعه أن يتحمل أكثر مما احتمل من الهوان . ويحدد محاربو شنفهاى في قدر الإنسان « الذهاب الى غزو عيشتهم وكرامتهم » (٦٠) .

وبالمقابلة مع لوحة بؤس واحتقار المجندين الشيوعيين فإن الكاتب يقدم صورة لانحدار روسية بيضاء راقصة محترفة في « القط الأسود » واستقلالاً عن كل الآراء السياسية ينمى الكاتب على هذه المرأة افتقارها للكرامة شأنها في ذلك شأن المقاتلين النعساء وتقول :

« كان لجدي الأكبر أرض طيبة ولقد رحلنا بسبب الشيوعيين ، ليس كذلك ؟ وحتى لا تكون مع الناس كلها وحتى تكون محترمة :

هنا نحن اثنتان على المائدة وإدبع في الغرفة

ويجب دفع الإيجار . محترمة » (٦١)

وكلما يستغرق هيميرليتش في ذكرياته يعترف في مرارة بأن حياته لم تكن إلا استمرارا للذل والهوان .

« تلميذ خائب بالمدرسة : يتغيب يوما كل يومين ولتتمكن امه من أن تشغل في هدوء تجعله يقوم بأعمالها . المصنع : يدوى . روح شريرة في وحدته العسكرية ، ودائما في السجن . والحرب : غازات سامة . لمن ولاجل ماذا ؟ البلدة ؟ أنه لم يكن بلجيكا ، لقد كان بالسا » (٦٢)

وكما هو الحال في الصراع مع الشغل بالموت فإن شخوص قدر الإنسان تتبع طرقا مختلفة في السلوك وغالبا ما تكون متعارضة ، ففي الصراع ضد الإذلال تلتزم كل شخصية بالطريق المخصص لها .

وكان رد الفعل عند كوتيج قاسيا ومهينا . فقد خدم ابتداء في سيبيريا في الجيش الأبيض ، وعندما قبض عليه الشيوعيون قاموا بتعذيبه ، واحذثوا ثوبا في كل من كتفيه ، وبكى أمامهم :

ولن يستطيع ابدا ان ينسى تلك الاهانة . ومنذ ذلك الوقت لم ينضم الى كومنتانج الا ليشار بقتل أكبر عدد ممكن من الشيوعيين .

ويعترف كلاييك بان رد الفعل القوي والعاصف لدى كونيغ امر مألوف لدى اولئك الذين لحقت بهم اهانات بالغة .

« لقد شاهد خرابا خلفته الحروب الاهلية في الصين وسيبيريا بقدر يكفى ليعرف كم يدفع الامتحان الشديد الناس الى اكار العالم . وان الذى يسفك بعناد والمخدر والانهار العvisي ، كل ذلك يغذى مثل تلك الوحدة » (٦٣) .

ولان « الوحدة والتحقير التام » (٦٤) امران ملتزمان بقدر الانسان ، ويؤكد الكاتب في اكثر من موضع ، الصلة الوثيقة بينهما .

ولقد كان فيرال في حاجة الى احتقار الآخرين ليؤكد بنفسه « انه كان يحس بتبعيته لكل قوى العالم . ولكن كانت هناك « فاليري » التى لم يكن يتبعها » (٦٥) . ويقرر بعد ذلك ان يخضعها ويضغط عليها ويهيئها . ولكنه ، وقد سخرت منه فاليري ، يحلم بمشاهد من السلامة والاغتصاب والتعذيب التى كان يريد اجبارها عليها .

ويبقى تملك اول غانية يقابلها بغرض التخلص من الكبرياء الجنسى المزدول الذى كان يحطمه . وعلى النقيض من الانفعالات السلبية الدنيئة التى بدلا من ان تحرر الانسان فانها تهبط به وتستعيده اكثر فاكثر ، وقد عرض الكاتب امثلة عديدة ايجابية مصورا ارادة العز والكرامة .

ولو ان هيميرليتس قد اسهم بعنف في المعركة الثورية فقد كان ذلك لان الامر يتصل بالنسبة اليه بثورة الكبرياء الانسانية وباهانة يتعين محوها . ويصرخ في غضب عند الهجوم على العدو :

« كانوا سيقضون علينا طوال حياتنا ، ولكن ذلك الشخص سيمحو تلك الاهانة » (٦٦) .

وعند نجاحه في الافلات من اخماد شانج - كاي - تشيك للثورة يعمل منذ ذلك الحين كعامل بمصنع للكهرباء . وبفضل ذلك العمل الجديد يكشف هيميرليتس اخيرا معنى لوجوده :

« انها اول مرة في حياتي اعمل فيها وانا اعلم لماذا دون ان انتظر الموت بفارغ الصبر . . » (٦٧) ويكون العمل بالنسبة للارو جوهر الرجل ، والفعل الذى يتطور به دائما . وذلك التوافق التام بين الحاجة الى العمل وازدهار ما يؤديه موضوع اساسي لباستكل .

(٦٣) قدر الانسان ص ٢٢٧ .

(٦٤) قدر الانسان ص ٢٢٨ .

(٦٥) قدر الانسان ص ١٨١ .

(٦٦) قدر الانسان ص ٢٢٢ .

(٦٧) قدر الانسان ص ٢٧٧ .

- « سعداء أولئك الذين يحبون تماما وبحرية مايجب عليهم ان يحبوا بالضرورة » (٦٨) .
- وكم من المرات اشاد زولا بالعمل الذي يعتبر بالنسبة اليه القانون الوحيد في العالم :
- « ليس لى الا عقيدة وقوة واحدة وهى العمل » (٦٩) ويثنى شارل بيجي على « ذلك الاصل العامل » (٧٠) ، ويمتدح اراجون ايضا « عقيدة العمل » (٧١) .
- ويرى مالرو في الرجل كائننا اجتماعيا يتشكل بنشاطه . ويؤكد بطل **قدر الانسان** :
- « ليس هناك كبرياء متاحا ولا حياة فعلية لرجل يعمل اثنتى عشرة ساعة يوميا دون ان يعرف لماذا يعمل . لقد كان يجب ان يكون لذلك العمل معنى ويصبح وطننا » (٧٢) .
- وفي الوقت الذى تنكيف فيه الحيوانات تبعاً للطبيعة ، فان الرجال يفرونها ويتغفرون انفسهم . ولقد كتب كارل ماركس في **راس المال** :
- « ان العمل فعل يتم بين الرجل والطبيعة في الدرجة الاولى » (٧٣) .
- ذلك الفعل بين الرجل والطبيعة صوره مالرو مرات عديدة يتناول موضوع « القوى الانسانية » في الصراع ضد الارض وذلك في **قدر الانسان** وكذلك في **اشجار جوز التنسج** .
- وطبقاً للمفاهيم الماركسية يؤكد بيجي وهو الشيوعي الشاب في **قدر الانسان** ان دور العامل الحديث يقوم اساساً على عمله . ويتخصص حياة اكثر عملاً دائماً واكثر قوة واشعاعاً في خدمة الانسانية ، يشعر بدوره كخلاق .
- « ان المدينة تتغير عندما يصبح فجأة لعنصرها الاكثر ايلاماً - اذلال الرقيق والعمل لدى العامل الحديث - قيمة وعندما لا يعود الأمر متعلقاً بالهروب من ذلك الاذلال ، وانما بانتظار امن لذاته ، والهروب من ذلك العمل حيث يجد فيه سبب وجوده » (٧٤) .
- وود الفعل ضد الاذلال شيء آخر عند الفكر** . فان كيو وقد ادمته خيانة ماي يثنى من الالم الذى الحق به اكبر اهانة (٥٧) . ولكنه يصل الى التقلب على غيرته وان « يعثر من جديد على حبه لزوجته » .

Emile Zola, Discours prononcé le 18 mai 1893.

(٦٨)

Charles Péguy, Oeuvres en prose 1909 - 1914.

(٦٩)

Gallimard (Bibliothèque de la Pléiade), p. 1109.

(٧٠)

Aragon, Les Beaux Quartiers p. 383.

(٧١)

(٧٢) قدر الانسان ص ٥٩ .

Karl Marx, Le Capital, Paris, Editions sociales, Tome I, 1948. p. 180.

(٧٣)

(٧٤) قدر الانسان ص ١٧٧ .

(٧٥) قدر الانسان ص ٤٥ .

كيو من ابوين مختلفي الجنسية ولا يتبع اصلا مينا وهو محتر من البيض وعلى الاخص من النساء (٧٦) ، واهتمامه الشيوعية مسألة شرف فقط « ارادة الكبرياء » (٧٧) . وليس الأمر بالنسبة اليه تنظيم العالم ولكن ان يكون نبيلاً ويموت (٧٨) . وهكذا يفسر كيو لكونيچ انضمامه الى حزب الثوار :

« ارى ان الشيوعية ستوفر الممكن من الكبرياء لأولئك الذين احاربهم » (٧٩) .

ولقد كان انضمام المفكرين الى جانب العمال الموضوع الاساسي لكل الكتاب حول عام ١٩٣٣ . ووقع عدد كبير منهم تحت اغراء الماركسية وتقاربوا مع الحزب الشيوعي الفرنسي . لاسباب مختلفة وظروف متباينة . وابدئ ان اتول فرانس الحاصل على جائزة نوبل في الاداب في عام ١٩٢١ تأييده للحزب الشيوعي الفرنسي واشاد بالثالية الدولية والسلمية للشيوعية .

وقام المفكرون الشباب الذين كانوا يديرون مجلة « كلارتيه » بتوجيهها نحو استنكار الحرب والثقافة البورجوازية ، ودفع الاحتجاج على القيم البورجوازية والرغبة في الثورة الكاملة من هم اكثر من السرياليين الى الانضمام الى الحزب الشيوعي . ولقد كان تهديد الفاشية هو الذي شجع الكثير من المفكرين للانخراط ضمن ذلك الحزب في الوقت الذي كانوا يجهلون فيه كل شيء عن الماركسية . وفي الواقع فان تهديد الفاشية وفيما بعد نجاح الجبهة الشعبية (عام ١٩٣٦) والحرب المدنية الاسبانية والمقاومة الفرنسية والصراع ضد الحرب في الجزائر ... كل تلك الاحداث اسهمت في اعطاء الحزب اهمية كبيرة لدى الاوساط الفكرية . وتحت ضغط الاحداث التزم في صلابته اندريه جيد واندريه مالرو وجان بول سارتر وجان جيمونو وجان جيهينو - ونحن نذكر هنا الكبار - جانب الشيوعيين . واشتركوا في اوجه الانشطة الضخمة في ذلك الوقت وقدموا مراكزهم ونفذهم الى الجانب الثوري كما وضعوا احيانا اقلامهم في خدمة الحزب الشيوعي الفرنسي . وتلك النخبة من كبار الكتاب ، مع ميولهم للشيوعية ، كانوا على حذر ، ولم ينضموا رسميا للحزب الشيوعي الفرنسي . والكثيرون وعلى الاخص مالرو (في عام ١٩٣٩) هجروا الحزب لقيام الخلاف على خط سلوكه ومذاهبه الثقافية .

والجدير بالذكر هنا ان كتاب مالرو الذي يتناول مع ذلك الثورة الشيوعية في الصين لم يتبع أي حزب يميني او يساري ، ولقد منعت روايته **الثغرة** من الدخول الى روسيا السوفيتية كما حدث ايضا في ايطاليا الفاشية : ومن ثم فقد قامت دار النشر (جراسيه) بأعمال الدعاية لذلك الكتاب . ويمكن ان نطبق على **قند الانسان** ذلك الرأي للويس جيليه الذي أبداه عن **الامل** :

« اننا في دهشة للغاية اننا لمسائل الفائدة والاجور وبالاختصار لكل ما في الفكر الماركسي » (٨٠) .

(٧٦) قند الانسان ص ٥٩ .

(٧٧) قند الانسان ص ٢٢٥ .

(٧٨)

(٧٩) قند الانسان ص ٢٢٢ .

Louis Gillet, art. cit.

(٨٠)

وشخصية تشين توضح تماما هذه الناحية . ولو كان ذلك الشاب قد ساهم في العمل الثورى فان مرجع ذلك للعوامل الشخصية المحضه . واذا عمل على قتل شانج - كاي - تشيك فان ذلك القتل كان حتميا بالنسبة له وحده . وكذلك فان المعنى السياسي والاجتماعي لعمله يتوارى تماما . فهو لا يرى في جريمته الا اداءً لعمل بطولى وضرورى لسد فراغ اليتم لروح متعطشة للمطلق . ويبدو ان تشين قد وجد في لحظة وفاته مرضية كان يهفو اليها ، ومع ذلك نستشعر فشلا لا يسع إنكاره : لقد دمر نفسه سدى . لان عمله انصرف الى لا شيء ، وستظل وحدته بلا رجعة .

والاعمال الإيجابية الوحيدة هي تلك التي قامت فيها الثورة بتهرب الارهاب ، فنكث الاعمال التي تتمثل في سلام الشعب الصينى تعلو على المثل الاعلى الدائى .

وبالنسبة لبطل قدر الانسان كما هو الحال بالنسبة لمارلو فان اختياره السياسى مشروط فقط بالقيمة المعنوية التي يقدمها للعمل الثورى ، والصراع في جانب الثوار لا يعنى بالنسبة اليه الا « ان يهزم هنا كرامة ذويه »

وكل اعمال مارلو ليست الا شدوا مؤثر المجد الكرامة الانسانية :

« كان حياة كيو معنى يعرفه : ان يعطى كلامن اولئك الرجال الذين افنتهم المجاعة في ذلك الوقت وكانها طاعون بطيء ملكية الكرامة » (٨١)

تلك الكلمة التي غالبا ما يخطها قلم الكاتب تنوالى تقريبا في كل صحيفة من صفحات الرواية وفي استطاعتنا ان نتبين عبارات عديدة تكشف عن اولوية ذلك الموضوع . ويقول كيو للعمال :

« طالما المصير الى الموت فلنمت لكى نصبح رجالا » (٨٢) والمبدأ الاساسى لكيو هو الاتى :

« كل ما يجعل الانسان يقبل ان يموت من اجله يتجه في غموض الى تدمير ذلك القدر بجعله كرامة . » (٨٣)

وحتى يتضح استخلاص ثقة الرجل في غيره ورغبته في حياة افضل تعين على مارلو ان يظهر لنا طريق التناقض سحق وتعاसे كل الذين تحملوا الاحتقار الانسانى . ذلك الهبوط الى الحميم لازم لنهم افضل لاحتجاج اكبر لا يمكن اخماده من الثوار ضد الظالمين . وتلك البشاعة القبيحة للسجون وبؤس المسجونين ، وانحطاط الضحايا ، كل ذلك صوره مارلو بكفاءة قلته ، وفرض علينا تلك المشاهد التي تؤثر في اعماقنا .

« ومع هذا ، وايا كانت الاداة التي نقلتها اليها ، فان اللمر كان موجودا - ليس هو الخوف ، ولكنه رعب الحيوان والرجال وحدهم تجاه الوحشية اللا انسانية » (٨٤)

(٨١) قدر الانسان ص ٥٩ .

(٨٢) قدر الانسان ص ١٢٢ .

(٨٣) قدر الانسان ص ١٩٤ .

(٨٤) قدر الانسان ص ٢٥٠ .

ويشعر كيو حتى « بالرغبة في ان يتقيًا الاذلال الذي يحس به كل رجل امام رجل يتبعه » (٨٥)



اشخاص غير عاديين

طالما اخذ على مالرو الوجه غير العادي لشخصه . وبلا شك فان ابطاله يسدون لنا كرجال يبحثون باستمرار عن تجاوز انفسهم ، وينجحون في التفوق على ذواتهم بفضل ممارستهم الحرية - ويقول جان جييهنوتن قدر الانسان :

« كل الشخص الذي تظهر هنا غير عادية ، وربما ندرك كيف يجب ان نعيش بدلا من كيف نعيش » (٨٦)

ويضيف جوزيف هوفمان :

« بقي ان نتساءل دائما ، اذا كان قدر هؤلاء الابطال امرا غير عادي بدلا من ان يكون مثاليا (٨٧)

وما يريد مالرو التعبير عنه في اعماله هي القيمة والعظمة الممكنة للرجل وادائه في اقامة انسانية افضل . من هنا تحفل اعماله الفنية بمشاهد البطولة والعديد من الامثلة عن الكرم والاخلاص والاخاء وكل المشاهد الكبيرة عمله هي كما قال جايتان بيكون « تمجيد للاخاء » بينما الاحساس بالعزلة الفردية احدى المآسى الكبرى بالكتاب ، وانتصار كيو وكاتوف وهيمير ليتش وبني وماي في تضامنهم مع الشعب البائس الصيني ويعكس العمل الوجودي والموت بلا جدوى لتشين يعارض الكاتب انتصار بطولية كيو :

« ان موت كيو وسط مهمة اخوية لجمهورية القهورين حيث يعرف الكثيرون شهداءهم ، ومن خلال تلك الاسطورة الدموية يصنعون اساطير ذهبية » (٨٨)

وتظل المشاهد الشهيرة وهي اعطاء السيانون لرفاق النضال في ساحة السجون اكبر رمز لانتصار الاخاء ، ويقابل مالرو عدم التلاقي بين الناس بتآلف كيو وماي بفضل تأكيد حبهما . وان قلق كيو يعود الى شعوره المؤلم بتجاهل ماي وهو شعور خففه قوله « انا لا اعرفها الا بقدر ما احبها » .

وذلك التضامن اكثر تأثرا عندما يدغم وحدة الثوار . ومن خلال الانتماء الى ذات المثل الاعلى والاحساس بالمائل يتلاقى كاتوف وهيمير ليتش :

(٨٥) قدر الانسان ص ٢٢٦ .

Jean Guéhenno, t., "Le Tragique et le quotidien" Europe, 15 Juin 1933. (٨٦)

J. Hoffmann, op. cit., p. 373. (٨٧)

(٨٨) قدر الانسان ص ٢٥٦ .

« يجب أن تفهمنى دون أن أقول شيئا . ليس هناك ما يقال » (٨٩)

وكل مؤلف مالرو يقوم على كتابة « أسطوره البروليتاريا » والثورة فرصة مواتية لتخلق للرجال اسبابا بطولية ليعيشوا ونظاما للقيم قادر على تحويل الوجود وجعله أكثر نبلا . موضوع الثورة هذا من أغنى أعمال مالرو إذ تلتقى فيه كل موضوعاته الأخرى ... وبالنسبة للثوار في **قدر الإنسان** فإن الثورة هي الوسيلة الوحيدة لتحرير الرجل . ومن خلال المعركة يجابه الإبطال مختلف أوجه القدر : العبث والقلق والخطر والموت ... وبالتالي يتعين عليهم إظهار فضائلهم الإنسانية : الإرادة والشجاعة وروح التضحية : مثل كيو وكاتوف اللذين يبذلان في بساطة عطاء أكثر من حياتهما في سبيل انتصار قضيتهما .

وتمثل الميزة الكبرى لكاتب **قدر الإنسان** في توفيقه المثير للاعجاب بين الفعل والفكر . فهناك مناقشات ذهنية ومعارك شرسة تتوالى على لتعاقب . ولو كان الفعل في **الغزاة والطريق الملكي** يبدو عند مالرو قوة فكرية محضة ، وأحيانا مستلهما من نيتشه ، ففي **قدر الإنسان** ، يصبح العمل البطولي المحض ، الذي يكاد يكون بلا مقابل ، أكثر إنسانية . والأمر لا يتصل بالعمل مجرد العمل . وكل القيم المعنوية الرفيعة تحبى النص كله : إرادة وتضامن وإخاء رجولى بين المحاربين الذين يتصارعون ويتألمون لتأكيد كرامتهم .

ولقد أخذ أيضا على مالرو حواراه الطويل وآراء إبطاله اللذين يتحدثون فيما بينهم من معنى الثورة والقدر ، وكذلك مجموعة من الخطب المجردة للمفكرين الذين يتساءلون عن قيمة أهدافهم وأعمالهم . ويؤكد هنرى دى مونترلان ، وهو مع ذلك معجب بذلك وعميق كتاب مالرو :

« أخذ أحيانا على تلك المحادثات أنها تلمس الافتعال وجيشا من المفكرين كما في روايات ما قبل الحرب حيث الشخصون وبلا استثناء ذات ذكاء » (٩٠)

ويأسف مونترلان لأن مالرو لم يقدم في كتابه إلا إنسانية رقيقة ، متجاهلا من هم دونها . في حين أننا في الحرب كما في الحياة لا نختار الأشخاص الذين نعيش معهم وبالتالي نقابل حتما « المغفلين » أو الرافقين الذين لا يشاؤوننا حتما أفكارنا .

ذلك التعليق من مونترلان يذكر بالملاحظة الشهيرة التي وجهها جيد الى مالرو :

« ليس هناك مغفلون في مؤلفاتكم » ويرد مالرو :

« أنا لا أكتب لأضايك نفسى . أما عن الأغبياء فالحياة تكفى » (٩١)

ومن ثم يجب علينا أن نعترف بأن **قدر الإنسان** ، طبقا لعنوانه ، يبحث في عمق المسائل الأكبر أهمية والأعظم إثارة للقلق والتي تطرح على الرجل . ومع ذلك فإن تلك الرواية لا تقدم لنا

(٨٩) قدر الإنسان ص ١٧٨ .

(٩٠) Henry de Montherlant Carnets 1930 - 1944 (année 1938) Editions "Gallimard,

1957.

Cité en marge du texte de G. Picon, Malraux par Luc-même p. 44.

(٩١)

نوعيات انسانية مختلفة كما هو الحال مع بلزاك وتولستوى او ديكنز مثلا . فكل شخصيات مالرو واحدة « الكل يتشابه بعاطفة نظيمة واحدة وبأس فظيع واحد » . (٩٢) واختياراتهم دائما واحدة وبذات المعنى : والكل يتصارع ضد سحق الرجل . ومن اليسير تفسير تلك « الرتبة الواضحة » (٩٣) فان شخوص مالرو ليسوا الا صورة لشخصية الكاتب ذاته . وما يتميز به ذلك الصنف من الابطال الذى ابتدعه مالرو هو القدرة على العمل والثقافة ووضوح الرؤية وهي ليست صفات عميقة للكاتب ذاته .

وانها لعقيلة مالرو التي نجدها في شخصياته وفي احاديثهم . وتمائل هؤلاء الابطال وتشابههم فيما بينهم يرجع الى ان ملامحهم هي ذات ملامح خالقهم . فلهم ذات النوق في التفكير وفي العمل وهي الصفة الغالبة عند مالرو .

وكما ان شخوص الكاتب ليست الا انعكاسا لذاته ، فانه لا يرسم بالتالى الا شخوصا هو قادر على تقديرهم ، او تحس بمشاعر يسعه هو ان يحس بها . لان « مالرو يفهم اكثر مما يصور » . (٩٤) ومثل ذلك الاتجاه يمنع الكاتب من تكوين شخصيات يستنكرها او تكون غريبة عنه . وكما اوضح جايتمان يكون في تحليله فان كلاييك وجيزوراو فيرال ، لو كانوا قد قدموا بعض المظاهر التي يرفضها الكاتب فان مالرو لم يصورهم بوضوح الا لانه احس بمشاعر مشتركة في بعض الاوقات من وجوده : اوهام كلاييك والتهدئة بالافيسون وتلدوق العمل للقوة عند فيرال — اذ هناك دائما بين الكاتب وشخصياته الاتفاق الكامل بين الخالق وبين مخلوقاته : وهو التفاهم .

وذلك التفاهم ذاته يعتنقه مالرو ايضا تجاه معاصريه .

« لم يوقع ابدا الا على نقد يقوم على الإعجاب » (٩٥)

ولم يتحدث ابدا الا عن كتاب يقدروهم : نيتشه ، لاكلو ، فولكر ، جيد وبيرنانوس

ولما كان مالرو يرفض ان يصور شخوصا لا يستطيع فهمها فانه لم يصور ابدا الاعداء . ويتقابل كل ثوار فنن الانسان في دراسة ضد افكار مجردة وضد ظلال لم ترسم في دقة . فليس لجنود تشانج — كاي — تشيك ولا لمعزى كيوكاوف اى وجود خاص بهم . ولم يمثلوا في الكتاب الا تبعا للابطال ، وليس لهم من دور الا اظهار قيمة الابطال .

وبالنسبة لغيرال التابع للجانب المعادى والذى يقاتل الثوار فان الكاتب يرسمه بحياد وموضوعية . ولمالرو الفضل في ان يحكم بانصاف وتفهم على هذا الشخص الذى يدينه مع ذلك .

Robert Brasillach, art. cit., (٩٢)

G. Picon, Malraux par Lui-même p. 49. (٩٣)

Ibid., p.35. (٩٤)

Ibid., p.30 (٩٥)

وخلافا لما ذهب اليه الكتاب الملتزمون المعاصرون ، فان مالرو يرفض تحقير العدو او امتنائه . في حين ان اراجون في رواياته يتخذ موقفا منحازا في ثبات ، ويقابل صورا هزلية يتمجيد شخص ماثلية . وبالعكس فان مالرو يبرر اعمال فيرال ويمنحه صفات معينة : الاستقامة ، ومعنى العمل ، وقوة الخلق . (٩٦) ولو كان الازدواج (Le manichéisme) للعالم الروائي لاراجون واضحا فان كل ابطال مالرو قد درسوا بطريقة اخاذة تبرر اعمالها ، لان لا احد ضد الازدواج اكثر من كاتب قدر الانسان . وهو يؤكد في الامل :

« ان الفكر الكبير رجل يبحث عن ملمس الدقة ، والمربة والصفة والحقيقة الذاتية . وهو طبقا لتعريفه وجوهه ضد الازدواج . - (antimanichéen) . » (٩٧)

ويمنح مالرو فيرال ذات الدكاء اللامع الذي يختص به الثوار ... وعندما يدور الحوار بين فيرال وجيزور تكون اوجه النظر المخالفة والتي يتبادلانها صحيحة ايضا . واذا استطلعنا ان تثبت من ان المحادثات لن تؤدي ابدا الى حل تنتهي اليه فان كلا المتحادين يظل عند موقفه في النهاية . وتتشبه كلود آدموند ما نبي تلك المحادثات بمشاهد الفعل العنيفة والقوية .

« ان سلسلة الحوار عند اختلاف اوجه النظر تتلاقى كالسيوف » (٩٨)

وعندما يقول فيرال لجيزور :

الا ترى انه من الغباء المميز للجنس البشري ان رجلا ليست امامه الا حياة واحدة يفقدها في سبيل فكرة ؟ (٩٩) هنا حقيقة لا يمكن انكارها . ويرد جيزور بحقيقة هي ايضا غير قابلة للانكار :

« من النادر ان يستطيع رجلا تحمل ماذا اقول ؟ قدره الانساني » (١٠٠)



التركيب المزدوج للرواية

فن التناقض عند مالرو

كتب جان روسيه في مقدمة كتابه الشكل والمعنى :

« ليس هناك من شكل نشعر به الا حيث يقوم اتفاق او علاقة او خط للتوى او صورة

(٩٦) قدر الانسان ص ٧٦ .

(٩٧) الامل ص ٢٧٩ .

(٩٨) .

Claude Edmonde Magny, art. cit.

(٩٩) قدر الانسان ص ١٩٢ .

(١٠٠) قدر الانسان ١٩٢ .

متكررة او صدى او شبكة للتجمع . ساسمى تركيبات كل تلك الاشكال الدائمة والعلاقات
تكشفا عن عالم عقلى وكل فنان يبتكرها وفق الحاجته . » (١٠١)

وانطلاقا من ذلك التعريف قمنا بدراسة التكوين الازدواجى لـ **قدر الانسان** الذى يفرض
نفسه فى وضوح فى كتاب مالرو ويبدو كأنه فكرة دائمة . ولقد راعينا ايضا فى تحليلنا للنظام الذى
قام لوسيان جولدمان بتطبيقه فى دراسته عن اعمال مالرو :

« ان دراسة كهذه تفترض فى الواقع (...) اللقاء الضوء على عدد من التركيبات ذات المعنى
والقابلة لمراعاة الجانب الاكبر على الاقل من مضمون كتاباته وصفاته الشكلية » (١٠٢)

وثمة موازيات فى **قدر الانسان** . ولقد سبقنا اشرنا الى ذلك التارجح المستمر بين الفكر
والفعل .

« طبعا ليس الامر مجرد اصطلاح ، ويعلو مضمون الرواية على ان يكون سردا بحثا لان تصادم الاحداث
الذى يشهده الكاتب هو الذى يعطى الرواية معناها . » (١٠٣)

ومن هنا تبدو الكثافة الشديدة للرواية تقنية بالتناقضات . وتسيطر على الكتاب المواجهة بين
التضادين الكبيرين وهما : الانسان والقدر . وبشكل ذلك : لتعارض القطبين الاساسيين للرواية .
وتتوالى هذه الانقسامات من خلال قدر الانسان كله حيث تتواجد فى كل مجالاته . ويتكون مضمون
الرواية من تمييز عميق بين الثورة والثورة المضادة . ولو اعتنقنا النكرة المثالية للثورة والجهود فى
سبيل تحرير المجموعات الصينية التى كرس لها ابطال مثل تشين وكيو وكاتوف كل جهدهم نجد
ان كلايك ، وعلى الاخص ، فيرال ، من الاعداء . وذلك لآخر واسمالي ومن رجال المال ، ومصالحه
الكبيرة مهددة من الثورة .

ولقد سبق ان تناولنا فى مجال دراستنا التناقض بين الموضوعات المختلفة للرواية .
فلا احساس بعدم الاتصال والوحدة والانفصال المطلق عن الآخرين يقابله ويعوضه الحب الذى
يكنه كيو لماى وعلى الاخص التعاون المقدس بين اخوة المعركة . وان التحقير والامتهان العميق
اللذين يصمان يتجاوزهما ويقهرهما الصراع فى سبيل تأكيد الكرامة . وفوق ذلك ، وعلى النقيض
برى ، ان صورة الثورة على تحقير الانسان ذات اثر شديد . وان ايمان الثوار بعالم افضل يبدو
اكثر قوة ومعنا .

وذلك التقسيم المزدوج الموجود على مستوى الموضوعات الرئيسية يظهر ايضا على مستوى
آخر فى نفسية الشخصوس . ويتعارض فى وضوح وهم كلايك وطريق نفى الوجود والهبوط بالحقيقة
الى العدم مع البحث عن المطلق الذى يتسلط على ابطال الرواية ومع بحثهم عن القيم الخالدة التى

(١٠١) Jean Rousset, *Forme et significations, Essais sur les structures littéraires de*
Corneille à Claudel. Paris, Librairie José Corti, 1962 pp. XI - XII.

(١٠٢) Lucien Goldmann, *Pour une sociologie du roman*, Gallimard, (Collection
Idées) 1964 p.61.

تعطى معنى لوجودهم . ونشير ايضا الى تضارب عالم كيو مع عالم فيرال . وتناقض افكار ذلك الاخير وآراء جيزور ، وتناقض الاهداف التي يرمى اليها الثوار مع افراض الكومنتانج . وبين ذلك الازدواج ايضا داخل الثور . وان بساطة شخصية كيو هي عكس تعقيد شخصية تشين . ويلاحظ جيزور التعارض الاساسي بين هذين البطلين ويتأمل في مصير كل منهما ويقارن بينهما (١٠٣) .

ونشير ايضا الى موضوع من الموضوعات بكتاب مالرو : التفرقة بين الشرق والغرب . ويصور مالرو ذلك التعارض من خلال قلق القس اللوترى ووعبه من المدنية التقليدية بالصين (١٠٤) والعكس فان عم تشين - وهو من الباع كونفوشيوس يحذر ابن اخيه من تلقى العلم بالمدارس الارشالية وعلى الاخص فانه يحول دون ابن اخيه واعتناق فكرة جهنم التي كان يرهبها . ويقابل مالرو بين قلق القس الشديد وسلام المفكرين الشرقيين .

وفي نقد الانسان فان جيزور الفيلسوف الفرنسي العجوز هو الذي يمثل ذلك الرمز الصيني . لان الكاتب يريد التركيز بذلك على انه في الامكان من وراء مواجهة مدنيتين متصارعتين خلق الكثير في الرجل .

وبالنسبة لجيزور فان الافيون هواذاة التهرب من النفس والتعاون مع العالم جوهر الحكمة الشرقية :

« كان يرى الناس في طيبة ، والعالم بكل ماهو متاح ومستطاع » . (١٠٥)

ويتأكد باستمرار ذلك الانفصال الظاهري بين الشرق والغرب في رواية مالرو . والتفرقة صارخة في الحب مثل ما في غيره من الموضوعات . ويتعارض الخضوع التقليدي للمرأة الشرقية مع ثورة فاليري على فكرة سيطرة فيرال . « ان الحب المعنوي الفعلي والمبهد » (١٠٦) الذي ربط بين ماي وكيو وحتى بعد موت ذلك الاخير كان غريبا تماما عن جيزور :

« لقد احب يابانية لانه يحب الحنان ولان الحب في نظره لم يكن نزاهة وانما التأمل بثقة في وجه محبوب ، وتجسيدا للموسيقى الصافية - وهو عذوبة مؤثرة » (١٠٧) .

ولان ذلك الانسجام الكامل بين الجنسين يحكم علاقات الرسام الياباني كاما وزوجته (١٠٨) فان مالرو الذي يبدو ، كما لو كان يشهد بالزوجين الشرقيين ، يعلم تماما ان هناك بعض المبالغات العكسية في علاقاتهما . وتدين ماي عبودية المرأة الصينية وتبلغ في كل ليلة عن انتحار

Claude - Edmonde Magny, art. acit.

(١٠٤)

١٠٤) قدر الانسان ص ٥٩ .

١٠٥) قدر الانسان ص ٦٠ .

١٠٦) قدر الانسان ص ٢٨٠ .

١٠٧) قدر الانسان ص ٢٨٠ .

١٠٨) قدر الانسان ص ١٦٢ .

المحظيات ، ولقد انتقلت فتاة مسكينة كانت قد حاولت الانتحار بشسفرة في هودج الزفاف ، وعندما علمت الأم بان ابنتها لم تمت صاحت « مسكينة انت ابنتها الصغيرة ! . ومع ذلك فقد كادت تنجح لها فرصة الموت .. » (١٠٩) وهو تعليق يفني عن اى مزيد من الشرح ويقدم لنا صورة واقية عن حالة المرأة في ذلك الوقت .

ذلك التناقض بين الشرق والغرب ظاهره في جلاء في مجال الاحاسيس . ويبدو مالرو بذلك رساما قادرا على تصوير الغربة . كما يتمتع برسم ملامح الصين التى عرفها جيدا .

ذلك الرواى ذو حاسة الشم القوية مثل شاول بودلير ومارسيل بروسى يعزى بين الروائع الخاصة بآسيا واوروبا . ويفكر كيو في الاراضى المزروعة بنبات الناردين المحترق (١١٠) ويستنشق في مدينة هان - كيو رائحة الكافور وارجيح البساتين (١١١) .

اما عن كلايك الذى ارغم على ترك آسيا والذى يخشى العودة الى اوروبا فان اول ما ذكره بتلك القاره حاسة الشم :

« تنبعث رائحة الشجر والفحم المبتل من الحديقة . ذلك الارجيح المرهي اوروبا » (١١٢) .

ومع ذلك لا يجب ان يغرب عن البال ابداعه دراسة قدر الانسان ان الكاتب مهما كان ملتزما في مناقشات مذهبية فهو يظل قبل كل شيء فنانا كبيرا . ذلك الهاوى للفن يوضح على لسان الرسام اليابانى كاما الفرق بين فردية الرسم الغربى وعالية فن الشرق الاقصى .

« عندما ذهبت الى اوروبا شاهدت المتاحف . وكلما صنع رساموكم التفاح وحتى الخطوط التى لا تمثل شيئا زاد تعبيرهم عن انفسهم . وبالنسبة لى فاعالم هو الاهم » (١١٣) .

ويمعن مالرو جيور « تدوqe النقى للفن . (١١٤) وعندما ينظر الفيلسوف العجوز الى تشين وانفه المسحوق « كالنقار » (١١٥) يتذكر « صقرا مصرى من البرونز احتفظ كيو بصورته لحيه لتشين » (١١٦) .

واوجه المشابهة مع الاعمال الفنية متعددة فى الرواية :

(١٠٨) قدر الانسان ص ٤٢

(١١٠) قدر الانسان ص ١٢ .

(١١١) قدر الانسان ص ١٢٩ .

(١١٢) قدر الانسان ص ٢٠٢ .

(١١٣) قدر الانسان ص ١٦٦ .

(١١٤) قدر الانسان ص ٦٠ .

(١١٥) قدر الانسان ص ١٤ .

(١١٦) قدر الانسان ص ٥١ .

« ان الصين المسفوكة بالدماء مثل قرابين البرونز » . (١١٧) وكان لاحد ضباط الصف الصينيين « كل ملامح الوجه طولا والجسم مقوس قليلا الى الامام مثل تماثيل العاج التي تأخذ شكل انياب الفيل » (١١٨) . وتجعل خادمة ضفراء صلبة كلابيك يفكر في « لوحة من لوحات روبنس (. . . .) ولكنها ليست تامة » (١١٩) .

وكذلك يعلن مالرو في **قدر الانسان** فكرته الشهيرة عن الفن وهو عنده « **ضد القدر** » مثل البطولة وثورة التحرير والاخاء . ويؤكد فيمابعد انه الطريق الرفيع ليجاوز الرجل ذاته دون عنف وبالمناداة بالتعاون مع كل واحد في ابتداع لانهائي .

وقد وهب ذلك الفنان الكبير احسانا عميقا بلعبة الاضواء ، ولاحظ جايتمان يكون نظره المتفهمة للغة الالوان :

« لكل من كتبه لون ونور . فهناك لون للفراة وهو غير ذلك الذي في **الطريق الملكي** . ويترك لك **قدر الانسان** ذكرى متعارضة من الظلال والانوار ويجعلنا نشبهه بلوحة « فظائع الحرب » لجويا ، اكثر من اية رواية اخرى . **والامل** كتاب داكن واخضر غامق احيانا واحمر دموي احيانا اخرى » . (١٢٠)

وفي الواقع فان ما يصدم القارى قبل كل شيء هو التناقض الدائم بين الانوار القوية المبهرة للاضمار وبين الظلال .

ومند الشهد الاول في الرواية يرسم الكاتب « جسدا اقل وضوحا من الخيال » (١٢١) وكنور وحيد « مستطيل كبير من الاضاءة الكهربائية الباهتة » (١٢٢) .

ولكن بعد تقديم تلك البيانات يعود اليها الكاتب عدة مرات في ذات الفصل مصرا في كل مرة على التناقض بين النور والظلام .

وحتى بالنسبة للتعبير عن المشاعر فان الكاتب يلجأ الى المقارنات المستعارة من مجال الاضاءة : « تلك الليلة المسحوقة بالقلق لم تكن الا نورا » (١٢٣) .

وبعد جريمة القتل تتغير اشارة الحجرة وتتسق الاضاءة الجديدة تماما مع الانقلاب العميق لتشين « في النور الثابت والصاحب » (١٢٤) .

(١١٧) **قدر الانسان** ص ٥١ .

(١١٨) **قدر الانسان** ص ١٢٥ .

(١١٩) **قدر الانسان** ص ٢٠٨ .

(١٢٠)

Ca'etan Picon, *l'Usage de la lecture*, Mercure de France 1960.

(١٢١) **قدر الانسان** ص ٩

(١٢٢) **قدر الانسان** ص ٩

(١٢٣) **قدر الانسان** ص ١٠

(١٢٤) **قدر الانسان** ص ١٢ .

وثمة مناظر أخرى أكثر دلالة : « مهووزة من قلقة كان الليل يغلى كدخان اسود هائل ملئ بالشعر » . (١٢٥) ويقدر ما بهذا تنفس تشين قليلا « يخدم الليل وتظهر النجوم من خلال تمزق السحب » (١٢٦) وتوسع متابعة تلك الدراسة الى مالا نهاية .. ولكننا تقتصر على الإشارة الى امثلة هي في نظرنا آيات على عبقرية التعارض .

وعندما يقدم لنا مالرو كيو لأول مرة من والدين مختلفي الجنسية ، من ام يابانية واب فرنسي ، يذكر الكاتب بفضل لقاء الضوء على معيزات هذين الاصليين اللذين يشاركان وجه البطل :

« يورجح الباب المعلق المصباح (. . .) وعندما يمر المصباح فوق داس كيو يميز بوضوح فمه المشابه لما في اللوحات اليابانية . وعندما يتعد المصباح تنفير اماكن الظلال ، ويبدو وجه ذلك المولود وكأنه وجه اوروبي تقريبا . ولما يكون تارجح المصباح في نطاق ضيق يلوح وجه كيو اقل اختلافا » . (١٢٧)

تلك اللوحة اخذت الى حد انها تجعلنا نشعر بالدوار . ونشير مع ذلك الى وفيرة الظلام . فغالب المشاهد تقريبا تدور في الظلام . وتخييل وجود اشخاص أكثر مما نراهم :

« ذلك الصديق الذي يكاد يكون ظاهرا » (١٢٨) وجوه ظاهرة الى حد ما في الظل » . (١٢٩) « لم يكن الظل يسمح برؤية تعبير الوجوه » . (١٣٠) وخيال تشين « كان ينفصل في غموض » . (١٣١) واذا كان زميلا بصعوبة قد شاهده . ويضيف الكاتب جملة قصيرة أكثر دلالة من شرح أطول : « ومع ذلك كان يملأ الحجرة » (١٣٢)

ولقد كان المنظر دائما غمرا واضحا كالشخصيات : « منازل غير واضحة » (١٣٣) . الانوار المبهمة بملن الضباب » . (١٣٤) وكان الجو المليء بالضباب شبه مستمر ويتكيف تماما مع الظروف : « كانت الشمس ذات اللون الاصفر والبيئة بالضباط تجعل وجوه تشين وزميليه باهتة » (١٣٥) بعد ان فشلوا في مؤامرتهم يقتل تشانج - كاي - تشيك . وابتعد من ذلك « كاتب السيام ومادية اللون وكانت تهيمن هناك على ضوء رصاصي مثل ذلك الذي

(١٢٥) قدر الإنسان ص ١٢ .

(١٢٦) قدر الإنسان ص ١٢ .

(١٢٧) قدر الإنسان ص ١٦ .

(١٢٨) قدر الإنسان ص ١٢٩ .

(١٢٩) قدر الإنسان ص ١٢٢ .

(١٣٠) قدر الإنسان ص ١٢٣ .

(١٣١) قدر الإنسان ص ١٥٧ .

(١٣٢) قدر الإنسان ص ١٥٧ .

(١٣٣) قدر الإنسان ص ١٤٩ .

(١٣٤) قدر الإنسان ص ١٩٧ .

(١٣٥) قدر الإنسان ص ١٥٠ .

يسبق الرعد » . (١٣٦) عبارة مزدوجة المعنى لأن تشين في تلك اللحظة على الاخص يتخذ قراره بارتكاب جريمة الانتحار .

وبعكس تلك الانارة الهادئة وغير الواضحة والحزينة دائما فان لقوة الاضاءة مؤدى معنا . وعندما يتأهب الثوار للهجوم على السفينة تشانج - تونج ، يخاطرون بالقبض عليهم من السفن الحربية للأعداء: «كانت اضاء الكشافات تنتقل بسرعة من السماء الى الميناء وتتلاقى كالسيوف » (١٣٧) .

ويقتضي الامر ايضا الاشارة الى اهمية الشمس التي ندر ظهورها في الرواية . وتفسر الشمس انتصار الثوار ولكنه انتصار « مؤقت » لا يستمر الا قليلا .

« الشارع ملء بالشمس (...) وكان كيو ينظر الى الرصيف الذي يلعب تحت الشمس المؤقتة » (١٣٨) .

وفوق ذلك فان الانارة الاخيرة رئيسية : « كان جيزور يتأمل الخليج الملىء بالشمس » (١٣٩) . وكذلك فان تلك الرواية التي كانت مليئة بالضباب والظلام تنتهي على صورة مضيفة وتترك شعاعا من « الامل » .

ومثل الانارة في رواية مالرو التي تظهر وتختفي فان تتابع الجلبة والسكون يقوم على تضاربهما وتناقضهما . والصفارات المتزايدة وآلات التنبيه وطلقات المدافع ودقات التليفون والاصوات البشرية الصادرة عن الالم ، كل ذلك يرن مثل صوت القدر وينفصل حتما في خلفية صامتة .

ومن الصحيفة الاولى للرواية يبدو ذلك التعارض حليا : « تنطق آلات تنبيه اربع او خمس مرات دفعة واحدة » . ثم « تسكن هذه الموجة من الضجيج » . (١٤٠) ويستمر المشهد في صمت عجيب .

ويميز الرواية كلها ذلك التتابع الدائم للرابطة والازماج ويعطيها نسقا متهدجا متقطعا . ويظهر التعارض أكثر جلاء عندما يأتي في ذات العبارة :

« الصمت - الجماعة الصينية عادة من الاكثر برقا - كان يعلن عن نهاية العالم » (١٤١)

(١٣٦) قدر الانسان ص ١٥٦ .

(١٣٧) قدر الانسان ص ٦٣ .

(١٣٨) قدر الانسان ص ١٠٨ .

(١٣٩) قدر الانسان ص ٢٨٤ .

(١٤٠) قدر الانسان ص ٩ .

(١٤١) قدر الانسان ص ٧٧ .

وكذلك « خلال الصمت كانت تسمع نغمات من الجيتار » (١٤٢) وحتى ينتهى ذلك الازدواج الذى يتسنى لنا متابعته طويلا نذكر التعارضات المدينة التى توجد على مستوى الاسلوب .

لان الازدواج الذى يميز الموضوع يؤثر على الشكل وينعكس تناقض الموضوعات على التكوين الازدواجي للرواية . ونشير الى الملاحظات المزدوجة العديدة التى تتكرر فى صفحات الرواية . « هجر وسكون » . (١٤٣) « الصمت ، فيما عدا الالم » . (١٤٤) ...

ولنذكر ايضا الكثير من التناقضات الثرية بالمعاني دائما : « كان (كيو) يموت بين اولئك الذين كان يريد ان يعيش معهم » . (١٤٥) وتقول ماى وهى امام جثمان زوجها : « حياتي » ... (١٤٦) ، « كانت هناك الوحدة اولا ، الوحدة الثابتة وراء كثرة الموتى » (١٤٧) ، وكاتوف « كان يشعر بانه ملقى فى وحدة شديدة ومؤلمة ، مع ان ذويه كانوا حوله » ، (١٤٨) وعندما يكتب المؤلف « البعث ! » (١٤٩) فان ذلك يعنى : « سيانور » ...



خاتمة

فى ختام دراستنا عن قدر الانسان نخلص الى ان تلك الرواية ، كامعمال مالرو كلها ، « انسانية » فى اساسها . والرجل فيها الشخصية ذات الصدارة . وكل ما كتب يتجه الى الرد على ذلك السؤال الجوهرى :

« ايها الكاتب ، من عبث بى منذ سنوات عشر ان لم يكن هو الرجل » (١٥٠) .

وفى الواقع فان كل ماكتب مالرو يقوم عليه التعبير عن المأساة فى قدر الانسان وقدر عصرنا . ولكن هل وجد ذلك الروائى الذى احاط بمشاكل الرجل حولا لها ؟

ويقابل النقد الوجودى رواية مالرو برواية جان - بول سارتر ويعمل على اظهار اتساق الفلسفة السارتريية والتردد فى فلسفة مالرو . وطبقا لما قالت جان ديلاوم ، بينما فكر سارتر « يتقدم من الصدفة التى هي أصل الوجود الى العمل التحريرى ، ومن اللامعنى الى المعنى

(١٤٢) قدر الانسان ص ١٦٣ .

(١٤٣) قدر الانسان ص ١٥ .

(١٤٤) قدر الانسان ص ٢٥٢ .

(١٤٥) قدر الانسان ص ٢٥٦ .

(١٤٦) قدر الانسان ص ٣٦٢ .

(١٤٧) قدر الانسان ص ٤٩ .

(١٤٨) قدر الانسان ص ٢٥٧ .

(١٤٩) قدر الانسان ص ٢٥٩ .

(١٥٠) مالرو شجر الجوز فى الانتيرج .

والمؤدى ، ومن الوجود الى الجوهر فان فكر اندرية مالرو يسلك الطريق المضاد ، - من صوت العالم الى اصوات الصمت ، من الميث والوجود الى الشك فى الانسان « (١٥١) وتستطرد ج . ديلوم قائلة انه لا يوجد عند مالرو « درجات للقدر » ، « ولا درجات للمواقف » . و (لا درجات للأعمال » . (١٥٢) وعالم النسيان لجيزور صحيح ايضا كالبحت عن الاجل لتشين وكلايك يتكافأ مع كيو ، من اجل ذلك كله فان روايات مالرو « بدون حل موضوعى او اخلاقى » (١٥٣) لان مؤلفها « لا يميز شيئا او شخصا » . ويشكو النقد الوجودى من عدم وجود رد على سؤال مالرو العلقى الا اذا كان هو قلق الرجل الخاضع للقدر .

وعلى اى حال يتعين علينا الاعتراف بأن وجه النظر الوجودى حاسم ومتطرف . حقا ان الكاتب ، كما اوضحنا من قبل ، لا مكان عنده للمعنى ، وان ارادة القوة لدى فيرال تساوى حلم التأليه عند كيو ، ومع ذلك فان للتمييز ملموس بين انتصار كيو ، وكاتوف ، وهيميرليتش ، وفشل تشين ، وفيرال وكلايك ... لان الابطال الإيجابيين فى الرواية يحاولون السيطرة على قدر الانسان بدلا من تحمله . وذلك الجذب الدائم بين الانسان والقدر يدل على الانسانية المأسوية عند مالرو . ويقول بير دى بواد فر ويحق :

« لقد عرف مالرو ان يعبر عن الحتمية فى عصرنا ، ولكنه لم يقدم حولا لها . وتظل انسانيته مفعمة بالياس اذا لم يفتح نحو الحقائق الاكثر رفعة » (١٥٤) .

فمالرو يرفض البحث عن حقيقته فى الايمان بالله . وابطاله عاجزون عن ذلك الايمان فى عالم لا يقمه اليهم ، وهم مضطرون الى ان يجنوه فى انفسهم وحتى فى « الجانب الآلهى » فيهم . (١٥٥)

ومن ناحيتنا ننضم الى الدراسات التى تمت من وجهات النظر الدينية ، مثل دراسة جوزيف هوفمان ، وبير دى بوادفر ، وتؤكد مع ذلك الاخير انه اذا لم يستطع مالرو ان يربط بين الرجل والخلود .. فان سبب ذلك رفضه وجود الله :

« يؤله مالرو الرجل والتاريخ ولكنه لا يوفق بينهما . وللموامة بين الرجل وقدره ، يتعين الخضوع اليه اولا . ويعتبر مالرو القدر كحتمية عمياء بينما (المؤمن) يرى انه ايمان بالله : ذلك الايمان يجمع بين كل الناس ويقيم الاخاء ويمنهم بسلام مشترك » . (١٥٦)

- | | |
|--|---------|
| J. Delhomme, op. cit., p.245. | (١٥١) |
| Ibid., p.152. | (١٥٢) |
| Ibid., pp.247 et 262. | (١٥٣) |
| Pierre de Boisdeffre, André Malraux, Editions universitaires (Classiques du XXe siècle), 1952 p.119. | (١٥٤) |
| J. Hoffmann, op. cit., pp.369, 370. | (١٥٥) |
| P. de Boisdeffre, op. cit., pp. 113 - 119. | (١٥٦) |

من وحيِّ العلوم

عبد العزيز أمين

ما تصبو إليه نفسه تقريبا ، كما تأملت ما صنعته الإنسان في البيئة من ذرع وحرث وتشييد وتعميد وري وصيد ، ثم وجدته يستأنس الحيوان ويسخره لخدمته ويطوع الطبيعة حسب إرادته ، فرأيت أن أبدأ بالكتابة عن علاقة الإنسان بالأرض والمناخ ، ثم أنتقل إلى طريقته في كشف المعرفة ، وأهدافه ، وبعد ذلك أشير إلى العلوم وتصنيفها، والعلماء وجهودهم ، وشيئا غير طويل عن تاريخهم ومعاناتهم .

الإنسان والأرض

إن الحضارة الإنسانية هي ثمن التفاعل الطويل والمستمر بين البشر والبيئة ، من

أردت بهذا المقال أن استعرض تفاعل الناس مع الطبيعة من أجل المعرفة ، وبخاصة في المجالات العلمية ، فامسكت بقلمى لأدون مذكرات مما صادفني في حياتي العلمية ، مستلهما الموضوع من معاناة الأمة العربية في السنوات الأخيرة من تاريخها ، وما صادفها بعد ذلك من نصر بفضل توحيد كلمتها، وجهود الأفراد والجماعات ، تحت رايات القيادات الرشيدة المؤمنة بالانتصار ، ونحن في أول طريقنا لاستعادة أمجادنا العلمية والأدبية والفنية . وذهب فكري إلى ملايين السنين التي مرت على الأرض منذ نشأتها الأولى إلى أن ظهر عليها الإنسان العاقل ، فتأملت الطريق الطويل الذي سلكه الإنسان حتى بلغ كل

مختلفة الوانها تسر الناظرين ، وان ارى
عشرات الالوف من القنوات والمجارى المائية ،
التي تجوس خلال الارض ، وتملؤها حياة من
نبات وحيوان .

ان الثروة الطبيعية ليست موزعة توزيعا
متجانسا في كوكبنا ، بل كثيرا ماتوجد مناطق
عنية بالموارد الطبيعية في صحراوات قفرات او
جبال وعرة او تحت سطح مياه آسنة او في
قاع المحيطات السحيقة العمق ، وعلى الانسان
ان يكد ليحصل على هذه الموارد اذا احتاج
اليها .

وعلى العلم ان يعرفنا اسرار هذه الطبيعة
وقوانينها وتفاعل كل من المواد والبيئة وكيفية
وسبب حدوثه ان امكن . وان يستخدم
الانسان العلم ليحقق الاهداف التي يرمسها
يشبع احتياجاته . وهذا العمل هو الفن
التطبيقي (التكنولوجيا) .

اتنا لن نرضى او نقنع ابدا بحالة العالم
التي نعيشها ، بل علينا بذل النشطة جبارة
لنحدث مايلزم من تغييرات مستمرة وتطورات
صاعدة لتصين وسائل المعيشة واساليبها .

ان السكين المعدني الذي تستعمله اليوم
مثلا لا يشبه اطلاقا آلة القطع التي استخدمها
الانسان منذ اكثر من عشرة آلاف سنة ، ولا
يشبه خام الحديد الذي استخرج منه ، بل
هو منحصلة عمليات وانشطة انسانية طويلة
وغبرات عملية اكتسبها آلاف الناس طوال
الآلاف السنين .

ان الثمرة التي ناكلها اليوم الغنية بما فيها
من غذاء ورائحة وطعم لانشبه الثمرة التي
كانت تنمو في البرية ، بل هي نتيجة تطورات
طويلة وبحوث مضنية عبر التاريخ . والثوب
القطنى الذي نرتديه يختلف في مادته عن
القطن الذي كان ينمو منذ آلاف السنين من
حيث طول التيلة ، وخواص اخضرى لمعالجة .

يابسة وبحر وهواء وكائنات حية واجسام
ميتة . والانسان يجمع خبراته بنفسه
وبخترتها في ذاكرته القادرة على امتصاص
ماستقبله من حقائق، ويعمل دائما على تحقيق
ما يريد بالدأب على العمل ، مستخدما فكره
الواوى ، ومعتمدا على الصبر والناة والارادة
والنصميم . ويعمل على تحسين احوال الارض
حتى يعيش في بيئة افضل دائما . ونحن نجد
في كوكبنا ، الارض ، ما نحتاجه من مواد ، ومع
ذلك فيه ايضا الصحارى القفرة والمناطق
الجليدية الواسعة ، ولذلك لم يكتف الانسان
بالرقعة المنزوعة من الارض بل أعاد النظر في
طبيعة الارض ، فقام المشروعات الكبرى من
اجل رفاهية الناس . وبين يدي كتاب طريف
بمنوان « الانسان يصلح كوكبه » مؤلفة
السوفيتي ادباشيف . وقد ترجمته الى
العربية دار التقدم بموسكو . ذكر في مقدمته
اشارة لما يجب على مختلف بلاد العالم في شتى
الاقوات نحو الناس من اجل خيرهم . وكرس
الكتاب موضوعه للمشاريع الرائعة التي تبدو
اسطورية ، والتي يتوقع المؤلف ان يتم
تنفيذها بجهد العلماء والمهندسين ، مثل انشاء
نفق تحت بحر قزوين لرى الصحارى بواسطة
مياه جبال الثلج العالم، وتحويل الانهار الكبرى
في سيبيريا ، وتدفة تلك الصحراء الجليدية
الشاسعة في الاسكا وكندا وسيبيريا الشرقية ،
ومشاريع استخدام طاقة الرياح ، وتدفة
الامكان الباردة بالدفع الطبيعى الكائن في اعماق
البحار . انها مشاريع واقعية تستند الى العلم
والتكنولوجيا .

يبدى قدماء الكيميائيين انهم حضروا مادة
زجاجية سحرية ابان القرون الوسطى يرى المرء
من خلالها العالم كله في آن واحد . وليت هذه
المادة حقيقية وموجودة الآن لارى الارض كلها
وما عليها ، او ليتنى استطيع ركوب متن الفضاء
لارى روعة الارض وغناها وتنوع غاباتها
واحراشها وما بها من بحيرات عذبة ، وسط
الحقول النظرة او الذهبية او المتلألئة بازاهير

اشعة الشمس ويمتص العشب منها اربعة وسبعين في المائة . ان الانسان يكيف البيئة الجغرافية التي يعيش فيها ، كما يكيف الطبيعة كي تخدمه وتشيخ حاجاته .

وكانت حيوانات هائلة من ذوات الدم البارد تعيش على الارض قبل ظهور الانسان بعلايين السنين مثل الديناصور وغيره من الزواحف التي يبلغ طول انواع منها اربعة وعشرين مترا ، وتزن خمسين طنا ، وكان منها ما تعلق في الهواء باجنحة مكففة كالخفافيش ، وكانت درجة حرارتها غير ثابتة ، بل تتأثر بدرجة حرارة البيئة التي تحيط بها . كانت هذه الزواحف البائدة تجرى بالغايات ، وتطير في الهواء ، عند ما تسطع الشمس ، وتلا المكان بالدفء ، ثم تختفي وتبيت البيات الشتوى عندما تنخفض درجة الحرارة شتاء ، لكنها لم تستطع مقاومة البرد الشديد وتقلب المناخ ، ولم تصمد في معركة الحياة ، وتفوقت عليها الثدييات ذوات الدم ثابت درجة الحرارة (هو مويثرم) .

ان درجة حرارة جسم الانسان (٣٧° مئوية) هي المناسبة للتفاعلات الكيميائية الحيوية التي تحدث باجسامنا . ونحن قادرون على تنظيم التبادل الحراري بين داخل اجسامنا وخارجها بطريقة تلقائية وغير ارادية (بين درجتى ٣٥° و ٢٨° مئوية) وعندما يكون متوسط درجة حرارة الهواء المحيط بنا حوالى ٢٥° مئوية . وكان هذا سبب استيطان الانسان والحيوانات الدافئة الدم بالاماكن الدافئة من العالم في شمال افريقيا وجنوبية العرب وايران والهند والصين واستراليا وفي مناطق عديدة من امريكا الجنوبية ، ثم انتقل الى مناطق اخرى اكثر برودة عندما عرف النار . وبنى البيوت وعرف الكساء ونظم حياته وكشف عيشه واهمية العمل للحصول على ما يقيم حياته ، فنمت معارفه ، وتراكمت خبراته وخبرات اسلافه ، وعرف الكثير من المواد النافعة كالمعادن والفحم ثم البترول ،

خشى الانسان القديم اخطار المواسف والرهود والبرق والامطار والتعرض للجوع والقتل والهلاك والزلازل ، ففكر في سر هذا الكون ، وعرف خالقه بما اوتي من عقل قامن بربه ، ودأب على تحصيل المعرفة ، وسار العلم مع الايمان جنباً الى جنب في تلاحم عبر التاريخ .

الانسان والمناخ :

اننا ندرس علم الجيولوجيا ونعرف منه شيئا عن تركيب الارض . وندرس القوانين الطبيعية ونعلم انها غير قابلة للتعطيل ، فهي تعمل ونحن نستطيع توجيه قوى الطبيعة حسب ارادتنا ونطوعها لخدمتها . والارض والكواكب الثمانية الاخرى وتوايها تدور حول الشمس وحول نفسها ، وترتبط معا بقوى جذب متبادل مكونة المجموعة الشمسية . وتغترب الارض تارة من الشمس ، وتبتعد عنها تارة اخرى ، وتحدث الفصول الاربعة ويتعاقب الليل والنهار . ويتغير الاشعاع الشمسي دوريا في كل منطقة بالارض على مدار العام ، فلكل منطقة نظام للطقس هو ما يسمى بالمناخ ، يتحدد بالواقع الجغرافي للمكان . ويتحدث المناخ عن نظام الطقس الطويل الامد . ويؤثر فيه عوامل جغرافية كالتضاريس وتيارات الهواء والبحر ، التسي تحمل الدفء والرطوبة ، كما يؤثر الموقع بالنسبة الى البحر ان بعدا او قربا ، وبالاارتفاع عن مستواه . ويؤثر ايضا طبقة الرمال او الصخور او الجليد او مياه المحيطات الشاسعة .

ودرجة حرارة الجو في مكان معين قد لا تكون مناسبة لحياة الناس . وهنا يأتي دور الطبيعة ليعمل بان يغير طبيعة الغطاء السطحي للارض . انك قد تدهش اذا علمت ان الماء يعكس خمسة في المائة فقط من اشعة الشمس بينما يعكس الثلج خمسة ولثمانين في المائة منها . ويمتص الرمل سبعين في المائة من

شانهم انفسهم . وهذه القوة الدافعة هي التي تجعلهم يستمرون في عملهم حتى يجنوا الثمار الطيبة . انهم لا يدقون طعم الراحة حتى تستفيد الملايين من مجهوداتهم . ويتعرض هؤلاء الى عاصفة من نقد المشككين الذين يقاومون كل جديد ، وعليهم ان يصمدوا ويكافحوا ويثبتوا صحة آرائهم او فائدة اختراهم الجديد او نظرياتهم الجديدة .

ان العالم يسير في طريق التغيير المصاحب لما نستخدمه من مواد وطرق والآلات واساليب في حياتنا اليومية ، وعلينا ان نتكيف حسب هذا التطور والتغيير ، وان نتقبل ما ثبتت نفعه ، ان الانسان يخشى بطبعه كل ما يجهل ، فنراه يتمسك باهذاب القديم ، ولن يثق بالجديد حتى يالفه . ان العلماء والمخترعين يجب ان يكونوا مهرة في اقناع الناس وعدم التهود في مناوئاتهم عند الدفاع عن مستحدثاتهم .

وقد عرفنا من العلماء المشاركة ابا بكر الرازي الطبيب الكيميائي ، وعالم البصريات الحسن بن الهيثم ، وواضع علم الجبر الخوارزمي ، ثم جابر بن حيان صانع زيت الزاج ، كما عرفنا من علماء الغرب جاليليو ونيوتن ودفوود ومدمام كوري واينشتاين والافا غره من الانداز . ويذكر التاريخ بالمعانة والصبر والصمود والصبر . واخيرا تقدير الناس لاعمالهم في حياتهم واحيانا يأتي الاعتراف بفضلهم بعد وفاتهم بأعوام طويلة ، بعدما يصحو الناس ويروا نور الحق والمعرفة . ان لغوازية الذي قطعت مقصلة الثورة الفرنسية راسه اقام له الفرنسيون تمثالا تخليديا للذكرا واعترافا بفضلهم في وضع اساس الكيمياء الحديثة . ويوسف بريستلي القس الانجليزى الذي كشف الاكسجين وصاحب الفضل في كشف اكاسيد النتروجين لم ينتج في الافلات من الاعدام . كان ذلك في عهد الثورة الفرنسية . وكان القرن الثامن عشر ميدانا لجهاد كيميائيين

فلم يعد المناخ الرديء عقبة في طريق تقدم الشعوب . ان الشعوب التي ظلت متاخرة طوال سنى التدخل الخارجى قد نمت فجأة وسارت بخطوات سريعة في طريق التقدم بعدما حققت استقلالها . ومن ادوع امثله هذه الشعوب الصين واليابان ، ثم الهند ، واخيرا وليس آخرا بعض دول من الامة العربية التي جolt ارادتها ارضها الصحراوية الى جنات ومنشآت عمرانية ومصانع متطورة ، وارتفعت معدلات الانتاج ومستويات المعيشة بها في سنوات معدودات بفضل العلم والتعليم واساليب التخطيط والتنسيق والتعاون بين الجميع بوعى واخلاص وايمان . ونأمل في المزيد من الازدهار للامة العربية وغيرها من الشعوب النامية .

طريق العلم وهدفه

فكرت فيما يجب ان يتصف به من يود الاسهام في تقدم العالم واثراء تروته الروحية ورفاهيته ليشعر انه قام بدوره الحضارى ، فوجدت ان اول ما يجب ان نعرفه تلك النجاحات التي حققها الاسلاف وما صاحب اعمالهم من معاناة . وقبل ان اقلب صفحات تاريخ العلوم واستعرض معاناة العلماء من قتل او اضطهاد ، او نقد جارح الى غير ذلك مما يلا صفحات تاريخ العلم ، وددت ان اشير الى ما يجب ان يتصف به الذى يريد الاشتغال بالعلم ، فوجدت الصفة الهامة الاولى ضرورة قدرته على اختزان ما يتعلمه من المعارف في ذاكرته الممتازة ، ثم الإرادة القوية الصاعدة ، والقدرة الفائلة على الصمود ، والتغلب على ما يصادفه من عقبات حتى يدرك اهدافه .

ان صمود « توماس اديسون » المخترع الامريكى في عمله وهو يخترع المصباح المتوهج لمن ادوع امثلة الصمود ، فقد جرب مئات المواد قبل ان يعثر على نوع الفتيل المناسب . ان امثال هؤلاء الرجال الصامدين يعملون بدافع تحقيق نجاح يخدم الجماهير ويرفع

ولا يدفعهم دافع قوى نحو المعرفة . وهؤلاء لن يصبحوا علماء حتى ولو حصلوا على درجات علمية عليا ، بل سوف يكونون متعلمين - اذا صح ان نصفهم بهذه الصفة - وسوف ينسون ما تعلموه بعد سنوات معدودات .

ان التقدم السريع في العلم والتكنيك يوجه اغلب الشباب الى دراسة العلوم الطبيعية والتطبيقية، ولا يقبلون كثيرا على دراسة العلوم الانسانية ، حسب الاتجاه السائد في الحياة العصرية ، وفرص العمل ، لا حسب الميول والريقات الحقيقية .

واستطيع ايضا ان اوضح طريق رسم السبيل لحياتنا العلمية منذ دخول التلميد بالدراسة الثانوية وتقدمه نوعا ما بالدراسة في الصف الاول منها، فانه يجد نفسه تجاه خليط من رغبات وميول، وتوجهه بعض اتجاهات سائدة، فتجده يتأرجح احيانا بين العلم والادب ، والواقع انه يشعر بالرغبة في المعرفة ايا كان نوعها .

وحياتنا العصرية حافلة بانواع متباينة من الاجهزة والمخترعات والمعدات العلمية والآلات الميكانيكية والكهربية ، ونفائات وسفن الفضاء، وعتاد حربي، والعلم ليس مجموعة من التكنيك الصناعي تختص به جماعة من الناس تعمل في المختبرات ويرتدون المعاطف البيضاء ، وقد اصفرت اناملهم من تأثير الاحماض ، وضعف بصرهم من كثرة القراءة والبحث ، ويهملون حياتهم الاسرية عادة او ينسون الحياة الاجتماعية . ان هؤلاء في الواقع لا يتصفون بهذه الاوصاف الا في خيال بعض مخرجي الافلام او المسرحيات ، والعلم ليس كذلك ، بل هو طريق وقوة ذاتية، لها معناها واسلوبها وآثارها الخاصة ، والثقافة الحديثة تكمن في غمرة الآلات والصناعات والاسلاك والعدسات، وبين القوانين الرياضية والرسوم البيانية ، والاجهزة الزجاجية ، وبين حيوانات التجارب ومع فسائل سلاسل نباتات وميكروبات ، الى غير ذلك مما يتناوله العلم والتكنيك في العصر الحديث .

يعملون بالبوقة والميزان والانيق ، ويجمعون الحقائق ويقيمون فلسفة كيمائية عامة .

والاشتغال بالعلوم يعنى التكريس له والتعرض للنماء والالم احيانا . ولكن الامس يتحقق بعد ذلك . ومن منا يجعل فضل عالم مثل لويس باستير كاشف الميكروب الذي بدأ حياته العلمية مدرسا وتقلب في المناصب العلمية حتى ارغمها ، وكذلك بيير كوري وزوجته مدام كوري فقد كشفا الراديوم والبولونيوم ، اما العالم لقوازييه فقد كشف نظرية الاحتراق وهدم النظرية القديمة المعروفة باسم الفلوجستون . ومن منا لم يسمع لو يعرف فضل العالم الروسي مندليف الذي رتب العناصر الكيميائية ووضع النظام الدوري لها . عاش بعض هؤلاء حياة مليئة بالتأصب والالام والظلم والاضطهاد احيانا ولكننا نأسف الآن لما قاسوه في حياتهم ، ونعترف بأفضالهم ونخلد ذكراهم .

وكل يوم تظهر نظريات جديدة ومواد جديدة وطرق جديدة في التكنيك العصري ، فينشط الناس لتقدها والتشكك فيها والتوجس من نتائجها ، لكن الحق ينصر دائما على الباطل ويكسب الافضل معركة النضال الذي يكلف صاحب النظرية الجديدة او الاختراع الجديد غير قليل من اعصابه وعصارة فكره ، ومع ذلك لا يبنى العالم من وراء كشفه العلمي جاحا ولا مالا ، بل يعمل لاسعاد البشرية ويسعد ارضاء الناس .

وقد يتخطب الشاب اذا سئل عما يربى ان يكون في المستقبل ، وقد يستطيع بعضهم تحديد اهدافهم بشيء من الدقة . والطالب الذي لا يعرف هدفه يستذكر دروسه دون هدف سوى النجاح في الامتحان، وقد يستذكر مادة صعبة فيما يرى مثل الكيمياء ، التي يدعى البعض انها سريعة التطاير من العقل كما تطاير الكحول ، انهم مخطئون فيما يزعمون ، ولا يشعرون برغبة في دراسة هذه المادة او تلك،

وكذلك قد يكون مهتماً بالآداب ثم يقابله تعليم من نوع آخر فيقتضى على هذا الاهتمام . أن المسرحيات الخالدة لكبار الشعراء أمثال شكسبير وجوته لا تزال تؤثر في العلماء وتبعدهم ولو مؤقتاً عن التفكير في العلم . وليس العلم حاسة خاصة أو فكرياً معيناً بل هو معنى واسع . أما « العقل المتخصص » فاصطلاح جديد مثل كلمة علمي (Scientist) التي اخترعها الإنسان حديثاً .

وقد لا يقتنع العلماء بما يعرفون، بل يعتبرون أنفسهم إذاً قادرين على الإتيان بالعجيب من المعرفة أو الاختراع ، مثل كشف الإلكترون والرادار واشعة الليزر واختراع أجهزة القياس الراديوي المستخدمة في علم الفلك الحديث ، أو أجهزة العلاج باشعة جاما التي تنبعت من الراديوم ، فالعلماء يفرون أحسوال الناس وأساليب حياتهم كما تتغير أحوال الناس بتأثير الأدب أو السياسة أو الرياضة . أن العلم والأدب يقومان بتوظيف طريق الحياة من أدراك الماضي ويفسحونه للسفر في موكب التقدم في حياتنا العصرية الفياضة بالقيم الجديدة ، ولكن الناس يتوجسون من كل جديد ولا يؤمنون به إلا بعد الاقتناع والممارسة .

ويستطيع محب قراءة الأدب أن يستمتع بقراءة العلم أيضاً ولكنه قد يجد فيها بعض الصعوبة لعدم استيعابه لغة العلم ، وما بها من أرقام ومعادلات ورسوم قد لا يفهمها ، أو قد لا يحاول فهمها، ظناً منه أنها غير مسورة الفهم .

وهذا يجعلني أعود بذاكرتي إلى أيام الصبا عندما كنت وإترابي نتردد على مكتبة البلدية بأحدى مدن الإقليم ، كنت أقرأ بغير هدف في كتب تتعلق بمقررات الدراسة أولاً ففى الجغرافيا وفي التاريخ ، ولكنني وجدت نفسى لا أعرف إلا القليل من هذين العلمين ، وكان مدرس الجغرافيا بالصف الرابع الابتدائي يشرح درساً عن الهند ، فدفعنى الفضول إلى

أننا نحصل على الثقافة من هذه المجموعات المتشابكة من المعارف ونحولها إلى لغة سهلة الاستيعاب . وقد تأثرت لغة العصر بالعلوم الحديثة ونقرأ عناوين الصحف وبها مصطلحات لم نعرف من قبل في لغتنا اليومية مثل « كسر حاجز الصوت » أو « أشعة الليزر » أو « الطائرة الإلكترونية » أو « الحياة على المريخ » . ويجب أن يعرف المشتغل بالعلوم شيئاً عن تاريخ العلم ليزوده بدعامة يبنى عليها لبنات التطور والتنمية العلمية . وقد يترك هذه العناوين فتدعك إلى انماء معلوماتك في نوع معين من العلوم . وقيم التاريخ العلمى جسداً يستطيع محب العلم الوقوف عليه ليرقب العالم وليدرك معنى الحياة العلمية .

ويشعر الشخص العادى بوحدة العلم والأدب ، ويجمع ثقافته العامة من العلوم ومن الآداب . وتختلف وظيفة الفكر عن وظيفة الشعور ، ولكن تكمل أحدهما الأخرى . كذلك الأدب يكمل العلم . والبشر لا ينقسمون إلى مفكرين وشعراء مثلاً . وصم العلم فيما مضى بالبعد عن الروحانية وقاومه رجال الدين ، واعتبر في القرن التاسع عشر عبثاً ، فترفع عن تحصيله أهل الأدب كي يحتلوا مكانة رفيعة في المجتمع . واشتد الصراع بين العلم والأدب في عقول الشباب في القرن الماضي . ولكن العقول الناضجة تستطيع استيعاب العلم أو الأدب على السواء . فالعوامل التي يتميز بها الشخص اللاع عن الخاين هي نفس عوامل الدكاء في المهتم بالعلوم الإنسانية أو المهتم بالعلوم الطبيعية . وعندما يمارس الناس أعمالهم ينقسمون إلى أهل علم وأهل أدب . ويظن البعض أنهم لا يطبقون فهم الموضوعات الرياضية أو الميكانيكية أو لا يدركون معاني الأشياء العددية ، والواقع أن كل عاقل يستطيع استيعاب هذه الأمور إذا أمن الفكر ودرب العقل ، مثلما يستطيع استيعاب الموضوعات الأدبية أو الإنسانية . وقد تجد الفرد مهتماً بالعلوم الرياضية ثم يصادفه نوع من التعليم أو مدرس معين يقتل فيه هذا الاهتمام .

الترويجيين واخترعت الطرق الصناعية لتخليق النشادر ، وصناعة الاسمدة الكيماوية ، مثل نترات النشادر ، كما صنع حامض النتريك وانواعا من المرقعات كالديناميت الذي يستخدم في نفس الصخور وفتح الانفاق . هذه صور من كسوف ادت الى ظهور مواد جديدة نافعة ، فاساس العلم كشف حقائق جديدة وتوطيدها في المجتمع . ورجل العلم القادر هو الذي تمكنه رؤية الافاق البعيدة في مجال بحثه ويعرف الارتباطات والعلاقات بين الظواهر .

وتشيد البحوث العلمية طبقات عليا من صرح العلم، فيزداد سموا . وتمكننا الحقائق الجديدة من كشف علاقات عامة وارتباطات متعددة بين الظواهر فتكشف القوانين الطبيعية العامة . واستطيع ان اورد مثلا من الكيمياء فقد ذكرت احدى دوائر المعارف في القرن الماضي ان اليورانيوم معدن قليل الفائدة ثقيل الوزن ، ولم ترد كثيرا عن ذلك ولكن تبين بعد ذلك خواصه واكاسيده ومركباته ، ثم كشف الالكترونون ، وعرفت بنية المادة واميط اللثام عن مكونات نواة الذرة . واصبحت كيمياء وفيزياء اليورانيوم من اهم دعائم العلوم النووية والطاقة النووية . ان الفيزياء قد جمعت معلومات وافرة في علم الكهرباء عن التوصيل الكهربائي للمواد . وكشف احد العلماء امكان تقسيم المواد من حيث توصيلها الكهربائي الى طائفتين : مواد تزداد توصيليتها الكهربائية كلما ارتفعت درجة الحرارة ، وطائفة اخرى تنقص توصيليتها الكهربائية بارتفاع درجة الحرارة . وبدراسة طبيعة هذه المواد تبين اختلاف كبير في نمط البناء الوضعي للالكترونات في ذرات كل من الطائفتين ، فالملحومات تتراكم، كما تتراكم القوانين الطبيعية العامة حتى تصير اساسا لمفاهيم اوسع تربط الخواص الكهربائية ببناء الذرة .

ويمكننا ان نجد مثلا اخر من القوانين العامة التي تحكم المجتمع الانساني ، او قوانين تطور الحيوانات في العالم ، ان هذه القوانين لا تكشف

استعارة كتاب عن حياة الهندو ، كما جمعت بعض الصور من الهندوس اشياء اخرى لا تتعلق بالنتج الدراسي . ولما كنت بالمرسة الثانوية استهوئني الاعيب كان يقوم بها احد التلاميذ الاكبر سنا، مستخدما بعض الاحماض والقلويات وبعض التفاعلات فولمت بالتقليد ، وفكرت في اصل هذه المواد ، وقرأت من الفيلسوف الذي فكر لأول مرة في بنية المادة ووضع فكرة الذرة ، كما استهوئني موضوعات اخرى تتعلق بالعلم كالتمثيل الشمسي وصناعة الصابون المنزلي ، ثم تحول اهتمامي الى موضوعات . بعيدة البعد كله عن المقررات المدرسية .

قرأت عن جاليليو وعن نيوتن ويكمن، وكانت لي جماعة من الاصدقاء المحبين للاطلاع ، وكثر اتصالنا وتبادلنا الافكار . وامتزجت مشاربنا وتفاعلت افكارنا وتركت في بعض الافكار الجديدة . وكان منا من يعتقد ان العلم لا يعيد الناس اذا كان لا يعود عليهم بالنفع المباشر . وكان منا من يؤمن بان العلم والادب معا يكونان اساس الحضارة والثقافة . وانهما في الواقع مقترنان - ولعله قرأ هذا الرأي في كتاب - وكان ثالث يرى اننا نهلى عندما نتحدث بغائفة الادب ، ويقول ان الجائع لا يهتم بالفن او بالادب ، ولا بالنظريات العلمية التي يشبع بها جوعه ، ان العالم يسأل ويطلب اجابة شافية على اسئلته . كان احد زملائي الاكبر مني سنا كثير التساؤل . وكان يسألنا عن اهداف العلم اذا لم تكن ابتداء اشياء تنفعنا . واجابه احدنا بقوله ان العلم يميظ اللثام عن حقائق جديدة ، ويظهر الارتباطات بين مختلف الظواهر . وعلى الرغم من وضوح كلامه اردت ان يسوق لنا مثلا او امثلة لما يقول . وبدأ يستشهد بكشف تكوين الماء من عنصرى الأكسجين والهيدروجين ، وكشف الهواء ومعرفة انه يتكون من خليط غازي خمسة اكسجين واربعة اخماسه نتروجين تقريبا ، ثم كشف عالم في الكيمياء خواص النتروجين ، كما كشف خواص الأكسجين، وعرفت اكايد

الالياف الصناعية الجيدة والرخيصة، فاحتلت بالتدريج مكانا مرموقا في الاقتصاد العالمي بدل الصوف الطبيعي وغيره من الالياف الطبيعية، كالقطن والكتان والحبر ايضا. فالانسان يعيش في دنيا الموارد ويبدل تصارى جهده ليستبدل المواد الطبيعية بأخرى تخليقية، يعطوها وفق ارادته وحاجاته. ان العلوم الطبيعية تستطيع كشف المعلومات اللازمة لاجاد الحلول لمشاكل الانسان. واذا تساءلنا عن كيفية سلوك الاشياء مسلكا معنا، كذلك اذا سألنا عن النظام الوضعي للحدوث في عالم الاشياء والترابط بينها وعن ترتيب الكون المحيط بنا فان العلوم الطبيعية لديها الإجابة على هذه الاسئلة وهدفتها النهائي معرفة اسرار الطبيعة وفهمها.

وليس تقسيم العلوم الى طبيعية وتطبيقية تقسيما جامدا، فالفيزيائيون الذين يدرسون قوانين انتشار الجسيمات، والكيميائيون الذين يدرسون تحطيم الروابط الكيميائية بين الذرات، وعلماء الاحياء الذين يستخدمون الميكروسكوب الالكتروني لمعرفة دقائق مكونات الخلية الحية للاوليات كلهم يجلسون في ميدان كبير واحد هو العلم. اما الفيزيائي الذي يضع التصميم لمفاعل نووي، والكيميائي الذي يحسن خصائص انواع اللدائن، وعالم الوراثة الذي يعمل لتحسين سلالة من الأبقار، وافرّة الادار الحليب، فهؤلاء ينتنون الى قسم آخر من العلماء هم العلماء التطبيقيين. ومع ذلك فمن سمات العصر الحديث اذابة الفواصل المتغلقة بين أبواب العلوم التطبيقية، واصبحت التفاعلات الكيميائية والعمليات الحيوية والظواهر غير الحية كلها تدرس بنفس الطرق، وتبدأ من نفس الاوليات النظرية العامة.

بين العلم البحث والتطبيق

واعود الى عهد الصبا عندما كنت اشعر برغبة في دراسة العلوم، ولكني لم احدد الفرع الدقيق الذي افضل التخصص فيه. وبدأت افكر في نوعين من الدوافع. بدأت بالسلبية

الا ببذل الجهد واجراء البحوث، اذكر اننا كنا نتجاذب اطراف الحديث وكان من بيننا الطالب والمهندس والطبيب والفلاح والعامل بأحد مصانع الحديد والصلب، وكان اليوم هيدا، وتطرق الحديث الى العلم والادب والزراعة والطب. وسأل احدها عن امكان تحسين مواصفات الصلب وتخليصه من شوائب معينة. وسأل آخر هذا النوع من العمل بدخل في نطاق العلم ام الفن؟ فرد عليه المهندس انه يتطوى على كشف حقائق علمية، وان تحسين جودة انتاج الصلب تدخل في نطاق خاص من العلم هو العلم التطبيقي. اننا قد وسعنا مفهوم العلم وفرقنا بين نوعين من المشتغلين بالعلوم: عالم او مشتغل بالعلوم. فاذا وصفنا الشخص بأنه عالم او بأنه مشتغل بالعلوم فان هذا لا يعنى أكثر من ان لديه كمية من العلم يستخدمها في البحث العلى او الكشف عن المجول. وتنقسم الانشطة العلمية الى ثلاثة اقسام: (١) العلوم التطبيقية (٢) العلوم الانسانية (٣) العلوم الطبيعية.

ويهدف اى بحث في العلوم التطبيقية الى غاية عملية. فابتداع طريقة جديدة للتصنيع او مواد جديدة او وسائل أكثر سرعة في تصنيع المنتجات او اوفر راحة او اسهل في النقل او فريدة لخصوبة التربة او تخلق ادوية جديدة، كل هذه امثلة من اعمال علمية تطبيقية. ومن ثم فالفيزياء الهندسية والهندسة الميكانيكية والكيمياء الصناعية والزراعة والطب علوم تطبيقية.

اما اتجاهات البحوث في العلوم الطبيعية فواضحة، وتقومها متطلباتنا او متطلبات الطبيعة. فاننا نجد ان الاحتياطي من الطاقة اخذ في التناقص ويهددنا بالنفاذ، وهذا ما يدفع الناس الى التطلع لاجاد موارد جديدة للطاقة. وفعلنا تظهر الآن بوادر الطاقة النووية. وكذلك نظرا لتزايد سكان العالم، نزايد احتياجنا للصوف واصبح لا يكفي متطلباتنا، فعمل العلماء يجد واستنبطوا بدائل الصوف. وظهرت

القليل جدا من الذرات المنشطرة (جزء من مائة الف من الليجرام) في السنوات الأولى من بحوث الطاقة النووية .

وكان استعمال الكهرباء في الماضي قاصرا على المصباح المتوهج ، الذي اخترعه أديسون ، والتلغراف والجرس والتليفون والقبلة الزمنية ، اما اليوم فقد امتدت ايدي العلوم التطبيقية الى الكهرباء ، وفتحت آفاقا جديدة في هذا العلم .

ان السير مع تاريخ العلوم واخبار العلماء ليبين روائع التراث في التطور الحضارى . ويكني ان اذكر اسماء علماء مثل **كوبرنيكوس** و**كبلر** و**جاليليو** و**نيوتن** ثم **هرشل** و**اينشتاين** وهم من اعظم رواد اسرار الكون . فقد **كوبرنيكوس** نظرية العالم الاقربى بطليموس عن الارض التي ظن انها مركز العالم . بعد ان ثبتت في الازمان منذ عشرات القرون ، وطلع على العالم بنظريته الجديدة التي تشير الى ان الشمس هي التي في مركز المجموعة الشمسية ، والارض احد الكواكب التي تدور حول هذا المركز . وجاء « **كبلر** » فحدد شكل افلاك الكواكب . ورصد **جاليليو** الكواكب بالتلسكوب ووضع المبادئ الأولى للبحث العلمى . وجاء **اسحاق نيوتن** فاذهلنا بقوانين الحركة التي كشفها . ووضع قانون الجاذبية العامة . اما **هرشل** فبين ان المجموعة الشمسية جزء من مجرة هائلة بها ملايين الشمس . ووضع اينشتاين النظرية النسبية . كان هؤلاء رواد العلم وطلالغ الفكر الحديث من القرن الخامس عشر الى العشرين . وعاش في نفس الزمان علماء آخرون اهتموا بفروع اخرى من العلم ، فمثلا تجد في الكيمياء **تريفان** و**باراسيلسوس** وقد عاشا في القرن الخامس عشر ، و**بهميش** الذي عاش في القرن السابع عشر ، وكانوا رواد الكيمياء القديمة في اوروبا التي تبحث في صناعة الذهب واكسر الحياة الدواء الشافى لجميع الامراض . وكان القس الانجليزى **بريستلى** كاشف الاكسيجين اول رواد الكيمياء الحديثة

التي تقصينى من فروع معينة من المعرفة . وكانت فكرة التخصص في التكنولوجيا قد انهارت امامى منذ البداية ، فلم تكن بلادى قد بلغت مركزا ملحوظا في العلوم التكنولوجية ، فكان لزاما على من يود دراستها السفر الى اوروبا . وكنت اضرع بعيل الى البحث الجاد عن المعرفة ، واستخدم التحليل المنطقى للمشاكل التي تصادفنى . واستوتنى دراسة العلوم وانا بالدرسة الثانوية متأثرا باستاذ معين ، وتخصصت في الكيمياء ، وتحولت الى التطبيق العلمى عندما التحقت بهيئة التدريس بكلية الهندسة ، فالتجعت في بحوثى الى استنباط طرق جديدة . وسهلت لتحليل المادان ومخاليط الاملاح والسيالك ، ولما اتيت الى فرس السفر الى الخارج التقيت بكثيرين من علماء الغرب . واني لا ازال اذكر احد العلماء الفرنسيين ممن اشتهروا بالتنظيم العلمى ، وكان احد تلاميذه يبحث اشباه الموصلات الكهربية فتوصل الى كشف ادى الى وضع خطة لاجراء تجارب تزلها اجهزة غاية . وكان الأستاذ يشكو من انتفاع المسؤولين باهمية هذا البحث فلم يوافقوا على ترويه بالمال اللازم . واذكر ايضا من تاريخ العلوم ان احد الباحثين اراد قبيل الحرب العالمية الثانية ان يجرى بحثا على نواة الذرة . وكان البحث يستلزم استخدام اجهزة ومعدات غاية فلم يحظ بموافقة المسؤولين على تمويله . وقالوا ان النتائج قد لا تساوى المبالغ الباهظة المطلوبة . ونعلم الآن ما يجرى في الدول المتقدمة المسماة « **الندي النووى** » من بحوث في الذرة والطاقة النووية من اجل السلام ، ومن اجل التسابق في احرار اسلحة نووية حديثة .

ان العلم البحث يخدم ايضا الصناعة والتكنولوجيا كما يخدم الدفاع الوطنى . والبحوث البحتة تقودنا الى البحوث التطبيقية . ان القرن الالف الذى ينتج الحديد الزهرى بمعدل نصف مليون طن في العام ، بتكلف نفس التكاليف مثل معجل سرعة الجسيمات النووية المسمى « **سيكوترون** » والذي يبلغ نفس حجم القرن العالى ، ومع ذلك فلا يتجاوز انتاجه الا

التأثير الكهرومغناطيسي سنة ١٨٣١ ، ووضع ايضا قوانين التحليل الكهربائي ، ولكن لم تظهر اهمية هذه الانتصارات العلمية الا بعد ما اخترعت الآلات الكهربائية ، واستخدمت بعد عشرات السنين من كشف فراى لوانينه . وكذلك كشفت الاشعة السينية والبيت « هان وشتراسمان » امكانية اقترام نواة الذرة لما لاحظا ان النيوترونات البطيئة تشطر نويات ذرات الهليوم ، وظلت هذه الافكار خامدة حتى تحقق التفجير النووي ، بعد سنوات عديدة ، فى إيطاليا بمعرفه « اريكو فرمى وليزماينتر ».

كانت هذه البحوث الثمار الطيبة لجهود العلماء الذين عرفوا طريقهم وهدفهم ، وكانت الحقائق التي كشفوها كامنة بين طيات غموض الطبيعة حتى نضجت المعرفة ، وتركت في مجالات العلوم البحتة اولا ، ثم وجدت هذه الاشياء التي ظلت مجهولة ميونا بصيرة وعقولا واعية لماحة ، فتمكنت من ادراك هذه الحقائق والتقاطها من وسط الجحالة العميق ، ونظفتها من الادارن وهذبته ثم صقلتها ، حتى تمكنت من اظهارها للعالم ووضعها في خدمة المجتمع بالتطبيق العلمى .

مع التطبيق من الجديد والصلب الى القدر :

يدفعنا الفضول الى البحث لفهم اسرار الطبيعة، ونحن نكشف المعرفة ونختزن الخبرات ونطبقها في التنبيه بالاحداث القليلة . وتتقدم العلوم في كل فروعها في طرق متوازية ومتصلة بفروع جانبية في جبهة متماسكة قوية ، وتفيض تكافح الجهل وتوسع التقدم الحضارى ، وتفيض على طرق حياتنا بنور الهدى . والحق ان تقدم العلوم واجب من واجبات الدول ، لانها غذاء العقول ونورها ، وفروة وذخيرة ودعماء قوية تشيد الصروح الاجتماعية والاقتصادية والسياسية . وصى الديار ، ولعز وكرم الشعوب . فعلى كل دولة تخصيص الاموال للاتفاق على العلم والبحث النظرى والتطبيقى .

ان رغبة كل امة في النهوض يلزمها بالاهتمام بالعلم والبحث العلمى ، وتتصل الشروات

وعاصره لغوايه الفرنسى كاشف نظرية الاحتراق وهادم نظرية الفلوجستون . وجاء كثيرون من بعدهم من علماء الكيمياء وعلى راس قائمتهم جون دالتن صاحب النظرية الذرية ثم الفيلسوف السويدى برزيليوس واضع الرموز الكيميائية الحديثة في شكل حروف الهجاء بدلا من الرموز القديمة التي كانت في شكل رسوم غير مفهومة . قضى برزيليوس على استخدام الرموز القديمة مثلما قضى لغوازيه على نظرية الاحتراق القديمة « الفلوجستون » . وظهر في القرن التاسع عشر افوجانيدو صاحب الفرض المشهور باسمه في دراسة الفلزات ومبتكر المصطلح « جزيئات » ، ثم اعقبه « فوهلى » ، اول من حضر مركبا عضويا من مادة غير حية ، وجاء من بعدهم العالم الكيميائى الروسى مندليف الملقب بـ « نبي الكيمياء » لانه وضع النظام الدورى لترتيب العناصر وواضح جدول مندليف . وفسر « اوهينشويس » مسلك المحاليل الموصلة للتيان الكهربائي بالنظرية التي وضعها المسماة « النظرية الايونية » . ويختتم القرن الماضى الانتصارات العلمية الكبرى بيزوغ فجر العلوم النووية ، وكشف البولونيوم ثم الراديوم والنشاط الاشعاعى ، بغضل المدرسة الفرنسية في السوربون على ايدى « بيرى كورى ومدام كورى ثم هنرى بيكول ثم كشف الالكترن في انجلترا على ايدى مدرسة طومسون وذر فورود ، ثم موصلى ولنجميور ، وكلم من بناء العلوم النووية . ويظهر من بعدهم في القرن العشرين علماء كثيرون اسهموا في كشف اسرار نواة الذرة ، والانشطار النووى ، ومن بينهم « الووانس » صاحب المدفعية النووية الجديدة ، التي تحاصر نواة الذرة وتلك حصنها المنيع ، ثم اينشتاين وماكس بلانك اصحاب النظريات الجديدة في النسبية والكم .

والمتاد ان تظهر اهمية النظريات الجديدة والكشوف الجديدة بعد سنين عندما تنتقل من دور الكشف الى دور التطبيق . فنجد مثلا العالم الانجليزى هيشل فراى واضع قانون

(السبائك) ودرسوا تأثير الشوائب وتغيرها للأشكال البلورية واضعافها الروابط بين الذرات . فهذه الشوائب وجد انها تنتشر في بلورة الاشابة عندما يتعرض للاجهادات ، وان البلورة تفقد خواصها عندما تتكاثف فيها المواقع المشوهة بها وعند تعرضها لقوى صغيرة . ان العلم والتكنولوجيا قد تعاونوا في نشر مصورات بيانية لانتشار اماكن العيوب في البلورات . وقد ابتكرت الطرق لتحديد اماكن العيوب ومشاهده انتشارها في البلورة المفردة . تابع علماء الفيزياء وعلماء الفلزات هذه البحوث لايجاد حل مشكلة زيادة الصلابة للصلب . والمعروف ان الكميات الصغيرة من الكربون في الحديد الطرى تحوله الى صلب شديد الصلابة . كما وجد ان ذرات الكربون صغيرة الحجم تمنع ما يسمى التشويه الموضعي في بلورة الصلب . وان هذه خاصية لا تنفرد بها سبائك الصلب الكربوني ، بل تشمل ايضا عناصر اخرى توجد في الصلب . فيمكن استبدال الكربون بها في صناعة الصلب .

انتشرت هذه الافكار العلمية والتجارب العلمية وانتقلت من المعامل الى بيوت علم الفلزات (الميثالورجى) والى مصانع الحديد والصلب على مدى حقبة واحدة من الزمن . ان الفكرة العلمية تنتقل الى التطبيق العملى في مدة تتراوح بين سنة وعشرات السنين حسب الظروف .

ومن النوافع القوية للبحث العلمى البحث ،

وحدة الحرية والحاجة الموجهة . وهذا يتضح في قصة الطاقة النووية التي بدأت ببحث علمي نظري منذ عهد الاغريق لما ذكر ديموقريطس ان المادة تتكون من دقائق صغيرة لاتقبل التجزئة سماها ذرات Atoms . فهو واضح البنية الاولى للنظرية الذرية ، ثم تبعه علماء كثيرون الى ان جاء دالتون ثم ذوقوف . وضع الاول النظرية الذرية الحديثة ، وكشف الثاني الالكترون ، ثم عرفت أسرار النواة ومكوناتها ، فانقلبت البحث العلمى الحوالى

التكنولوجية بالكشف العلمى . وعلى الرغم من بلوغ بعض مجالات التكنولوجيا مراكز عالية قبل العلم البحث ، ومعرفة الكيمياء الحديثة والفيزياء الحديثة بر من طويل ، فان بناء الاحرام القديمة ، وصانعى الزجاج ، وصاهرى المعادن ، ومن شقوا حباب البحر في سفن من البردى ، ومن جاؤوا الفيا في دون مساهمة من العلم البحث ، كانوا على دراية ببعض العلوم الطبيعية في شكل بدائي وغير مرتب . ويقول البعض ان صناعة الزجاج وصناعة الصلب لم تعتمدا على القوانين الطبيعية عندما كلنا في مهدهما . ويقولون ايضا ان « جيمس وات » المخترع الانجليزى لم يكن يعرف قوانين الديناميكا الحرارية ، بل اعتمدت هذه البحوث والاكتراعات الحديثة احيانا على التجربة في المواد الطبيعية النافعة ، دون استخدام التحليل الكيميائي لها ، او دراسة قوانين . وقد سائر اهل الصناعة الاحتياجات والمشاكل التى دفعتم للعمل ، وعملوا على حلها دون الاهتمام بالعلوم الطبيعية النظرية . ومع ذلك ، لما تدخلت العلوم في الصناعة تحققت مكاسب مادية كثيرة ، وتغلغل افكار العلميين في التطبيق المستخلص من العلم ، حتى لم يبق شيء من العلم دون استغلال . فقد تطور التطبيق العلمى في السنوات الاخيرة بعمدلات كبيرة .

ولم يسر تقدم صناعة الحديد والصلب بهذه المعدلات الملهلة الا منذ السنوات الاولى من الخمسينيات من القرن التاسع عشر ، بعدما احتاج الانسان الى صلب قاس ، فابتكر عملية انتاج الصلب القاسى ، واستمرت محاولات الاختصاصيين من المهندسين والكيميائيين والفيزيائيين لا تقاوص وزن الصلب وانقاوص وزن الانشاعات والاقلال من نسب الشوائب الضارة والمدمرة لخواص الصلب الجيد . اننا بالصلب الجيد الذى يطابق مواصفات معينة نستطيع انقاوص عشرة او عشرين في المائة من اجراء الآلة من حيث الحجم . وقد ابتكر العلماء النظريون افكارا جديدة عن صلابة الاشابات

الكتيب، وقاس نشاطها الاشعاعي ورقة ورقة، ووجد شالته المشدودة . وجد معه صديقة « ايلسون » ان احدى نتائج الانشطار مادة مجهولة ، وكانت بالورقة الاولى ، تختلف تماما عن كل ما توقعاه ، فقد كانت عنصرا جديدا لم يعرف اطلاقا في الطبيعة وسمى « بليوتونيوم » وهو عنصر ابتدع ابتداء ، فكان اول عنصر صنعه الانسان ، ووضع بعد اليورانيوم في جدول مندليف . ثم انتج العنصر التالي وسمى « بليوتونيوم » الذى كشفه سيبوج سنة ١٩٤٠ وكان معه فريق من الزملاء اوتروال وجوزيف كيندى وماكيلان ، عندما قذفوا هدفا من اليورانيوم بالنيوترونات في سكيلون . وكان وزن ناتج من البليوتونيوم في هذه التجربة الاولى من الفسالة بحيث لم يتجاوز الجزئين من ملين جزء من الجرام . ولا يمكن ان يرى بعين مجردة . وكانت مشكلة جديدة . تكيف يستطيعون وزنها واذايتها وخطها ، وهى في نقطة من سائل ؟ ان هذه المشكلة تطبيقية تولدت من الاصل العلمى البحث عن اجل تحقيق هدف هو البحث عن اسرار الطبيعة .

وشد العلماء القرائح بحثا عن اماكن تخليق عناصر اخرى اقل من البليوتونيوم يصنعها الانسان بواسطة هذه التفاعلات النووية المستحدثة، فانكب بريس كنتنجهام ولوين فونر طرق دراسة كيمياء البليوتونيوم، فصنعا اجرة وادوات لمعالجة ومناولة الكميات الضئيلة جدا من المواد ، التى يقل وزنها من واحد من مائة مليون من الجرام . وصنعا انابيب شعرية ، تقيس حجوما صغيرة جدا من السوائل ، تبلغ جزءا من مائة الف جزء من اللتر . وادت هذه الاكتشافات والمبتكرات الى ظهور علم الكيمياء الدقيقة Microchemistry وقد استفيد منها في علوم اخرى مثل الكيمياء الحيوية والكيمياء التحليلية الدقيقة وبحوث الهرمونات وبحوث الوراثة ومعرفة خواص المبيدات الحشرية وتأثيرها في الخلية الحية ، وارتباط هذه التفاعلات بعرض السرطان .

البحث من اجل استخدام الطاقة النووية في اغراض حربية . وبعدما تحقق هدف الولايات المتحدة ، والنصر بعد القاء قنبلة هيروشيما الذرية ، وما تبعها على نجازاكي اتجهت بحوث الطاقة النووية الى الاغراض السلمية ايضا .

وعرف البروتون ثم النيوترون وابتكرت المدفعية الذرية . وكانت جامعة ايريكوفوم تبحث في دوما اماكن شطر نواة الليرة ، واستخدموا في سنة ١٩٣٥ مدفعا نوويا يطلق قذائف نووية هي نيوترونات تنبعث من الغاز المشع المسمى « رادون » وهو يشبه الراديوم في كونه يشع جسيمات ألفية (نواة الهليوم) موجبة الشحنة . أطلق جماعة فرمى قذائف مدفعهم النووى على مسحوق فلز خفيف هو البريليوم - الذى يشبه نوعا ما الألومنيوم - فكانت القذائف تصيب نواة البريليوم بمعدل ضعيف للغاية بلغ الواحد في المائة ألف ، وعندئذ تتحد القذيفة بالنواة وهو تفاعل نووى ينتج عنه ذرة كربون وينطلق نيوترون . كانت الجماعة تعرب حقا ان الليرة تحتوى النواة في الوسط وان أغلبها الساحق فراغ (٩٩٩ ٩٩٩ و ٩٩ في المائة من حجمها) وتتركز مادة الليرة في نواتها . ومن ثم فكانت النواة قيمة استثنائية (٢٤٠ x ١٢١٠ جراما للسنتيمتر المكعب) . وكان نواة الليرة حصن منيع يكاد يستحيل اقتحامه . ولكن فرمى ورفاعة أقتحموه وشطروا النواة ، وقامت بحوث عديدة في الطاقة النووية بعد ذلك . حاول « ادون هاكيلان » سنة ١٩٤٠ في بريكل بـكاليفورنيا قياس المسافة بين أجزاء الانشطار النووى لليورانيوم ، فاخذ كتيبا من ورق لف لفائف التبغ ووضع على اعلاه طبقة رقيقة من ثاني اكسيد اليورانيوم ، على الورقة الرقيقة الاولى وترك الاوراق الاخرى كما هي ، كي تكون حائلا يمنع انتشار كسرات تحطيم النواة الذى سوف يصيب ذرات اليورانيوم . ووضع الكتيب وغطاه اليورانيومى في هدف السيكلترون (معجل السرعة للجسيمات) معرضا الهدف لقذائف النيوترونات . وبعد ذلك فصل اوراق

علاقات تنظيمية :

يتوقف من يعمل في مجال علمي او في البحث العلمي قليلا عن عمله المعتاد ليتأمل ولو مرة كل اسبوع فيما قام به من عمل وما سوف يعمل في الفترة القادمة ، وما سوف يقرره هو وزملاؤه بشأن طرق المشاهدة والتجريب وما يجب ابتكاره من اجهزة قياس . ويضع الباحث التصميم لجهازه الجديد ويبحث به الى ورشة مركز البحوث لتنفيذ بناءه ، ويقتضي العمل في البحث العلمي بعض التغيير من ان الى آخر . ورئيس العمل هو الذي يحدد الوقت المناسب ليتخذ قرار التغيير ويقرر نوعه . ففي الابحاث الكيميائية ، يقرر الرئيس متى يغير طرق الفحص ، من قياسات بصرية او كهربية الى قياسات راديو سيكروسكوبية . ويحصل الباحث على نتائج قياسات ويوقعها بالرسم البياني في خطوط او منحنيات توضح النتائج بسهولة وسرعة ، وتشير الى اتجاه التفاعلات ، وتوحي بضرورة المراجعة احيانا للطرق المستخدمة او استخدام مواد جديدة .

والبحث يحتاج الى اموال . وعلى مدير المركز تدبير المال والقوة العاملة وتربية الاجيال ، التي تستطيع الاشراف على الاعمال الفنية والادارية ، وعليه ايضا المحافظة على استتباب النظام في خط موحد متناسق من حيث الانسام والافراد بالوحدة الواحدة ، وكذلك حسن الاتصال والتعاون بين خلايا البحث ووحداته بالمركز وبالمنشآت المعنية والمتصلة بالمركز . ويجب ان يعلم الباحثون ان الوحدات الصغرى ليست دويلات مستقلة ، بل اجزاء او اعضاء في جسم كبير هو مركز البحوث على المستوى القومي . وقد يكون عدد افراد الفريق نسي الوحدة صغيراً او قد يعمل الباحث بمفرده ، ومع ذلك يجب ان يوطد ارتباطه بشكل ما بوحدات البحوث الاخرى .

وتمايز الوحدة عادة بنوع او تخصص فريد ودقيق . ويلتزم بالسير في هذا التخصص

وقد ادى هذا التطور العلمي الواسع المدى الى اختراع الميزان فوق الدقيق للكميات الضئيلة من مركبات البلوتونيوم ، مثل الميزان فوق الدقيق الذي ابتكره الاستاذ المصري المرحوم الدكتور حامد البدرى وصنعه نسي ايرلنده ، ثم في الولايات المتحدة وهو الميزان المسمى فوق دقيق (Ultramicro — balance) الذي يزن مركبات البلوتونيوم بدقة بلغت 10^{-11} من الجرام . ونشر بحثه وطريقة صنع ميزانه في المجلات المتخصصة .

لما كانت غرب اوربا تترزح تحت سيطرة الفاشية في سنة ١٩٤٢ ، والحرب العالمية قد بلغت الذروة ، والنازية تستعد لغزو انجلترا ، وكانت غواصات اليابان تهاجم سفن الولايات المتحدة بالمحيط الهادي ، كان اليونانيون يجلب من تشيكوسلوفاكيا الى المانيا النازية في سرية تامة . وكان الماء الثقيل ينتج باقصى طاقة . وكان في الولايات المتحدة فريق من علماء الفيزياء يقومون بتصميم قنبلة نووية . وقد اتقضى على عملهم عامان كاملان . وكانت السرية تشمل بحوث البلوتونيوم ايضا . واقام مصنع في هانفورد بواشنطن لفصل البلوتونيوم على اساس انتاجي كبير اعتمادا على البحوث الاصلية التي اجريت على المستوى فوق الدقيق Ultramicro بطرق الكيمياء فوق الدقيقة . كان هذا البلوتونيوم اساس انتاج القنابل النووية . وكانت هذه التجربة التي مرت بها البشرية مثالا من امثلة الارتباط بين العلم والتطبيق . وهو سلاح ذو حدين ، فاما ان يسعد البشرية او يقودها الى الدمار .

ولعلنا نفكر في نتائج كارثة هيروشيما ، ونحد من استخدام الاسلحة النووية او نمنع استعمالها ، ونوقف استخدامها ونقصره على اغراض السلام .

وتوزيع مخصصات مالية على مختلف مجالات العلوم حسب ما وضع في الخطة العامة من أولويات . ولا يستطيع رئيس العمل أو رئيس مركز البحوث رسم الخطط التفصيلية كما يفعل مدير المصنع الذي يستطيع تقدير إنتاجه الشهري والسنوي في الميزانية التقديرية التي يلتزم بتنفيذها . فقد يطلب من كل معمل تقديم خطته السنوية . ولكن كيف يستطيعون بيان ما سوف يحصلون عليه من نتائج ؟ ليس من الصعب ان نحدد ما يعتمد القيام به من القياسات وما نحتاجه من الاجهزة والمعدات وما نود اجراءه من تجارب ، لكن الصعب تحقيق ما عزمنا القيام به ، فالبحث قد تراكم به اعمال نمطية مثل قياس درجة حرارة غاز أو كثافة سائل أو نقطة انصهار جامد . وقد يستطيع الباحث تقدير ما يحتاجه من الزمن لتصوير صورة بالأشعة السينية أو لرسم طيف خطي لمادة ، أو لاجراء عملية حسابية . ولكن من الصعب ان نقدر عدد الاسابيع التي قد يستغرقها العمل في بناء جهاز وفق رسم معين . ان البحث الاصيل دائم التغير والتطور، اما البحث الذي يعتمد على أعمال نمطية فليس بحثا . ولا معنى للبحث العلمي إلا اذا كان يكشف سرا غامضا من اسرار الطبيعة . والعمل التجريبي الناجح هو ما يستخدم فيه اقل ما يمكن من الاجهزة ويظهر اعظم ما يمكن من النتائج. والبحث الذي يبدو لنا لأول وهلة بسيطا وسهلا قد يتحول اثناء التجريب الى درجة عالية التعقيد. وبالعكس قد تبدو المشكلة صعبة ومعقدة ثم تحل بغاية البساطة والسهولة . انك تجد العلاقة بين الطاقة والضوء قد شغلت اذهان كثير من العلماء حتى حلها اينشتاين بالمعادلة البسيطة : $(ط = ك \times س)$.

(الطاقة = الكتلة \times مربع سرعة الضوء)

القراءة والبحث :

يقول كثيرون انه يجب على الباحث تنيع كل ما ينشر من المؤلفات العلمية والمقالات المتعلقة بالموضوع الذي يبحثه . ولكن يخالف

عدة سنوات بين الخمس والعشر سنين . اما اذا استمر العمل بها دون ما تمايز واضح لمدة عشر سنوات فان هذا يدل على كونها متوسطة الكفاءة وقليلة القيمة . ويمكن ان توصف بعدم استحقاق تسميتها وحدة في مركز بحوث كبير، بل يمكن ان تحول الى خدمة بعض الاغراض الجانبية أو المساعدات لوحدة اخرى، وبذلك تبسط وحدة اخرى سلطانها عليها وتستغنى.

وبدريه ان قائد الفريق يصدر قرارات بالخطة والخطوط العريضة التي يسعى بمقتضاها الباحثون في دراساتهم . وهو الذي يحدد اساليبهم بالمعاونة مع لجنة او جماعة صغيرة العدد من الباحثين القمام بالمركز . وقد لا يدل اسم وحدة البحث دلالة واضحة على نوع البحث الذي يجري بها ، بل يدل فقط على المجال العام له . ويجب ان تختلف وحدات البحث في خططها ومناهجها حتى ولو كانت تحمل نفس الاسم ، كما يجب ان تختلف ايضا في اساليبها وفي اتجاهاتها نحو التجارب العملية . فقد تركز معامل جهودها في انشاء اجهزة معقدة التركيب وابتكار طرق قياس دقيقة ، بينما تفضل معامل اخرى شسراء الاجهزة ، وتبذل جهدها في تشغيل الاجهزة ، وتفسير النتائج التي تحصل عليها بواسطة هذه الاجهزة . وقد تختص معامل اخرى بمعالجة مشاكل واسعة التشعب ، فيلزمها مختلف انواع الاجهزة والمعدات ، بينما تركز معامل اخرى الجهد في بحث تفاصيل مشكلة معينة .

وهناك عوامل هامة تشكل اسلوب الخطة والمتابعة في البحث العلمي . ومن بين هذه العوامل المراج الشخصى لقائد البحث وعقليته وانطباعاته بالنسبة للتطور العلمى الامم ومدى تأثيره بالتقدم في العلوم المتصلة بمجال بحوثه ، وتأثره باهتمامات الهيئات والمنشآت الصناعية في البلاد ابان الفترة الزمنية التي تجرى فيها البحوث . ويعتبر دور القائد حاسما في وضع الخطط ، اما دور الدولة فهو المراقبة والتحكم،

يكن « اقرا ، لا تمارض وتفند ، ولا لتؤمن وتسلم ، بل لتزن وتفكر » .

وكذلك اختلفت بعض الآراء عن الاتجاه العام ، بان معرفة اللغات الاجنبية ضرورية للباحث في العلوم . وعالم الكيمياء اعتقد ان معرفته الانجليزية والالمانية من اهم الضروريات . ولكن اعرف من العلماء « فيلهلم او ستفاله » الالانى الذى كان يؤمن بضرورة الاحجام عن دراسة اللغة الاجنبية لكنه كان يقصد اللاتينية لا اللغات الحديثة . اما « هيرت سبيشر » الفيلسوف الانجليزى المادى فكان يعتقد ان تعلم اللغات يزيد احترامنا للمرجع ويعوق نمو ملكة الحكم المستقل . واؤكد ان البحث فى العصر الحديث يستلزم اتقان لغة اجنبية واحدة على الاقل .

واعتقد ان من الطرق الحسنة في البحث التدرج في مراحل معينة مبتدئا بالقراءة فى المراجع عن ما كتبه السابقون عن الموضوع ، ثم تتبع آراء السابقين بنظريته فاحصة ناقدة ، ولها خطوة جمع حقائق ميدانية - اذا كانت الدراسة ميدانية - او حقائق في الموضوعات المتعلقة بالعلوم الطبيعية . وبعد ذلك تاتى مرحلة اجراء التجارب الاولى واختبارات الفروض اختبارا عمليا ، وبعدما نحصل على معلومات نعمل على تنظيمها وترتيبها وايجاد علاقات بينها ، ثم نربط هذه العلاقات ببعضها ونحدد موضوع البحث . ونحاول التساؤل والاجابة الذكية بواسطة الفكر والفروض والبيات الفرض بالتجريب المخطط ، ثم اختيار أكثر الفروض رجاحة .

هل نتمتع على الصدفة في البحث ؟

يتعرض الباحث لعوامل نفسية كثيرة فهو يلاحظ ويفكر ويفرض فروضا معينة ويحاول اثباتها بالتجربة . وهو يتصور ويستخدم خياله المبدع فيصمم النظم النظرية ، ثم يستنبط منها قوانين عامة . وهو يتأثر بدوافع نفسية كالفضول . وكثيرا ما يعتد على

بعض العلماء هذا الرأي . ويقولون ان كثرة الاطلاع امر غير حكيم وأن قراءة أعمال السابقين تضيق زاوية رؤية الباحث في مجال ما ذكر في أعمالهم فلا يتفقت الدهن عن (شطحات) جديدة ، ولا تظهر طفرات علمية أصيلة . ويجد آخرون القراءة الكثيرة في المجالات العلمية العامة المتعلقة ببحث المبتدئ . والغريب ان كثيرا من مشاهير العلماء والمخترعين لم يدرسوا دراسة نظامية في نوع تخصصهم الدقيق ومع ذلك احرزوا انتصارات رفيعة القدر . ومن امثال هؤلاء « لويس باستير » الذى اثبت خطأ نظرية التولد الذاتى وجرى تجارب التخمر الكحولى ، وكشف التعقيم المسمى « البسترة » وحل مشكلة انتشار مرض دودة القز ، ومرض كوليرا الدواجن ، وكشف التعقيم ضد الجعرة وداء الكلب . وهو مع ذلك كيميائى لم يدرس البكتريولوجيا ولا الطب . ويقول « بسمار » مكتشف طريقة لانتاج الصلب رخيص التكلفة ما نصه « كانت لى ميزة كبيرة على الآخرين ممن عاجلوا هذه المشكلة - اذ لم تتحكم فى فكرى افكار ثابتة مستمدة من خبرات معينة ومفكرة منذ زمن طويل ، بل لم اتعرض لضرر تلك المعتقدات السائدة بان ليس فى الامكان ابداع مما كان » .

وكان كلود برنارد مؤسس الطب التجريبي يعتقد ان ما نعرفه هو الذى يموتنا وليس ما نهله . ويقول « بيرن » لاكون مبتكرا حقا يجب ان اكثر التفكير واقرا قليلا . ولكن هذا مستحيل اذ يجب ان يقرأ الانسان قبل ان يتعلم التفكير . اما برنارد شو فيقول : « القراءة تعطى العقل » .

ليست هذه الآراء قوانين عامة ، لان القراءة من ضروريات التعليم وزيادة الحصيلة العلمية . وهى التى تعرفنا اساليب السابقين . وعلينا التأمل في أعمالهم ونقددها وعدم التمسك بالنظريات والافكار القديمة . يقول « فرنسيس

والواجب على الباحث اليقظة والاهتمام بكل ما يلاحظه . وليس الأمر مجرد حظ ، كما قد توهم ، فالحظ والصدفة ليست قوة غيبية تؤثر في مجرى الأحداث ، بل الحظ كلمة اخترعها الإنسان ليبرر فشله . والقدرة على الانتباه واليقظة وإدراك الانحرافات عن المسالك الطبيعية ، والانتفاع بما شاهدها من انحراف هي أسرار العقول الناضجة التي تستفيد من الأحداث العارضة . وقد تدهشك ملاحظات بسيطة أدت إلى كشف مشهورة ، والذي من يظهر مغزى ما كشفه ويربطه بالمعلومات الأخرى ويستخدمه في استخلاص معلومات جديدة . ان الصدفة نادرة الحدوث . ولا يجب أن نتمتع عليها وحدها في البحث ، فهي لاتأتيان بصورة دائمة واضحة الدلالة ، بل علينا أن نعمل بجهد ومثابرة ، والا نقتصر عملنا على اجراء تجارب تقليدية نمطية وأدوات تقليدية ، بل علينا أن نبتكر الطرق الجديدة والأجهزة الجديدة المناسبة لعملنا المتطور .

حساسية الملاحظة :

وكثيرا ما يحتاج الباحث إلى ملاحظة الأحداث الفريدة بما أوتي من حكمة وقدرة حساسة على الملاحظة وبقظة وتنبيه لكل ما يحيط به من أشياء محتملة أو غير متوقعة الحدوث ، وعليه تفسير الأحداث وإدراك أهميتها والاستفادة من التجارب الناجحة والفاشلة أيضا . لم يكن « **وليم هارفي** » أول من عرف وظيفة القلب كمضخة للدم . ولا « **أفوارد جنار** » أول من طعمَ بلقاح جدرى البشر ليحصن الناس من مرض الجدرى . ولم يكن **فاوون أول** من وضع فكرة التطور . ولا **كولومبوس أول** أوروبي رحل إلى العالم الجديد . ولم يكن **ياستني أول** من وضع نظرية الجرموسم للأمراض ، بل كلهم مطورون لأفكار قديمة ، وقد فرضوها علينا بقوة الإقناع والإيمان بصحتها في وقت إجماع الناس فيه عن قبول الفكر الجديد . ودافع هؤلاء من نظرياتهم حتى تقبلها الناس ، لكن من سبقوهم من العلماء لم يدانوا عن الأفكار الأصلية بقطاها النسيان ، كما طراهم .

معلوماته في علم تخصصه، وعلى التفكير والتأمل العميق وما تلعبه الصدفة في بحثه .

ان تاريخ العلوم حافل ببحوث لمبت الصدفة فيها ادوارا هامة . وسأذكر بعض الامثلة على اثر الصدفة في تسير دفة بحوث هامة .

توقف باستير اياما عن البحث في كوليرا الدواجن لما قام بإجازة . ولما عاد وجد مستنبتات البكتريا التي كان يربيهها قد أصيبت بالعم . وحاول انعاشها ولو جزئيا بحساء ، لم حقنها في دواجن . ولشد ما أدهشة عدم تأثير الدواجن بالحقن بالميكروب . وكاد يهمل هذه المستنبتات المستضعفة ، ولكن برقت فكرة في ذهنه ، فلحقها على الفور . تلح الدواجن ذاتها بمستنبتات البكتريا غير المستضعفة ، فقاومت الدواجن التلقيح البكتيري الجديد . وأدنت هذه المصادفة إلى كشف « **التحصين بالتلقيح** » بجراثيم بعد استضعافها .

وكان « **كريستيان جرام** » الطبيب الدانمركي ، يستخدم صبغة بنفسجية يعقنها بمعالجة باليود ، لكي يصيب نوى خلايا تبطن قنوات دقيقة في الكلية وتلونها باللون البنفسجي ، اما بقية الخلية فكانت تصبغ بلون بني . ووجد جرام أن الكحول يزيل اللون بسرعة بعد المعالجة وأن بعض أنواع من البكتريا تحتفظ بلون أزرق قائم ، بسبب تفاعل اليود مع الصبغة بطريقة لم تكن في حساب أحد ، لأنها كانت تتفاعل مع مادة توجد في أنواع معينة من البكتريا دون الأخرى . وكان ذلك بمحض الصدفة ، فاستنبط صبغة للبكتريا وكشف أيضا اختبارا بسيطا عظيم الفائدة يعرفنا أنواع البكتريا . وعلى أساس هذا الكشف صنفت البكتريا إلى بكتريا جرامية إيجابية Gram Positive وأخرى جرامية سلبية Gram Negative ولعبت الصدفة ادوارا أخرى في كشف **رونتجن** للأشعة السينية ، وكشف **فليمنج** عقار البنسلين المضاد الحيوى .

وقد يكون التفكير واعيا ومنظما أو حرا طبقا في مختلف الاتجاهات بغير ضابط . وقد يكون التفكير المنظم فعلا أو عديم الفعالية . فالمرء الذي يفكر ولا ينقد فكرته عندما تطرأ على ذهنه نقدا كافيا لا فعالية لفكره . وقد يتسرع في النقد والحكم ويتعرض للخطأ . وينتاب الفكر أثناء نقده فكرته بعض الشك ، ولذلك يجب أن يعمن التأمل والتفكير حتى يستطيع استخلاص النتيجة .

وقد يتعجل المفكر الحكم بعدما يفقد الصبر . والقلق النفسى هو الذى ينتابنا ونحن نشعر بالشك في الحكم . ومع ذلك فهذا الشك هو الذى يدفعنا الى التمحيص والاستقصاء . فكلما أمعنا الفكر ازداد احتمال وضوح علاقات جديدة ، تربط نواحي متعددة في موضوعات البحث فتظهر الأفكار مبتكرة ، وبخاصة اذا كانت حصيلتنا وخبرتنا وافرة ، وذكرنا تنوعه .

ان التفكير الواعى الوجه هام في البحث العلمى . وهذا ماينادى به الفيلسوف الأمريكى « جون ديوى » . ولكن من الفلاسفة أمثال هاردنج (صاحبة كتاب قانون الفكر الخلاق) (سنة ١٨٩٨ - ١٩٦١) أن كل المفكرين الخلاقيين حالون . وقالت من الاستغراق في الاجلام أنه يمكن الافادة من تركيز الذهن سلبيا على الموضوع بحيث يتابع تعاقب الافكار عند ظهورها ولا يوقفها الا عندما تكون غير مشتمة ، وتتفرع عادة على سجيبتها حتى تتمخض عن بعض النتائج النافعة .

ولا غرو فقد ذكر العالم الالماني ماكس بلانك ان الخطة الخيالية التى يحاول المرء بناء الفظام عليها لا تتفك ان تنهار ، وعندئذ يتحتم عليه تجربة غيرها . وبمثل هذا التصور والإيمان بالنجاح نصل الى ما لاغنى عنه . اما العقل وحده فلا مكان له هنا .

اما «جيمس كلارك ماكسويل» صاحب نظرية المجال المغناطيسى فكان من عاداته رسم صور

وتتمثل الادارة الذهنية في البحث العلمى في الفرض الذى يضعه الباحث ، لانه يفتح ابواب التجارب التى تقودنا الى كل جديد من مشاهدات تزيح الستار عن المجهول ، وتوضح الحقائق المستورة . ويجب علينا عدم الافراط بالتعلق باهداف الفرض رغم ما يناقضه من مشاهدات ، والا نحاول تفسير المشاهدات تفسيراً غير مقنع حتى تتماشى مع الفرض . ويجب علينا الانحكم على النتائج احكاما غير موضوعية ، بل ان نعدل الفرض ليتلاءم مع المشاهدات ، ثم نرسم خطة تجارب جديدة لمحاولة اثبات الفرض الجديد أو المعدل أو التطور . ويجب علينا التزام الحياد في البحث والابتعاد عن أى تعصب فكرى أو تمسك بفكار ونظريات القدماء مهما بلغ شأنهم ورسوخهم في العلم .

ويتعرض الباحث لخطر الالتزام بحماية فرضه من النقد والهجوم ، لان ذلك يؤثر فيه تأثيرا عاطفيا يوقعه في أخطاء في التفسير والحكم دون وعى . وكذلك قد يعرضه لخطاء في المشاهدة . ويجب عدم التقيد بالفرض الخاطيء أو الباطل ، والا نفرس المشاهدات بالتلفيق أو التصحيح ، كي يطابق التفسير تلك الفكرة الخاطئة أو الزائفة . فهذه الافكار موقلت مسيرة العلم مئات السنين ، مثل فكرة احتواء كل المادان على عنصر الزئبق ، ومثل نظرية العناصر الاربعة ونظرية الفلوجستون ، واكسیر الحياة وحجر الفلاسفة .

التفكير العلمى :

اننا عندما نفكر تفكيرا واهيا ندرك أولا وجود صعوبة أو مشكلة فتشعر بالقلق النفسى الذى يدفعنا الى محاولة حلها . وهكذا ينشط العقل ، وبمحص فكرة تنبثق في الذهن لحلها . وقد يقبل العقل هذه الفكرة أو يرفضها . ويعاود الكرة بافتراض أو اقتراح فكرة جديد وهكذا حتى يتوصل الى حل سليم للمشكلة .

ويحتاج الدهن الى استمراة تنبيهه كي يكون صاحبه من المفكرين او الباحثين عمن المعرفة ، وقد يكون ذلك عن تبادل الراى . وقد تمتزج الآراء والاكتار والمعلومات فتظهر فكرة جديدة بين اكثر من شخص . لم يكن فى الامكان استنتاجها بفكر شخص بمفرده . ويكشف النقاش عيوب العيوب والاطضاء ، وينعش وينبه الفكر ، ويحررنا من التفكير المقيد . ويعودنا النقد المخلص البناء والنقطة والاحترام بين الزملاء .

خطة البحث :

كان احد الاساتذة يستعد للقيام باجازته السنوية عندما كان يضع لمسائه الاخيرة فى بحث يقوم به احد طلاب الدراسات العليا للحصول على الدكتوراة فى علم الفيزياء الجزيئية ، فاخذ يعطيه آخر تعليماته لاجراء تجارب توضح كيفية نقصان سرعة عملية جزيئية فى بلورة جامد ما . وكانت هذه البلورات تأخذ فى الانحلال . وكان على الطالب ان يقيس معدل تناقص سير العملية الجزيئية وسافر الاستاذ وبقي طالب البحث بمفرده مع قياساته . ولما عاد الاستاذ اطلع على الرسم البياني للنتائج التى حصل عليها طالب البحث . وراعه انه وجد المنحنيات البيانية تتخذ اتجاها يخالف ماكان يتوقعه ، لانها لم تشر الى نقصان معدل سير العملية ، بل الى تزايدها أولا ثم تناقصه ، وكان البلورات معتاد العملية الجزيئية أولا ، ثم تأخذ بعد ذلك فى الانحلال . وقد ادى هذا الكشف الى وضع خطة جديدة للبحث وكشف ظاهرة جديدة اعتبرتها اضافة هامة فى فيزياء الجزيئات ، وحصل طالب البحث على درجة الدكتوراه بتقدير ممتاز .

ان خطة البحث فى العلوم الاساسية لاتثبت على حال بل تتعرض دائما للتعديل والتغيير .
وكلما ابتعد الباحث عن الخطة الاصلية اتت نتائجه بنظريات لها اسالتها وزورها فى العلم . والمعجب ان تطلب الهيئات الادارية فى بعض

ذهنية لحل المشاكل . وينفس هذه الطريقة اهتدى « كيكولى » الى بنية جزيء البنزين من صورة ذهنية لتمايين وجد ان احدها يمسك ذيله بغمه . ومنها ابتكر الفكرة ان جزيء البنزين على شكل حلقة ، فدارت صورة الثعبان فى مخيلته . ولما استيقظ من استغرابه ومضت فكرة الشكل البنائى لجزيء البنزين وميض البرق ، ولا يوجد غير الحدس الذى يساعد الشعور بوجود نظام ما وراء الظواهر . ان انتقال نبوت من التفكير فى سقوط التفاحة الى الارض الى التفكير فى سقوط القمر كان فى الواقع من الاخيلة الوثابة التى قادت الى كشفه قانون الجاذبية ، وكذلك وضع دالتن النظرية الدرية دون تجريب ، بل بالخيال المبسوع . وكان خيال السير همفردى ديفي غزيرا مما ادى الى كثرة كشوفه العلمية . وصلب الخيال فراى فى اعماله الفلسفية . فالخيال يحفرنا للعديد من العمل والتجديد ، ويبين لنا ما نطوره الجهود الجديدة من النتائج . فالاحداث والاكتار فى حد ذاتها لاحياة فيها ، ولا يبعث الروح فيها غير الخيال . ويندر ان تحل المشاكل بالخيال وحده ، وهو مصدر الهام قوى ، لكنه قد يكون خطرا على احكامنا واستنتاجاتنا اذا لم نخضعه لقيود ونظام . فهو دائما فى حاجة الى نقد وتقويم . ويجب الا نكبح جماع الخيال ، لانه ينقلنا من الواقع الى التجول فى غياهب وظلمات المجهول بفكرنا ، حتى نلمح وميض خافتا لمعلومات غير واضحة المعالم ، فاذا ما اخرجناها الى نور الحقيقة وفحصناها فى ضوء مالدنيا من خبراتنا نستزيد وضوحا ، اذا لم تكن سوى سراب خادع . فقد يتخذ الخيال اشكالا تخيب الامال .

وبدفعنا الفضول الى كشف العالم . ولا حد لفضول العلماء ، فهم يندفعون دوما نحو البحث عن الكيف . ويستعمرون فى بحوثهم منتقلين من نصر الى نصر اعل شائنا ، مفسحين مجال الرؤية فتنتفتح اذهانهم ، ويخرجون الافكار والنظريات الجديدة .

الطالب وهو على مفترق طريق حل المشاكل التي تصادفه في العلوم الطبيعية . انك تجد مثلا اسماءا هائلا وعميقا في بحوث الالكترونيات وفي فيزياء الجسيمات الاولى في السنوات الاخيرة . ونجد ان البحوث ليست من اجل كشف اسرار الطبيعة فحسب، بل اصبحت تهدف الى غايات محددة . فبحوث كيمياء الجزيئات العملاقة لم تكن لتبلغ الشأن العظيم الذي حظيت به ، اذا لم تهدف الى غاية معينة هي تخليق اللدائن ، التي تستخدم كبدايل لمواد تقليدية ، مثل المادان والالياف الصناعية . فقد زاد الاهتمام باللدائن منذ الاربعينيات من هذا القرن ، وزاد البحث في بنية الجزيئات العملاقة وعملية التكتيف الجزيئي والبلورة . ويمكن العلماء من الاجابة على اسئلة واستفسارات هامة من بنية اللدائن وخواصها والقوانين التي تحكم تخليقها وبناءها .

ويرغب الباحث في اشعار المجتمع بأهميته ونفعه لغيره . وان يحس باسهامه في حل مشاكل البلاد واثرا وليس آخرها المشاكل العالمية . فهذا الشعور الطيب يجعل الرؤساء في معاهد البحث يهتمون بتمويل معاملهم بالمال الوافر ليحصلوا على كل ما يمكنهم من بلوغ هذه الاهداف النبيلة .

الانتماء للعلم :

يتأثر الباحث بكفرة معينة تشده الى العلم وتحفزه للعمل والبحث الدقيق، ليسهم اسهاما كبيرا في تقدم العلوم ويرفع مكانة صاحبه . ان علماء الفيزياء النووية والكيمياء النووية مثلا قد علت مكانتهم لانهم مهدوا لنا طريق البحث في علوم اخرى عديدة خلقت علوم البيولوجيا النووية وكشفت اسرار العمليات الحيوية في اجسام الحيوان والنبات .

وقلما يرغب الباحث في العلوم الطبيعية التحول عنها الى العلوم التطبيقية . فهو كالفنان او كالمشاعر اذا طالبته بان يسلك مسلكا لاناسب

مراكز البحوث من رؤساء الوحدات تحرير استمارات نمطية تمهيدا لرسم الخطة السنوية العامة للمركز، وتطلب تحديد بيانات يستحيل ان يتمكن بها رئيس الوحدة ، مثل عدد الصفحات المزمع طبعها ، او عدد الساعات التي يستغرقها البحث ، او عناوين البحوث والنتائج المنتظرة . ان هذا امر مستحيل حتى لو كان البحث نظريا . فقد يقوم العالم بعمل نظري وهو في بيته او مكتبه ، ولا شأن للخطة بترتيب وقت الباحث . وقد يتمكن المركز من تحديد عدد صفحات كتاب علمي دراسي ، وليس من الحكمة التحديد في البحوث بهذا الشكل . ان الاكاديميات العلمية تنشر تقاريرها عن الابحاث الرئيسية التي تظهر فعلا ، وتقبل نشر مقالات لا تتجاوز صفحاتها عددا معينا وبها نتائج قد تكون استغرقت السنين من الجهد البدني والعقلي . وكمن بحث متوسط القيمة لا يساوي قراءته ! وكمن رسالة ضخمة بتصفحها الاستاذ فقط ولا يقرأها بعناية لأنها لا تستحق القراءة ! .

وينصح محررو المجلات العلمية بالابحاز في كتابة المقالات فلا يكتب بها غير المهم بالبحاز واضح . حتى لاتضيع المعلومات الجديدة الهامة في زحام الحشو الاجوف .

وتجرى البحوث في المعاهد وفي الكليات العملية تحت اشراف اساتذة لديهم الحرية العلمية في اختيار الموضوع ، ولو ان الافضل ان تعطى فرصة الاختيار لطلاب البحث .

والواقع ان الغرض الرئيسي من بحوث الطلاب بالدراسات العليا هو التدريب على اجراء البحوث واستخلاص النتائج، والتدريب على التفكير العلمي . وعلى الاستاذ القيادة والتوجيه والمعاونة والتدريب والمساعدة في وضع خطة عامة للمعهد او الكلية . ويتأثر المخططون بمطالبات العصر وهم يفكرون في اختيار موضوع بحث للبتدئين . وتأثر حرية الاختيار بمؤثرات نفسية ومادية تحت

متحدثين والى ضيوف من مختلف البلدان في حلقات البحث عندما يقرأون تقارير عن النتائج التي قام باستنتاجها الزملاء . ويتوقع المتحدث نقداً ، ويسمع نصحا . فقد يغير هذا النقد أو النصح اتجاهه ، فيخطو البحث خطوات واسعة وسريعة الى الامام .

وبعد ما تتاح الفرصة للباحث لتقديم أكثر من تقرير في حلقات المناقشة دون التعرض لهجوم أو تهكم ، أو أن يوصف بحثه بعدم الأهمية أو التفاهة ، فإنه يعتز بقدرته ويملاء الرضا والاعتزاز بالنفس فيستمر في عمله العلمي بكل اطمئنان وثقة .

ونحن ، المستمعين ، ندون ملاحظات من كل جديد مما نسمعه في هذه اللقاءات فتعكس هذه على اهتماماتنا ، وتوحى اليها باحتمالات جديدة في التطبيق العلمي . «الحق أنني اشفق على الباحث البتديء وهو يجمع المعلومات المنشورة عن موضوع اختاره للبحث» . ويتابع كل ما نشر أولا بأول ، وهذا كثير للغاية . كان علماء القرن الماضي يتابعون المنشور عن موضوعات بحثهم بسهولة في المراجع العالية التي كانت محدودة العدد . فكانوا يكرسون سويحات من وقتهم كل شهر للقراءة في أمهات المجلات العلمية ، وفي تقارير الجمعيات المتخصصة وكان للعالم فرصة طويلة ينتظرها حتى يأتي موعد العدد الجديد من المجلة العلمية . ان تلك الأيام قد ولت . والان اتسعت مجالات البحث وتمددت المجالات العلمية . وقد أصبح عدد الباحثين أو العلميين الآن يقدر بالملايين في العالم . وسوف يزدادون الى مئات الملايين في القرن الثلاثين . وندون جيوش العلماء نتاليج اعمالهم في مجالات علمية يبلغ عددها الآن قرابة الخمسين الفا . وليست صناعة نشر العلم متمركزة ، بل تعالج المجالات المختلفة نفس الموضوعات أحيانا في مختلف الدول . وتتداخل الموضوعات في أكثر من مجلة . وقد يكون لنفس الموضوع أكثر من عنوان مناسب . فمثلا يمكن ان ينشر مقال بعنوان : «دراسات عن طيف

ميوله رفض بكل اياه . ولمنة العالم الطبيعي قوة تدفعه وكأنها السحر ، تسرى في جسد صاحبها فلا يجد لنفسه خلاصا منها ، بل يشعر برغبة جامحة في الكشف عن المجهول تملا صاحبها رضاء وانسراحا .

ان حب المشرفين على البحوث العلمية قد يدفعهم الى اللجوء للتمويل عن طريق التعاقد مع دور الصناعة للعمل على حل مشاكل صناعية معينة ، ويستطيعون دعم معاملهم بالاموال التي تنفقها البيوت الصناعية راضية . ويستطيعون الى جانب البحوث الصناعية ايجاد الفرص المتاحة لاقتناء احسن المعدات والايهزة والحصول على كل المساعدات التي تمكنهم من السير في بحوثهم بالعلوم الاساسية ايضا .

الاتصالات العلمية :

ولا بد من اتصال العلماء ببعضهم لتبادل الافكار ، وهذا الاتصال يغذي البحث وينمي التفكير المنظم ويقوى النقد البناء ، وتعتبر الاجتماعات الدورية في مراكز البحوث والمعاهد وكذلك اللقاءات العلمية وما بها من حوار ومناقشات كالنسيج الضام لختلف خلايا الجسم الحي في كيان العلم . اما الباحث المنفرد او الذي يعمل مع افراد قليلي العدد فلا تتسع افكاره ، وعليه الاتصال بأخرين من المهتمين بالعلوم . ويتأثر الباحث الذي يعمل منفردا بخط فكري واحد ، قد يستر مجال رؤيته للاشياء الهامة يستار كثيف من الجمود الفكري فيسلك دروبا تضله ، وبتعمده من بلوغ اى نتيجة مرجوة ، او قد توصله الى شيء سبق ان كشفه وكأنه يدور في بحثه في حلقة مفرغة او يسير في طريق مسدود .

وقد يكون الاتصال العلمي بواسطة قراءة الكتب والمجلات المتخصصة ، ولو ان هذا لايقيننا عن الاتصال الشخصي ، فالراجع لا تنشر الا المحاولات الناجحة في البحوث والكشوف الجديدة . ونستمع عبادة الى

وتقبل المجالات المتخصصة في بلاد غير ناطقة بالانجليزية نشر البحوث فيها بالانجليزية .

ويتطلع العلماء الى استخدام آلات الكترونية لتزويدهم بالمعلومات . ويتوقعون ان المستقبل سوف يملك تفضط على زد ، وتوجه سؤالك للجهاز الالكتروني في ميكروفون صغير ، فيخبرك الجهاز بكل المعلومات التي يدخرها عن موضوع سؤالك ، ويكتب على آلة كتابة كل ما تريده من اسماء المقالات والؤلفين واسماء المجالات وأرقام الصفحات والتواريخ الى آخر هذه البيانات التي يهتم بها الباحث .

وتقوم المؤتمرات بتنسيق البحوث وتساعد على وضع خططها ، وتقدم هيئات علمية بالأعداد والتنسيق لأعمال المؤتمرات ، وتحدد مواعيد وأماكن انعقادها ، وتشكل لجنة للنظام لتقرر المكان والزمان وترسل الدعوات للمختصين من الأفراد والحكومات والهيئات ، وتطلب تقديم ملخصات للأبحاث التي ستعرض بالمؤتمر وتقرأ البحوث العامة أمام ما يسمى بالجمعية العمومية للمؤتمر ، ثم يفضل انعقاد جلسات فرعية متخصصة بالفروع المختلفة من العلم ، ويفضل أن يكون المؤتمر في مكان يحب الاعضاء زيارته ، حتى يقبلوا على الحضور ، فيضمن له النجاح . ويسعد الاعضاء بقاء زملاء لهم من مختلف دول العالم ويناقشونهم بقاعصات الاجتماعات وبقاءات غير رسمية خارج الردهات أو بالحديقة المجاورة ، أو أثناء الرحلات الخارجية ، التي يزور فيها الاعضاء بعض معالم المنطقة كالتماحف ، والمنشآت الكبرى . ويكتفى اغلب الاعضاء بقرائة التقارير العامة ويفضلون الجلوس في الردهات والتحدث مع الزملاء بدون جدول أعمال وبحرية كاملة عن موضوعات المؤتمر ومن غيرها من الاتجاهات الفكرية

الاشعة تحت الحمراء لبلورات الهيجولوين» . ان مقالاً بهذا العنوان تقبل نشره عدة مجلات علمية منها ما يختص بفيزياء الجوامد أو الفيزياء النظرية أو التجريبية أو علم البصريات أو الاطياف أو التصوير البلوري أو الكيمياء العضوية أو الحيوية أو الفيزياء الحيوية . اليس هذا كثيراً ؟ وكيف نستطيع متابعة مثل هذا الموضوع في مختلف المجالات وفي مختلف بلاد العالم المتحضر .

ان الطريق الوحيد للتغلب على هذه الصعوبة هو اللجوء الى قراءة الملخصات في مجلات مختصة بذلك ، فتدلتنا على الموضوع والؤلف ومكان النشر وتاريخه . وتصدر هذه المجالات دورياً وبها آلاف العناوين والخلاصات . وعلى الباحث ان يدون ما يترادى له من أسماء الموضوعات والؤلفين وأماكن النشر ، اذا كانت تهمة ، كي يرجع اليها بالتفصيل عند الحاجة .

وتمتد أحياناً حلقات المناقشة العلمية - كل شهر أو كل ثلاثة شهور - فيما ينشر من بحوث خلال الفترة . وتساعد هذه المناقشات الباحثين في أعمالهم وتعودهم على تقاليد المناقشة وأدائها . وتوجههم الى طريقة تلخيص أعمال الغير ، وتدريبهم على الكتابة العلمية . والمتحدث في هذه الحلقات لا يتعرض للهرج أو الإرباك لأنه غير مسئول عن ما يعرضه من نتائج وأفكار ، فالمسئول هو صاحب البحث نفسه وهو عادة غريب من حلقة المناقشة .

وتزداد متابعة البحوث المنشورة صعبة من عام الى آخر بسبب التقدم السريع في العلوم . ومن الصعب متابعة كل البحوث بشتات اللغات ، ومن لم يهتم اغلب الباحثين بنشر بحوثهم الأصلية باللغة الانجليزية لكترة انتشارها بين رجال العلم في العصر الحديث .

المعاصرة ، ويتبادلون الآراء والأفكار والنقد . وبعد عودتهم الى اوطانهم يتراسلون ويتبادلون التهانى بالاعیاد ويتبادلون الرسائل العلمية المنشورة .

الوالدان والتوجيه العلمي

نعرف كلنا علم الوراثة الذى وضع قانونه الاول جريجورى مندل . ونعرف كيف عالج هذا العلم انتقال الصفات الوراثية من الوالدين الى الابناء والاحفاد . ويتحدث العلماء المحدثون عن علم جديد من العلوم البيولوجية يسمى علم الوراثة الجزيئي . اى انه علم يبحث فى التركيب الجزيئي لحامض النووى ومشتقاته الكيميائية، ومن بينها الحامض النووى الدياكسى ريبوزى المسمى بالحروف الاولى من اسمه باللاتينية (د ن ا) DNA ، والحمض النووى الريبوزى المسمى بالحروف ر ن ا (RNA) فقد تعمقت بحوث كيمياء نواة الخلية الحية : حتى تناولت سر شفرة الوراثة، وتطلع العلماء الى يوم نستطيع فيه فحص الخلية الحية بالميكروسكوب الالكترونى وغيره من اجهزة سوف تبتكر ، فنرى التفاصيل المتناهية الدقة بداخل الكروموسومات (حاملة الصفات الوراثية) فنقرأ بها صفات ابناء المستقبل من بنية الجزيئات العملاقة التى بالخلية ، ونستنتج ماسوف يشب عليه ابناءنا من صفات وميول وقدرات وراثية حتى نستطيع تحديد نوع التعليم المناسب لهم . ولكن هيهات ان يتحقق هذا الحلم البديع ، فالشخص بعدما يتم تشكيله قد يسلك مخالفا لصفاته المكتسبة وراثيا . ونحن نعلم ان التعليم والتدريب يغيران طبائع البشر . انك تستطيع ان تدرب حيوانا على السير على رجلية الخلفتين فقط ، او ان تدرب لاعب السرك على السير على يديه ، راسه الى اسفل ورجلاه الى اعلى، ولكن هذا السلوك يخالف طبيعة الحيوان او

طبيعة لاعب السرك . ولا اعتقد ان احدهما يستمتع كثيرا بهذا المسلك الشاذ . ولكنه قد يسلك مسلكا يعيل اليه من تلقاء نفسه ، فاذا اردنا تحديد افضل عمل يناسب شابا فعلىنا مراقبة تصرفاته ومسلكه ، وهناك بعض الاختبارات السلوكية التى نتعرف بها على الميول الطبيعية ، ونسمع من ام من الامهات ان ابنها سوف يكون عالما لانه كثير الاكتئاب على الكتب . ان هذا رأى سطحي ، فالقراءة لا تعنى الكثير بالنسبة لتكوين الشخصية . وقد تقول ام اخرى ان ولدها اجتماعى ، يحب الناس ، ولا يطبق الوحدة ، بل دائم الاختلاط بأقرانه فقد يكون هذا المسلك نقطة بداية تنم عن ميوله الطبيعية . وقد تكون قوة الملاحظة غير واضحة في طفل ولكن تظهر فيه الصفة الهامة بوضوح اذا ترك وحده ليفكر ويتأمل ، فاذا احب هذا الطفل التأمل فقد يصلح لان يكون عالما . ويجب ان نتيج الفرصة له ليستمتع بالالعاب الرياضية والاشتراك في المباريات واللهو البريء الى جانب العمل حتى يستطيع ان يكون من اهل العلوم التطبيقية ، كان يكون طيارا او مهندسا . اما الذى يظل منفردا مع كتابه ، او مع جهاز لاسلكى قديم ، او ماشابهه من اجهزة ، ويستمتع بهذه الوحدة فيجب ان يشجع على هذا الانفراد بالكتاب او بالجهاز ، حتى يتدرب على التفكير الحر ، فعالم الجيل القادم يجب ان يكون حر التفكير ، محبا لمعرفة حقائق الاشياء ، ومستقصيا للتفاصيل . ان فضول الطفل يدفعه الى التساؤل عن اشياء كثيرة ، ولكنه عندما يتدرب على التعامل والتفاعل مع البيئة تنقص تساؤلاته بالتدريج . اما اذا لاحظنا استمرار فضوله وازدياده فان هذه علامة طيبة يجب تشجيع انماها بالاجابة على اسئلته ومنحه فرص التفكير . واذا لم يستطع الوالدان الرد عليه باجابة صحيحة فانه سيبحث عن الاجابة

اتجاهه العلمى سوف تؤدي ، ولا ريب ، الى بلوغ الغاية ، والوصول الى مكانة مومقة في العلم . ان مثل هذا الشخص الذى يبدأ متوسط القدرة ، ثم يكرس الجهد ويصمد سوف ينتج ويبدع وسوف تكون متعته بالإبداع العلمى اكبر مئات المرات من مساهمته الفعلية في العلم .

ويجب ان يلاحظ الوالدان صفه اخرى في ولدهم ، فيجب ان يكون مجباً للتفكير المنطقي الواضح ، وان يكون قوى الذاكرة . وهاتان صفتان قد لا تظهران بجلاء أثناء الدراسة اذا كانت المدرسة ضعيفة .

ويكون الطريق العلمى للفتى والفتاة مامون العواقب اذا نشأ الفتى في اسرة اكااديمية وكان اصدقاءه من اوساط تقارب وسطه ، واهواؤهم ومشاربهم متشابهة . ان العصر الحديث يتعمش الى الاستزادة من دراسة العلوم ، وإلى الشباب الراغبين في الدراسات العليا ، ومستقبل هؤلاء تحددته الجامعات ومراكز البحوث . والمهم في تشكيل هؤلاء قوة الاساتذة بالكلمة والمثل والعمل ، فالمحاضر الضعيف او الخالى البال من العلم قد ينفر الطالب عن العلم ، ويأبى المعلم بعد البيت في العلوم الطبيعية ومعرفته رغباتهم ومواهبهم ، ويمكن اظهارها في المقابلة الشخصية بين الطالب والاستاذ ، وكذلك باختبارات نفسية والتدقيق الشديد لمعرفة جهد المرشح ومثابرته .



ولا تخلو حياة من يكرس نفسه للعلم من الآلام والامال والطموح . وقد يعمل باحث في نفس الموضوع الذى تعمل انت فيه ويحصل على نتائج اكثر دقة من نتائجك وينشرها قبل

الصحيحة بنفسه لدى الجيران او الاصدقاء او في كتاب ، فاذا لم يجد الكتاب المناسب ، فانه يبدأ التأمل وتصور اجابة يفترضها ، ثم يحاول التحقق من صحتها بالفحص ويطرق من ابتكاره . ان التأمل والفضول سمتان من سمات محب العلوم ، ودعامتان لمن يود ان يكون عالماً .

وبعد التأكد من ان الصغير يصلح ان يكون عالماً ، ياتي دور التعرف على المجال العلمى الذى يناسبه . وقد لا نجد اختباراً يمكن ان يجرى لتعرف منه اى نوع او فرع من العلوم انسب له . ايصبح رياضياً او فيزيائياً او كيميائياً او مؤرخاً ؟ ان اختيار مهنة التخصص تجيء عادة بمحض الصدفة . ومع ذلك ينقسم الافراد حسب ميولهم الطبيعية الى اقسام مختلفة . فاذا كان الشاب يهتم بقادرات الناس والعلاقات الانسانية او يركز الانسان في المجتمع او بالحياة الروحية للافراد المخلصين له في المجتمع ، فان هذا يشير الى حسن استعداده لان يدرس العلوم الانسانية ، اما اذا كان يهتم بطرق صناعة الاشياء ، وكيفية استعمالها فان هذا يركبه للسير في اتجاه دراسة العلوم التطبيقية ، اما اذا كان يهتم بالطبيعة ذاتها فان ذلك يؤهله للدراسات الاكاديمية ، وان يختص في العلوم الطبيعية كالفيزياء او الكيمياء او الفلك او الجيولوجيا .

وقد يشك الوالدان في مقدرة ابنهم عندما يبدأ مهنة معينة ، لان مقدوره متوسطة ، ولكنه شديد الرغبة في دراسة العلوم . والواجب في هذه الحالة عدم مقاومة رغبته ، بل علينا ان نبذل قصارى جهدنا لنحبب العلم ، فسوف تظهر القدرة نفسها متأخرة قليلاً حتى لو كانت متوسطة او اقل من المتوسطة . لان تكريس المرء لعمله وحبه له ، وقوة ارادته وصموده في

المعرفة في طفل معاصر . فإليك تجد بين فلاسفة اليونان، أرسطو وديوقريطس ، ونجد التفكير البسيط الواضح في فلسفة ديوقريطس يقارب في روحه فكرنا المعاصر . لكن لارسطو انموذجا آخر في الفكر ، كانت الثقة في المعنى الداخلي للكلمات التي يقوم على أساسها تفكيره ، كما تميز عقلية بريئة لطفل . وكانت فيزياء أرسطو لاتتجاوز في نظرنا كونها قراءات قديمة . ويمكن استعمال افكار ديوقريطس ، الى حد ما ، من بناء المادة وكأنها عرض جديد لأساس العلم .

وقد احتضنت المسيحية تعاليم أرسطو غير مرتبة ، واستخدمت المنطق والبرهان في العلوم الدينية التي ظلت متمسكة بالمذهب القومى - الذى وضعه الإيطالى توماس اكويناس - ممثلا أساسا دينيا لدى الروم الكاثوليك . وأحيا الناس الفكر اليونانى القديم وطبقوه في مجالات لا تمت بصلة للدين .

وجاء عصر النهضة في أوروبا وحول الفكر من الأمور الدينية الى دنيوية تتعلق بالانسان وسميت الدراسات الفكرية « بالإنسانيات » وانطلقت روح البحث في القرن الثالث عشر واصطلحت الآراء الجديدة بالمعتقدات القديمة ، وكسب الفكر الجديد الحركة رويدا رويدا محمولا على أجنحة الفكر المستنير الى القرن السابع عشر فالثامن عشر ، بعد ازدهار الافكار الجديدة . وكان علم الفلك من العلوم القليلة التي لم تهمل أبان عهود الظلم والظلام ، وزبما كان هذا بسبب حاجة رجال الكنيسة الى علم الفلك في التقويم وتحديد مواعيد الاعياد ، أو لافتقارهم في رؤية الطالع . ولما فجر القرن الخامس عشر بنور العلم والاختراع واخترعت آلة الطباعة ، وترجمت التوراة وطبعت ، وترجم بربايخ Purbach كتب بطليموس في سنة

أن تقوم أنت بنشر إبحائك . وهذا يضع قيمة عملك وجهلك . وهذا مايعانيه كثيرون ممن يتلکأون في النشر ، اما لتشككهم في أعمالهم أكثر مما ينبغي أو لعدم قدرتهم على صياغة نتائج أعمالهم في شكل قابل للنشر . أن هذا الضياع الذى يشعر به من فاتته فرصة النشر يصيب صاحبه بالصدمة ، لكن الصامد هو الذى يتحمل الصدمة ويثابر ويعاود البحث حتى ينبج في كشف جديد . وعندئذ لايمكن وصف مايناله من السرور والانشرح والرضاء عندما يظهر بحثه الجديد بصفحات إحدى المجلات العلمية واسمه تحت عنوان الموضوع ، يشير الى قدرته العلمية ، وكأنه ينادى صاحبه ، ويهتف له مشيدا بجهده الذى كرسه ، وفكرة المستنير الذى أدى الى هذه النتائج المنشورة . ومع ذلك ، قد لا يشعر به زملاؤه ، بل وقد لاقدرون جهده ، وربما لايلاحظون مائشر اطلاقا ... وتمر سنوات قليلة . ويظهر اسم صاحب هذا البحث بالمراجع العلمية . ثم تتكاثر الاسادة بنتائج البحث ، فيحس صاحبها بالاعتزاز ، لان الناس يقرأون اعماله ، ويستفيدون منها ، والإنسانية تستفيد من عمله . عندئذ يحس الباحث بإسهامه في تقوية جبهة العلم وبالسعادة كل السعادة التي تفر كل مشاعره .

• • •

مع تاريخ العلوم

يتحدث علم الجين من مبدأ استعادة جين انسان تاريخ تطوره Recapitulation عبر ملايين السنين موضحا التطور من نقطة لعلقة ، الى أن يبلغ طور الانسان سيد الكائنات جميعا . وطبيعي أن أحاول فأقارن تطور الفكر منذ أيام الإغريق القدماء إلى عصرنا الحديث بتطور

العصر الحديث ، التي تعتمد على مشاهدة الظواهر وتفسيرها بوصفها أولا . واهمل جاليليو سبب حدوث هذا النوع من الحركة او ذاك ، وكان ما يعنيه هو التساؤل عن كيفية حدوثها ، فالمشكلة ليست في تفسير الحركة ، بل في وصفها . وكان يبدأ بالملاحظة لم يستنتج منها التعميم او البديهيات ، بدلا من طريقة القدماء الذين كانوا يبدأون من عموميات مفترضة . وكان يعتبر المشاهدة العملية الاساس لكسب المعرفة ، وقال الا قيام لتعميم الا بتكرار الفحص للاحداث ، واعادة فحص النتائج بتجارب اخرى من انواع جديدة . وان التعميم لن يكتمل الا اذا صلح في كل الظروف ودعمته ملايين المشاهدات دون استثناء . فلو حدث تناقض واحد بين هذه الملايين فان ذلك يستلزم تعديل الاستنتاج . فالشك يصاحب كل نظرية بقدر معين ولو بنسبة ضئيلة ، ولا يقين تام مهما بلغت اعداد التجارب من الكثرة .

وقد اصبح مبدأ عدم التاكيد (Uncertainty) حجر الزاوية في الفلسفة الحديثة ، التي لا تدعى الصدق الكامل ولا الشك التام ، بل ان منتهى الصدق يخلو من المعنى ، اذ لا توجد ثمة طريقة تجرى المشاهدات فيها باعداد كافية بلوغ الصدق المؤكد حتى يصبح في منتهاه .

وعلى الرغم من اعتماد العلوم - الفلسفة الطبيعية الجديدة - على المشاهدة والاستنتاج فهي في الواقع فلسفة ، وتمنع الجامعات درجة الدكتوراة في الفلسفة في مختلف العلوم كالرياضيات والكيمياء والفيزياء والفلك والاحياء . ويتسم هذا العصر بمبدأ التعاون والاتصال بين العلماء. ولم يكن التعاون واضحا في فلسفات القرون الوسطى بل اعتمد كيميائيو

١٤٥٠ ، وتمكن الراهب البولندي كوبرنيكوس من دراسة الكواكب ، هاله ما رآه في المريخ من التقلب الكبير في حالات اشرافه باوقات مختلفة، ولم يانس لما كتبه بطليموس عن النظام الفلكي الذي يقول ان الارض مركز الكون ، وان الشمس والكواكب تدور حولها . واحسن بعدم توافيق قول فيثاغوراس وأرسترخس مع ماشرهه شخصا فزعم ان الشمس هي التي في مركز الكون وليست الارض ، وان الكواكب ومن بينها الارض تدور حول الشمس . اهل الناس نفس هذا الزعم، الذي زعمه فيثاغوراس وأرسترخس من قبل ، لانهم كانوا متمسكين بآراء بطليموس حتى جاء كوبرنيكوس وايد زعمهما . وكان نفوذ الكنيسة قويا جدا . وكانت عقيدتها تقتضي ان تكون الارض موطن البشر ومركز الكون وان تكون ساكنة . وحاول كوبرنيكوس طبع كتابه ونشره ، لكنه خشي المصادرة وخاف من العقاب . وكيف لا يخاف وقد كان اسقفا متدينا ورعا ، وعالما يعرف معنى الحرية ، فرغ كتابة الى البابا . وكتب في مقدمته .. « ارفع بحثي هذا في موضوع اقدمه الى قداسكم ثم الى اعلام الرياضيين ليحكموا عليه ... »

وتزعزت بديهيات افلاطون في القرن التاسع عشر على اثر تحديات علماء الرياضة كما اثرته اعمالهم في الفكر العلمي عندما ابتكروا « هندسة لا افلاطونية » مفترضين فروضا جديدة . فاصبحت العلوم الحديثة تصدر العالم بشكل عقلاني . وثار جاليليو ثورته (سنة ١٥٦٤ - ١٦٤٢) على الفلسفة القديمة . واسس علم الفيزياء الجديد على اساس التجريب . ولكنه لم يتم يقينا بتجارب عملية ، الا انه وصف التجارب الممكنة . واستخدم الطريقة العلمية التي نستخدمها في

تلك القرون على التضييل احيانا في كتاباتهم في الكيمياء القديمة ليحتفظوا لانفسهم باسرارها .

وظهرت جماعات وجمعيات علمية في القرن السابع عشر في اوربا واهمها (الجمعية الملكية) بلندن التي بدأت بجامعة من المولعين بالطرق العلمية التي اقام جاليليو اساسها وكان اعضاؤها علماء قد سبقوا عصرهم ، فلم يحفل بهم معاصروهم في اول الامر ، حتى ظهر الفيلسوف الانجليزي السير اسحق نيوتن (سنة ١٦٤٢ - ١٧٢٧) وابدع اعمالا اصيلة غيرت مفاهيم الناس وثبتت وعيهم العلمى . فقد اعلن قوانين الحركة المعروفة باسمه وكشف قانون الجاذبية العالمية . فاخلد الناس بعمدا الاعتماد على التجربة والملاحظة والتحليل . ونبدوا اثبات النظريات بالجدال والنقاش المتمد على الالفاظ ، وتطورت العلوم التجريبية وتداخلت وتشابكت ونمت على مر الاعوام حتى اصبح العلماء يؤمنون بالتخصص الدقيق الذى فرض نفسه على العلم الحديث . واستخدمت المعادلات الرياضية في حساب حركة الكواكب ومواعيد ظهورها وامكانتها . وكان في مقدمة هذه البحوث حسابات « اوبان ليفريه » .

وقد كانت حركة الكواكب قد حسبت وافقت مع المشاهدات الفلكية ووصلت الكواكب فى مواعيدها المحسوبة بالدفقة الا **يوراثوس** الذى لم يخضع لهذه الحسابات ، بل حاد ايضا عن قوانين نيوتن . واعتقد ان هذا اليهود غير معقول ، وكانت الثقة كاملة في تلك القوانين ، بعد ان اكدها التجارب العديدة . وكانت الطبيعة لا تزال تخفى سرا من اسرارها .

وربما كانت من الصغر بحيث لا يؤثر في الكواكب الا بعد منه عن يوراثوس ، واعتبر انه يقع الى جوار يوراثوس ، ويؤخر وصوله في المياد . واذا صح هذا الفرض لنشأت مشكلة عكسية ، ولا يمكن حساب بُعد يوراثوس عن مساره الموصوف بالمعادلات التفاضلية . فهو ينحرف نحو اليسار عند تقطع بعينها ، ونحو اليمين عن تقطع اخرى . وحسب ليفريه مسار الكوكب المزعوم . وعين وقت ظهوره ، ومكانه في السماء . وفعلا كشف في الزمان والمكان المحددين - في سبتمبر سنة ١٨٤٦ وانضم نبتون الى المجموعة الشمسية . وكانت هذه الواقعة من اتسع صفحات التنبؤ العلمى المستقبل . واثر هذه الواقعة في نفوس العلماء في جيل ليفريه . وكان طبيعى اجراء بعض التعديل في قوانين الحركة التى وضعها نيوتن ، واعتقدوا بوجود ظواهر خفية فى مجالات اخرى من الفيزياء كالصيريات تحتاج من يعيط عنها اللثام . ومع ذلك ظن بعض الفيزيائيين ان علم الفيزياء قد اكتمل ولم يعد به مجال للبحث عن اى جديد .

وضع الفيلسوف الفرنسى ديكارت مفهوم « الاثير » الذى يقول ان الطبيعة لا تحتوى اى فراغ بل يتغلغل الاثير في كل شئ وينتشر بكل الارجاء . ونوقشت نظرية الاثير وافترض العلماء وجود انواع معينة من الاثير . يختلف الظواهر ، فمثلا اثير كهربي وآخر ضوئي . وهذا فرض يناقض القوى الكهرومغناطيسية اللحظية الانتشار .

وتعاصر الفيلسوفان نيوتن وديكارت وجاء معهم **ووبرت بويل** (سنة ١٦٢٧ - ١٦٩١) المعروف بقانونه المشهور الذى يمالج مسلك الغازات من حيث الضغط والحجم . ومالج

وفكر **لفريه** ، وقال باحتمال وجود كوكب مجهول ، يسر في فلك أبعد من يوراثوس ، ولم تدخل جاذبية هذا الكوكب في الحساب .

حتى انجب مولودا جديدا اضيف الى تاريخ العلوم . هو السير همفري ديفي (سنة ١٧٧٨) الذي صار استاذ الكيمياء بالمعهد الملكي بلندن في مطلع القرن التاسع عشر . عاش ديفي في اسرة رقيقة الحال . ولكنه كد وكافح لاعاشة اسرته . وتعلم الصيدلة والجراحة لدى صيدلاني عمل لديه وعكف على الدرس والتدقيق والاستفادة . ولخص كتبا كثيرة ، ودرس الكيمياء والفيزياء ودرس ابحاث نيوتن . وقرا كتاب «اصول الكيمياء» الذي وضعه لافوازييه . وفحص ما به من علم بالتجربة وبحث الحرارة والضوء والاشتعال والاكسجين والخواص المخدرة لأكسيد النتروز . وحلل الماء بالكهرباء والبتان الماء يتكون من الاكسجين والهيدروجين وكشف الفلزات القلوية، فهو كاشف البوتاسيوم والتحليل الكهربى ، كما كشف عناصر اخرى بنفس الطريقة ، مثل الاسترنتشيوم . والباريوم والكالسيوم والمغنسيوم . وابته ان الكور احد العناصر بعدما كان يعتقد انه احد مركبات الاكسجين . ودرس خواص اليود ، وتعاون مع فراى فى اسالة الغازات ، وكان فراى (سنة ١٧٩١ - ١٨٦٧) ابنا لحداد متنقل وعاش في فقر مدقع ابان الضائقة الاقتصادية الشديدة التي حلت بانجلترا . ولم يتعلم بالمدرسة بل كان يقضى اوقاته لاهيا بالبيت او الشارع . ولما بلغ الثالثة عشرة من عمره كان يساعد احد بائعى الكتب ، وتوصل الى الصحف للمشتريين . وتعلم تجليد الكتب . قرأ الكثير منها واستمع الى محاضرات عامة عن الفلسفة الطبيعية . رحل الى اوروىا بعدما الحق بالمعهد البريطانى معاونا وامينا للسير همفري ديفي . وتصادق مع اعضاء الجمعية الفلسفية . وسافر مع ديفي في رحلة الى اوروىا (سنة ١٨١٣ - ١٨١٥) وعرف علماء كثيرين واطلع على ابحاثهم في الكهرباء مثل

بويل الكيمياء من ناحية فلسفية ووضع كتابه « الكيمياءى التشكك » *The Sceptical Chymist* اوضح فيه خطأ مدرسة المشائين ، التي كانت تعتمد على فلسفة ارسطو ، والتي حكمت الفكر في اوروىا طوال القرون الوسطى . وظلت تؤثر فيه حتى القرن السابع عشر ، وكذلك خطأ مدرسة ليوفرانوس التي انشأها هذا العالم القديم في القرن السادس عشر وهو المسمى باسم الشهرة « براسلسوس » . ونادى بويل بالاعتماد على الممارسة والتجربة .

وظهر في القرن الثامن عشر القس الانجليزى يوسف بريستلى (سنة ١٧٣٣ - ١٨٠٤) كما ظهر العالم الفرنسى لافوازييه (سنة ١٧٤٣ - ١٧٩٤) قبيل اندلاع الثورة الفرنسية . عاشا وسط احداث جسام . دافع بريستلى عن الثورة الفرنسية ، وهاجم الخطباء والكتاب الذين عارضوه في انجلترا فاقتحم الجمهور داره ، ومزقوا كتبه وحطموا ادواته ودمروها . وهو العالم المبقرى مكتشف الاكسجين واكاسيد الازوت وصاحب البحوث القيمة في كيمياء الغازات . وكاشف ماء الصودا ومحضر كلوريد الهيدروجين من ملح الطعام وزيت الزاج . اما لافوازييه فقد عاش في باريس بين الجماهير الهابجة . وكان يجرى تجارب بالوزن والقياس والملاحظة والاستنتاج فكشف نظرية الاحتراق وهدم نظرية الفلوجستون . فر بريستلى من انجلترا ، اما لافوازييه فقد لاحقه الحاسدون واوقفوا به ، وحوكم محاكمة سريعة واطاحت القصة برأسه ، وكان اعدامه من افظع ما قامت به الثورة الفرنسية .

ولما هدم لافوازييه نظرية الفلوجستين واقام مكانها نظرية الاحتراق ، نفخ في العلم روحا جديدة . وما كاد ينتهى القرن الثامن عشر

تعلم الفيزياء ونشر بحوثه المعروفة من ما سمي « كمات الاشعاع » Radiation Quanta التي اصبحت اساس الفيزياء الحديثة ، وحتى اللورد كلفن الفيزيائي الانجليزي الموهوب شبه علم الفيزياء بعمارة كاملة بديمة . وقال ان سماء الفيزياء لم يبق بها سوى غيوم قليلة ستنتشع سريعا وتترك السماء صافية في القرن العشرين .

وكانت غيوم سماء الفيزياء في زعمهم ثابت سرعة الضوء وهي حقيقة كشفها بالتجربة مايكلسون Michelson ثم ظهرت النظرية النسبية من بين حجب الغيوم المزعومة . اما الكشف الهام الاخر فهو العلاقة بين طاقة الاشعاع وطول موجته ، وهي نظرية تنبأ بان المنحنى الدال على هذه العلاقة يستمر في اتجاهه صاعدا ، فكلما نقص طول الموجة زادت طاقة الاشعاع الى ان تصل في النهاية الى ما سمي « الكارثة فوق البنفسجية » . ولكن الرسم البياني العملي دل على خط منحنى ذى سنام ، فبعد بلوغ طاقة الاشعاع نهاية قصوى من الارتفاع تأخذ في التناقص بنقص طول الموجة . وقد انتجت هذه الظواهر « فيزياء الكم » وهي العلم الذي ينسب الى واضعه العالم الالماني ماكس بلانك الذي نصح بالا يتخصص في الفيزياء .

الفرنسي امبير والانجليزي ولستون فلدس الكهرياء وكتب فيها كتابه « تاريخ البحوث الكهرومغناطيسية وتقدمها » واعلن نظريته عن المجال الكهرومغناطيسي معتمدا على اساس متين من الايمان بالاثير . ولكن ما هو الاثير في اعتقاد القدماء ؟ ربما كان سائلا خاصا ذا حركة دوامية ، او مالمنا ساكنا تنبض به كرات اكثر منه كثافة . وكان من الضروري افتراض خواص للاثير كخواص الجوامد لتفسير الضوء لانه ينتقل على شكل امواج عرضية .

وفي نهاية القرن التاسع عشر ظهرت البحوث الدقيقة التي قام بها كلاوزيوس Clausius وبولتزمان Boltzman وجيبس Gibbs موضحة قوانين علم الميكانيكا ونظرية الاحتمال على مسلك تجميعات كبيرة من الجزيئات ، وبخاصة الغازات . ولم يكن في ذلك الوقت ثمة امل في دراسة العالم الدقيق للجسام التي لا يراها الميكروسكوب . وادى هذا النقص الى عدم التعرض لبحوث الجسيمات وبنية المادة ، فقد ظلت هذه الموضوعات في راي القدماء من صميم الفلسفة . او من ابحاث الميتافيزياء ، وانها خارجة عن مجال العلوم الطبيعية . وكان المعتقد ان الجسيمات تتحرك حسب قوانين نيوتن . وظنوا ان كل مسائل الفيزياء تحل بالمعادلات .

تقول احدى دوائر المعارف التي نشرت بالقرن التاسع عشر كلمات قليلة من قوانين الديناميكا الحرارية وطرق قياس الحرارة . وكانت الحرارة معتبرة من طبائع الحركة ، وشجعت الفكرة القديمة ، التي تقول ان علم الفيزياء قد اكتمل ، علماء اواخر القرن الماضي الى ان يقول احدهم لتلميذه ماكس بلانك ناصحا اياه بعدم التخصص في الفيزياء ، لان كل شيء قد عرف عنها ، لكن ماكس بلانك اصر على

الفكر الجديد مع النظرية النسبية :

لم تدم المفاهيم العلمية التي شيدها العلم في القرن التاسع عشر طويلا ، بل تداعت عندما اعلن اينشتاين نظرية النسبية سنة ١٩٠٥

تسبب تعاقب الليل والنهار، وكشفت التجربة ان سرعة الضوء في الحالتين واحدة . وصعب هذه النتيجة مسلك الاثير وهو عديم اللون - فيما يفترضون - والذي قيل انه ينشر الضوء. وحاول كثيرون تصديق تجربة مايكيلسون باستخدام فيزياء القرن الماضي دون جدوى حتى سنة ١٩٠٥ لما حل اينشتاين هذه المشكلة برفع الحقيقة المفصلة الى مرتبة مبدأ أو مفهوم أساسي ، يتقبله الناس كحقيقة واقعة. وجمع البديهيتهن معا يتكون مبدأ النسبية .

والجميل ان ما يصدق على سرعة الضوء يصدق ايضا على مظاهر مختلفة للكهرودمناطيسية . وقد اعلن اينشتاين بناء على هذا التطور الذي جده في الفيزياء **الوجود لتجربة فيزيائية تستطيع ان تميز مجموعة عن أي مجموعة أخرى من المجموعات الانتهائية العدد التي تتحرك بانتظام وعلى استقامة واحدة . فكل هذه المجموعات متساوية تماما .**

وهنا قد تساءل « الى ماذا تقودنا هاتان البديهيتان ؟ » ربما يدرس طلاب الجامعات بعد الف سنة هذه النتائج على أسس تجريبية. بعد ان صعب على معاصري اينشتاين قبول فكرة كون الزمن نسبي وليس مطلقا ، بل يتوقف على حركة المشاهد . والحدث الواحد يقع بسرعات مختلفة اذا ما شوهد من نقط مختلفة . وقد يبدو ذلك غريبا وغير طبيعي ويناقض المعتقد . فقد وجد ان الزمن كمية نسبية . وهذا يعني ان للحدث الواحد ازمان مختلفة اذا شوهد من نقط مختلفة . وواضح ان هذه النتيجة للنظرية النسبية تخطئ العقل . وقد يكون من الحكمة للمزيد من ايضاح النسبية ان نسأل اي مدينة اقرب من الأخرى، باريس ام الاسكندرية ؟ فبالنسبة لقاطن

وهو في الخامسة والعشرين من عمره . نظرية نشرها في عشرات الصفحات ربط بها العلاقة بين بديهيتين محطما المفاهيم التي كانت سائدة، واضعا اساس الفيزياء الحديثة ومعتمدا على المنطق الرياضي والتعمق والدقة في كل ما افترضه . واجمع اهل الفكر المستنير على ان اينشتاين عبقرى من اعلى مرتبة وانه صاحب خيال وثاب ، تمكن به من قلب النظرية الكونية القديمة راسا على عقب . فهو القائل في إحدى البديهيتين « اذا كان مشاهدان يتحركان حركة مستقيمة ومنظمة كل بالنسبة للآخر فانهما في حالتين تامتي التوافق » . وهذا يعني عدم وجود طريقة تعين اى منهما يتحرك وايهما ساكن . ولا معنى لان نسأل « ايهما في حركة حقيقية ؟ » فالحركة نسبية ولا وجود لشيء يسمى حركة مطلقة .

وقد عرف مثل هذا المبدأ منذ ايام جاليليو في علم الحركة وهو ينص على امكان التمييز بين السكون من الحركة المستقيمة المنتظمة . وهذا ما يتفق مع العقل . فاذا جلست في سفينة او في طائرة ، واغمضت عينيك يكاد يستحيل عليك ان تميز بين السكون والحركة المنتظمة .

اما البديهة الثانية فهي حالة اخرى. يعرف العلماء ان سرعة الضوء ثابتة بالنسبة لمختلف المشاهدين مهما اختلفت سرعاتهم ، ومع ذلك فهم يعتبرونها حقيقة تجريبية غريبة تحتاج الى المزيد من البحث . ولكن اينشتاين دفع هذه الحقيقة العجيبة الى مرتبة البديهة . ونعلا كان نيكلسون وهولي قد كشفوا هذه الظاهرة منذ سنة ١٨٨٧ . وكرس الباحثون جهودهم للمقارنة بين سرعتي انتشار الضوء من الشرق الى الغرب ، ومن الشمال الى الجنوب . وهذا يشبه المقارنة بين نتائج قياسات مختبرين احدهما يتحرك مع كوكب الارض بينما لا دور للآخر بالحركة اليومية الى

القاهرة الاسكندرية هي الأقرب ، أما بالنسبة لمن يعيش في لندن فيباريس هي الأقرب . ولكن بالنسبة لسكان الرينغ - ان وجد به سكان - فالمدنيتان على بعدين متساويين تقريبا .

وقد نسأل ايضا « وما الزمن ؟ » اننا جميعا نعرف الزمن . . انه ما نقيسه بالساعات . هذا افضل ما نجيب به على السؤال . فالاعتاد اننا نحمل ساعاتنا معنا ونقيس بها زمنا الخاص بكل سهولة مثلما نقيس بها زمن الآخرين . ولكن هذا هراء ، ان الزمن واحد اليس كذلك ؟ وارد بقولي لا ، انه مختلف ، فالمسافران لكل منهما ساعته وإذا أراد احدهما ان يضبط الوقت عنده ، فلا بد من ان يرسل كل منهما اشارة الى الآخر . يشاهد احدهما الزمن لحدوث شيء ما حسب ساعته ، بينما يرسل الآخر - المتحرك - اشارات تقول ' ان ساعته تبين الوقت عند بدء الحدث وعند نهايته . ويمكننا ان نستنتج ان الفترة بين الحدثين بقياس المشاهد الاول هي الاطول . واثق عندئذ تحدث من الساعات بينما يتحدث عالم النسبية عن الزمن . وما هو الزمن ؟ وقد اجبنا بأنه ما يقاس بالساعات . وقد يبدو لك ان في الامر خطأ . وقد لا يقبل عقلك هذا الكلام . فالكفاح ضد المقول أمر عسير ، ولكن الأسمر منه ان نجادل مع شخص يضرب بالتفكير المنطقي عن عرض الحائط ، من أجل التمسك « بحقائق يرى انها مقبولة » . والأمير لا يحتاج الى الاشارة الى ان آلاف العلماء هللا للنظرية النسبية وفروحا بظهورها ، لانها طورت الفكر العلمي ، وجعلتهم يعنون الفكر فيها . ولم يجدوا بها نقصا او ضعفا او عوجا . وقد اثرت هذه النظرية تأثيرا ثوريا في العلم الحديث ، وتعمقت في المفاهيم التي تتعلق بزيادة كتلة الجسم كلما زادت سرعته . وكذلك في مفهوم تكافؤ الكتلة والطاقة .

وابتت النسبية سهولة تأكيد زيادة الكتلة بطريقة علمية على الاكترونات . واصبحت

معادلة اينشتاين هامة جدا في معالجة التحولات النووية وتفاعلاتها . ومن أحدث الاخبار التي حققت مباشرة زيادة الزمن في حالة جسيم يتحرك في ظروف المعمل . ويعتبر العلماء اليوم هذه التجارب تحقيقا للنظرية النسبية . وقد أصبحت مقبولة دون تحفظات وصارت اساسا للعمل اليومي في البحوث النووية . والرياضة الحديثة .

وللنظرية النسبية مفزى اعمق وابعد بكثير من كونها قانونا جديدا من قوانين الطبيعة ، فقد جاءت بتغيير تدريجي في سلوكية الباحثين في العلوم الطبيعية ، بان جعلتهم في غابة الوعى للنتائج العقلانية . وعلمتهم النظرية النسبية ضرورة بحث الموضوع من كل جانب . وقد وعوا ما يستخدمونه من الالفاظ ، وعرفوا الالفاظ الجوفاء الخالية من المعنى . واحسوا بالحاجة الى ازالة جميع آثار الجو الارسطوي من العلوم . وعلمتنا النسبية اهمية السؤال عن كيفية قياس الاشياء ، والعلاقة بين الكميات القابلة للقياس ، باستخدام المعاملات المرتبطة بها . فاذا كانت طريقة قياس كمية ما معلومة ، او كانت طريقة حسابها معروفة ، فان هذا يكفى ، لان الطبيعة شيء موضوعي يوجد في الكون ، ولا يتوقف على البحوث . وكل ما قام به المشاهدون للطبيعة انهم افترضوا كميات طبيعية وادخلوها في الفكر ليسهل وصف المشاهدات . وتحاول الكتب التخلص تدريجيا من التعاريف العلمية الجوفاء ، والكلمات المترابطة الخالية من المعنى ، وادت النظرية النسبية الى تعميق فهم دور النظرية في العلوم الطبيعية . ويقول العلماء ان النظرية تفسر وتوضح طبيعة ظاهرمعينة وتصورها وتكشف عملها . ولكننا اليوم نقول ان وظيفة النظرية التنبؤ بالظواهر . وقد اعطتنا النظرية النسبية نموذجا ميكانيكيا لتحلل المكان الذي تربعت

وعلم الفضاء . وقد تطورت النظريات الرياضية بعد ظهور نظرية الكم والنظرية النسبية وكشف اشعة الليزر واستخدامها في المواصلات اللاسلكية والحاسبات اللازارية والتخليق الكيميائي والتصوير وتحديد المسافات وتوجيه سفن الفضاء . فظهرت علوم الليزر بعد العلوم النووية واستخدمت في فحص نظرية النسبية وفي قياس حركة الغازات ودراسات الجو والسرعات . وتتقدم علوم الليزر الآن بخطى سريعة للتصرف على الحضارات في الكواكب الاخرى ولتطوير سفن الفضاء . وربما لا يمر وقت طويل حتى يصبح في الامكان السفر الى بعض الكواكب في رحلات منظمة لقضاء عطلات سنوية .

وان غدا لناظره قريب .

عليه نظرية « الأثير » وقد دفتته على الرغم من عظمتها القديمة وقيمتها التي مكنت علماء القرن الماضي من التنبؤ بكثير من الظواهر قبل أن يستطيع الناس مشاهدتها . ومع ذلك ليست النظرية النسبية وحدها التي أقامت صرح الفكر العلمى المعاصر ، فقد عاصرتها كشاف أخرى في عالم الذرة وقامت بأدوار كبيرة في بناء العلم الحديث والتطور الحضارى الذى نعيشه اليوم .



وأخيرا... اننا نعيش الآن عصر التكنولوجيا المتطورة وقد اخذ العلم والتكنولوجيا يسيران معا في كل ميادين الانشطة الانسانية . ونشاهد الآن ظهور مخترعات كثيرة في الحياة اليومية والاعمال الصناعية تستخدم الالكترونيات



المراجع

- (١) فؤاد مروف : « أساطين العلم الحديث » المطبعة المصرية . دار المقتطف . القاهرة ١٩٣٦ .
- (٢) احمد زكى : « بواطن وأنبأيق » قصة الكيمياء « ترجمة عربية » للمؤلف برنارد جالى ، مكتبة النهضة المصرية - القاهرة .
- (٣) زكريا فهمى : « فن البحث العلمى » ترجمة عربية للمؤلف و . ا ب بفرديج ، الالف كتاب ، بإشراف وزارة التعليم العالى . القاهرة سنة ١٩٦٣ .
- (٤) اداباشيف : « الانسان يصلح كوكبه » دار التقدم . موسكو .
- A. Kitaigorodsky ; I Am a Physicist MIR, Moscow, 1971. (٥)
- Isaac Asimov ; The Intelligent Man's Guide to the Physical Sciences ; (٦)
Pocket Books, Inc. New York, 1964.
- Ritchie Calder ; Science in our Lives ; (٧)
New American Library, 1962.
- Jacob Bronowski, The Common Sense of Science ; (٨)
Penguin Books. London, 1960.
- A. P. Rossiter ; The Qrowth of Science ; (٩)
Penguin Books, London.
- Elaine Knorre ; A Visit to Transurania, (١٠)
MIR Publishers, Moscow, 1974.

جوانب غير مطروقة في شعر توفيق

د . حاي مَرْزُوق

وشوقي من أولئك النثر الذين عاشوا
للشعر ، لا يشغلهم عنه شاغل ولا يعدلون به
مجدا ، ولا يجالسه جاهها مهما كبر في أمسين
الناس .

قلبي وان جهل الغيبى مكانه
أبقى على التاريخ من ماضيك

والخطاب هنا لدار الخلافة العثمانية ،
يكابرها بمجده الادبي، ويعلو بشعره فوق جميع
ما أنفق السلاطين في الفتح ، ويلمز أولئك
النقاد وقد زين لهم الغباء هذا الطعن عليه
بالتملق والكذب ، والعبارة لا يكذبون الناس،
لأنهم أزهد الناس فيما عند الناس ، يقول
للسلطان عبد الحميد عام ١٩٠٥ :

كثر الكاتبون في شوقي حيا وميتا ، وكانما
المبقرية لاحساب لها في موازينهم ، فتعاقبوا
على الخفض به الى مراتب العامة في التزلف
وطلب الجاه .

وداب المبقرية ان تزهد بأصحابها فيما
يتماجد به أحاد الناس .

ولا نريد بذلك أن نعلو بالرجل على خصال
البشر ، وإنما نريد القول إنها خصال متجاوزة
- ولا بد - في المواهب الشاخصة بأصحابها
الى مراتب الخلود، وليس وراء الخلود صارف
يصترف المظماء عن كثير من مواضع العرف
وقيم الحياة .

وقد أكد ادعاء السوء على العثمانيين هذا الظلم المتصل في حياة المسلمين ، وقد جاءهم نابليون - وأوروبا من ورائه - بحضارة تقوم منها الديموقراطية أو الحرية السياسية مقام الاساس من البناء .

وقد رد رفاعة الطهطاوي للناس هذه النظم الديموقراطية يومذاك الى أمر واحد هو العدل والانصاف ، « فما يسمونه الحرية - كما يقول - هو عين ما يطلق عليه عندنا العدل والانصاف ، لأن معنى الحكم بالحرية هو إقامة التساوي في الاحكام والقوانين » . (١)

والناس يومذاك أحاطوا بهم الظلم والاستبداد ، فكانوا أذنانا مصغية للدم ، ووقابا مشربة لكل انتقاد .

الا ان هذا الظلم أو الاستبداد كان من سوء العصر وعيبا من عيوب عامة الأمة الاسلامية ، وليس من الانصاف أن نعلق أوزار العصر برمته في أمانات الترك أو العثمانيين دون العرب والمسلمين ، مهما كان اليهم الأمر دون هؤلاء وأولئك ، فقيقح ان نشرهم الفعل ونفردهم بالمعجب وكلنا في الهم شرق » .

على ان شوقى لم يغفل - قط - هذا الظلم ولا أغضى عنه ، الا ان الفارق عنده هو الفارق بين حرب الظلم وحرب الخلافة برمتها ، وهو الفارق بين الثورة بالتخلف ، والثورة بعامه الحضارة الاسلامية ونظمها في الحياة .

والنقاد لا يذكرون بهذا الوجه الثائر ، ولكن يأخذونه - دائما - بالمدح الذي قال ، وشوقى في مدحه وذهمه كان يمدح بحق ويلم بحق ، دبدب الفضلاء وأصحاب المواهب والرسالات :

فامدح على الحق الرجال ولهمو . .

زهدت الذي في راحتك وشاقتي
جوائز عند الله مبتغيات
ومن كان مثلى (أحمد) الوقت لم تجز
عليه ، ولو من مثلك الصدقات

وهذا التشايع أو التأبي تفرزه في المدح الذي يؤاخذونه به ، ويحاسبونه عليه ، ولا اظن احدا يطيب نفسا بمدح فيه هذا القول ، فما بالك بخصال العنجهية الماثورة في الاتراك أو الخلفاء العثمانيين .

وقد نستطيع القول ان هوى الرجل أو عثمانيته ، لا يدخل في المعايير الادبية التي عليها مدار المدح والدم ، وأنصار الفن للفن أول من يتكرونها هذا الظن برمته ، لانهم شاخصون ابدا الى طرائق التعبير ، ثم لا يعنيه ما وراء ذلك الموضوع المستحب أو التعلق المدموم .

الا اننا نلتقي وهؤلاء النقاد على تشخيص هوى الرجل ولا بد ، وبيان مواقفه من الأمة وقضاياها في السياسة وشئون الاجتماع ، فكل ذلك - عندنا - من صميم الشاعر ، ومن عناصر الرجل التي تجتمع عليها اطراف شخصه المفترى عليه .

لقد شاعت دعاوهم في تملق العثمانيين واستغفرت الاسماع حتى لا مكان فيها لخير يقال ، والعثمانيون عندهم - بعد - شر اصاب التاريخ ، وسوء ائزى بالخلافة ، فاجتمعت على الرجل سوانان : سواة التزلف ، وسوء التزلف اليه ، وكان شوقى خسر الاولى والاخرة ، فلا هو أمسك من المدح فارضى الناس ، ولا هو انتصفته السلاطين كما انصف سيف الدولة المتنبي في اسماع الناس والتاريخ .

جواب غير مطروقة في شعر شوقي

ثم ان هذه الابيات من الابيات الاعيان ، على
سنة قوله المأثور .

زمان الفرد يا فرعون ولى ...

وبيت القصيد افعل في نفوس الناس من
القصاص الطوال ، لانه املق بالأئدة وأجرى
على الألسنة ، فكانت العرب تكابر بالابيات
الشوارد ، والأمثال السوائر لهذه المآرب
والخصال .

وتسقط (أدنة) في اليونان ، غلب عليها
البلغار في مطلع القرن (١٩١٢ م) ، فيجزع
شوقي أشد الجزع ، لانه رأى فيها نكبة
الاندلس ، وجرحا كبرجها :

جرحان تمضى الأمان عليهما

هذا يسيل وذاك لا يلتام

فالاندلس أول الممالك الاسلامية يسقط
عنها لواء الاسلام في غرب أوروبا ، وأدنة آخر
الممالك على عهد شوقي تسقط في شرقها ،
وليس وراء ذلك ألم يؤلم وجدان المسلم ،
ويصيب كبرياء التاريخ :

كانت من الغرب البقية فانقضت

فعلى بنى عثمان فيه سلام

لقد انقلب بها وبغيرها الهلال الاسلامى
الذى احاط بأوروبا من طرفيها في العصور
الوسطى ، الى هلال أودوى - في العصر
الحديث - يحيط بطرفي دار الخلافة وممالك
المسلمين ، قول تويننى ، وهذا أشد ما احقن
شوقي على الخلافة العثمانية :

والدهر لا يأتو الممالك منلرا

فاذا غفلن فمسا عليه سلام

مقامك فوق ما زعموا ولكن

رايت الحق فوقك والمقام

والناس منذ رفاهه على ان «الديموقراطية»
انفى للظلم ، وعاصم من الطغيان ، فكانوا
حربا على الاستبداد او الديكتاتورية وحكم
الفرد ، وكلهم شاخص باللوم والتثريب ،
الى السلاطين العثمانيين والخدويين
المصريين ، وكان شوقي على رأس
القوم ، لا تعرض الفرصة الا حمل وصدق :

شر الحكومة ان تساس بواحد ... (٢)

قل للخلافة قول باك شمسها

بالامس لما آذنت بدلوك

يرميك بالامس الزمان وتارة

بالفرد واستبداده يرميك (٣)

ولا اظن هذا قول متزلف لسلطان او مداهن
لخدوي ، وشوقي ليس تكرة - بعد -
فيتمضى قوله غير محسوس به ، او محسوب
عليه ، والمتريصون بالرجل كثر ، في عصر
ياخذ بالظنة ، ولا يغفر التعريض ، ولا نريد
ان نستطرد فنروي للناس القتل والمؤامرات
تحاك على ذلك العهد في تركيا ويصلاها
الناقمون في اطراف البلاد .

ولا يقال هذا تعريض الخائف ، يدس البيت
في تضاعيف الشهر ، فتخطئه العيون
والاسماع - لا يقال ذلك ، لان الرجل من
مذهب الشعر العربي ، لا يفرغ القول في باب
بخصوصه على التعمق المعهود اليوم ، فالدم ذم
والمدح مدح والرائد رثاء ، وانما هو المداولة
بين الأغراض جميعا ، ثم لا تعدم فيها رأى
الشاعر ومواقفه من الحياة والأحياء .

(٢) - ج ١ ص ١٦٩ من الشوقيات

(٣) - ج ١ ص ١٦٨ من الشوقيات

الحرية الليبرالية أو الديمقراطية الغربية

وقد آمن الناس يومذاك أن الدستور والبرلمان عاصمان - ولا بد - من هذه المظالم والاستبداد ، فافرقوا في طلبهما لانهم آمنوا كما آمنت الثورة الفرنسية أو أوروبا البرجوازية بأن الإصلاح السياسي هو رأس الإصلاح ، فهم شاخصون - أبدا - إلى الحكم الدستوري أو البرلماني ، فالدستور قيد على أهواء الحاكم وسلطان الفرد ، والبرلمان نمط من أنماط الشورى في حضارة الاسلام ، وكان الكواكبي فيما بين رفاة وجيل شوقي مثالا للفلاحة الثائرين على الدولة العثمانية ، يريد خلافة عربية على هذا النمط الجديد من الحكم يقول :

« ان سبب الفتور (في الأمة الاسلامية) هو تحول نوع السياسة الاسلامية حيث كانت ثيائية ديموقراطية تماما فصارت بعدالراشدين بسببتمادى المحاربات الداخلية - ملكية مقيدة بقواعد الشرع الاساسية ثم صارت اشبه بالملقة » .

والناس منذ رفاة مأخوذون بالدستور الفرنسي وما شرعه من المساواة في حقوق السياسة وأعباء الاقتصاد ، وقد ترجم رفاة هذا الدستور ، واختص مواد هذين الامرين بالشرح والتعليق يقول :

« أما قوله في المادة الاولى : سائر الفرنسيين مستوون قدام الشريعة ، معناه سائر من يوجد في بلاد فرنسا من ربيع وضيع لا يختلفون في اجراء الاحكام ... حتى ان الدوى الشرعية تقام على الملك ، وينفذ عليه الحكم كغيره » .

وهذه المساواة بين الحاكم والمحكوم أو الشريف والوضيع لم تكن معبودة على عهد رفاة ولا على عهد شوقي ، وكلاهما يعلم كما نعلم ان المساواة قائمة في الحضارة الاسلامية واصل من اصول الاسلام ، فكانت

ثم لا يلبث أن يعنف بهم وبآرائهم وعامة سياستهم ، ويثور على افعالهم وتخاذلهم ، وهو من وراء ذلك ساخط اشد السخط بما تلبسوا به من الفرور والاستنامة الى المجد القديم :

زعموك هما للخلافة ناصبا
وهل المالك راحة ومنام

لو آثروا الإصلاح كنت لعرضهم
ركنا على هام النجوم يقام

صور العمى شتى ، وأقبلها اذا
نظرت بغير عيونهن الهام

قيم التخاذل بينكم ووراكم
أم تضاع حقوقها وتضام

ودعوا التفاخر بالتراث وان غلا
فالمجد كسب والزمان عصام

ان النور اذا تملك امة
كالزهر يخفى الموت وهو زؤام

لا يعدلن الملك في شيوانكم
عرض من الدنيا بدا وحطام

ومناصب في غير موضعها كما
حلت محل القدرة الاصنام

وليس وراء ذلك ذم أو هجاء يقال .

يقول الدكتور هيكل : « وقد بلغ من حب شوقي للترك ان كان يعتبرهم مجموعة من الفضائل لا تسوبها نقیفة » .

ولا اظن هذه الايات المقلدة تشابع الدكتور فيما ذهب اليه ، وأغلب الظن انها تنقض دعواه التي فتح بها ابواب التنقص من الرجل ، وسوغ بها تهمة التمعيب الامعى للترك في نفوس عامة النقاد .

« وحيثما كانت رسل العملات قائمة مقام الرعية ، ومتكلمة بلسانها - كانت الرعية كأنها حاكمة نفسها » .

وذلك هو حكم الشعب نفسه بنفسه كما نقول اليوم ، لا مجال فيه لظالم أو مستبد ، لأن الناس هم الذين تداولوا بنوابهم أمور أنفسهم ، وليس وراء ذلك مانع للظلم والاستبداد ، وعلى كل حال فالرعية مائة للظلم عن نفسها بنفسها » (١) .

أمران - إذن - داب الناس عليهما منذ مطلع هذا العصر الحديث : الدستور والبرلمان ، أو هما أمر يجمعهما مصطلح الحرية السياسية ، وكلاهما في قصاره قيد يمسك السلطة أن تجور على الناس وأن تنحيف حقوقهم المشروعة ، أو أن شئت يمسك الحاكم أن يؤذي الناس في أرزاقهم وعامة حياتهم ، والطفانيان داء العصر يومذاك ، ناط به المصلحون والثائرون كل صنوف التخلف ، وما أصاب المسلمين من التأخر والجمود .

وتلك كانت جدوى هذه النظم « الليبرالية » أو التحررية ، فالعدل والإنصاف أقصى غاياتها في أذهان الناس يومذاك ، على غير الشائع المفهوم منها منذ ظهور النزعة « الرومانتيكية » في مصر ، ذلك بأن الرومانتيكيين أخذوا من هذه النظم بالحرية الشخصية حرباً على مواضع الناس في المشاعر أو الخيال والوجدان ، وآمن المثقفون بها حرباً على العرف والتصرف وقواعد السلوك ... أما السابقون فقد شغلهم الحرية السياسية فقلبت على ما عداها من النظم « الليبرالية » للملاسات 'نظم وظروف الطفيان' فتنادوا بالدستور واشتد الأتراك بقوادهم ليطلبوه بالسيف ، فأمر به السلطان عبد الحميد ،

أوروبا بذلك كالمنبهة للشرق وعامة المسلمين ، يقول رفاعة :

« فانظر الى هذه المادة الاولى فانها لها تسلط عظيم على اقامة العدل واسعاف المظلوم ، وإرضاء خاطر الفقير بأنه كالعظيم في اجراء الاحكام » (٢) .

ويعقب على ذلك بأن هذه القضية كادت تكون من « جوامع الكلم » عند الفرنسيين يريد أنها مبدأ متبع لا جدال فيه ولا خلاف عليه .

والمادة الثانية تنص على تقرير المساواة في الاضطلاع بالضرائب أو الخزينة وبيت المال ، فيأخذ رفاعة العجب فيقول :

« ويمكن أن يقال ان (الفرد) ونحوها لو كانت مرتبة في بلاد الاسلام كما هي في تلك البلاد لطابت النفس ... ومدة اقامتي في باريس لم أسمع احدا يشكو من الكوس والفرد والجبايات أبداً » (٣) .

وداءُ الشرق - لا شك - كامن في اصطناع هذا التمايز والمفاضلة بين آحاد الناس ، فآمن المصلحون أن الدستور هو الدواء ، لأنه « الحكم التي ترضى حكومته » أو الحجة المكتوبة يلتنى فيها الحاكم والحكوم على شرع سواء .

وتأتى المادة الخامسة عشرة بعبداً الشورى ومجلس النواب أو « ديوان رسل العملات » كما يترجمه رفاعة ، وهذا الديوان أو المجلس هم وكلاء الرعية والمحامون عنها ، حتى لا يظلمها ملك أو سلطان ، يقول رفاعة :

(٢) - التخليص ص ١٤٨ .

(٣) - التخليص ص ١٤٩ .

(٦) الرجوع السابق ص ١٥١ .

وكان قد أمسكه بعد أن وعد به ، فكتب شوقي يقول :

بشرى البرية قاصيها وداليها
حاطت الخلافة بالدستور حاميها
أما ترى الملك في عرس وفي فرح
بدولة الراي والشورى وأهليها (٧)

ولا يقال شوقي تبع ، هلل وكبره لدستور صدر في تركيا ، لأننا نقول : هو أول داع في هذه القصيدة لدستور لم يكن قد صدر في مصر يومذاك :

يا شعب عثمان من ترك ومن عرب
حيالك من بيعت الموتى ويحييها
ما بين آمالك اللاتي ظفرت بها
ويين (مصر) معان أنت تدرها (٨)
والآمال هنا هي الدستور .

على أن الأمر ليس أمر سبق في القول أو تأخير به ، وإنما المول على منطق الرجل في القضية ، وإيمانه بالفكرة خلا لا زما لقضية الحرية السياسية ، فانتصر الرجل للدستور كما فهمه الناس يومذاك ، وانتصر له على مذهبه هو في فقه الحضارة الغربية وحضارة الاسلام والمسلمين ، يقول :

وأنما هي شورى الله جاء بها
كتابها الحق يعليها ويغليها (٩)

فقصارى الديموقراطية أو النظم البرلمانية عند شوقي أنها نمط من أنماط الشورى في الحضارة الاسلامية ، نزل بها القرآن فكان الرسول والخلفاء يستشيرون ويشار عليهم ، ولم تعرف أمة حضارة ما عرفه المسلمون من « أهل الحل والعقد » أو « أولى الأمر » أو « أهل الذكر » وما شابه ذلك من المصطلحات التي تدل على المشورة وطلب الراي من عامة الناس لا خاصة القواد والأمراء :

بنيت على الشورى كصالح حكمهم
وعلى حياة الراي واستقلاله (١٠)

أني أرى الشورى التي اعتصموا بها
هي حبل ربك أو زمام نبيه (١١)

ولا يقال ما جدوى ذاك ، لأننا نقول ذلك هو منهج الصراع الحضارى منذ رفاة ، فالمسلمون لم يقبلوا - قط - من هذه الحضارة الغربية إلا ما لم يخالف « الشريعة والسنة » على حد تعبير رفاة ، ولا يختلف اثنان على جمود الفكر يومذاك ، فكان الكتاب والأدباء مطالبين بإحياء الأصول الاسلامية واقتباس ما يتفق معها من حضارة الغرب ، وخطر القتاد دون تسوية هذه وتلك في نفوس العامة ، والناس في عصر قريب العهد - يومذاك - بثورة الانتكشارية على السلطان سليم لأنه فرض الملابس الفرنجية في الجيش ، فما بالك بما هو أخطر من ذلك في أمور النظم وشئون الحكم . لقد اضطلع شوقي بهذا العبء ، فكان يستعين على أهواء الحكام وجهل السلاطين بأصول الاسلام ، ويستهوهم بالخلفاء الراشدين ،

(٧) - الشوقيات ج ١ ص ٢٨٦ .

(٨) - المرجع السابق ج ١ ص ٢٩٠ .

(٩) - المرجع السابق ج ١ ص ٢٨٧ .

(١٠) - المرجع السابق ص ١٦٨ .

(١١) - المرجع السابق ص ٢٨٨ .

جوانب غير مطروقة في شعر شوقي

الكتب والرسل والأديان قاطبة
خزائن الحكمة الكبرى لوامعها

محبة الله أصل في مراسدها
وخشية الله أس في مبانيها

وكل خير يلقى في أوامرها
وكل شر يوقى في نواهيها

تسامح 'نفس معنى من مروءتها
بل المروءة في أسمى معانيها

تخلق الصفح تسعد في الحياة به
فالنفس يسعدنا خلق ويشقيها

ثم يخص نفسه بالحديث ، والحديث هنا
داخل في صلب القضية ، لأن شوقي يطلعك
على دخيلة نفسه ، أو يفكر لك بصوت مسموع
كما يقولون ، يريد للناس جميعا أن يكونوا على
حدوه ومثاله في رياضة النفس على الإحسان :

الله يعلم ما نفسى بجاهلة
من أهل خلقتها ممن يعاديهما

لئن غدوت إلى الإحسان أصرفها
فإن ذلك أجرى من معاليها

والنفس إن كبرت رقت لحاسدها
واستغفرت كرها منها لثانيها (١٥)

ومؤدى هذا القول أن الإسلام لا يفتيق
باختلاف الأديان « ولو شاء الله لجمع الناس
أمة واحدة » ، ولئن اختلف المجتهدون في أهل

ليداول القول بينهم وبين هؤلاء ، ليستثير
فيهم نخوة التشبه وحماسة الاقتداء :

فكانك الفاروق في كرسيه (١٢)

خلافة الله جر الدليل حاضرها (١٣)

جددت عهد الراشدين بسيرة (١٤)

والناس يزعمون - بعد - أنه المباح
المتزلف ، وبفريون عرض الحائط بما وراء
المدح من هذه الأعماق .

لقد انفق شوقي من عبقرته ومن بالغ ذكائه
في قضية الدستور ما لم يستطعه شاعر أو
كاتب أو أديب ، وحسبك اختلاف الأجناس
والأديان في الدولة العثمانية حائلا يحول دون
المساواة التي هي صلب الدساتير الليبرالية .

ولا أظن رجلا غير شوقي يستطيع أن ينفذ
إلى لب القضية - وتهمته الكفر مشرعة يومذاك -
فيسوغها في النفوس على هذا النحو الذي لا
يقدر عليه إلا العارفون بحق أهل الكتاب
« لهم ما لنا وعليهم ما علينا » ، وإلا الواقفون
على أسرار البهر أو مبدأ الإحسان في الإسلام
« لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين
ولم يخرجوكم من دياركم أن تبرؤهم وتسخطوا
إيهم » ، وعلى هذا الأساس يقول شوقي :

الدين لله من شاء الإله هدى

لكل نفس هوى في الدين داعيها

ما كان مختلف الأديان داعية

إلى اختلاف البرايا أو تعاديهما

(١٢) المرجع السابق ص ١٦٩

(١٣) المرجع السابق ص ١٧٠

(١٤) ص ١٦٩

(١٥) ج ١ ص ٢٩٠/٢٨٩ من التحويلات

الذمة ، فإن التسامح أو مبدأ الاحسان فيه - عند شوقي - سمة مشروعة لآخوة الوطن ان انعدمت آخوة الدين .

فانتصار شوقي - اذن - للدستور ليس انتصار تهليل وتكبير ، وانما هو انتصار العارف بمواضع الشبه ومظان الخلاف ، البصير بمواطن العظمة في الاسلام ، وهذا الدخول الى القضية من ابواب « الاحسان » لا اقول جديدا في ابواب الاجتهاد ، وانما هو احياء بصير للفكر الاسلامي وحضارة المسلمين سبق اليه رفاعة الطهطاوي فلم يقف بالآخوة الاسلامية موقف التناقض من الآخوة الوطنية، فكل ذلك يجمعه ويحضر عليه قوله صلى الله عليه وسلم ، « وكونوا مباد الله اخوانا » يقول رفاعة : « ثم ان آخوة العبودية التي هي التساوي في الانسانية عامة في حقوق اهل المملكة بعضهم على بعض ، التي هي حقوق العباد » ، يريد بذلك ان العباد على اختلاف عقائدهم اخوان في العبودية ، والناس على اختلاف مذاهبهم اخوان في الانسانية ، فالعبودية والانسانية عنده سواء فالتناس جميعا خلق الله ، يتساوون من حيث هم مباد الله وخلقته ، ولهم حقوق على بعضهم البعض من هذه الجهة ، وتلك هي الحقوق الطبيعية التي طالما اشار اليها رفاعة في تخليص الابريز والتي كانت تسميها الثورة الفرنسية على مذهب باسم « حقوق الانسان والواطن »

« وهناك حقوق العبودية الخاصة التي هي الآخوة الاسلامية » - كما يقول - وهي اكتساب ما يصير به المسلمون اخوانا على الاطلاق من اداء حقوق بعضهم على بعض ، كرد السلام وابنتائه ، وتعليم الاحكام الشرعية ونحو ذلك من شعب الإيمان ، فلهذه هي التي اشار اليها صلى الله عليه وسلم بقوله : المسلم اخو المسلم ، يعنى آخوة دينية لأنهما يجمعهما دين واحد ،

وهي اعظم من الآخوة الحقيقية ، وقد قال الله تعالى : « انما المؤمنون اخوة » ثم يقول رفاعة : « ولا مانع ان يضم في مكارم الاخلاق » ، يريد ان ضم هذه الآخوة في اهل الوطن الواحد على اختلاف عقائدهم من باب حقوق الجار ، واهل المحلة الواحدة كلهم جيران او من باب مكارم الاخلاق كما سبق القول .

وهكذا تلتقي مكارم الاخلاق عند رفاعة مع مبدأ الاحسان عند شوقي وكلاهما اصل واحد في الاسلام ولا فرق ، ونقول هنا ما قلناه في كتابنا « جوانب من قضايا الامة العربية » :

« وحسب العقيدة الصالحة ان تنتصف لغيرها انتصاف الحق المشروع لا انتصاف التفضل والامتنان » .

وحسب الأديان الأخرى من الاسلام ان يجدوا نصابا يحتكمون اليه ، وحقا معلوما يتقاضونه مهما استبليت الأهواء ، واستحكم التعصب في نفوس المسلمين .

وحسب البشرية ان تقوم فيها آخوة في شئون المجتمع ومطالب الحياة ، عندما تمتنع آخوة الدين ، ووحددة المذاهب والمعتقدات .

مبدأ الشورى أو روح الديمقراطية

على ان شوقي لم ينفذ - قط - بالديموقراطية « الليبرالية » ، التي اغرق فيها الناس ما افرقوا ، وتنادوا ما تنادوا بأشكالها الدستورية والبرلمانية ، وهو شاخص - أبدا - الى جوهر الحرية أو روح الشورى ولبانها ، وهما نحن هؤلاء نقرأ الكتاب - اليوم - من أم الدساتير والبرلمانات ، فيكتشفون لنا عن مثالب الديمقراطية الغربية ، لأنها اخلفت الظن في نفى التسلط وتقرير الحقوق ، وحسبنا في هذا الصدد هارولد لاسكى فيلسوف حزب العمال من زمن قريب . (١٦)

والذين تستهويهم الثورة وخصال العنف ،
لا يعدمونها في الرجل ، فشوقي لم يشتد -
قط - شدته في قضية الشورى او الدستور ،
فمنع بالسلطان عبد الحميد حين شاد الناس
في الدستور ، وحين حجه عن الامة ليستبد
بالامر ، فناصر عليه اتور باشا وصحه :

صبروا لدولتك السنين
وما صبرت سوى شهور

أؤذيت من دستورهم
وحننت للحكم العسير

وقضيت كالنصور أو
هارون في خالى العصور

ضنوا بضائع حقهم
وضننت بالدنيا الفرور

هلا احتفظت به احتفا
ظ ، مرحب فرح قرير

هو حلية الملك الرشيد
د وعصمة الملك الفيرير (٢٠)

وقوله « وخالى العصور » هنا من باب اللم
والتحقير لا التماجد والافتخار ، فرأى شوقي
في هارون الرشيد رايه في معاوية وعامة الخلفاء
من بعده ، صارت بهم الخلافة ملكا مفضوا
« على سنة الفرس والرومان ، لتزحزحوا بها
عن سمت البيعة والانتخاب الى سنة التعيين
والتوريث :

وها نحن اولاء نرى الدساتير تشرع ،
والبرلمانات تقام ، والاستبداد آخذ - بعد -
بتلابيب الناس ، يقوم فيها بالواحد فيعنو له
النواب وتل لل الجماعة :

واذا سب الفرد المسلط مجلسا
الفيت احرار الرجال عبيدا (١٧)

ويقوم فيها بالجماعة فتعنو لهم الامة
وتستدل الشعوب :

وقام مقام الفرد في كل امة
على الحكم جم يستبدل غفير (١٨)

ولا اظن وراء ذلك نفاذا الى مثالب هذه
النظم ، أو ما يسميه علماء السياسة باسم
« الدكتاتورية البرلمانية » .

على ان الاستبداد لا يذهب المستبد فيه
- عند شوقي - بجميع اللوم والتثريب ، وإنما
السبيل على الذين يستدلون له ، وينزلون على
ظلمه وطفانيه ، فالشعوب تخلق جلاذيتها كما
يقال اليوم ، وأهل الحل والعقد - عند شوقي
- هم داء الامة بالتعلق ، وهم سبة الحياة
بالاستخدام :

كس سبحو لله في الروا
ح ، والهوك لدى البكور

ورايتهم لك سجدا
كسجود موسى في الحضور

خفضوا الرؤوس ووتروا
بالليل أقواس الظهور (١٩)

(١٧) ج ١ ص ١١٢ من الديوان

(١٨) ج ٣ ص ٨٢ من الديوان

(١٩) ج ١ ص ١٤٥ من الديوان وقوله في الحضور أى في حفرة الله تعالى في الوادي القديس شوى

(٢٠) ج ١ ص ١٢٢/١٢٣ من الديوان

ان الذين توارثوك على الهوى
بعد (ابن هند) طالما ظلموك

لم يلبسوا برد النبى وانما
لبسوا طقوس الروم اذ لبسوك

وقصارى القول ان شوقى فار - اشد
الثورة بالظلم والظالمين ، لا فرق بين حاكم
او محكوم ، وشوقى لا يخطئه مواضع الظلم ،
يكون فى السلطان ، ويكون فى اولى الامر ، كما
يكون فى الرعية وعامة الناس سواء بسواء .
وهو فى جميع ذلك حرب عليه اينما كان لا
يحاشى احدا من هؤلاء ولا هؤلاء .

والذين يسقطون شوقى من الثورة بالظلم
انما يسقطونه من سياق العصر ، فالعصر
الحديث كله ثورة متصلة ، وصراع حضارى
منذ عهد « نابليون » الى يوم الناس هذا ،
والادب الحديث فى مصر وعامة العالم العربى
يضطرب بهذه الثورة ولا يزال ، كما ذهب اليه
هيكل (٢١) ، وشوقى بلا جدال « لسان مصر
الناطق » كما شهد به الراقى وكان الراقى
قبلا من حساده ومبغضيه (٢٢) .

والذين يريدون ان يسقطوا شوقى من
سياق العصر الثائر يعجزون ان يسردوا لنا
وللتاريخ الادبى خلود الرجل فى المشاعر
والادهان ، والحافظة اكبر ناقد رغم انف
الناقدين . اللهم ، الا اذا فهمنا الثورة ضربا
من المناوأة ولا غير، وشق عصا الطاعة فحسب،
على سنة المخربين او المحترفين .

ونريد بهذا التفريق ان الثورة الفرنسية
فيض شعبى كاللوحسة الفتية او التصيدة
الشعرية قامت على غير مثال سبق، فاستمدت

روعتها من فيض الايمان بالمبادئ او الصديق
فى المشاعر والوجدان ، ولم تسمع قط بعمل
مكرور خلا من الطعن بالتقليد والانتهاك بالحكاية .

ويوم تكون الثورة حرفة تصبح كالعمل
الادبى المقصود ، يعمل فيها الوعى والتدبير
فتلتوى بالناس الى قصد غير القصد وسبيل
غير السبيل ، وثورة اتاتورك ماثلة يومذاك فى
الاذهان ، جمعت الناس على الحرية وقصد
الاصلاح ، وانتهد بهم الى « القومية » او
« الوطنية » مبدا لم يخطر - قط - على اذهان
المسلمين يومذاك ، لانه يقصر الولاء على القوم
او الشعب ، فوقع فى المنهجية القبلية او
« شعب الله المختار » ، لا يابه الناس فيه
« بالغير » الخارج على شاكلتهم فى الجنس
او مفارقتهم فى الاوطان ، ولا كذلك المسلمون ،
لانهم نشأوا على ولاء اعم ، جاز بهم الاسلام
حدود « الدم » و « الاقليم » عصب « الدولة
الحديثة » الى هذا الولاء الجامع بين الاسم
واطراف الممالك :

نظمت صفوف المسلمين وخطوم
فى كل غسدة جمعة ورواح

جمعت على البر الحضور وطالما
جمعت عليه سرائر النزاح (٢٣)

وقديما قال الشاعر :

ابى الاسلام لا اب لى سواه

اذا هتفوا بكبر او تميم

وهذا الولاء الاسلامى الجامع ، كابر به
« ارنولد توينبى » الولاء القومى ، الذى سارع
اليه كمال اتاتورك ، فالقومية عنده مرض من

(٢١) ثورة الادب .

(٢٢) دوى القلم .

(٢٣) ج ١ ص ١١٥ من الديوان .

وخلاصة الامر ان شوقي شاخص الى الشورى الاسلامية او روح الديموقراطية لا ينخدع عنها بالنظم واشكال الحكم ، فالاستبداد - عنده - يقوم والنظم الدستورية - بعد - قائمة ، والديموقراطية تقوم والفرد على رأس الحكم ، فالعبارة - عند شوقي - بالانسان حاكما ومحكوما ، لان النظم لا تنهض بالامم وانما الامم هى التى تنهض بالنظم ، ونزوع شوقي الى الاخلاق ، اريد به الامة او تهذيب آحاد الناس ، وذلك غاية الاديب ، او تلك هى رسالته التى اراد ان يضطلع بها فى شعره كما قال فى مقدمته بحق ، لان الامة او المجتمع ما هما الا اجتماع الاحاد بعضهم الى بعض على سنة الفكر الاجتماعى فى القرن التاسع عشر يومذاك ، وفي تهذيب الفرد تهذيب الجماعة حقيقة .

يقول رفاعة رافع الطهطاوى : اعلم ان (الفرنسية) متفرقة الراى فتركتين وهما الملكية والحرية ، والمراد بالملكية اتباع الملك القائلون بأنه ينبغي تسليم الامر لولى الامر من غير ان يعارض فيه من طرف الرعية بشئ ، والاخرى تميل الى الحرية بمعنى انهم يقولون : لا ينبغي النظر الا الى القوانين ، والملك انما هو منفذ للاحكام على طبق ما فى القوانين ، فكانه عبارة عن آلة ، ولا شك ان الرابين متباينان ...

فالفرقة الاولى امانة الملك ، والاخرى اضعافه واهانة الرعية ، ولا حاجة للملك أصلا ... وهذا هو حكم الجمهورية .

ومؤدى هذا القول ان النظم السياسية او نظم الحكم ثلاثة انماط ، ملكية مطلقة ، واخرى متقيدة او دستورية قيدها الدستور ، والنظام الثالث هو النظام الجمهورى ، الامر فيه للمباينة او الانتخاب ، يقول رفاعة :

امراض الحضارة الأوروبية ، لانها من موائق « الولاء الانسانى » الاعم ابتلى بها الشرق واخذها على غير هدى او بصيرة ، (٢٤) ولقد صدر شوقي من مثل هذا السخط بالكماليين فكتب يقول :

شربوا على سر العدو وغردوا
كالبوم فوق جدارك المذكوك (٢٤ مكرر)

فاذا أضغت هذا الى قوله :

هتكوا بأيديهم ملادة فخرهم ...

أدركت كيف شربوا على سر العدو ، وأنفلدوا له ما اراد ، فقطعوا اوصال الخلافة او الوحدة الجامعة للمسلمين بهذا الفكر القومى الطارىء على الفكر السياسى الاسلامى الموروث .

على ان الامر له وجهه الدستورى عند شوقي ، اذا جاوزنا العواطف او المبادئ الاسلامية ، فالكماليون طلاب الديموقراطية او دعاة الراى والشورى ، كانوا أول من استبد بهذا الولاء الاسلامى الجامع ، ولو قد صبح العزم واخلصوا للديموقراطية لاستشاروا الناس ونزلوا على رايهم ، ولكنهم انفوا الخلافة على غير هوى الناس ، او راي المسلمين ، فكانت أول مثلية دكتاتورية تتراعى للناس فى تطبيق الديموقراطية الغريبة فى دار الاسلام فكتب شوقي يقول :

الفرد بالشورى وباسم نديها
خلع الخليفة فى الظلام شريدا

خلعته دون المسلمين عصاية
لم يجعلوا للمسلمين وجودا (٢٥)

والدستور في قصاره قيد يفل يد الحاكم ،
أو عاصم من الاختلاف في تأويل الحقوق ،
يصطلح عليها المسلمون فيلتقى الحاكم وإياهم
على النزول عليها والاخذ بها .

ولقد آثر شوقي القيد الدستوري ، فالخلفاء
عنده رجلان ، رجل رشيد لا يضيق بالدستور
ولا يضيق به الدستور ، وخليفة غر ، فالدستور
عاصم له من الشطط والاستبداد :

هو حلية الملك الرشيد ، وعصمة الملك
الغريس .

على أن فريقا من الناس والكواكب على رأسهم
اشتطوا في الأمر فأبوا الفرد حاكما ولو عمر بن
الخطاب ، (٢٩) ولا يعني ذلك أن شوقي كان
دونهم ثورة بالفرد :

ان الزمان وأهله

فرغوا من الفرد العمين (٣٠)

الانصاف - اذن - أن نسب الرجل الى
ادب الخطاب لا الى التزلف ومداهنة السلاطين
أو الحكام في مصر والأستانة ، وهذا خلق يتخلق
به صاحب الذكاء ، وشوقي كان فوار الذكاء
كما يقول مطران (٣١) ، لأن الذكاء يصل
بصاحبه الى غاياته البعيدة دون أن يخرم حرفا
واحدا من آداب المجاملة والحديث ، وبهذه
الخلا كان يمدح ويتمدح :

شديد صلب في الحق حتى

يقول الحق لينسا وانداها (٣٢)

« وشريعة الاسلام التي عليها مدار الحكومة
الاسلامية مشوبة بالانواع الثلاثة المذكورة لمن
تأملها وعرف مصادرها ومواردها » (٣٦)

وشوقي من رأى رفاعة لانه رأى الاسلام
غير منازع ولقد قامت الخلافة بواحد يجتهد
مختارا على سنة النظم الجمهورية في الاختيار
برايه ، وقامت به يستشير ويشار عليه ، وقامت
به معين او معبودا اليه ، وقامت به مبايعا
والانتخاب .

وقد امتدح شوقي الخلفاء والحكام بجميع
ذلك ، فالخليفة لا ينبغي أن يشار بالخلافة
فيستقط عنه حق الاجتهاد ، لان الاجتهاد حق
للناس خلفاء وغير خلفاء :

الرأى رأى أمير المؤمنين اذا

حارت رجال وضلت في مراميها

وانما هى شورى الله جاء بها

كتابه الحق يعليها ويغليها (٣٧)

ولا يأخذ الناس الرأى هنا مأخذ الدكتاتورية
لان الاسلام لادكتاتورية فيه فالحاكم المسلم مقيد
بالاسلام ومحكوم به أبدا ، أو هكلنا ينبغي له ،
يقول رفاعة :

« والاfrنج يعدون الحكومات الاسلامية من
قبيل مطلقات التصرف ، والحال انها مقيدة
أكثر من قوانينهم » (٣٨)

(٣٦) التلخيص ص ٢٥٢ .

(٣٧) ج ١ ص ٢٨٧ من الديوان .

(٣٨) أصول الفكر العربي الحديث عند الطهطاوى ص ٥٥ نقلا عن الوقائع الرسمية ج ٦٢٢ .

(٣٩) ام القرى ص ١٤١ .

(٤٠) ج ٢ ص ١٢١ من الشوقيات .

(٤١) الشوقيات الجوهرة ج ١ ص

(٤٢) ج ٢ ص ٩٨ من الشوقيات .

الشيخ محمد عبده : « اظلت ولاية الاسلام ما بين نقطة الغرب الاقصى الى ... حدود الصين ، اقطار متصلة وديار متجاورة يسكنها المسلمون ، وكان لهم فيها السلطان الذي لا يغالب ، كان خليفتهم العباسي ينطق بالكلمة فيخضع لها (ملوك) الصين ، وترتعد فرائص أعظم ملوك اوروسيا . »

ومن ملوكهم في قرونهم الوسطى مثل محمد الغزنوي ، وملكشاه السلجوقي وصلاح الدين الايوبي ، وكان منهم في المشرق مثل تيمور الكوركان ، وفي الغرب مثل السلطان محمد الفاتح والسلطان سليم والسلطان سليمان العثماني .

اولئك رجال قضاوا ولم يطو الزمان ذكرهم ، ولم يمح اثرهم (٣٣) .

ومن قبل اشد رفاة الطهطاوي بالسلطان سليمان الثاني واعتد عصره « اعظم الاعصار » فقد بلغ بالدولة العثمانية « اوج الفخار » فافتتح الفتوحات العظيمة واعلى كلمة الله « (٣٤)

والعثمانيون ، فوق هذا وذاك ، لا يصدون سيدا عن السيادة ، ولا يحول اختلاف الجنس والوطن دون الصدارة وولاية الامور ، حكم الاسلام او شريعته النازلون عليها في التصرف والسلوك ، فيطلع علينا العصر الحديث وداود باشا على العراق ، وخير الدين واليا على تونس ، وعلى بك الكبير في مصر ، وكل هؤلاء عبيد ملك اليمين ، وقد استعجب الاوروبيون اليهم العبيد في امريكا مصنعي الاتراك المتهمين ، فلم تسمع عنهم الا الاضطهاد ، انزلوهم من المجتمع احط المراتب ، وختموا على انضاعهم بالعرف المصطنع ، وهم صناع التقدم ، وشركاء الاوروبيين في اسباب الحضارة على نحو من انحاء المشاركة يفرسه الانصاف .

فلسفته في مدح العثمانيين

على ان العثمانيين كانوا بالقياس الى شرقي تاريخا وحضارة ، ولم يكونوا قط حاضرا يملو على الانهزام او النقد والتجريح .

اما العثمانيون آحادا وخلفاء ، فما منهم الا ونشأ على الآداب الاسلامية في لغة القرآن فضلا عن لغته التركية ، والاغلب منهم كان يحفظ القرآن ويتخذ الاسئلة والمعلمين من الفقهاء وكبار العلماء ، وما اصطلاح « العثمانيين » الا شاهد على انهم ارادوا نسبا تسقط فيه القومية التركية او المنهجية الطورانية ، لتظل الخلافة خالصة للمسلمين .

واذا جاوزنا هذا الفضل الى فضل الفتح والجهاد ، فحسبهم فتح القسطنطينية عاصمة الرومان او الدولة البيزنطية ، وكانت خطرا اتصل حبله منذ ابي تمام والنتيني والمعتصم وسيف الدولة ، وقد ثابت من قبل هذا وذاك على معاوية بن ابي سفيان .

وهذا الفتح في موازين الحضارة اخطر منه في تاريخ الحروب ، لان الحضارة الرومانية انتقلت برمتها الى روما ، ودخلت القسطنطينية برمتها في الحضارة الاسلامية او دار الاسلام ، وليس ذلك بيسير .

وجاء سليمان القانوني فامتدت بدار الاسلام الى اسوار فينا في القرن السابع عشر ، ودخلت اوروسيا الشرقية باقلب دولها في حوزة دار الاسلام او خلافة المسلمين ثلاث قارات من العثمانيين ، وليس قليلا في التاريخ ان تنتظم اوروسيا الى غرب اسيا الى شمال افريقيا ، حتى بلغت الامبراطورية العثمانية حدا لم تبلغه امبراطورية قبلها ، فكانت فخرا لا يسقط من حساب المادحين والقادحين على السواء ، يقول

(٣٣) ج ٢ ص ٢٧٧ من تاريخ الاستاد الامام .

(٣٤) الاعمال الكاملة لرفاعة ج ١ ص ١٦ نشر وتطريق محمد عمارة .

كان العثمانيون - اذن - بالقياس الى شوقي تاريخا وحضارة ، او ان شئت كانوا مجدا اسلاميا ، وبطولة متصلة في تاريخ المسلمين :

قد ظننى الاحى نطقت عن الهوى
وركبت متن الجبل اذ اطريرك
لم ينقل الاسلام او يرنسح له
رأسا سوى النفر الالى رفوك (٣٥)

ومن هنا لم ينظر شوقي - قط - الى السلاطين العثمانيين الا وهو شاخص الى مآثر آياتهم الاولين منذ محمد الفاتح الى سليمان القانوني الى غيرهما من ابطال الفتوح والحضارة الاسلامية :

سما بك يا عبد الحميد ابوة
ثلاثون حضار الجلالة غيب (٣٦)

حينفية او قد عزها وامرزا
ثلاثون ملكا فاتحون غزاة (٣٧)

يا بن الخواقين الثلاثين الالى ... (٣٨)
عشرون خاقانا نموك وعشرة ... (٣٩)

هؤلاء الماؤون - اذن - هم مفتاح المدح عند شوقي ، وهم مادته التى صدر عنها في التنفى بالسلطين ، فهم جيل من اجيال الحضارة الاسلامية ، والحلقة الوثقى في تاريخ المسلمين :

المظهرين لنور بدر بعدما
خيف الحاقا عليه والاظلام (٤٠)

يقول الدكتور لويس عوض : « فمندا اللحظة الاولى (من دخول الفرنسيين) أحس الجبري انه ازاء حضارة جديدة ارقى من حضارة الترك والماليك ، لا في مقوماتها المادية فحسب ، ولكن في كثير من قيمتها الاجتماعية ونظمها السياسية . (٤١)

ويخطيء الذين يزعمون هذا الزعم ، فالترك والماليك ليسوا حضارة قائمة براسها ، لأن الممالك ظاهرة اسلامية ، او نظام حربى افضى اليه اجتهاد المجتهدين على عهد صلاح الدين ، والمجتهد المخطيء له اجر .

والماليك فوق ذلك آحاد مختلفون فيما بينهم ، لا ينتهون الى وطن واحد او قوم بخصوصه فينسبهم الناسبون الى حضارة محمد او تلم .

والا تراك هم الآخرون يفتقرون الى الف باء الكتابة ، فهم يكتبون بالحروف العربية ثم اللاتينية من بعد ، فكيف تستقيم لهم حضارة ، فيقال حضارة الترك أو المالك ؟

وهم انفسهم قد نبذوا « طورانيتههم » وتسموا بالعثمانيين وهم الفالبون يومذاك على امرهم في الاسلام ، شأنهم في ذلك شان التتار ، فلبوا على دار الاسلام وغلبيهم الاسلام في ميدان الحضارة والعقيدة جميعا .

(٢٥) ج ١ ص ٦٥ من الشوقيات .

(٢٦) ج ١ ص ٤٢ من الشوقيات .

(٢٧) ج ١ ص ٩٥ من الشوقيات .

(٢٨) ج ١ ص ١٧٠ من الشوقيات .

(٢٩) ج ٢ ص ٢٢٨ من الشوقيات .

(٤٠) ج ١ ص ١٦٥ من الشوقيات .

(٤١) تاريخ الفكر العربى ج ٢ ص ٢٠ .

وموقعة أبى قير البحرية شاهد على ذلك بما كتبه « تلسون » في يومياته أو مذكراته (٤٣) باسمهم بينهم شديد ، وهم - بعد - جميع على الدولة العثمانية على سنة التحدى الحضارى في عرف آرنولد توينبى ، ويرجع توينبى بوادر هذا التحدى الى ارتداد العثمانيين عن فيينا في القرن السابع عشر ، وقد بلغ اقصاه حوالى مطلع هذا القرن العشرين ، وقد أدرك شوقي هذا القصد المبين من قبل ان يقول به توينبى فكتب قصيدة في مسجد ايا صوفيا تفصح هذا العداء الكامن او الحقد الذى لا هوادة فيه :

لن يترك الروم عبادتهم
أو ينزل الترك عن السؤدد

ويريد الشاعر بعبادتهم مواطن العبادة وأماكنها من باب حذف المضاف ، ويريد بهذه المواطن أو الأماكن عامة البلاد التي غلب عليها الترك ، ونزعوا عنها الحضارة الرومانية ليقيموا مكانها حضارة الاسلام والمسلمين :

فيا لشار بيننا بسده
اقام لم يقرب ولم يبعد

باق كثار القدس من قبله
لا تنتهي منه ولا يبتدى

فلا يترك سكن الملا
فالشر حول الصارم المغمد
لن يترك الروم عبادتهم

أو ينزل الترك عن السؤدد

والرومان لا يختلفون موقفا عن التتار والأتراك ، انتصروا على اليونان بالسيف ، وانتصر عليهم اليونان في الحضارة وشئون الفكر ، والرومان أحق ان تكون لهم حضارة برأسها من التتار والأتراك ، ولكنها دائما وأبدا مرجوعة الى الحضارة اليونانية .

لم يكن شوقي - إذن - من رأى استاذنا الدكتور لويس عوض ، ولا كان الجبرتي منه على التحقيق ، فالاسلام ولاء جامع يتجاوز بالمسلم ما عداه من ولاء الدم والاقليم ، فالحضارة الاسلامية علم على الميراث المشترك بين الأمم الاسلامية على اختلافها في اللون والجنس واللغة والاقليم ، يقول الشيخ محمد عبده : « هذا ما أرشدنا اليه سير المسلمين من يوم نشأة دينهم الى الآن ، لا يعتدون برابطة الشعوب وعصبيات الاجناس ، وانما ينظرون الى جامعة الدين .

لهذا نرى العربى لا ينفر من سلطة التركى ، والفارسى يقبل سيادة العربى ، والهندي يلتمس لسيادة الأفغانى ، ولا اشمنزاز عند أحد منهم ولا انقباض ، وان المسلم في تبدل حكوماته ، ولا يأنف ولا يستنكر ما يعرض عليه من اشكالها وانتقالها من قبيل الى قبيل ، ما دام صاحب الحكم حافظا لشئان الشريعة ذاهبا مداهاها » (٤٤) .

والغرب فوق هذا وذلك الب على العثمانيين متربص بشعوب الخلافة الاسلامية وكلهم شاخص الى هذا « الرجل المريض » يحتاجون دونه ، اصداقاه والأعداء لا إبقاء عليه وأنما اغتنما للظروف المواتية التي تكثر فيها الغنيمة ويقل فيها احتمال الحرب والخلاف ، فمثلهم والدولة العثمانية كمثل قول الشاعر :

يفرقهم بغنص ويجمعهم حقد

هذا لهم بيت على يثتهم

ما ائبه المسجد بالمسجد

فان يعادوا في مفاتيحه

فيا ليوم للورى اسنود

ولا اظن وراء ذلك تصويرا لامر الشرق وقد احيط به ، وها نحن اولاء لا نزال ياخذنا الشر صريحا وغير صريح ، والقوم لا يجهزون على عدو ، وانما يتركوه بين بين ، والبين بين دائما في حيص بيص ، فهو متوجس ابدا ، لا هو المنتصر فيفرح بالنصر ولا البالغ الهزيمة فيياس من النصر ، والياس احدى الراحيتين .

فالشر حول الصارم المقعد

اقام لم يقرب ولم يبعد

لا تنتهى منه ولا يندى

والامر مناط يومذاك يحاضر مضعوف ، والاوروبيون ومن لف لفهم من العرب والمسلمين يحملون اوضاع كل ذلك على الاسلام وخلافة المسلمين ، لا يعنيهم ما يعنينا من مجد الماضي وعظمة التاريخ ، فالتاريخ تاريخ ، له ما مضى وعليه ما انقضى كما قيل يومذاك ، وانما العبرة بالحاضر فهم ياخذون الاسلام والمسلمين بما يزخر به الواقع من الظلم ومظاهر التخلف والجمود .

فكان على شوقى ان يخطط خطة رفاعة وعبد الله باشا فكرى وعلى باشا مبارك والشيخ محمد عبده ، فيحارب في جبهات ثلاث صنيع طه حسين والقلاد ، فيصد عنا الغزو الفكرى وينقضى بهم القرب ، ويحمل على الظلم الموروث ومظاهر التخلف والجمود ، وهو من وراء ذلك شاخص ابدا الى ماضى الحضارة الاسلامية يكابر بها ، ويستحى الناس قيمها ، يحفزهم على الاستمسك بآمرتها ، والخلافة الاسلامية - بعد - حضارة متصلة في تاريخ المسلمين ؛

حسب ائى طول الليالى دونه

نظمت صفوف المسلمين وخطوهم

جمعت على البر الحضور

لم يكن شوقى - يغالل - اذن - عن سوء العصر ولا عن تخلف المسلمين ، لكنه لم يكفر قط بحضارة الاسلام ولا بقدرة المسلمين على القوة والنهوض :

شعوبك في شرق البلاد وغربها

كاصحاب كهف في عميق سبات

بايمانهم نوران ذكر وسنة

فما بالهم في حالك الظلمات

وذلك ماضى مجدهم ونفخارهم

فما ضرهم لو يعلمون الاى

والفارق بين شوقى وهؤلاء الناقمين كما اسلفنا هو الفارق بين الثورة بالظلم وعقاييل التخلف وبين الثورة بعامة الخلافة ونظم الاسلام والمسلمين ، او هو الفارق بين ثورة الشفيق باهله المؤمن بجديوى حضارته ، فمدحه تحريض على الفضل وسخطه عتاب على المثالب والعيوب ، واصول الحضارة الاسلامية - آخر الامر - هى محك الرضى ومعيار السخط والعتاب .

عالم القيم او المدنية الفاضلة عند شوقى :

هناك منهج في البحث ذو شقين سلكه «مولنجوود» في تعريف الفن وماهيته، الشق الاول منه : تخليص الفن من المدخول عليه ، وردة على قائله ، وهذا ما كان منا في امر شوقى .

على سنة هيبوليت تين أو الماركسيين، فشوقي يؤمن مع «كارلايل» أن التاريخ عبارة بجرها الجياد من الرجال كما يقولون، ولم يخطر له - قط - أن التاريخ يمتلئ بالناس حيث يشاء على سنة هيجل في السعى إلى المطلق من الأفكار، ولا على سنة الماركسيين في الصراع الناشب - حتما - بين الطبقات.

وكل هؤلاء المذاهب التاريخية يسلب الإنسان عظمتها في معترك الحياة، ويسخر من جدواه في سير الأحداث، ولا يثبتون له بعض شأنه إلا بالتمحل والتخريب في «الجدلية» أو فلسفة الصراع عند الماركسيين.

وشوقي يربأ بالإنسان أن يكون ريشة في مهب التاريخ، تمضي الأحداث إلى غاياتها، وهو بعد مسلوب الإرادة لا قدس له يقصده، ولا غاية يتفياها عن عزم وتدبير.

والناقمون على شوقي لا يصبرون على هذا المنهج في جدوى الفضائل وأحاد الناس في الإصلاح وسير التاريخ، لأنهم غارقون في المذاهب التاريخية، وفلسفتها في التعويل على الظروف والملابسات، وجاءت المادة الجدلية وملذاتها في الحتمية أو الجبر التاريخي، فوقفت للناس بالجهد البشري أو الفضائل وخصال الأفراد عند حب الخير و«الطوباوية» التي تحمد أصحابها، ثم لا طائل من ورائها في إصلاح المجتمع وشؤون الناس، لأن الموعول عندها في النظم وفلسفة المجتمع، لا في الخلق وخصال الناس، فالتناس تفسد بفساد المجتمع وتصلح بصلاحه، والصالح مقصور على المجتمع اللاتطبيقي الذي يزعمون أنهم بالغوه غدا أو بعد غد فتحسن الخصال، وتفضل أخلاق الناس دون جهد يبذل، أو تدبير مقصود.

أما المجتمع البرجوازي القائم فأصل الشر وجريمة الفساد، والخلاص منه أو الثورة به خلاص من الشرور والآلام.

وهذا القول يستغنى عن أحاد الناس مؤونة الجهد في تهذيب النفس، والاضطلاع بعبد الفضل ومسئولية الخلق أو خصال الاستعلاء.

وهذا التعريف «بالسلب» كما يسمونه تكن جدواه في تقريب الأذهان من غاية الصواب، لأنه يميظ من طريقها الأخطاء الشائعة، أو أذى الخلط وأفة الادعاء.

وإذا خلصت الأذهان من زائف القول، وتبنيات للحق، ونشطت لاستقبال الصواب، جادها الشق الثاني، أو التعريف بالإيجاب، ليقيم على أطلال الخطأ صرح العالم الإنساني أو الرؤية الأخلاقية، أو الشخصية الأدبية، أو الأبعاد الحضارية لفكر الرجل، وعامة مشاعره ووجدانه.

فشوقي لا تقف عبقريته عند دفع التهم، وإنما هو عالم من القيم أو الحضارة مستتم الاطراف، لن تجد فيه منفذا مشروعا لما ادعوه عليه من البهتان:

يقولون يرئى الراجلين فويهمهم
أملت عند الراجلين الجوازيا

أبوا حسدا أن أجمل الحي اسوة
لهم، ومثالا قد يصادف حاذيا

فلما رثيت الميث أقضى حقوقه
وجدت حسودا للرفات وشانبا

فالرجل في مدحه، وفي رئائه، وفي عامة شعره شاخص أبنا إلى القيم الإنسانية العليا، يشتقها من وقائع حياة العظماء وأحداث التاريخ، يستوى في ذلك الأحياء منهم والأموات، والمصريون وغير المصريين، والنصارى والمسلمون، فيكتب عن موسى وعيسى ومحمد، وعن بغداد وروما وباريس والاستانة وليبيا وبيروت ودمشق، وعن صلاح الدين ونابليون، وعن حافظ والمنفلوطي وشكسبير وتولستوى وهوجو، وعن مصطفى كامل وبطرس غالي، وعن المختار وأدهم باشا وسعد زغلول.

ذلك بأنه آمن أن الناس هم الأحداث، وهم صنع التاريخ، ولم يفهم قط أن الأحداث والتاريخ هما الغالبان على امرهما في التطور بالناس إلى ما يريده أنصار الحتمية التاريخية

ولا كذلك شوقي :

والنفس من خيرها في خير عافية ...

فانما الأمم الاخلاق ما بقيت ...

على الاخلاق خطوا الملك وابنوا ...

صلاح امرك للأخلاق مرجعه ...

وما السلاح لقوم كل عدتهم

حتى يكونوا من الاخلاق في اهب

واذا ما اصاب بنيان قوم

وهى خلق فانه وهى اس

فالاخلاق عند شوقي عليها مدار التقدم في حياة الافراد كما في حبيبة الأمم والجماعات ، فالأهم عنده قوامها الفرد وآحاد الناس ، تصلح بصلاحهم وتفسد بفسادهم ، وهو قول لا يسقط من الحقيقة ، وان سقط في موازين الماركسية ، اللهم الا اذا قالوا بالجدل بين الفرد والجماعة ، وهو جدل ينظرون فيه آخر الأمر الى جهد الفرد في الثورة أو دفع عجلة التاريخ الى المجتمع الفاضل الذي ينعدم فيه التمايز والطبقات .

والإنسان مهما طال بهم الجدل ، وتعلقوه بصفات البطولة هو - عندهم آخر الأمر - وسيلة لا غاية ، والأمم عند شوقي على الضد والخلاف ، لأن شوقي يكابر بالإنسان وجدواه في الفضل ، وجدوى الفضل والأخلاق في الحضارة ومدارج الرقي .

وهذا هو مفتاح الرجل ، أو مفتاح فكره ووجدانه ، أو هذا هو مفتاح العالم الأدبي أو الصرح الحضاري ، أو ما شابه ذلك من المصطلحات التي تنفض الى « الرؤية » الأدبية بلغة العصر .

وقد اصاب الذين وصفوا شوقي بأنه شاعر

الأخلاق ، الا ان هذا الاصطلاح لا يوفيه حقه بحال ، لأن الاخلاق اختلطت في الأذهان بالاصطلاح المدرسي الذي يقف بها عند القواعد المقررة في العرف أو ضوابط السلوك ، وما يزيده بالأخلاق عند شوقي أمر وراء ذلك بكثير ، فالمباقرة لا ينشدون الكمال القائم في أذهان الناس بضوابطه وحدوده ، وإنما ينشدون « نوافل الكمال » حيث الفضل وخصال السمو والعظمة .

ولو اقتصر أمر شوقي على هذه الاخلاق التي يتوهمها الناس لما استحق هذا المجد والخلود ، لأن عبقريته لا تعدو - عندئذ - نظم ما ينبغي ان يكون ، على سنة ابي العتاهية

أو صالح بن عبد القدوس .

وفرق شاسع بين نظم الاخلاق ، وشعر الاخلاق ، فشعر الاخلاق شاخص ابدا الى ما وراء الكمال من عظمة النفس ، وسمو الشاعر والوجدان :

والنفس ان كبرت رقت لحاسدها

واستغفرت كرما منها لشانيها (٤٤)

فأرادوا لينظروا دمع فروعون وفرعون دمعهم

العنقاء (٤٥)

متدرع صبر الكرام على الأذى

ان الكرام مشاغل السفهاء (٤٦)

وأرانا التاريخ فرعون يمشى

ولم يحل دون شره كبرياء (٤٧)

انما يقدر الكرام كريم

..... (٤٨)

(٤٤) ج ١ ص ٢٩ .

(٤٥) ج ١ ص ٢٢ .

(٤٦) ج ٢ ص ٦ .

(٤٧) ج ١ ص ٢٥ .

(٤٨) ج ١ ص ١٨٨ .

جوانب غير مطروقة في شعر شوقي

بين واقع التصرف واصطراع الناس في السلوك ، وبين التأمل وآداب السلوك أو النزعة الانسانية التي تتسم بها حكمة شوقي ، فالتنبيس في اقرب ابياته من الكمال ونوافله لا يعدو أن يقول :

ترفق أيها المولى عليهم
فإن الرفق بالجانسي عتاب

فلا يجعل الترفق بهم خالفا لوجه « البر والاحسان » « وانما يجعله عتابا أو عقابا ان شئت . »

ج - الا ان فريقا من نقاد شوقي لا صبر لهم على اطلاق القول ، ويضيقون بالمعوم الذي لا اختيار فيه ولا مفاضلة ، لان الاختيار والمفاضلة يقتضيان التخصيص المنبئ عن الشاعر وخاصة مذهبه في الامور ، وذلك اذل على موقف الرجل ، وطلى شخصه او عامة فكرة وجدانه .

ونسوق الى هؤلاء موقف الرجل من موسى

كان شوقي كما يزعمون لانصرف عنه ، وهو غير مضطر اليه ، ولكنها عبقرية الرجل ونفاذه في الصعب ، وشخصيته القادرة على المشكل من الامور :

ظن فرعون ان موسى له واف
وعند الكرام يرجى الجزاء

لم يكن في حسبانك يوم دبي
ان سيأتي ضد الجزاء الجزاء
فقضى الله ان يسبق ولله نفى
لا لنفسه الأبيسيه

ومؤدى هذا القول ان المبادئ العليا تعصف بالمبادئ الدنيا ، لانها اوفى واصبح للشرعية على سنة « الانتخاب الطبيعي » ، او البقاء للأصلح عند دارون وعامة التطورين :

ويشكك فيه فلا يكلف نفسه
غير الترفع والوقار نصلا (٤٩)

اغضيت ضنا بعرض ان الم به
وقد يروق العمى للحر والصم (٥٠)

واذا ملكك النفس فمت ببرها
ولو ان ما ملكك يدلك الشاء (٥١)

واذا بنيت فخير نوح عشرة
واذا ابتليت فدونك الاباء (٥٢)

قوم وقار الدين في اخلاقهم

• • •

وقد نستطيع ان نجعم هذه العظمة او الخصال في المصطلحات الاسلامية التي جرى بها التواتر او جاء بها القرآن ، وفصلتها السنة في كثير من الحديث ، ولعل « البر » او « الاحسان » احفلها بهذه المعاني ، او تلك الغايات ، « ان الله يامر بالعدل والاحسان » .

« نبي البر بينة طريقا »

« والبر عندك ذمة وفريضة »

وقد يزعم الزاعمون - وهم مخطئون - ان هذه المعاني مضت في الادب العربي ، والتنبيس سبق اليها في حكمه ومأثوراته ، واصح من هذا الزعم انها مضت في الادب الاسلامي ، او حضارة المسلمين - وشوقي بلا شك هو الجانب الانساني من هذه الحضارة ، واعنى به جانب « الاحسان » او ما قدمنا من مصطلح « نوافل الكمال » ، فالسيئة جزاء السيئة كمال ولا شك ، واما العضو فوق الكمال او هو كمال آخر لا يفي بمعناه الا مصطلح « الاحسان » .

« ان الاديب سامع ومدارى »

خلقت كائنسى عيسى حرام
على قلبى الضغينة والشمت

وهذا هو الفارق بين المتنبي وشوقي او الفارق بين الكمال ونوافل الكمال ، او الفارق

(٤٩) ج ١ ص ٢١٢ .

(٥٠) ج ١ ص ٢١٢ .

(٥١) ج ١ ص ٣٦ .

(٥٢) ج ٢ ص ٨٤ .

العبادة بالصلاة المكتوبة ، ثم تأتى النوافل لا يزال العبد يتقرب بها الى الله حتى يصبح يده التى يبطش بها ، وعينه التى يبصر بها ، وتلك رتبة عالية في عرف المتصوفة أو المتصوفين

وكلا الامرين داخل في رتبة الفضائل أو نوافل الكمال ، لان الاحسان في مضمار الخلق والسلوك كالمتصوف في العبادة ليس احدهما فرضا مفروضا على الناس ، فالفضائل فيها معنى الزيادة لغة واضطلاحا ، والزيادة لا يشق الشارع على الناس بالتكليف بها ، وانما تؤتى تطوعا واختيارا ، « فمن تطوع خيرا فهو خير له » .

فهى لا تستمد سندها من التشريع أو القانون ، وانما تستمد من ربتها في السموات ، لانها غاية في ذاتها يسعى اليها الهلها ، ويستمسك بها الفضلاء من الناس ، وتلك هي مرتبة الاخلاق بلا الزام كما يقول « جويو » ، والتي آمنت بها الحضارة الاوربية ، وتبشر بها الشيوعية اذا بلغ الناس المجتمع الاطبقى في تقديرهم ، فلا حكومة ايان ذاك ولا سلطان ، وانما هي الفضائل التي يتكلفها الناس تكلفا في المجتمع البرجوازي أو الرأسمالي تصبح خلقا متاحا لكل أحد .

ولا كذلك الحال عند شوقي ، فالحياة هي الحياة ، مضت عليها آلاف السنين ، وهى بحالها :

اناس كما تدرى ودينيا بحالها
وشعب رخي تارة وعسير

واحوال خلق فاهر متجدد
تشابه فيه اول واخير

الحال باقية كما صورتها
من عهد آدم ما بها تغيير

وذلك بان شوقي يؤمن بالدنيا دار ابتلاء واختيار ، وهو رأى الاسلام ، ولا معنى للابتلاء والاختيار اذا استقامت الحياة بالناس ، ووجرت الطباع فيها على سنن الفضائل ولا غير ، فتلك مرتبة « الجنان » الله ينزع الله منها سخائم النفوس فتتزع النفوس الى الكمال « ونزعنا ما في صدورهم من غل اخوانا » .

فما على المرء في الاخلاق من حرج
اذا رعى صلة في الله أو رحما

وليس وراء ذلك اصرار على ما قدمنا من نوافل الكمال أو معاني البر والاحسان ، ورحم الله على ابن أبي طالب حين رقى لاحد الخارجين عليه في وقعة الجمل وقال : « قتله بره بوالديه »

ونستتم اطراف هذا العالم الادبي أو هذه الرؤية الفنية لنمط آخر من انماط الكمال ونوافله أو انماط الجمال الفني في معناه ومبناه جميعا :

وردنك كوبرا وسفرن حورا
وهل بالصور ان أسفرن بأس

فقل للجائحين السى حجاب
أحجب عن صنيع الله نفس

اذا لم يستر الادب الغوانسى
فلا يفنى الحرير ولا الدمقس

تأمل هل ترى الا جلالا
تحس النفس منه ما يحس

كان الخود « مريم » في سفور
ورأيتها حواري وقس

تهيبها الرجال فلا ضمير
بهم بها ولا عين تحس

وليس وراء ذلك قداسة أو جلال يحملك على السمو والاحتشام ، ولا يعمله عندي الا قوله في آثار الفرائنة ، وروعة انس الوجود :

فاخفض الطرف واخلع النعل واخضع
لا تحاول من آية الدهر فضا

فانت هنا كما انت هناك في حضرة الجمال
والجلال ، هذا عبقرية الفن والانسان ، وذاك عبقرية الطبيعة والحياة .

هذا قل من كثر ، أو قليل من كثير نخلص منه الى ان الاخلاق مند شوقي هي القيم الانسانية الكبرى التي اريد بها « الاحسان » في حضارة الاسلام والمسلمين ، وهي امر وراء القواعد والقوانين ، أو وراء الحدود والتشريع كالمتصوف سواء بسواء ، فانت تستوفى امر



ربة البيت

آن أوكللي *

عرض وتحليل المكتوبة عليه حسن حسين

الضوء على السمات والملامح التي تميز ربة البيت .

وتهتم الكاتبة بتتبع دور المرأة عبر الزمن معتمدة في ذلك على تحليل نتائج البحوث التي أجرتها بنفسها لعدد من الحالات التي قامت بدراستها ، وكان الطابع الأنثوي غالبا على ذلك التحليل . وقد عارضت القيم التقليدية

يهتم هذا الكتاب بإبراز الخصائص المميزة لدور «ربة البيت» في المجتمع الصناعي الحديث .

ويدور المضمون الأساسي للكتاب حول نظرة المجتمع للمرأة بوصفها ربة بيت لا بوصفها زوجة أو أما . ويهدف الكتاب إلى بيان دور ربة البيت ، وتطور هذا المفهوم ، كما يلتقي

Ann Oakley, House wife, Allen Lane, London, 1974

(*)

(*) آن أوكللي ، باحثة في كلية بيلغورد بلندن ، ولدت في لندن عام ١٩٤٤ وتلقت علومها في كلية سومرفيل بكامبريدج ، وحصلت على درجة الدكتوراه من جامعة لندن عن موضوع « اتجاهات المرأة نحو العمل المنزلي » ، وفي عام ١٩٧٢ أصدرت كتابا بعنوان : « الجنس والدكتوراة والاثولة ، والمجتمع Sex, Gender and Society . وفي عام ١٩٧٤ أصدرت كتاب « ربة البيت » الذي تتناوله بالعرض والتحليل والنقد المكتوبة عليه حسين ، كما أصدرت آن أوكللي في نفس العام كتاب « سوسيولوجيا العمل المنزلي » الذي تقدم له أيضا ، الدكتوراة سامية حسن الساعاتي عرضا تحليليا وتقييميا نقديا له . (التحرير)

الظروف المناسبة لهم يمكنهم من القيام بأدوارهم الاقتصادية المنتجة وان لم يتم بدور مباشر في عملية الإنتاج .

الثاني : كما ان قيامها بدور المستهلك الرئيسي في الاسرة يؤكد كذلك ارتباط هذا الدور بالحياة الاقتصادية . فعملية الشراء من السوق ، أحد انشطتها الرئيسية ، تزيد من حجم المبيعات فتنشط عملية التسويق مما يؤدي الى دفع عجلة الإنتاج بأطراد .

الثالث : ان عمل المرأة كربة بيت لا يدخل ضمن مفهوم العمل الحديث، فهي تؤدي العمل المنزلي الخاص بالاسرة والمتعلق بتدبير الحياة العائلية الخاصة . وهذا العمل لا يعد من الاعمال أو الخدمات العامة التي يتحتم ان تتقاضى عليها اجرا معينا ، كما انها غير ملزمة بعدد من الساعات يحدد لها ، وليس هناك قانون يلزمها بهذا العمل ويفرضه عليها .

وعلى هذا يصبح عمل المرأة كربة بيت خارجا عن مفهوم العمل الحديث الذي يؤدي نظير الكسب المادي أو الأجر المحدد .

ولكن هل يعنى ذلك ان عمل ربة البيت يتباعد بصورته هذه عن الحياة الاقتصادية وينفصم عنها انفصاما تاما ؟

ان طبيعة هذا العمل والصورة التي يتم عليها والحدود التي يدور في اطارها ، وان لم تبرز ارتباطا ظاهريا ومباشرا بالحياة الاقتصادية ، إلا انها لا تعنى الانفصام عنها . والنظرة الدقيقة المتفجرة لهذا الدور تؤكد مدى ارتباطها بالحياة الاقتصادية وتماهيته في دفع حركة الإنتاج دفعا مستمرا بتهيئة الظروف المستقرة للمتجعين من أعضاء الاسرة .

ثانياً : دور المرأة في مجتمع ما قبل الصناعة :

لقد اختلف دور ربة البيت في المجتمع التقليدي عنه في المجتمع الحديث ، ومنشأ هذا

التي تقصر العمل على الذكور دون الاناث ، والتي تؤكد ان دور المرأة ينحصر داخل المنزل فقط .

واتجاه الكتابة الى الاهتمام بهذا النمط من النساء يرجع الى قصور السوسيولوجيين في الاهتمام به . ويتضمن الكتاب تسعة فصول تتناول الموضوعات التالية :

أولا : المقصود بربة البيت وأهم ما يميزها :

ان ربة البيت هي المرأة التي تعمل في البيت ولا تتقاضى اجرا عما تقوم به من أعمال، وإذا حاولنا تحديد المقصود بهذا المصطلح من الناحية اللغوية فإنه يشير الى كلمتين : بيت - زوجة . وهذا يعنى ان الدور الذي تقوم به ربة البيت هو دور عائلي واثري معا ، كما يعتبر أيضا دورا خاصا داخل المنزل . ورببة البيت هي المسؤولة عن معظم الواجبات المنزلية ، كما تقوم أيضا بكافة الأعمال المنزلية سواء ساعدها أحد أو لم يساعدها . . وهي بهذا المعنى ليست خادمة ، وإنما امرأة تباشر شؤون منزلها ، كما انها سيدة البيت وزوجة رب العائلة . وقد لا تكون ربة البيت متزوجة، فالزواج ليس شرطاً لكي تصبح ربة بيت .

ولربة البيت سمات وملامح تميزها عن غيرها منها ما شاع وبرز في المجتمع الصناعي الحديث . فربة البيت من المسلمات التي يقصد بها المرأة دون غيرها ، وتعنى هذه التسمية عدم استقلالها الاقتصادي ، ويعبر مضمونها عن الدور الاساسي الذي تضطلع به ويحدد مدلوله دائرة عملها ، وبين منزلتها الاجتماعية كأمراة غير عاملة . ومن الضروري ألا يغفونا ، ونحن نتحدث عن ربة البيت ، ان نشير الى علاقة دورها بالناحية الاقتصادية . فهذا الدور وان لم يمثل نشاطا اقتصاديا منتجا بصورة مباشرة إلا انه يرتبط بارتباطا وثيقا ، ويمثل هذا الارتباط في جوانب ثلاثة:

الأول : قيامها بخدمة افراد الاسرة وتهيئة

وبعد ذلك العرض الذى يكشف عن مدى الاختلاف بين مفهوم دور المرأة في المجتمع التقليدى والمجتمع الحديث نتحدث عن السمات التي يتميز بها دور ربة البيت في المجتمع الغربي خاصة في الفترة ما بين القرن السابع عشر وأوائل القرن الثامن عشر .

١ - العمل : كان عمل المرأة في بريطانيا منحصرا في الزراعة والنسيج حيث كانتا الحرفتين الأساسيتين لافراد ذلك المجتمع في تلك الفترة .

وحيث عملت المرأة كمزارعة كانت تقوم بإنتاج احتياجات المجتمع من الطعام ومنتجات الألبان ، وكانت تتقاضى اجرا يقل عن أجر الرجل ، رغم أن جهدها في هذا المجال يفوق الجهد الذى يبذله الرجل . وهذا السدور يعتبر جزءا من دورها الذى كانت تنهض به داخل المنزل في المجتمع البريطاني التقليدى . ولم يكن عملها بالنسيج يختلف عن عملها في الزراعة حيث كان يتم أيضا في إطار العائلة باعتبارها وحدة العمل المنتج .

والى جانب تلك الاعمال قامت المرأة بالعمل في التجارة ، وخاصة تجارة الصوف التى لم تكن تقل أهمية عن الاعمال السابقة ، فالمرأة المتزوجة كانت تقوم بفزل ونسج الصوف والتكسان لغرضين : الأول تغطية الاحتياجات المنزلية المطلوبة من هذه السلعة . اما الغرض الثانى فهو المساهمة في زيادة دخل العائلة .

ولم تقتصر الاعمال التي قامت بها المرأة على ذلك ولكنها تجاوزتها الى اعمال أخرى كمصناعة الخبز والبيرة ، فضلا عن مساعدة زوجها في عمله وتحمل القيام بأعبائه بعد وفاته ، وممارسة العمل أيضا في مجالات أخرى مثل التجارة القطاعى ، وإدارة المحلات التجارية ، وكان البعض منهم يعمل باعة متجولات للحصول على الدخل اللازم لحياتهم .

الاختلاف انما يرجع الى الاهتمام بالصناعة ، واقتضى اتجاه المجتمع الحديث الى التصنيع الاهتمام بعمليات الانتاج على نطاق واسع غير محدود يتحقق في مؤسسات صناعية كبرى .

وهذا يعنى ان العمليات الانتاجية لم تعد تتم داخل المنزل وفي إطار العائلة كما كان يحدث في المجتمع التقليدى ، فالعائلة في المجتمع التقليدى كانت تمثل وحدة الانتاج ، وكان العمل وبناء العائلة يمثلان جزأين من كل نقاش متكامل ، فالعمل اذن لم يكن منفصلا عن حياة العائلة ، ولم يكن هناك تقسيم واضح للعمل بين الجنسين داخل محيط الأسرة ، ولكن الكل يعمل من أجل استمرارها ووجودها . ورغم أن مبدأ تقسيم العمل بين الجنسين ، تبعاً لطبيعة كل جنس كان معروفاً ، الا ان الأدوار في المجتمعات التقليدية كانت تحدد بالنظر الى المنزلة الاجتماعية لكل جنس من الجنسين . ولم يكن ذلك البدا المعروف يمارس حتى في المجتمعات التي مرفته على أساس قاعدة ثابتة تحدد عمل المرأة وعمل الرجل . فإلى بناء الاقتصادى والاجتماعى للمجتمعات التقليدية لم يكن يتبع وجود مثل هذا التمييز الدقيق في تقسيم العمل .

وان ادراكنا لمفهوم الدور الذى كانت تنهض به ربة البيت في المجتمعات التقليدية يوضح مدى التلاحم بين الحياة العائلية والحياة العملية الانتاجية ، ويؤكد انهما يمثلان معاً كلا متكاملًا .

وهذه صورة مخالفة للصورة السائدة في المجتمع الصناعى الذى كان التمييز فيه بين الحياة العائلية والحياة العملية واضحا بينا .

فالتنمية الاقتصادية التي حدثت على مستوى العالم كان لها أثر واضح في تمييز أدوار العائلة وتحديد العلاقة بين العائلة والنسق الاقتصادى مما أسفر عنه التمييز الواضح بين الحياة العائلية والحياة العملية الانتاجية .

وقد تبين أن هناك أسماء لنساء متزوجات مقيدات بسجلات التبادل التجاري ، وقامت الزوجة بإدارة أعمال زوجها كوكيلة لأعماله ، فضلا عن الدفاع عن العائلة والمحافظة على الممتلكات في حالة غياب الزوج .

وكانت التقاليد النقابية في هذا المجتمع تبيح انتقال تجارة الزوج وامتيازاته إلى الزوجة بعد وفاته .

وبعد أن ادركنا الدور الذي كانت تنهض به المرأة في المجتمع البريطاني التقليدي يتأكد لنا أن المرأة كانت تقوم بدور العامل المنتج داخل المنزل وخارجه ، ولم يكن هناك تمة تمييز في قوانين العمل بين الجنسين ، ولم تمنع المرأة من ممارسة أى عمل لكونها امرأة . وليس من بين ذلك كله ما يشير إلى التفرقة بين العمل المنزلي والعمل الانتاجي والنظر إليهما كمهنتين منفصلتين .

فهما يمثلان كلا متكاملًا ، ويكمل كل منهما الآخر . وهذه صورة مخالفة لما حدث بعد التفريعات الاقتصادية التي نجمت عن الثورة الصناعية . فقد طرأت تغيرات واسعة لمفهوم الدور الذي تنهض به المرأة ولطبيعة عملها كمرکز للحياة العائلية .

ثالثاً - المرأة والتصنيع :

أن دور ربة البيت في المجتمع الحديث يختلف من الصورة التي كان عليها في المجتمع التقليدي ، فاجتاه المجتمع الحديث إلى التصنيع والاهتمام بالصناعة اقتضى تغييراً واضحاً في مفهوم هذا الدور ، ولم يقتصر الأمر على تطور مفهوم دور ربة البيت بل تعداه إلى دور الرجل .

وهذا التحول أو التغير يتضح في انفصال العمل الانتاجي عن الحياة العائلية وقد أدى ذلك إلى أن أصبح دور ربة البيت محصوراً في النهوض بالأعمال المنزلية التي تفرضها

ب - كان النمط السائد هو العائلة الممتدة ، وكان الزواج يتم من طريقها ولم يكن الزواج يعنى المرأة من الاعباء الاقتصادية ، فهي لا تعتمد على الزوج اقتصادياً بل تعتمد على دخلها من العمل الذي تمارسه في الزراعة والنسيج والتجارة ، وكانت تتحمل كذلك مسئولية الانفاق على أطفالها ، ويساهم الزوج في ذلك ان كان دخله كافياً . فالمرأة في هذه الفترة كانت تحصر على التوفيق بين استعمار الحياة العائلية ورعاية الأطفال ، أما فيما يتعلق بالشؤون المنزلية فانها كانت مسئولة مشتركة بين الزوجين .

ومن هنا نلمس مدى الاختلاف بين دور ربة البيت في القرن السابع عشر ودورها في القرن العشرين .

ومما تجدر الإشارة إليه في هذا المجال انه رغم اعتراف القانون العام بخضوع المرأة للرجل في المجتمع الإنجليزي إلا أن ذلك لم يؤثر على العلاقات الاجتماعية ، حيث كان النبلاء وحدهم الخاضعون لهذا القانون العام ، في حين كانت العادات والتقاليد تحكم العلاقات القائمة بين الفلاحين والحرفيين ، مما يؤكد مساواة المرأة بالرجل واستقلالها الاقتصادي عنه .

ج - المنزلة الاجتماعية للمرأة في المجتمع

الإنجليزي التقليدي :

أن استقلال المرأة الاقتصادي في المجتمع الإنجليزي التقليدي خلال القرن السابع عشر قد اتخذ اشكالا مختلفة :

فالمرأة التي تعمل بالتجارة وكانت تحصل على كافة الحقوق وتنهض بشئى المسؤوليات التي كانت للرجل الذي يعمل بنفس الظروف ، ولها أن تلجأ إلى القانون في جميع الحالات للحصول على حقوقها ، ولها أن تشارك مشاركة تامة في أعمال الزوج وشؤونه .

والمرحلة الثانية وهي ما بين عام ١٨٤١ حتى عام ١٩١٢ .

والمرحلة الثالثة تمثل الفترة ما بين عام ١٩١٢ حتى عام ١٩٥٠ .

أما المرحلة الأولى : ١٧٥٠ - ١٨٤١

فهي تتميز بظهور المصنع وحلوله محل العائلة كمكان للإنتاج ، وعلى الرغم من ذلك لم تتخل المرأة عن ممارسة الأعمال الإنتاجية التي كانت تنهض بها في المجتمع التقليدي ، ولم يكن للصناعة أثر في تغيير الأعمال الإنتاجية التي كانت تقوم بها من قبل ، وإنما ظهر أثرها واضحا في زيادة الإنتاج وما تبع ذلك من زيادة في حجم العمل وعدد ساعاته . فقد زاد إنتاج النسيج المنزلي بزيادة حجم العمل الإنتاجي الذي تقوم به ربة البيت رغم إمكانية هذه الصناعة . ولم يكن ذلك في إنتاج النسيج فقط بل امتداه إلى إنتاج القطن .

وفي عام ١٧٨٠ التحق بمصانع إنتاج القطن كثير من عمال اليومية والتحق معهم المرأة وصاحب ذلك انخفاض في الأجور . ولا يعنى التحاق المرأة للعمل بمصانع إنتاج القطن الاستمرار في مثل هذه الأعمال إذ اعتزلت الكثيرات من المتزوجات العمل في المصنع في أوائل القرن التاسع عشر .

فالزوجة الأم واجهتها مشكلة رعاية أطفالها أثناء انشغالها بالعمل في المصنع ، مما أدى إلى اعتزالها ، وكان ذلك سببا في انخفاض نسبة النساء العاملات في هذا القرن أي القرن التاسع عشر .

أما النساء المتزوجات وليس لديهن أطفال فقد استمر عملهن في المصنع وكان ذلك مساهمة للاعتماد السائد من أن المرأة يجب أن تعمل وتعمل نفسها ، فكان استمرارها محاولة منها للاعتماد على نفسها ، ولذا كان العمل في

الحياة العائلية دون الانخراط في الأعمال الإنتاجية التي تتم خارج المنزل ، والتي تكون مقابل أجر نقدي ، فلم تعد المرأة تشارك في عمل انتاجي من أجل العمل ذاته أو من أجل الاستهلاك .

أما بالنسبة لدور الرجل فالمجتمع الحديث أفسح له العديد من المجالات ، فالتسعت دائرة عمل الرجل ومجالاته وأنشطته وعلاقاته في حين ضاقت دائرة عمل المرأة واتجهت نشاطاتها إلى المنزل أكثر من أي مجال آخر .

وكان هذا التحول في دور الرجل ملائما لذلك التطور الذي حدث في المجتمع الحديث ، الذي كان انجازه إلى التصنيع سببا في انفصال العمل الانتاجي عن الحياة العائلية والانتقال بالعمل الانتاجي بعيدا عن المنزل إلى مؤسسات صناعية كبرى يؤدي فيها العمل نظير أجر نقدي .

والمجتمع الصناعي الذي يهتم بالمشروعات الاقتصادية والمشروعات الصناعية الحديثة يتميز بوجود هيئات متخصصة تقوم بالنشطة الاقتصادية تختفي أمامها العائلة كوحدة اقتصادية إنتاجية .

واستبعاد العائلة عن النشاط الاقتصادي لم يستلزم تغييرا في الإنتاج فحسب ، بل إنه استلزم أيضا تمييزا للأدوار داخل العائلة ، فربة البيت أصبحت غير عاملة وعليه فهي تعتمد اقتصاديا على الرجل الذي يختص بالعمل المنتج يتقاضى عنه أجرا نقديا ويتحمل العبء الاقتصادي للعائلة .

ويمكن تقسيم المراحل التي مر بها دور المرأة منذ بداية مرحلة التصنيع إلى ما يأتي :

المرحلة الأولى وهي ما بين عام ١٧٥٠ حتى عام ١٨٤١ .

المصنع دور فعال في تحسين ظروف المرأة من الطبقة العاملة بوجه خاص .

ومن هنا ندرك ما كان للثورة الصناعية من أثر واضح على كل النساء العاملات ، وخاصة المتزوجات اللاتي ليس لديهن أولاد ، وما كان له من دور في تحسين ظروف المرأة من الطبقة العاملة .

وقد اشارت احصاءات عام ١٨٤١ في كل من انجلترا وويلز الى الاعمال الاساسية التي كانت نهضت بها المرأة ، واوضحت مجالات نشاطاتها وهي تدور حول الخدمات المنزلية وصناعة القطن ، والزراعة وحياسة الملابس وكيها ، كما انها مارست مهنة التدريس ايضا ، هذا الى جانب الاعمال الاخرى التي نهضت بها .

والخدمات المنزلية والزراعية والتدريس كلها اعمال تمثل الادوار التقليدية التي اقتصت بها المرأة في المجتمع التقليدي .

اما العمل في المصنع فقد كان مفضلا حيث يستغرق وقتا اقل ، والاجر المتقاضى منه يعادل الاجر الذي يحصل عليه الرجل . ولذا كان هذا العمل من اكثر الاعمال التي اجتذبت النساء اليه الخدمات المنزلية ويأتي بعدهما العمل الزراعي .

اما بالنسبة لبعض الحرف والاعمال الاخرى التي كانت المرأة تراولها وحدها فقد انخفضت نسبة العاملات فيها ، هذا الى جانب ما أحدثته انتقال العمل من المنزل الى المصنع من مشاركة المرأة للرجل في عمله .

كما ان النمو الاقتصادي السريع في الثروة ادى الى الاقلال من فرص العمل أمام المرأة في مجالات الاعمال الحرة فيما عدا تجارة التجار .

ومن تلك التغيرات التي حدثت في مجالات

العمل التي طرقتها المرأة العمل في الجراحة وطب الاسنان والعيون وكان للتخصص والنمو العلمي اثره في استعمار عمل المرأة في هذه المهن وكانت الدابة اكثر الناس تأثرا بتلك التغيرات التي طرأت على عمل المرأة .

المرحلة الثانية : الفترة ما بين ١٨٤١ - ١٩١٤

في هذه الفترة برزت في المجتمع الانجليزي حركات اصلاح شملت مختلف المجالات . وقد تضمنت هذه الحركة تشريعات تخص النساء العاملات وتخص الاطفال كذلك .

ففي عام ١٨٤٢ صدر أول تشريع يحدد الظروف التي تعمل فيها المرأة ويحدد كذلك مجالات العمل التي تتحقق بها ، وينص على تحديد ساعات معينة للعمل .

ولم يقف الامر عند هذا الحد ، بل ان المرأة قد حصلت على امتيازات اخرى بمقتضى التشريع الذي صدر عام ١٨٩١ حيث نص على منع تشغيل النساء أثناء فترة الحمل وقرى منحهن اجازة لمدة اربعة اسابيع قبل الوضع واربعة اخرى بعد الوضع .

وفي عام ١٨٩٥ صدر تشريع يقضى بمنع تشغيل النساء والاطفال ساعات عمل اضافية . ولهذه التشريعات اثر واضح في تحديد

المفهوم الحديث لدور ربة البيت ، كما ظهر اثرها في انخفاض نسبة النساء المتزوجات العاملات ، وساد الاعتقاد بأن مكان المرأة البيت ، ودورها ينحصر في التزامها بالعمل المنزلي فقط ، وخاصة بعد انتقال الرجل الى العمل في المصنع وابتعاده عن المنزل ، الى جانب ما فرض من قيود على تشغيل النساء والاطفال .

ويضاف الى ذلك تلك المنافسة الشديدة التي واجهتها المرأة العاملة في الانتاج الصناعي من الرجال ، والتي دفعتها الى التقيد بالعمل المنزلي الذي يؤديه دون اجر يتقاضي عنه ،

عما حدث بعد الحرب العالمية الاولى حيث زادت نسبة النساء العاملات في الصناعة الى الضعف نتيجة ظروف الحرب .

وخلاصة القول ان التصنيع كان له دور في حدوث بعض التغيرات التي يمكن اجمالها فيما يلي :

— ابتعاد الرجل عن الحياة الروبينية المنزلية بالانتقال للعمل في المصنع وترك العمل في المنزل .

— تحمل الرجل لابعاء المعيشة واعتماد المرأة عليه في ذلك .

— انفصال العمل المنزلي ورعاية الاطفال عن الاعمال الاخرى .

— التصنيع ادى الى تقييد ربة البيت وربطها بالمنزل ، وهذا قيد نفسى اكثر منه فسيولوجى .

وكان يمكن لربة البيت ان تترك المنزل لتمارس عملا تتقاضى عنه اجرا نقديا ولكنها مع ذلك تظل مرتبطة بدورها كربة بيت حيث انه الدور الاساسى لكل النساء على الرغم من انه قد يعوقها عن توسيع دائرة نشاطها الخارجى .

رابعا - وضع المرأة في الوقت الحاضر :

ان التمييز بين المرأة والرجل امر مألوف ويرجع هذا التمييز الى اساسين :

الاول : المرأة تهتم بشئون المنزل ، وهذا الاهتمام يحدد وضعها داخل الاسرة وخارجها .

الثانى : المرأة بوصفها ربة بيت يؤكد وجود التناقض بين القيم الثقافية الوجيهة لدورها في المجتمع .

خاصة وان الرجل قد اصبح صاحب الدخل الاساسى فى العائلة او الاسرة .

وبزيادة عدد ربوات البيوت ، ونتيجة لزيادة الدخل منذ عام ١٨٧٠ زاد الطلب على الخدم الى الحد الذى دعا الى ظهور مشكلة نقص الخدم فى عام ١٩٠٠ .

ويظهر هذه المشكلة بىدل على مدى احتياج ربوات البيوت الى الخدم ، ويبرز ذلك التحول فى دور ربة البيت الذى اصبح دورا اشراقيا ، فربة البيت تقوم بدور المشرقة على العمل المنزلى وهو نفس دور ربة البيت العاملة فى القرن العشرين ، فهى الى جانب كونها ربة بيت فهي ايضا عاملة منتجة .

وقبل نهاية القرن التاسع عشر تحولت المرأة ربة البيت من مجال العمل فى الصناعة الى مجال الخدمات حيث التحقت بالعمل فى الصناعات الغذائية ومؤسسات غسل وكي الملابس ومختلف الأنشطة التى كانت تؤدى من قبل فى المنزل . كما ازداد النساء اللاتي التحقن بالاعمال الكتابية والصناعات الخفيفة . وقد احتلت ادارة شئون المنزل المرتبة الاولى بالنسبة للمرأة المتزوجة، بينما احتلت الاعمال الاخرى المرتبة الثانية .

المرحلة الثالثة : وتمثل الفترة من ١٩١٤ -

١٩٥٠

تميز هذه الفترة بنمو الاتجاه نحو ربط دور ربة البيت بدورها كاملا منتجة خاصة بعد الحرب العالمية الاولى . فقد ارتفعت نسبة النساء العاملات وزاد الطلب على العمل ، والتحقت المرأة بمجالات عمل جديدة فى الادارات الحكومية ، كما التحق كثير من النساء بالعمل فى الهندسة الصناعية وانايج الاسلحة والذخيرة وقيادة السيارات . ثم انخفضت النسبة مرة اخرى ولكن كانت العودة الى المنزل طوعية . ولم تختلف الصورة اثناء الحرب العالمية الثانية

الرجل فيها سواء أو شيئا واحدا ، فالمرأة لها دورها الذي يختلف من دور الرجل ، والزواج لا يحقق المساواة بينهما .

والتمايز بين دور الرجل بوصفه ذكرا ودور المرأة بوصفها أنثى في الأسرة الحديثة ليس تمايزا بسيطا ، فالترتيب الذى تسيطر عليه الأسرة من ذكر اصطلاح الزوج سابقا على الزوجة يوضح بناء متدرجا ، ولا يختلف هذا الترتيب فيكون للانثى أن تسبق الذكر إلا حين يذكر والدان ، فيقال الأم ثم الأب وذلك لأن المرأة هي التى تقوم بتربية الاطفال ورعايتهم في الأسرة .

وقد كان للتنمية الاجتماعية في هذا القرن دور في زيادة أهمية الجنسين في الأسرة ، واهتمام المرأة بالشئون المنزلية فهو ما تختص هي به دون الرجل .

وقد أدى التصنيع الى ظهور الأسرة النووية ، تلك التى تقوم بتوفير كافة الاحتياجات المعيشية وزيادة الدخل . والتحسن في ظروف المعيشة وفي ظروف الأسرة كان له اثر في زيادة الاعباء المنزلية وظهور متطلبات جديدة ، مما زاد من أهمية العمل المنزلى .

وإذا كان العمل المنزلى قد تآثر بظروف التصنيع فقد تآثر أيضا دور المرأة ونسبة الزوجية الأم .

وقد ركزت التنمية على امرين أساسيين تعتمد عليهما الزوجة الأم في تربية الطفل ورعايته .

الامر الاول : ضرورة تزويد المرأة بالمعلومات اللازمة من تربية الطفل ورعايته ، فنجاح المرأة في دور الامومة يتوقف على ذلك .

والامر الثانى : وجود الأم بجانب الطفل ، حيث أن الطفل في حاجة الى استمرار وجود الأم بجانبه أكثر من حاجته الى الأب . فالأم

ولتوضيح الأساس الاول الذى يعتمد عليه في التمييز بين المرأة والرجل يمكن أن تتبع دور المرأة كراعية للشئون المنزلية داخل الأسرة وخارجها في الوقت الحاضر .

أولا : داخل الأسرة :

حين نتحدث عن دور المرأة داخل الأسرة نعنى بذلك دورها في المنزل أو البيت ولا نعنى به مكان العمل .

فالمرأة في الأسرة هي التى تحمل الاطفال وترعاهم وتولى تربيتهم ، وهي في المنزل ربة البيت .

ووظيفة العائلة أو الأسرة - في مختلف المجتمعات - توجيه السلوك الشخصى ، فالشخصية لا تولد ولكنها تتكون من طريق التنشئة الاجتماعية ، والمرأة هي التى تنهض بهذه العملية ، وعلى ذلك يقع عليها صعب تكوين الشخصية الإنسانية .

وتكوين افراد المجتمع الذى تتولاه الأسرة يتم من طريقين :

الاول : تنشئة الاطفال اجتماعيا ، والثانى : صلب الشخصيات التنافسية في قوالب اجتماعية . فهى تهيب الافراد للقيام بأدوار الزوجية ، الأم ، ربة البيت ، الزوج ، الأب .

وتكوين افراد المجتمع لا يعد وظيفة جديدة للأسرة ولكنها أصبحت ذات أهمية كبيرة في الأسرة الحديثة ، حيث أن الأسرة الحديثة قد فقدت الكثير من الوظائف التى كانت تقوم بها العائلة في المجتمع التقليدى ، أى مجتمع ما قبل التصنيع .

أن محور بناء الأسرة الحديثة هو التمايز بين الجنسين ، فلم يعد دور المرأة ودور

التقليدي بين الرجل والمرأة ، فهذا التمييز لا يزال قائما والمرأة لا تزال ترتبط بأعمال معينة ، فهي تعمل في مهنة التدريس وكذلك التمريض والسكرتارية والأعمال الكتابية والبيع في المحلات والعمل في المصنع ، هذه كلها مجالات مارست المرأة العمل فيها الى جانب نهوضها بالعمل المنزلي .

وفي إنجلترا وويلز بلغت نسبة العاملات في هذه المهن ٥٢ ٪ عام ١٩٧٠ ، وكذلك تركز عمل النساء في هذه المهن في كل من الولايات المتحدة وألمانيا وإيطاليا والنرويج والسويد .

ومع هذا الاقبال على المهن على انها أكثر ارتباطا بالرجل ، ومن التحقق بهذه المهن من النساء قد تخصص في نواح متعلقة بالمرأة . فالحماية تهتم بقضايا الزواج والطلاق ، وتهتم الطبية بأمراض النساء والولادة وطب الأطفال ، ولم يكن للتعليم وزيادة التخصص تأثير قوى على اختيار المرأة للمهن التي تعمل فيها .

وتوضح نتائج المسح القومي الذي أجرى في بريطانيا أن نسبة ربات البيوت اللائي لا يعملن خارج المنزل ١ - ٢ أما اللائي لهن أطفال ويعملن فتعادل ١ - ٣ ، وتشير تلك النتائج كذلك الى زيادة نسبة الأمهات اللائي يخرجن للعمل عندما يبلغ أطفالهن سن ١٥ سنة وتقل النسبة كلما صغر سن الأطفال عن ذلك .

ومن متابعتنا لدور المرأة كراعية للشئون المنزلية داخل الأسرة وخارجها في الوقت الحاضر نخلص الى أن التعارض بين وضع الرجل والمرأة ليس ناجما من الدور البيولوجي الذي تقوم به المرأة في الحمل والولادة وإنما ينتج من الدور الثقافي في التربية .

فالأومة مثلها مثل رعاية الشئون المنزلية من الأدوار التي تخصص بها المرأة وتتميز بها عن الرجل . ومما يوضح ذلك

تهتم بتربية الأطفال ورعايتهم ، والاب يقوم بتوفير وسائل المعيشة لهم .

ومن كل ما سبق نرى ان الأسرة كنظام اجتماعي يميز بين دور الجنسين ، والمرأة في الأسرة الحديثة التي تتألف من رجل وامرأة تكون في المحل الاول زوجة وأم لطفل تقع عليهما كل الاعباء المنزلية ، مهما كانت الاعمال التي تقوم بها خارج المنزل مهندسة كانت أم طبيبة ، فالمرأة في الأسرة خالقة المنزل ، ورعاية ومركز حياة الأسرة كلها .

ثانيا : وبعد ان اوضحنا دور المرأة كراعية للشئون المنزلية داخل الأسرة في الوقت الحاضر نعرض للحديث عن دورها كراعية للشئون المنزلية خارج الأسرة أيضا .

ويتضح هذا الدور في أهمية الأسرة في توفير الحياة الاجتماعية والعاطفية لأعضائها ليكونوا أفرادا منتجين في المجتمع الحديث .

لقد كان لانتشار التعليم والعمل خارج المنزل دور في وضوح التمييز بين الجنسين ، والمحك في ذلك اهتمام المرأة بالشئون المنزلية .

وهذا ما يؤكد الأحصاءات الخاصة بالقوى العاملة من المساواة بين الجنسين والتشابه بين الوظائف والأعمال التي يقوم بها الرجال والنساء ، إلا أن تلك المساواة وهمة ولا أساس لها في الواقع الفعلي .

وقد ازدادت في هذا القرن نسبة الإناث اللائي يعملن خارج المنزل وتوضح ذلك في بريطانيا خلال الفترة ١٩٥٠ - ١٩٦٠ . ويرجع ذلك الى قدرة المرأة المتزوجة على الجمع بين الحياة الأسرية والعمل ، والى أنها قادرة على أن تكون ربة بيت وعاملة ، وعلى العكس نجد لباتنا في نسبة العاملات من الزوجات الأمهات .

وهذه الزيادة في نسبة العاملات من الإناث لا تشير الى حدوث تغيرات في التمييز

بطريقة غير مباشرة تتمثل في رعايتها الرعاية التامة .

ومنذ ارتبط المفهوم التقليدي للانوثة بدور ربة البيت والزوجة والأم والمرأة تواجه صراعا بين دورها في المنزل ومسؤوليتها في رعاية شئون الأسرة ودورها في المجتمع بوصفها كالنا حيا له قوى ذاتية تنبئ له المساواة بغيرها دون تمييز .

ولذا فإن الصراع الذي يواجه المرأة الآن إنما هو صراع بين الأدوار المتغيرة للجنسين . والدور القائم على أساس الجنس يكون قائما على أساس بيولوجي يحدد سمات معينة للشخصية ، واستجابات سلوكية تتلاءم والشخص ذاته .

فالناحية البيولوجية تفرض أن يكون أعضاء المجتمع ذكورا وإناثا ، والمجتمع الصنائي الحديث قد أوجد فرصا للمساواة بين الذكر والأنثى ، ولكن في نفس الوقت اختفى التمييز بين الذكور والإناث بوصفهم جميعا أعضاء في المجتمع ، ومع ذلك يعود المجتمع ليحدد لكل منهما مجالات للعمل ويخص النساء برعاية الأطفال وتدبير شئون المنزل ، بل ورعاية الرجال أيضا .

فهذا الصراع الذي يواجه المرأة حديثا يفرض عليها أن تختار بين سلوك الانثى التقليدي وسلوك الذكر . فالرجل قد حصل على حقوق كثيرة كحق التعلم وحق التصويت، كما أن له الحق في الحصول على وظائف معينة.

ولما كان المجتمع الذي اعترف للمرأة بحق المساواة بالرجل هو نفس المجتمع الذي أعطى للرجل النصيب الأكبر من الحقوق فإنه على الرغم من كل مآلاته المرأة من حقوق ، وخاصة حق التعلم ، فالحقيقة الهامة التي تنضج من ذلك هي أن المجتمع قد خص المرأة بدور يعتبر أكثر الأدوار أهمية ، ألا وهو

النظر إلى اهتمامات المرأة وتركيزها على اختيار المهن التي تتعلق أساسا بالشئون المنزلية والتي تربطها بالدور الانثوي . وهذه الاهتمامات من جانب المرأة يزيد الاختلافات بين الجنسين ، بل ويجعل من تلك الاهتمامات ملامح ثابتة نسبيا تختص بوضع المرأة وربما تكون من عوائق تحقيق المساواة المهنية بين الجنسين .

وبعد أن انتهينا من الحديث عن الأساس الاولي الذي يرجع اليه التمييز القائم بين الرجل والمرأة في المجتمع في الوقت الحاضر ننتقل إلى الحديث عن الأساس الثاني الذي يرجع اليه هذا التمييز وهو ما يتعلق بتناقض القيم الثقافية الموجهة لدور المرأة في المجتمع. وهذا التناقض يبرز من خلال الأدوار التي تقوم بها المرأة داخل وخارج المنزل . فالمرأة عضو من أعضاء المجتمع يختصها بأدوار تنهض بها . والمجتمع أذ يحدد لها الدور الانثوي التقليدي كربة بيت يحدد ذلك منزلتها الاجتماعية كزوجة وأم .

والمجتمع ، مع ذلك ، يدرك أن المرأة كائن حي له قوى ذاتية لا يختلف في ذلك عن غيره من الكائنات الانسانية ، فلا ثمة تمييز بينها وبين كل الكائنات الانسانية في ذلك ، وهذا يحتم أن تتساوى مع غيرها في الحقوق والواجبات .

ومن هنا يظهر التناقض في تلك القيم الموجهة لدور المرأة . فالمجتمع أذ يربطها بذلك الدور الانثوي يعود فيقر لها بالمساواة مع غيرها في الحقوق والواجبات بوصفها كالنا حيا له قوى ذاتية .

ومن ذلك أن المرأة تتساوى مع غيرها في التعليم وفي القواعد القانونية الظاهرة ، وهي تحقق ذاتها على أساس مقدراتها ومواهبها هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى نرى حياتها في ارتباطها بزوجها وأطفالها وتحقق ذاتها

ان ربة البيت الحديثة تتمتع بشخصية متميزة ، وهذا التمييز بين الجنسين لا يزال قائما في مختلف المجتمعات خاصة في مجالي التعليم والعمل .

فهي تقوم بدورها الائتوي كربة للبيت، وزوجة وأم ، وهي في نفس الوقت تقوم بدورها كماملة تمارس مهنة معينة في اطار المجتمع الذي تعيش فيه ، ولذا كان لها كل خصائص الادوار الاخرى للعمل الا خاصة واحدة تتمثل في عدم حصولها على اجر تقدي نظير ما تقوم به من اعمال منزلية .

وفي ضوء ذلك اختلفت الآراء في تحديد وضع المرأة . يرى البعض ان الاهتمام بالشئون المنزلية ورعاية الاسرة ليس الا نوما من العبودية والاستغلال للمرأة .

بينما يرى آخرون ان دور ربة البيت ليس الا اختيارا حرا لمهنة تعتبر مجالاً للإبداع الفردي والمهارة الخلاقة .

وهناك فريق آخر يرى ان ربة البيت انسانة مظلومة ، في حين يرى غيرهم ان ربة البيت انسانة حرة لا تخضع لروتين العمل والقيود التي تفرضها نظم العمل الصناعي .

وهكذا ندرك ماكان من اختلاف في الرأي حول وضع ربة البيت ومدى استجابتها للعمل المنزلي .

ويجدر في هذا المجال ان نعرض لراي ربة البيت ذاتها لتتعرف على نظريتها لذلك العمل ومدى تقويمها لوضعها وتصورها للمسؤوليات التي تنهض بها ، وذلك من خلال الدراسة الميدانية التي تصل بنا الى الراي الاصوب .

ومن واقع بعض المقابلات التي قامت بها المؤلفة ، ومن خلال الحلات التي درستها يتبين :

الاهتمام بالاسرة ورعاية شئون المنزل ، وهذا يدل على ان التمييز بين الجنسين لا يزال قائما في مختلف المجتمعات خاصة في مجالي التعليم والعمل .

وتوضح نتائج احدى الدراسات التي اجريت في احدى جامعات بريطانيا عن مجالات العمل والاسرة ، ان من الاسباب التي تجعل المرأة تحجم عن العمل في مجالات عمل الذكور النظر الى هذه الاعمال على انها ليست اعمالا انثوية ، والمرأة تخاف ان توصف بأنها غير انثى اذا ما التحقت بهذه الاعمال .

وهذا نفسه ما حدث في الولايات المتحدة حيث كان لتعليق المرأة لانخفاض نسبة المشتغلات بالهن الهندسية ، فالسبب الرئيسي هو خوف المرأة من ان توصف بأنها غير انثى. هذا بالإضافة الى ان والدين لا يشجعان بناتها على التدريب في مثل هذه الاعمال .

وخلاصة القول ان التركيز على المساواة بين الجنسين ليس الا خداعا للنفس ، اذ انه من غير الممكن ان تتساوى المرأة بالرجل في الحياة العامة او خارج المنزل في الوقت الذي لا تتساوى فيه بالرجل داخل الاسرة ، ورغم خروج المرأة للعمل والاستغلال ببعض المهن ، ورغم حصولها على حق التعليم العالي والتدريب في مختلف المجالات ، وما اتيح لها الان من فرص تؤهلها للدخول في المجالات المهنية الا ان هذا كله ليس الا مجرد خيال بالنسبة لغالبية النساء في مجتمعنا .

خامسات ربات البيوت ودورهن في الوقت

التحاضر :

لا شك ان كل فرد في المجتمع يدرك من ربة البيت ، ويعرف ماهية هذا المدلول ، ولكننا نريد توضيح ماهية هذا المدلول في المجتمع الحديث .

وللعمل المنزلى اتجاهان مختلفان :

الاول : ان ثادية ربة البيت للعمل المنزلى يمثل جزءا من تصورها لادائها .

الثانى : يفصل دور ربة البيت عن دور الام ودور الزوجة .

والاتجاه الاول يمثل الاتجاه التقليدى الذى يسود بين ربات بيوت الطبقة العاملة ، ويرجع ذلك الى طول فترة التعلم وسن ترك المدرسة .

والعمل المنزلى يعتبر موضوعا شخصيا لغالبية النساء ، والرضا بقبوله او عدم الرضا قد يكون بصورة غير مباشرة .

والمقالات التى تمت لمجموعة من ربات البيوت . لموضوع البحث الذى قامت المؤلفة باجرائه تشير الى رضا غالبية ربات البيوت عن عملهن ، بل انها تشير الى اكثر من ذلك، فهن يعطين العمل المنزلى اولوية على الاعمال الاخرى التى يقمن بها .

وكان تركيز المؤلفة على حالات اربع ، درستها دراسة مركزة ، تناولت فيها : الحياة الزوجية، المسكن، الاناث ، التعليم، المساواة، الزواج المبكر ، العمل بالاجر قبل وبعده والوظائف ذات المهارة المنخفضة . وتطرقت فيها الى اثر البيئة الاجتماعية فى تكوين الاتجاهات نحو العمل المنزلى ورعاية الطفل .

وقد اسفرت نتائج تلك الدراسة التاريخية عن ان العمل المنزلى يؤكد ذاتية ربة البيت ، كما اوضحت مدى الاهتمام الذى حظى به العمل المنزلى، فكثير من ربات البيوت قد اقدمن على ترك الاعمال التى عملن بها قبل الزواج ، وخاصة بعد انجاب الاطفال ، كما اثبتت تلك الدراسة ان غالبية ربات البيوت يؤدين العمل المنزلى كما كانت تؤديه امهاتهن .

ان ربة البيت نفسها ترى ان اعظم شىء فى العمل المنزلى هو عدم خضوعه لقيود العمل ومواعيده . فالعمل المنزلى يتيح لها حرية الحركة ، ولا يلزمها بالتقيد بمواعيد معينة .

كما تؤكد تلك الدراسة مدى ارتباط العمل المنزلى بالمرأة دون الرجل ، وعدم رغبة المرأة فى مشاركة الرجل لها فى الاعمال المنزلية .

وهذا انما يعكس الاعتقاد السائد عن وجود اختلافات طبيعية بين الجنسين ، ويؤدى بدوره الى التاكيد على ان لكل من الجنسين دورا فى المجتمع يختلف من دور الاخر ، فالذكر له دوره الذى يختلف عنه دور الانثى . هذا الى جانب العوامل البنائية الاجتماعية التى تشكل ضغطا كبيرا على المرأة لتتدرج سيكولوجيا مع العمل المنزلى .

فالقيام بدور ربة البيت لا شك يتطلب نوعا من التدريب الذى يجب ان تهيأ له الانثى فى فترة مبكرة من حياتها وتلك التهيئة وهذا الاعداد يعتبر جزءا من تنشئتها الاجتماعية .

ومما يؤكد اهمية هذا التدريب ، بل واهمية ممارسته فى فترة مبكرة واعتباره جزءا من التنشئة الاجتماعية ما يلاحظ على ربات البيوت من قضاء وقت طويل فى العمل المنزلى لا يختلفن فى ذلك عن امهاتهن ، على الرغم من توفر الادوات التكنولوجية الحديثة التى تسهم فى انجاز العمل المنزلى بصورة اسرع ، والتى تسهم كذلك فى الاقلال من الجهد الذى يبذل فيه .

ولا شك ان طريقة اداء العمل المنزلى والمستوى الذى يتم انجازه عليه تختلف باختلاف من ينهض به ، ولكن اسلوب العمل ينتقل اساسا من الام الى الابنة ، وهذا كله يتحدد من خلال التنشئة الاجتماعية لربة البيت .

الاساس . ولما كان علم الايولوجيا يهتم بالدراسة البيولوجية للسلوك الاجتماعى (١) فقد حاول الايولوجيون من العلماء تقسيم اسطورة تقسيم العمل على اساس الجنس . فارتباط دور ربة البيت في نظرهم بالمرأة دون الرجل له جذور بيولوجية ، بل انهم يربطون كذلك تقسيم العمل في المجتمعات الصناعية بين الذكر والانثى بتقسيم العمل في المجتمعات التقليدية في الماضى والحاضر .

واذا كانت نظرة الايولوجى ترجع الى الطبيعة وتقوم على الافتراض فان نظرية الانثروبولوجى قد جاءت على عكس ذلك ، فهي تعتمد على معلومات معينة مستمدة من دراسات للمجتمعات التقليدية وكان (ميردوك) واحدا من الانثروبولوجيين الذين اقاموا الدليل على ذلك .

فالرجل يتمتع بقوة جسمية تتميز بها عن المرأة ، وهذه القوة تمكنه من القيام بأكثر الأعمال مشقة ، في حين تعتمد الطبيعة الفسيولوجية للمرأة قيامها بالأعمال التى تتطلب جهدا اقل كجمع الطعام واعداده ، وصناعة الملابس والنسيج .

وقد لوحظ ازدياد التخصص والتعاون بين الجنسين في كل المجتمعات الانسانية على هذا الأساس البيولوجى .

واكتسب الرجل في ضوء ذلك بعض الميزات ، فالمرأة عليها أن تقوم برعايته ، فهي توفر له الطعام ، وهيئة الظروف المنزلية المناسبة لراحته ، الى جانب ما تبذره من حب وحنان وعطف لتحقيق الرعاية العاطفية . ان الرجل لم يكتسب هذه الصفات بحسب ، انه اعتبرها حقا مكتسبا دائما ، وطلى المرأة ان تنهض به وقد منح هذا الحق استنادا

سادسا - مكانة المرأة :

ان تحديد مكانة المرأة ، وقصر دور ربة البيت عليها وتخصيص هذا الدور بها الى الحد الذى أصبح معه احدى الميزات التى تختص بها المرأة دون الرجل - لم يكن النسق الصناعى وحده هو الذى أدى اليه ، بل ان هناك قوى أخرى قد تدخلت في ذلك .

ومن هذه القوى مجموعة الاساطير التى نتحدث من وضع المرأة في المجتمع ، والايديولوجية التى تتعلق بدور الجنسين وخاصة دور الانثى ، وقصر اهتمامها على الشؤون المنزلية .

وقد ظهرت اسطورتان تحددان مكانة المرأة ستعرض للحديث عنهما لنتبين ما كان لهما من اثر في تحديد تلك المكانة .

والاسطورة الاولى اذ تحدد مكانة المرأة تعالج ذلك في ضوء تقسيم العمل على اساس الجنس . اما الثانية فهي تحدد هذه المكانة على اساس الامومة .

وتقوم الاسطورة الاولى اساسا على قصر دور المرأة على الاهتمام بالشؤون المنزلية والعائلية باعتبار انه الدور الطبيعى في كل المجتمعات وعلى المرأة ان توضح هذا الدور للمجتمع الذى تعيش فيه .

وفي ضوء تقسيم العمل حاول بعض العلماء مناقشة طبيعة دور المرأة . ومنهم علماء الانثروبولوجيا ، والسيكولوجى .

وعلم الانثروبولوجيا ، والايولوجيا ، والسيكولوجى تعتبر من المصادر العلمية التى قامت عليها اسطورة تقسيم العمل على اساس الجنس ، والى تحدد مكانة المرأة على هذا

(١) الايولوجيا : علم يدرس العلاقة بين الانسان والبيئة بمعنى آخر العلاقة بين البيئة والشخصية . وهذا العلم يدرس الخصائص الثقافية التى تميز جماعة من جماعة اخرى فكل مجتمع له شخصية اجتماعية مميزة .

وكل ذلك إنما يهدم اسطورة تقسيم العمل على أساس الجنس من أساسها ، حيث قامت المرأة في مختلف المجتمعات بالأعمال التي تتطلب جهدا كبيرا .

ففى مجال الزراعة ، قامت المرأة البريطانية بالعمل الذي يتطلب جهدا كبيرا في هذا المجال . هذا في القرن الماضي ، ولا تزال تمارس مثل هذه الأعمال في أنحاء العالم خاصة في افريقيا ، فها هي تعمل بالزراعة بل وتعتبرها عملا نسائيا .

وتشير كثير من الدراسات الانثروبولوجية الى قيام المرأة بأعمال شاقة مثل أعمال البناء والتشييد والنقل ، كما تشير الى أنها عملت في بعض المجتمعات بالتجارة ، وتحملت في سبيل ذلك الكثير من المشاق .

ومع اختلاف الثقافات في نظرتها تجاه الأعمال التي يقوم بها كل من الجنسين فإن هناك اتفاقا على أن رعاية الطفل تعتبر عملا طبيعيا بالنسبة لكل النساء وخاصة في المجتمعات الصغيرة حيث تحمل المرأة الطفل أكثر الاوقات ، كما تقوم بأعمال أخرى تبذل فيها جهدا كبيرا .

ان اسطورة تقسيم العمل على أساس الجنس والتي تمثل الحقيقة الواقعة بالفعل ، قد سادت الثقافات الغربية الحديثة ، وقد أدت تلك الاسطورة الى التعميم بأن عمل كل من الرجل والمرأة يمثل نمطا واحدا في كل الثقافات ، بل انها تؤكد كذلك أن هذا التعميم قائم على أساس بيولوجي ، مع وجود كثير من الأمثلة التي تكشف عن خطأ هذا التعميم .

كما أن القول بأن دور ربة البيت ليس قائما في كل مجتمع ، وأن وجوده يتوقف على نوع معين من المجتمعات قول غير صحيح ، حيث أن تعدد الثقافات لا يرجع الى التسوى البيولوجية وحدها وإنما يرجع الى قهورة الإنسان على الخلق والإبداع .

الى الأساس الذي يركز عليه في تقسيم العمل ألا وهو الجنس .

واللاحظ أن الاثيولوجيا لم تختلف من الانثروبولوجيا في مناقشتها لموضوع دور ربة البيت ، وقصر هذا الدور على المرأة ، واختصاصها دون الرجل بالتهوض به ، بل ان كلاهما يعتبر ذلك نمطا سائدا في البناء الاجتماعي لكل المجتمعات الانسانية .

وهذا الرأي يواجه معارضة ، اذ ان تقسيم العمل لا يتم على أساس الجنس فقط ، وإنما تمثل الاعتبارات الثقافية أساسا آخر في هذا التقسيم ، فالدور الفسيولوجي الذي تنهض به المرأة ، والذي يتمثل في الحمل والولادة والرعاية وتربية الاطفال ، ليس وحده الذي يحدد التقسيم بين الجنسين في المجتمع ، بل ان القيم والمعتقدات السائدة عن الذكورة والانوثة دورا آخر في هذا التقسيم .

لقد ارتبط دور المرأة في معظم الثقافات بل وفي كل أنحاء العالم بالدور الانتاجي وخاصة في فترة ما قبل التصنيع .

وارتباطها بهذا الدور الانتاجي كان يبعدها الى حد كبير عن العمل المنزلي ويستنفذ حيويتها ، ولكنه مع ذلك لم يتعارض مع دورها الذي تنهض به في رعاية الاطفال .

وكان يساعد على اداء هذا الدور والد زوجها او جماعة الاقارب ، كما ان اكبر الاطفال سنا يشارك في المساعدة ايضا .

والمرأة لم يقتصر دورها على العمل الانتاجي وحده بل كان لها دور في الحروب فقد شاركت فيها قديما وحديثا ، فهذه الملايين من النساء شاركت في مختلف الأعمال في الحرب العالمية الثانية ، ونهضت بالعمل في الأعمال العسكرية بمختلف أنواعها ، وقامت بالمشاركة في أعمال البناء والزراعة وان ذلك ليدل على أن المرأة نهضت بأعمال كثيرة خاصة بالذكور في كثير من المجتمعات .

ان استمرار النسق الاجتماعى فى الوجود، واستمرار العائلة كذلك أمر حتمى ، واستمرار هذا النسق يقتضى تقسيما للعمل يقوم على أساس الجنس كما يقتضى تمييزا للدور فى العائلة ، وهذا يحتم أن تكون المرأة ربة البيت، ولما كان دور ربة البيت دورا عائليا فإن اسطورة تقسيم العمل على أساس الجنس تحمى النظام الاسرى وتؤكد شرعيته .

ومن ذلك نرى ان اسطورة تقسيم العمل على أساس الجنس هي أساس اسطورة العائلة لكل مصدر من المصادر العلمية السيكولوجى والانثروبولوجى ، والايولوجى .

هذا ما يتعلق بالاسطورة الاولى التى تحدد مكانة المرأة على ضوء تقسيم العمل على أساس الجنس .

اما بالنسبة للاسطورة الثانية فانها تحدد تلك المكانة على أساس الامومة .

والامومة هي دور ثابت فى كل زمان ومكان ، لا يطرأ عليه تغيير أو تبدل فى حين يتغير دور ربة البيت ، بل ويتغير كذلك دور الزوجة .

وهذا الثبات الذى يتميز به دور الامومة يؤكد حاجات أساسية ثلاث :

الاولى : ان الأطفال دوما فى حاجة الى امهاتهم .

الثانية : وان الامهات ايضا فى حاجة الى أطفالهن .

الثالثة : ان الامومة هي العمل الاكبر الذى تقوم عليه حياة المرأة .

وهذه الحاجات الثلاث ، يكمل بعضها البعض ، وهي حقائق معروفة فى كل الثقافات وتحليل اسطورة الامومة يؤكد ذلك .

وهذه الحقائق تنضج فى عمليات التنشئة الاجتماعية حيث تتركز التنشئة الاجتماعية

بقي ان نتحدث من المصدر السيكولوجى الذى يعد اجد المصادر العلمية التى قامت عليها اسطورة تقسيم العمل على أساس الجنس . فالسيكولوجيون يؤكدون على الدور التقليدى للجنسين ويعتبرون ذلك أساسا لاستمرار النظام الاجتماعى وبقائه .

فالمصدر السيكولوجى اذن يعتمد على الانجاء الوظيفى بتركيزه على أهمية الادوار التقليدية للجنسين .

فالمصدر السيكولوجى كالمصدر الانثروبولوجى والايولوجى للاسطورة يؤكد الافتراض القائل بان وضع المرأة فى المجتمع يتحدد بالضرورة بيولوجيا وعلى أساسه يتحدد مكان المرأة فى بيولوجيا العائلة انطلاقا من ضرورة وجود من يقوم برعاية الأطفال فى الاسرة . والام هي التى تنهض بهذا الدور، ودورها هنا دور اجتماعى حيث انها تنهض بهذه الرعاية من الحمل والولادة ، وهي تهتم كذلك بشئون المنزل بل ورعاية الزوج نفسه فى الوقت الذى يكون فيه الرجل حرا منطلقا فى كثير من المجالات بينما تكون المرأة مقيدة بالارتباط بالمنزل .

وذلك كله يتطلب تبريرا آخر غير التبرير البيولوجى ، والتحليل السيكولوجى لبناء العائلة يشير الى تأكيد القيم التقليدية لدور الجنسين ، ويفرق بين الدور المساعد او المساند والدور التعبيرى ، ويعتبر دور المرأة دورا تعبيريا ، وأساس ذلك الاعتبار ما تقوم به المرأة تجاه العائلة من تقديم الحب والحنان والاستقرار لها ككل ، وما تقوم به من تدعيم للعلاقات بين افرادها . اما الدور المساند فان والد الزوج هو الذى يختص به .

ان السيكولوجى يؤكد أن دور الجنسين اساس لبقاء المجتمع فى صورته الحالية ، فدور المرأة - كعامله دون اجبر ومربية وراعية للأطفال وقائمة على خدمة الرجل توفر له حاجاته الاسرية والعاطفية - استثمار اقتصادى .

يخلق المشاكل التي تعوق المرأة عن رعاية الأطفال وتوفير حاجاتهم . والحاجات العاطفية لا يمكن لأحد غير الأم إشباعها سواء كانت تعمل خارج المنزل أم يقتصر ذلك على الأعمال المنزلية أو أى أعمال أخرى تشغل المرأة .

وحيث أن الأم ترتبط ارتباطاً وثيقاً بالطفل ، خاصة في مرحلة الطفولة الأولى ، فعليها أن تصلح أخطاءها وتعديل سلوكها ليكون سلوكاً مثالياً لما لذلك من تأثير في حياة الطفل . فالأخطاء التي قد تقع فيها الأم تتغلغل في حياة الطفل ، وعلى الرغم من ازدياد مشاكل الأمومة في المجتمع الحديث إلا أنه يمكن التغلب عليها وحلها .

ومما سبق يتضح أن كلا الأسطورتين، أسطورة تقسيم العمل على أساس الجنس وأسطورة الأمومة ، يمثلان عاملاً من العوامل الأساسية التي تؤكد ربط المرأة بالعمل المنزلي، بل يشير مضمونها أيضاً إلى ظلم المرأة واضطهادها .

أوردت المؤلفة في ختام كتابها فصلاً يعرض لكيفية تحرر المرأة من الأعمال المنزلية التي تستغرق الكثير من وقتها ، والتي تكلفها جهداً كبيراً ، بل وتستنفد المزيد من طاقتها .

وأساس اهتمام المؤلفة بهذا الأمر ماثراً من أن تحرر الأمة كلها وهن يتحرر المرأة ، وهي تعرض لذلك طرائق ثلاثاً وضعها لينين ورواها سبيلا لتحرير المرأة من هذا العبء الذي يتقلى كاهلها .

الطريقة الأولى : تتمثل في إلغاء دور ربة البيت .

الطريقة الثانية : تتمثل في إلغاء العائلة

أما الثالثة : فهي تتمثل في إلغاء تقسيم العمل على أساس الجنس .

وفيما يخص الطريقة الأولى التي تستشهد بها المؤلفة باعتبارها واحدة من

الاهتمام في المرحلة الأولى على أعداد الأنثى لدور الأمومة كدور لكل الإناث . وإن ابتعدت بعض النساء في الوقت الحاضر عن هذا الدور نتيجة لما طرأ على النشاط الانثوية من تغيرات . فالمرأة تمهد إلى غيرها مسئولية تربية الأطفال لكي تتفرغ للأعمال الأخرى ، ومع ذلك يصعب على المرأة أن تهتم بعدم حبها للأطفال أو بعدم رغبتها في رعايتهم .

إن الكثير من نتائج بحوث علم النفس تؤكد حاجة الأطفال إلى أمهاتهم . ويمكن تقويم الأمومة على أساس ما يمنح من العطف والحنان حيث يمكن للطفل أن يحصل عليهما ممن يقوم برعايته ، فالأمر يتعدى ذلك بالنسبة لرابطة الأمومة التي تمثل ارتباطاً روحياً بين الطفل والأم . وهذا الارتباط الروحي بين الطفل والأم يؤكد أن أي رعاية يتلقاها الطفل من أي إنسان آخر خلاف أمه لا تساوى مطلقاً رعاية الأم . ولذا يتحتم على الأم أن تكون بجوار الطفل خاصة في مرحلة الطفولة .

ولا تختلف الاهتمامات العاملات من غيرهن من النساء في كل العصور والثقافات ، فهن يشاركن في مناشط الحياة الاقتصادية الإنتاجية في المجتمع ، ويقعن في نفس الوقت برعاية الأطفال ، وإنما يكون الاختلاف في نوعية الرعاية التي يحصل عليها الطفل ، واتجاهات الأم نحو العمل ، حيث إن تلك الاتجاهات هي التي تحدد نوع الرعاية التي يتلقاها الطفل وليس العمل ذاته هو الذي يحددها .

ولذا يكون الانتقاد السائد بأن عمل المرأة يتعارض مع وجود الأطفال اعتقاداً لايرال غير صحيح . وما زال النقاش حول دور المرأة العاملة ومشاكلها قائماً ، ولم ينته بعد ، وليس معنى ذلك انعدام المشاكل بالنسبة للأم غير العاملة ، فإن لها مشاكلها التي قد تصرفها عن رعاية الأطفال ، وأمهاؤها المنزلية قد تحول بينها وبين إمكانية توفير الاحتياجات المطلوبة لهم ، فخروج المرأة للعمل الذي يتحقق من ورائه الكسب المادي ليس وحده الذي

فالأجر حينئذ تكون بمثابة منحة وليست اجرا ، فالأجر يقدم في هذه الحالة نظير قيام ربة البيت بتربية أطفالها ، وهذا لا يستقيم وما تقوم به الدولة من أنواع الرعاية للطفولة والأمومة ، وما يمنح من العلاوات الاجتماعية عند انجاب الأطفال . فهي وإن قلت قيمتها النقدية تظل قيمتها الاجتماعية كبيرة وخاصة بالنسبة للأم .

ان سعادة المرأة بالعمل المنزلي امر يحوطه الشك ، اذ ان التزامها بهذا العمل يفرض عليها ان تكون في وضع التابع في المجتمع ، والمجتمع كذلك ينكر اهمية العمل المنزلي لعمل منتج ، وكل ذلك يقف حائلا دون أى مطالب تهدف المرأة من ورائها الى تحسين ظروف حياتها وتوفير اسباب الرضا لها .

وعلى الرغم من ذلك تشير كثير من نتائج البحوث الى ان المرأة اكثر رضا من الرجل ، وهي كذلك اكثر قلقا ، وخاصة اولئك النساء اللاتي يعملن طول الوقت كربات بيوت .

ان اهمية العمل بالنسبة للرجل تفوق اهميته بالنسبة للمرأة ، فالدور الاهم بالنسبة للمرأة هو دور الزوجة والأم ، والاكثر من ذلك اهمية قبول المرأة للوظائف التي تمثل قيمة بالنسبة للرجل .

وعلى ذلك فان المرأة عليها ان ترفض الراى الذى يربطها بالعمل المنزلي وحده وهو الذى يرى ان المرأة تعنى ربة البيت .

ولا شك ان الدعوة الى الغاء هذا الدور - دور ربة البيت - يتضمن الدعوة الى الغاء الاسرة ، فالاسرة رمز للعمل المنزلي ولوجود لهذا العمل الا بوجودها .

اما فيما يخص بالطريقة التي تستشهد بها المؤلفة كسبيل لتحرير المرأة فهي تتمثل في الغاء العائلة أو الاسرة ، واساس ذلك ان الاعمال المنزلية تمثل نوما من الاستعباد

الطرائق المؤدية الى تحرير المرأة ، والتي تتمثل في الغاء دور ربة البيت ، فانها تعنى التركيز على نوع العمل الذى تقوم به المرأة .

ان متطلبات هذه الوظيفة تفرض على كل النساء بلا استثناء ، وعليه فهي لا تتطلب استعدادا خاصا للنهوض بها .

كما ان هذا العمل لا تكتنفه حواجز او دوافع تشعر المرأة مع وجودها بالرغبة في الابداع او حتى محاولة التقدم في هذا العمل ، وهي كذلك لا تشعر بمنفعة ما في تأديته ، ولا يمكنها ان تحقق ذاتها من خلاله .

وقد تكون المسئولية الملقاة على عاتق ربة البيت حافزا من حوافز هذا العمل ، ولكن العزلة التي تفرض عليها للنهوض بهذه المسئولية تحول دون تحقيق الرضا لها او التقدير من حولها .

وعلى الرغم من بذل الكثير من المحاولات لتحسين العمل المنزلي وتعديل الظروف المحيطة به لتسهيل مهمة ربة البيت وتمكينها من الممارسة الخلاقة المبدعة المحققة لذاتها الا ان ذلك كله لا يؤدي الى تحريرها .

ان محاولة الغاء دور ربة البيت امر يحتاج الى مناقشة تنتهي برفضه او قبوله .

فهناك بعض الآراء التي تتفق على ان تهئية الظروف المناسبة للنهوض بهذا العمل وتقدير اجر معين يمنح نظيره قد يؤدي الى اقبال المرأة عليه ، بل قد يدفعها الى التقدم فيه . واصحاب هذه الآراء يرون ذلك اولى الخطوات لتحسين وضع المرأة الاجتماعى .

وهناك آراء اخرى ترى ان الظروف كلها مهية لاسعاد المرأة في حدود الامكان وتتصدى للآراء السابقة التي ترى تقرير اجر يمنح لربة البيت ، وانما تعارض تلك الآراء نظرا لانها سوف تضيف ظلما جديدا للمرأة ،

والطريقة الثالثة التي تستشهد بها المؤلفة كسبيل لتحرير المرأة تتمثل في إلغاء تقسيم العمل على أساس الجنس ، الحقيقة ان كثيرا من الثقافات يؤكد شيوع هذا الذي تدعو الحاجة الى الغائه .

وان الدعوة الى إلغاء دور ربة البيت يؤدي ضمنا الى إلغاء الأسرة ، ولكن ذلك ليس كافيا ، بل لا بد من التنبيه الى ضرورة إلغاء التمييز بين الجنسين .

وهذه الطرائق الثلاث التي استشهدت بها باعتبارها السبيل لتحرير المرأة قد واجهت الكثير من المعارضة ، فالإلغاء دور ربة البيت والأسرة وتقسيم العمل على أساس الجنس كلها آراء لا يمكن ترجمتها الى واقع فعلى ، وتحقيقها رهن بتحديد وضع المرأة الاقتصادى والسياسى والقانونى المجتمع ، هو امر لم يتحقق بعد ، وتحقيقه يقتضى ان يغير الناس انفسهم أولا .

ولذا فالمرأة يمكنها ان تتحرر من العنق المنزلى عن طريق :

١ - رفض أى محاولة لربطها بالعمل المنزلى وتكرار تسميتها بربة البيت .

٢ - محاولة الحصول على كل ما تشاء من امتيازات لقيامها بتربية الاطفال . وعليها الا تعتمد الى تعليم بناتها كيفية القيام بديور ربة البيت ، وتقلع عن غرس ذلك في نفوسهن منذ الصغر ، وفى الوقت ذاته يجب ان تربط الابناء بالعمل المنزلى دون ان تخصص الاناث بهذا العمل وتقتصر عليهم .

٣ - محاولة التصرف في العمل المنزلى وابتكار الاساليب التي تمكنها من إنجاز هذا العمل فى اقصر وقت ممكن ، وعلى المرأة فوق ذلك ان تفر نفسها استعدادا لكسب معوزة تحريرها .

للمرأة ، كما ان هذه الاعمال لا تعدو ان تكون مجالا تعليميا تجريديا لا تستفيد منه المرأة .

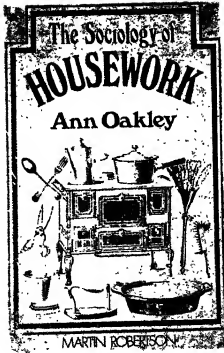
وتعتبر الاسرة رمزا للعمل المنزلى ، حيث تركز هذه الاعمال اساسا على وجودها والنهوض بهذه الاعمال لا يخرج عن كونه عملية تعليمية الزامية بالنسبة للمرأة ، فالمرأة تفرس في بناتها هذا الدور الثابت منذ الصغر ويتم ذلك من خلال توحيد الام بابنتها على عكس علاقة الاب بالابن .

وهذه العلاقة تنشأ قبل ميلاد الطفل ، فالطفل جزء من امه وتظل الانثى بعد الميلاد جزءا من الام .

وارتباط الطفل بالام على هذا النحو يؤدي الى اكتسابه كل ما يري ان يتعلمه من الام ، والاسرة ممثلة في ربة البيت تمثل موقفا تجريبيا يمكن للاطفال من طريقه ممارسة الحب وتكرار السلوك الذى قد لا يكون منطقيا ، فالام في نظر الطفل هي الحاضر وهى المثل الاعلى للحب ، والهدية التي تقدمها الاسرة للمرأة تتمثل في تهيئتها وتدويرها على النهوض بدور ربة البيت ، ولذا فان القول بإلغاء دور ربة البيت يعنى بالضرورة إلغاء الاسرة ، حيث ان ربة البيت هي الزوجة وهى الام ، ومهما حدث من تغيرات في العلاقة بين الرجل والمرأة على مر السنين فلن يغير ذلك من دور المرأة التقليدى الذى يتمثل في القيام بالعمل المنزلى .

وقد اوضحت نتائج البحوث ان الزوجة العاملة تقصر في دورها كربة بيت ، وان اى مكاسب تحصل عليها تكون على حساب هذا الدور .

وان ايدولوجية المجتمع هى التي تحدد دور الزوجين وبناء العائلة وهى غير قابلة للتعديل . وعلى ذلك يكون استعداد لاسرة او الفأوها قولا لا فعلا ، وتصورا لا حقيقة .



سوسيولوجيا العمل المنزلي

ل. آت أوكللي *

عرض وتحليل الدكتور سارة من الساعاتي

ويتناول هذا الكتاب قضية هامة وهي موقف علم الاجتماع التقليدي من المرأة . كما يعرض بين دفتيه موضوعات جديرة بالاهتمام مثل : نظرة النساء للعمل المنزلي ، ونظرتهم لأنفسهن كربات بيوت ، ومشاعرهن المختلفة نحو العمل المنزلي ، واتجاهاتهن نحو الأعمال المنزلية المختلفة من طهي وتنظيف .. الخ . ومدة العمل المنزلي الذي تقوم به المرأة محسوبا بالاسبوع . ومدى اهمية المعايير والروتين كطريقة للتأكد من أن العمل المنزلي يتم على وجه أكمل ، وكأسلوب على مكافأة الذات .

وقد حاولت الباحثة في هذا الكتاب وضع تقييم يكشف عما إذا كانت النساء راضيات أو

ثاني اهمية هذا الكتاب من انه يفرض قراءته على كل مهتم بقضايا تحرير المرأة ، فهو دراسة تتحدى النظرة التقليدية الى العمل المنزلي التي تحاول دائما التقليل من شأنه ، كما انها تتحدى افعال السوسيولوجيين ، وبخاصة المتخصصين في علم الاجتماع الاسري وعلم اجتماع العمل ، للعمل المنزلي ، كموضوع علمي جاد .

فقد داب الباحثون في علم الاجتماع الاسري على دراسة المرأة اما من خلال دورها الاسري كزوجة وام ، او من خلال دورها كعاملة خارج المنزل ، لكن دورها كعاملة داخل المنزل بدون اجر لم يحظ بدراسة جادة او منتظمة .

* Ann Oakley, The Sociology of House Work, Martin Robertson, 1974

الذي أصبح يشغل عديدا من الباحثين المتخصصين .

وفي هذا الفصل تعرض المؤلفة لوضع المرأة في المجتمع اليوم ، ذلك الوضع الذي تصفه بأنه معوق ومنتقص من قدره . فعلى الرغم من كثرة التغيرات القانونية والتشريعية في صالحها ، ومن صغر حجم الأسرة ، ومن فرص التعليم والعمل التي زادت وتحسنت وانفتحت أمام النساء ، خلال القرن الأخير ، إلا أنه ما زال هناك تفاوت ملحوظ بين الأدوار الاجتماعية والاقتصادية للرجال والنساء ، وقد شكلت انبعاث نظرية المساواة بين الجنسين سياسيا واقتصاديا واجتماعيا ، في شكل حركة تحرير المرأة ، هجوما عنيفا على هذه الفروق والتفاوتات .

ويبدو أن الموقف الذي نشهده الآن ليس نتاج الدعامات البيولوجية لأدوار الجنسين وحدها ، ولا هو حصيلة التفاوت الذي تفرضه وتصر عليه نظم المجتمع ومؤسساته المختلفة فقط ، وإنما يرجع التمييز والتفرقة بين الرجال والنساء إلى الاتجاهات والمعتقدات الاجتماعية السائدة في المجتمع .

إن حقيقة وضع المرأة كما ترى المؤلفة يكمن في أنه يتشكل يوميا من هذه الاتجاهات .. أن النساء يصبحن على الوجه الذي هن عليه ، تبعاً للطريقة التي يتوقع منهن أن يكن عليها ، أو التي يفكر الناس فيهن على أساسها .

وتأسيسا على ما تقدم فإننا لا نجد أن التمييز والتفرقة ضد النساء موجودان في المجتمع الكبير فحسب ، بل أن هذا التمييز وتلك التفرقة يتسحبان أيضا على الميدان الأكاديمي ويتضح ذلك بجلالة في علم الاجتماع ، العلم الذي يدرس الواقع الاجتماعي ، وحيث نجد فيه تحيزا واضحا ضد المرأة ، ينعكس ، بل يطابق ذلك التمييز وتلك التفرقة الموجودين في المجتمع الكبير بحيث يمكن القول أن التحيز

غير راضيات عن العمل المنزلي ، ومدى الاختلاف في درجات الرضا بينهن . كما يتناول الكتاب أيضا الطبقة الاجتماعية ، وصلتها بالعمل المنزلي والرضا عنه ، كما تناقش الباحثة تأثير التنشئة الاجتماعية على الحياة المنزلية للمرأة ، وتحلل تقسيم العمل بين ربة البيت وزوجها في المنزل ، وتتفحص صعوبات الجمع بين العمل المنزلي ، وواجبات الأمومة .

وعما د هذا الكتاب دراسة قامت بها الباحثة في سنة ١٩٧١ على أربعين زوجة من ربات البيوت الانجليزيات الحضريات .

والباحثة توجه كتابها إلى فئتين مختلفتين من القراء ، الأولى تتألف من المتخصصين في علم الاجتماع والثانية تتضمن هؤلاء الذين يهتمون بعقود ربة البيت اهتماما خاصا دون أن تكون لديهم معرفة بعلم الاجتماع ، لذلك فقد جاء الكتاب في جملته جليا واضحا .

وعلى الرغم من أن العينة التي يثنى عليها هذا الكتاب ، كانت عينة انجليزية ، فإن وضع الزوجة ربة المنزل فيها ، ينطبق في أساسياته على الزوجات في مجتمعات صناعية معاصرة أخرى .

فصول الكتاب :

يحتوي هذا الكتاب على مقدمة وتسعة فصول وخاتمة . وتكرس الباحثة **الفصل الأول** وهو في رأينا أهم الفصول على الإطلاق ، من وجهة النظر السوسيولوجية ، لقضية هامة ، وهي قضية التحيز الفكري في علم الاجتماع . ولا يثنى تقييمنا لهذا الفصل على أنه أهم فصول الكتاب من أهمية موضوعه فقط ، بل لأن هذا الموضوع هو الفكرة الأساسية التي تتكرر في كل فصول الكتاب ، بل وفي كتب المؤلفة الأخرى ولعل ذلك انعكاسا لاصدا موضوع التحيز ضد المرأة لا في علم الاجتماع بخاصة ، بل وفي العلوم الاجتماعية بعامة ذلك الموضوع .

ويعد التوجيه الذكري من وجهة نظر المؤلف أهم المشكلات المسؤولة عن اختفاء المرأة وقلة ظهورها على مسرح علم الاجتماع ، ذلك ان التركيز الذكري المتجسد في تحديد موضوعات علم الاجتماع إنما يقلل من شأن المرأة ويفرد لها منذ البداية مكانا جانبيا ، ويجعلها دائما موضوعا ثانويا ، ولذلك فإن التصنيف الحالي لموضوعات علم الاجتماع لا يعنى الكثير من وجهة نظر النساء في وضعهن الحالي .

فاذا ما تناولنا العمل المنزلي على سبيل المثال ، وهو عمل اسامي للمرأة ، نسنجد ان اغفال هذا الموضوع من ميداني علم الاجتماع الاسرى ، واجتماعيات العمل إنما ينقل بوضوح انطبعا محرفا ومشوها عن موقف المرأة الحقيقي . فليس هناك اهتمام بمدى أهمية العمل المنزلي للمرأة ، لا من حيث مقدار الوقت الذى تنفقه في الأنشطة المنزلية والعناية بالمنزل من جهة ، ولا من حيث المعنى الذاتى للعمل المنزلي بالنسبة للمرأة الذى يمكن ان يختلف باختلاف المواقع الاجتماعية ، والطبقية من جهة اخرى .

ويعد ذلك تناقضا بين وجود المرأة في علم الاجتماع ووجودها الاجتماعى الحقيقى ، كما يعد أيضا دليلا على فشل علم الاجتماع في أخذ خبرات المرأة وواقع حياتها في الاعتبار . ويمكن ان يوحى ذلك باعادة تصنيف موضوعات علم الاجتماع وميادينها بحيث تمثل كلا المنظورين الذكري والانثوى على السواء .

وتمضى المؤلف الى الفصل الثامن من الكتاب لتحلل العمل المنزلي بوجه عام ، وتصف البحث الذى قامت به بوجه خاص . وترى انه على الرغم من ان هناك ميلا ، يتزايد في السنين الحالية ، الى تقليل حدة الفروق النوعية بين الذكور والاناث في عالم العمل والمهن والوظائف ، تسيطر هناك دائما دور وظيفى انثوى برمته وهو دور ربة البيت .

ضد المرأة في علم الاجتماع إنما يشكل الوجه الآخر للعملة للتمييز والتفرقة الموجهين ضدها في المجتمع الكبير .

وتحاول المؤلف في هذا الفصل الهام ان تناقش موضوعين اساسيين ، وثيقى الصلة بالآخر : اولهما هو اعمال علم الاجتماع للعمل المنزلي كموضوع علمى جاد ، وثانيهما وهو الاكثر شمولاً ويتركز في التحيز ضد المرأة في علم الاجتماع ككل .

ان علم الاجتماع علم متحيز ضد المرأة ، لانه علم موجه توجيهيا ذكوريا (Male Oriented) وتعنى المؤلف بذلك انه يمثل تركيزا على أنشطة الذكور واهتماماتهم في مجتمع متمايز من حيث الذكورة والانوثة . ان الوضع الاجتماعى للرجل اليوم متناقض الى حد كبير مع الوضع الاجتماعى للمرأة ، من الناحيتين البنائية ، والايديولوجية على السواء . كما نجد ان النسق القيمي السائد في المجتمعات الصناعية الحديثة يطلع على الادوار الذكورية أهمية وقلرا اعظم مما يفعله بالنسبة للادوار الانثوية ، وبالمثل نجد ان هذا التحيز وتلك التفرقة يعكسان على علم الاجتماع ، الذى ينحو الى تبني قيم المجتمع الاكبر . وعلى الرغم من ان الموضوعية التى تمثل مسلعة اساسية من مسلمات المنهج السوسيولوجى ، يمكن ان تقلل كثيرا من التحيزات الظاهرة في مجال علم الاجتماع ، الا انه يبدو انها لم تؤثر تأثيرا ميقنا في هذا التحيز المتأصل ضد الاناث في علم الاجتماع .

ان وضع المرأة كموضوع في علم الاجتماع يعطينا انطبعا محرفا عن الواقع الاجتماعى الحقيقى لوضعها في المجتمع ، ذلك لان علم الاجتماع لا يعطينا صورة صادقة لدور المرأة واهميتها ، وحجم تجاربها ، وذلك بهدف ان تنفق صورتها مع الصورة المحددة لها سلفا في علم الاجتماع ، والوجهة توجيهيا ذكوريا في المحل الاول .

ذلك اذن هو التبرير الاساسى لدراسة العمل المنزلى ، فانه يمثل الخبرة اليومية المتكررة فى حياة معظم النساء اللائى يكون احصائيا قسما كبيرا بين السكان .

وتنتقل الباحثة بعد ذلك الى وصف دراستها ، التى تطلق عليها المسح الاستطلاعى الكشفي ، والسبب فى هذه التسمية يرجع كما تقول الباحثة الى ندرة البحوث والدراسات فى هذا الموضوع الذى صادف اعمالا بالغا فى علم الاجتماع .

وتبدأ بتعدد اهداف دراستها التى تجعلها فى ثلاثة اهداف رئيسية ، اولها يتضمن وصف موقف العمل المنزلى ، واتجاهات ربة البيت نحو ذلك العمل ، والثانى يتناول فى فحص نماذج الرضا ، وعدم الرضا عن العمل المنزلى فى علاقته بعدد من المتغيرات التى تتضمن الطبقة الاجتماعية ، والتربية والتعليم ، وتقسيم العمل فى الزواج ، والاجهزة والمعدات الفنية ، ونماذج التفاعل الاجتماعى .. الخ . اما الهدف الثالث والاخير فينحصر فى اقتراح الفروض الممكنة والموجهة نحو تفسير الفروق

وعلى الرغم من انه ليس هناك قانون يمنع الرجال من القيام بهذه الوظيفة ، الا ان هناك ضغوطا اقتصادية واجتماعية وسيكلوجية تقف عائقا امام الرجل ، وتمنعه من الدخول فى رحاب هذه المهنة .

وتبدأ المؤلف هذا الفصل بتعريف ربة البيت ، ويرتكز هذا التعريف على مفهوم المسئولية ، وعلى ذلك تكون ربة البيت هى الشخص المسئول وحده (دون الخادم المنزلى) عن معظم المهام المنزلية ، او عن الاشراف على الخادم المنزلى الذى يقوم بهذه المهام . وقد تكون ربة البيت متزوجة كما قد لا تكون ، كما قد تكون عاملة خارج المنزل وقد لا تكون ، وقد اُفصح ذلك المسح الذى قام به «هنت» (Hunt) عن ان تسعة اعشار النساء من غير العاملات خارج منازلهن كن ربات بيوت متزوجات . كما كانت سبعة اعشار العاملات خارج منازلهن من ربات البيوت . (١) وعلى هذا لا يكون دور ربة البيت دورا اثوريا فقط ، بل انه يعد الدور الوظيفى الرئيسى للمرأة فى عصرنا الحالى ، لان مسئولية ادارة المنزل هى مسئولية مشتركة بين معظم النساء البالغات .

(١) تتفق هذه النتيجة مع نتائج توصلت اليها باحثات مصريات ، جاء فيها ما يلى :

« يتضح مما سبق بالنسبة لتقسيم العمل الخاص بشئون المنزل بين الزوجين فى الاسرة المصرية ان الزوجة العاملة فى معظم الحالات تقوم بعمل كل شئ يتعلق ببيتها بمدعودتها من عملها ، وانه ليس صحيحا ما يذهب اليه البعض من ان الام المشتغلة لا تقوم باى عمل منزلى فى بيتها . وقد تبين من استراتيجتنا لما سبق من الاعمال المنزلية ، وسدى لسنا لاضطلاع الزوجة بالمصعب الاكبر فى القالبية الطمى من تلك الاعمال جميعا ، وهذا على الرغم من وجود الخادمة فى الكثير من الاحيان » .

انظر : سامية حسن الساعاتى ، الدور الوظيفى للزوجين فى الاسرة المصرية ، دراسة ميدانية فى الريف والحضر ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية الاداب ، جامعة القاهرة ١٩٧٢ ، ص ٥٤١ .

« ويتفق هذا مع ما وجدته « فوزية دياب » عند تصنيفها للنشاط المنزلى لعينة تبلغ الواحد والسبعين من الامهات العاملات ومدى اسهامهن فى اعمال البيت . اذ تبين لهما ان الغلبة لامهات العاملات ونسبتهن ٦٤,٨ ٪ من مجموعهن يقمن بكل الاعمال فى البيت بعد فودهن من العمل ، وان اقلية من هؤلاء الامهات العاملات بنسبة ١٢,٧ ٪ من المجموع يقمن بالاشراف فقط على شئون البيت ، بينما تقوم ١٢,٥ ٪ من المجموع بالاشراف والاشتراك فى بعض الاعمال » .

انظر : فوزية دياب ، دور الحضنة والجنس ، رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية الاداب جامعة عين شمس ، ١٩٧٠ .

التفكير الشعبي المعاصر : الفكرة الاولى تذهب الى ان ربة البيت عاملة مظلومة ، تستعبد في عمل محقر ، كره ، بغيض ، يتضمن بالضرورة انكارا كبيرا للذات . أما الفكرة الثانية فترى ان العمل المنزلي يعطى فرصة غير محدودة للقيام بمجهودات خلاقة مبدعة . ولا تنظر هذه الفكرة الى العمل المنزلي على انه عمل بل على انه صناعة منزلية يشكل فيها المنزل وزارة للعالية .

وقد ظهر من خلال فحص الاربعين استبصارا ، ان هناك مفهوما واضحا للعمل المنزلي كعمل قد بدأ يبرغ . فالنساء في عينة البحث يخبرن العمل المنزلي ، ويعرفنه على انه عمل معائل لذلك الذي يتطلبه اى موقف عمل ، وقد ارتبطت ملاحظات هؤلاء النساء ارتباطا وثيقا بنتائج علم اجتماع العمل ، فقد كان لمظاهر العمل المنزلي التي اطلق عليها انها مشبعة او غير مشبعة ظاهري في عالم المصنع ، والكتب . ويتأكد هذا التطابق بوجود ميل لدى النساء لمقارنة انعكاسهن نحو العمل المنزلي بخبرتهن في العمل خارج منازلهن .

وقد كانت هناك اسئلة تكشف عن ايجابيات العمل المنزلي وحسناته كما يفصح عن سلبياته ، ومساوئه . وقد تبلورت ايجابيات العمل ، كما عبرت عنها الزوجات في مظاهر كثيرة اهمها الاستقلال والدانية ، ووجود الاطفال ، ، وتوفير ظروف العمل الحر ، وعدم الاضطرار للخروج من المنزل ، ووجود الزوج ، وتوفير الحياة العائلية ، وقد قصدت عينة الزوجات بالدانية والاستقلال ، التحرر من الرقابة ، والقدرة على تحديد ايقاع العمل المنزلي وسرعته . وقد استخدمت حوالى نصف الزوجات المستبترات في اجابتهن عن هذه الاسئلة عبارة « انك تكون رئيس نفسك » ليصنفن شعورهن ازاء العمل المنزلي . وقد احتوت اجابات الكثير من هذه الاسئلة على

بين ربات البيوت فيما يختص باتجاهاتهن نحو العمل المنزلي ، وموقف العمل المنزلي ذاته ..

وقد تكونت العينة من اربعين من ربات البيوت الانجليزيات والايرلنديات اللاتي تتراوح سنهن ما بين العشرين والثلاثين ، اثناء اجراء الاستبيان ، وكن جميعا من الامهات ولهن طفل واحد على الاقل عمره اقل من خمس سنوات ، وقد تم اختيارهن من واقع التقارير الطبية لاثنتين من الأطباء العموميين . وقد تم استبيان افراد العينة في اوائل سنة ١٩٧١ ، وكان عماد البحث استبصارا مقيدا باستبيان ، وكانت تلك الاستبيارات مسجلة على شرائط تظل مدة تصل الى حوالى الساعتين في المتوسط . وعلى اساس من اجابات الاستبيارات قننت الباحثة مقياسا لقياس الرضا عن العمل المنزلي بدرجاته المختلفة ، كما توصلت الى اختبار مظاهر اخرى داخل موقف العمل المنزلي ذاته ، وتشمل الرضا وعدم الرضا عن العمل المنزلي والعناية بالطفل ، والزواج ، والعمل الخارجى باجر ، كما كان هناك تقييم للدرجة توحده المرأة مع دور ربة البيت ، واهمية تحديد معايير للعمل المنزلي وروقيته .

وترى الباحثة ان النتائج التي حصلت عليها من بحثها انما تنطبق على مجتمع العينة فقط ، لكنها تذهب ايضا الى انه ليس هناك من سبب يدعونا الى القول بان هذه العينة هي عينة غير ممثلة ، وبخاصة انه ليس هناك دليل على ان تلك التسميات لا تعكس الواقع .

وتمضى الباحثة في وصف دراستها ، فنقول ان نصف عدد النساء البالغ مجموعهن اربعين كن من الطبقة العاملة ، اما نساء النصف الآخر فكن من الطبقة الوسطى .

١ - اما الفصل الثالث فيعطينا فكرة واضحة عن صبور العمل المنزلي وتبدؤه المؤلفة بعرض فكرتين نمطيتين سائدتين عن العمل المنزلي في

وتصوره أخرى بقولها :

« ليس هناك أحد يمسك لى سوطا اذا لم اقم بالعمل المنزلى ولكنى اعرف ، اننى اذا لم افعل ، فقد سيكون على أن اقوم بضعف العمل ، ففى الحقيقة اننى اقوم بامساك السوط لنفسى » .

ان مسألة حرية العمل المنزلى يمكن اختزالها فى انها حرية من ، وليست حرية تفعل . انها حرية ربة المنزل من الرقابة ، لكنها ليست حرية لها لتختار ما تفعله من أنشطة .

وعندما سئلت الزوجات عن مساوئ العمل المنزلى تلبورت الاجابات بالترتيب فى العمل المنزلى نفسه ، والرتابة ، والتكرار والسام ، والمسئولية المنزلية المستمرة والعولة والوحدة ، وضرورة الانتهاء من العمل المنزلى والتقيد الشديد بالمنزل .

وعندما طلب من الزوجات ان يقارن عملهن المنزلى ، بعمل أزواجهن ، كانت معظم الاجابات تشير الى انهن يمتدثن انهن يعملن اكثر من أزواجهن ، بينما ذهبت نسبة قليلة منهن الى ان الزوج يعمل اكثر ، أو ان هذه المسألة تتحدد بنوع الشخصية من جهة ، ونوع العمل من جهة أخرى . وقد صورت احدى الزوجات ذلك بقولها :

« لا شك أن ربات البيوت يعملن اكثر . ان زوجى يعود دائما من عمله ، ليقول لى : لقد جلسنا اليوم وتحدثنا فى كيت وكيت . او لقد كان يوما مسليا فقد ضحكنا ، وتسامرنا حول كذا من الموضوعات . اما انا فلا افعل ذلك ، انى لا اجلس لحظة » .

مقارنة عقدها النساء بين العمل المنزلى والعمل الوظيفي خارج المنزل مثل :

« انك الى حد كبير تكونين سيدة نفسك . انك تستطيعين أن تحددى ما تريدن أن تفعلن وما لا تريدن ، انه شئ مختلف عن الوجود فى عمل وظيفي ، حيث يدق أحدهم الجرس ، فتضطرين الى الصعود او الهبوط لتلبية طلبه ، أو حيث تجدن نفسك مضطرة لالجاز هذا العمل ، وذاك فى غضون نصف ساعة » .

وفى اجابة أخرى نجد تعبيرا آخر عن مظاهر الاستقلال والذاتية مثل :

« ان اعظم محاسن كونك ربة بيت . هو انك لا تضطرين الى الاستيقاظ مبكرا ، والذهاب الى العمل » .

وفى الحقيقة ان الذاتية والاستقلال فيما يتعلق بربة البيت هي امر نظرى أكثر منه واقعى متحقق ، فكونها رئيسة نفسها يفرض عليها واجبا ، هو انها لا بد ان تنجز العمل المنزلى وتؤكد من ان كل شئ فى موضعه . ومسئولية العمل المنزلى هي مسئولية من جانب واحد فقط ، والفشل فى تحملها ، قد يكون له نتائج بعيدة المدى ، وبخاصة على الزوج والاولاد .

ان حقيقة كون الانسان رئيس نفسه يضيف الى الضغوط السيكلوجية لاداء العمل المنزلى أكثر من كونه يخفف منها . وتوضح احدى الزوجات ذلك بقولها :

« ان اسوأ شئ يتعلق بالعمل المنزلى هو انك تضطرين لادائه لجرد انك فى المنزل . وعلى الرغم من انى املك حرية الاختيار فى الا اقوم به ، فانى اشعر انى لا استطيع ، لانه يجب أن اقوم به » .

تعملين ؟ واجيب بانى ام ، ولى اولاد ، وائنى زوجة ، فاتهم يهزون رؤوسهم باستخفاف قائلين : اوه ، مجرد ربة بيت اننى اتمعجب ... مجرد ربة بيت ! اشق مهنة في العالم ... ينظر اليها بهذه الطريقة ؟ ! » .

ويتبين مما سبق ان مسألة التصنيف المهني او الوظيفي مرتبطة ارتباطا وثيقا بصورة الذات ، لانها تعكس كيفية رؤية الزوجات لانفسهن كربات بيوت ، ولكن مهما كان مستوى توحد الزوجات الذاتي مع دور ربة البيت ، فيكفى ان الفكرة السائدة منه في ثقافة المجتمع هو انه عمل تافه وضيق ، منخفض المكانة بالنسبة للأعمال : الأخرى ، وهذا ما يخلع عليه اوصافا معينة مثل العمل الملل ، او العمل التافه ، وما يخلع على ربة البيت اوصافا مثل الجملة ، والغبية ... السخ من الاوصاف السلبية وتصور احد الزوجات ذلك بقولها :

« انى اتخرج من كتابة ربة بيت على اية اوراق رسمية ، انى افضل ان اكتب سكرتيرة مثلا او اية وظيفة اخرى ، فان لها انعكاسا احسن ، ان معظم الزوجات ربات بيوت ، وهذا يبدو ترتيبا مملا . انك لا تتوقع حينئذ الا التنظيم ، والامرية ، والطبخ » .

نتنقل الباحثة بعد . ذلك الى نقطة اخرى جديرة بالاهتمام وهى مسألة الخلط بين الانشطة المختلفة التي يتضمنها العمل المنزلي ، ومدى الحاجة الى تصنيفها ، وتصنيفها . ان العمل المنزلي في رايها هو مجموعة من الأعمال غير المتجانسة التي تتطلب مهارات متنوعة ، وانواعا مختلفة من النشاط ، فمسح الارضية يختلف عن الذهاب لشراء بعض اللحوم

وكثيرا ما يوصف العمل المنزلي بأنه « عمل لا ينتهى » ، ويذهب البعض الى انه عمل اكثر ارهاقا من الناحية الجسمية ، من اى عمل آخر مأجور . وتذهب بعض السيدات الى القول بأنه يأخذ جهدا عاطفيا اكثر من اى عمل آخر بالإضافة الى الجهد الفيزيقي . وتشير بعض السيدات الى طبيعة الأعمال المنزلية غير البناءة ، كما يلفتن الانتظار ، الى الاحباط العاطفى الذى ينشأ من كون احساس ربة البيت بأنها مشدودة الى طاحونة ، او ساقية ، يتطلب منها ان تؤدي الفعل نفسه مرات ومرات .

والزوجات بوضعهن العمل المنزلي ضمن الأعمال اليدوية ، يجعلنه بذلك في مرتبة عالية من مراتب الأعمال . وقد كان هذا الدفاع عن العمل المنزلي ضرورى من جانب الزوجات ، ازاء الأعمال السالدة لهذا العمل ، وازاء النظر الى ربة البيت على انها مدبرة منزل تعمل بحريتها ، ووفق ما يحلو لها .

وعندما سئلت الزوجات عن مشاعرهن ازاء كتابتهن لوظيفتهن كربات بيوت في اية صحيفة او اوراق رسمية . اجابت اكثر من نصف افراد العينة بأنهن يستشعرن حرجا ، ومشاعر بالاقليّة نشأت من ان العمل المنزلي عمل اقل من غيره من الأعمال ، وهن يعبرن عن ذلك بكتابتهن في تلك الاوراق : « مجرد ربة بيت » . ان هذه الكلمة مجرد ربة بيت او ربة بيت فقط تعنى الكثير ، انها تصور مدى شعور ربة البيت بتقليل المجتمع من شأن هذا العمل مقارنة بالأعمال الأخرى ، كما ان هذا يتضمن ايضا تقليلا من شأن ادوارها كزوجة وام . وتصور احدى افراد عينة البحث هذه المشاعر اصدق تصوير حين تقول : « الى اكراه كلمة ربة بيت ، وعندما يسألوننى من انت ؟ وماذا

أقل بغضا الى ربات البيوت من غسيل الإطباق، رغم أن كلا العاملين يتطلب إزالة القاذورات من الأشياء .

ويعزى ذلك الى أن هناك ارتباطا شخصيا للملابس . فالملابس التي تغسلها ربة البيت تنتمي الى زوجها أو أحد أبنائها ، أو إليها ذاتها . يضاف الى ذلك أن وسائل الاعلام تركز على عملية الغسيل وتغفلها بهالة جميلة في اعلاناتها التجارية عن المنظفات المختلفة موحية الى ربة المنزل بأن نقاء غسيلها وبياض لونه هو واحد واجباتها الاساسية .

وجدير بالذكر ان استخدام الآلة بالنسبة لعمليتي غسيل الإطباق وغسيل الملابس ، يقرب اتجاه ربة البيت إليهما من كره الى تقبل ، وقد لوحظ ذلك بالنسبة الى الكثير من أفراد العينة (٢) .

أما التسوق، كدور من أدوار ربة البيت، فأمره مختلف ، ذلك أنه دور أكثر اجتماعية ، فهو يتطلب غيابا عن مقر عملها وهو المنزل ، لذلك فقد ذكرت معظم الاجابات أن التسوق من الاعمال المحببة لانه يتضمن خروجاً من المنزل ، ومقابلة للناس ونوعاً من التغيير من جو المنزل . وقد ذكرت بعض السيدات انهن لا يحتجن للخروج من المنزل يوميا للتسوق ، لكنهن يفعلن ذلك لجرد الخروج من المنزل ، أو لاعطاء صغيرهن فرصة لنزهة قصيرة . ورغم هذه المزايا المرتبطة بالدور الاستهلاكي لربة

والفاكهة ، وطهي وجبة يختلف عن غسل الملابس ... الخ . واطلافاً الاسم نفسه على كل هذه الاعمال أمر يتضمن انكارنا لوجود اختلافات وفروق بينها . ففي الحقيقة توجد بين هذه الاعمال ، أعمال أحب من الأخرى ، وأعمال أقل رتابة وبعثاً على الملل ، وأخرى أكثر خلقاً وإيجابية ، وهكذا . وجدير بالذكر أن كل عمل من الاعمال التي تقوم بها ربة البيت كالطهي ، وغسل الملابس ، وكثيرا ، وتنظيف المنزل يمكن أن يشكل دوراً مهنياً مأجوراً .

ومن تحليل المؤلف للامعمال المنزلية المختلفة وجدت أن أهمها هي : التنظيف والتسوق ، والطهي ، وغسل الإطباق ، وغسيل الملابس ، والكي . وقد كانت هناك أسئلة من أحب هذه الاعمال الى قلب ربات البيوت وعن انغصها اليهن ، كشفت الاجابات عن أن أبغض تلك الاعمال ، كان كي الملابس لانه عمل مجهد رتيب ، يتلوه العمل الخاص بغسيل الإطباق لما فيه من قدرة ، وتكرار . أما تنظيف المنزل فأتى ترتيبه الثالث من حيث كراهية ربات البيوت له ، ذلك لانه عمل متكرر لا ينتهي ، كما انه على العكس من عملية التسوق ، عمل يؤدي في منزله وصمت ، نعمندما تعمل المكتسة الكهربائية فانها لا تستطيع تبادل الحديث مع الآخرين ، يمسك ما يحدث لعملية الطبخ والكي ، فيمكن لربة البيت تأديتهما وهي تتحدث الى صديقة مثلاً . وتأتي بعد ذلك في الترتيب الاعمال الخاصة بغسل الملابس والتسوق ، والطهي . أما بالنسبة لغسيل الملابس فهو عمل

(٢) تتلقى هذه النتيجة مع نتائج بحث مصري ، تقول فيه صاحبه :

« إن الزوجات أنفسهن أصبحن يتضايقن من أداء الاعمال الخاصة بالنسيل ، وغسيل الصحون بالطرق التقليدية لانها تتضمن قدراً كبيراً من (الرملة) . ولكنهن يثلن عليها كلما أصبحت آتية . »

انظر : سامية حسن الساماني ، المصدر السابق ، ص ٢٢٠ .

لنقل الطهي من كونه عملا الى كونه تسمية وقضاء وقت، وتمكس تلك المحاولة مثلا واضحا على الابتكار الاجتماعي لاعتبار العمل المنزلي عملا بالمعنى الصحيح . ولكن ايجابيات العمل المنزلي الخاص بالطهي تفسده سلبيات منها ان الاطواق يطلبون الطعام في اوقات محددة ، وان وقت طهي الطعام قد يتداخل مع الوقت المحدد لفصل الملابس او تغيير الاسرة ، او اطعام الوليد او الصغير . ومن السلبيات الاساسية لعملية الطهي تلك المهمة الثقيلة التي لا تنتهي ابدا وهي التفكير الدائم في السؤال الخالد : ماذا نأكل اليوم ؟ .

ويمكن ان نلخص في آخر هذا الفصل الايجابيات المتصلة بالاعمال المنزلية بعامة مرتبة حسب اهميتها في نظر الزوجات، وهي : التمكن من محادثة الآخرين اثناء العمل ، واعتدال المزاج اثناء اداء العمل المنزلي ووجود وقت كاف لادائه ، وان تكون هناك خلفية جيدة للعمل وذلك بتوفر الادوات الحديثة ، ووجود مقدار كاف من المال للمتطلبات المنزلية المختلفة وتوفر التقدير اللازم للعمل . اما السلبيات المتصلة بالعمل المنزلي ، فتمركزت حول الملل والرتابة والتكرار، وعدم توفر الادوات المناسبة لاداء الاعمال المنزلية ، وانحراف المزاج اثناء العمل ، وامتناع الاطفال طريق ربة البيت اثناء ادائها لعملها ، وعدم وجود الوقت الكافي لاداء العمل ، والعزلة الاجتماعية ، والاضطراب الدائم الى التفكير في العمل المنزلي وترتيباته .

ما سبق يتضح لنا ان صدق ما ذهبت اليه المؤلفة من ان ربات البيوت ينظرن الى العمل المنزلي على انه عمل يعامل غيره من انواع الاعمال الاخرى . ومن تحليل ملاحظاتهم عن أحب مظاهر العمل المنزلي ، وعن ابغضها بالنسبة اليهن تبين ان التحرر من الرقابة كان

لبيت فان هناك سلبيات لهذا الدور تتبلور في المصائب الفيزيائية . فاصطحاب اطفال اثناء عملية التسوق ترهق ربة البيت جسديا وعقليا ، فان الجمع بين عملية التسوق وبين رعاية طفل او اكثر اثناءها يجعل اهتمام ربة البيت موزعا ، ويقلل من كفاءتها كمستربة كما ان الانتظار الطويل في بعض المجمعات الاستهلاكية ، او المحلات امر يبعث على الملل . وبلا حظ ان هناك فرقا بين نوعين من التسوق : تسوق بشكل جزئي ، ويحدث يوميا تقريبا لشراء متفرقات بكميات قليلة ، وتسوق آخر كلي يأخذ شكل التخزين ويحدث مرة اسبوعيا او كل اسبوعين . وهذا النوع الاخير من التسوق هو الاكثر كراهية من جانب ربات البيوت لانه يتطلب جهدا مضاعفا في شرائه وتوصيله الى المنزل ، ولا شك ان وجود سيارة ، وهو امر لا يتوفر للكثيرات ، يسهم في التقليل من حدة كراهية هذا العمل .

اما العمل السادس من الاعمال المنزلية الرئيسية فهو الطهي ، والذي اعتبرته جميع ربات البيوت اللاتي تضمنتهن العينة اكثر الانشطة المنزلية قربا الى قلوبهن لانه يمثل في رأيهن فنا خلاقا، واستعراضا للقدرة والمهارة. ولا شك ان نظرة ربات البيوت للطهي على انه عمل فني خلاق ، يمثل انعكاسا للفكرة الثقافية السائدة عنه ، والتي تؤكد وسائل الاعلام والاعلانات ، والمجلات النسائية ، ودور النشر التي تخصص كتبيا بأكملها لهذا الفن . والملاحظ ان معظم التوجيهات الثقافية في هذا المجال والتي تتناول الطهي بوصفه فنا ، واستعراض عضلات ، لا ترشد ربة البيت الى كيفية صنع اكثر الوجبات غنى بالمواد الغذائية المفيدة في اقصر وقت ممكن ، قدر ما تعلمها كيف تزين الاكلات المختلفة وتجعلها شهية . وهذه محاولة

في المقارنة بين بحثها وبين بحوث أخرى تناولت الموضوع نفسه ، واتخذت ذلك المحك التقليدي أساسا للدراسة .

ومن النتائج الجديدة بالاهتمام في هذا الفصل انه ليست هناك فروق طبقية في النوع وإنما في الدرجة فقط بين الطبقة العاملة والطبقة الوسطى من ربوات البيوت ، اللاتي كان لهن عمل خارجي قبل الزواج ، في تفضيل العمل الوظيفي على العمل المنزلي على أساس أن العمل المنزلي يفقد المكافأة الاقتصادية ، ويتميز بالانعزال وتقص الاعتراف الاجتماعي بالمسؤوليات الملقاة على عاتق ربة البيت .

ومن أهم النتائج التي توصلت إليها الباحثة ، هو انه ليست هناك فروق في الطبقة الاجتماعية بين الراضيات وغير الراضيات عن العمل المنزلي ، فقد كان الاتجاه السائد بين الغالبية العظمى من المستبقيات في عينة البحث هو عدم الرضا عن العمل المنزلي سواء بين ربوات البيوت من الطبقة العاملة أو من الطبقة الوسطى . أما من حيث اتجاه أفراد العينة نحو دور ربة البيت فقد كانت هناك بعض الفروق الطبقية ، وحيث كان اتجاه ربوات البيوت من الطبقة العاملة بعامه أكثر إيجابية من مثيله بين ربوات البيوت من الطبقة الوسطى . ومن هذا يتبدى أن ربوات البيوت من الطبقة الوسطى أكثر ميلا لادراك المكانة المنخفضة لدور ربة البيت من مثيلاتها من الطبقة العاملة . ولذلك فإن الشكوى من تلك العبارة الشائعة : « مجرد ربة بيت » ، هي أكثر ترددا بينهن منها بين نظيراتهن من الطبقة العاملة .

وقد يبدو في النتائج السابقة شيئا من التناقض ، ولكن هذا التناقض يزول إذا ما ادركنا أن المؤلفات تفرق بين المشاعر نحو

على رأس الصفات الإيجابية ، أما العمل المنزلي ذاته فكان في مقدمة السلبيات التي ذكرناها . وقد عرفن العمل المنزلي بأنه عمل « حقيقي وشاق » ، وهي صفات أكدنها ليجابهن بها تلك الأفكار النمطية الخاطئة السائدة في ثقافتهن ، والتي تخلع على العمل المنزلي مكانة وقيمة منخفضة . كما تبين من البحث أيضا أنه بينما تتناول تلك الأفكار النمطية الخاطئة الشائعة في الثقافة ، العمل المنزلي كنشاط منفرد ، فإن ربوات البيوت ينظرن إليه على أنه عمل رئيسي يتضمن أعمالا وأنشطة فرعية منفصلة . وظهر من البحث أن مشاعر الرضا وعدم الرضا عن مختلف الأعمال المنزلية تتأثر كثيرا بالظروف التي تتم فيها هذه الأعمال والتي تتعلق بمدى توفر الأجهزة والأدوات البسيطة والمخففة .

وفي نهاية هذا الفصل يمكن القول بأن الصورة التي رسمتها المؤلفة للعمل المنزلي ولربوات البيوت من خلاله ، من واقع النتائج التي أسفر عنها بحثها ، تتعارض مع الصورة السائدة عنه وعنهن في الثقافة ، والتي تذهب إلى أن ربوات البيوت يشكلن طبقة مرفهة ، وأنهن لا يعملن شيئا طوال اليوم .

أما الفصل الرابع ، فيتناول موضوعا هاما هو العلاقة بين الطبقة الاجتماعية والأعمال المنزلية ومدى الرضا أو عدم الرضا عنها . ومفهوم الرضا عن العمل المنزلي في هذا الفصل مشتق من مفهوم الرضا عن العمل المستخدم في علم الاجتماع الصناعي ، وعلم اجتماع العمل فهو يمثل تقييما شاملا لدرجة الإيجابية أو السلبية التي تتناول بها ربوات البيوت عملهن . وقد حددت الباحثة مفهوم الطبقة الاجتماعية على أساس مهنة الزوج ، وهو مقياس تقليدي ، وقد برزت الباحثة اختيار ذلك المحك التقليدي بأنه أكثر ملائمة

اختلافات عديدة بين ربوات البيوت في عينة البحث بهذا الصدد ، وحيث كانت بعضهم تضع لنفسها معايير صارمة في أداء العمل المنزلي ، حتى انه يمكن تصنيفها بالولوجيا ضمن الحوازيات، بينما لا تتبع اخريات اسلوبا او نظاما معيناً في أدائه . ولتحديد تلك المعايير وذلك الروتين وظائف هامة ، **اولها** انها وسيلة لتوحيد أعمال غير متجانسة تكون العمل المنزلي في بناء وظيفى متماسك ، **وثانيها** انها دليل على أن العمل المنزلي عمل له معايير وروتيته مثل أى عمل آخر ، وهذا في ذاته دفاع ضد من يقول ان المرأة في المنزل لا تفعل شيء ، **وثالثها** أن في تحديد تلك المعايير وذلك الروتين توسيع لمجال العمل المنزلي ، وبخاصة أمام ربة البيت المتفرعة التي لا تعمل خارج منزلها، **وأخراها** ان ربة البيت بذلك التحديد انما تضع ميكانيزما تستطيع ان تكافئ نفسها عن طريقه في إنجاز العمل المنزلي . وتأخذ المكافأة السيكلوجية التي تحصل عليها ربة البيت من تمسكها بمعايير أداء العمل المنزلي ، وروتيته المعين ، شكلا موضوعيا على الرغم من انها موضوعة سلفا بواسطة ربة البيت كعامة . وتلمب وسائل الاعلام أيضا دورا في تحديد معايير العمل المنزلي ، كما تسهم في ذلك الى حد كبير، **التنشئة الاجتماعية** المنزلية السابقة لربة البيت واعدادها للعمل المنزلي .

وتخصص المؤلفات الفصل السابع للعلاقة

بين **التنشئة الاجتماعية** لربة البيت وبين **صورتها عن ذاتها** . وفيه تبين أن العمل المنزلي، مثله في ذلك مثل أى عمل ، لابد أن تسبقه فترة تدريب مهني أو تلمذة وظيفية . ولكن الاعداد الانثوى للدرور المنزلي ، يختلف من الأعمال الاخرى في أنه لا يتخذ شكلا رسميا ، ولذلك لا ينظر اليه على انه تلمذة وظيفية .

العمل المنزلي ، وبين الاتجاه نحو دور ربة البيت . فربما أحست المرأة بإيجابية وتقبل لدور ربة البيت ، ولكنها في الوقت نفسه تكره العمل المنزلي ، كما أن عكس ذلك النموذج يمكن تواجده أيضا ، فالمشاعر تجاه العمل المنزلي يتدخل فيها التعود على أداء هذه الاعمال والخبرة بها ، اما اتجاهها نحو دور ربة البيت ، فمسألة يتدخل فيها مفهومها عن ذاتها ومعايير الثقافة الفرعية التي تعيش فيها والخاصة بمظاهر سلوك الدور الانثوى ، وحيث تختلف اتجاهات المرأة نحو دور ربة البيت في الطبقة العاملة عنها في الطبقة المتوسطة، بينما لا توجد اختلافات بينهما فيما يتعلق بنشاط العمل المنزلي .

وفي الفصل الخامس تناقش المؤلفات

ظروف العمل المنزلي ، وتتناول فيه الفترات التي يستغرقها هذا العمل ، والخلفية التكنولوجية التي يتم فيها . وقد تبين منه أن متوسط عدد ساعات العمل المنزلي لربوات البيوت في هذا البحث كان سبعا وسبعين ساعة اسبوعيا، وهو عدد يماثل تقريبا ضعف عدد ساعات العمل الاسبوعية للعامل الصناعي والذي يقدر بأربعين ساعة في المتوسط . كما تبين منه أن استخدام الاجهزة والادوات المناسبة في العمل قد يقلل من الشعور بعدم الرضا عن العمل المنزلي لكنه لا يحوله من عمل بغيض الى عمل سار محبوب . كما ظهر أن بعض الصلات الاجتماعية لربة البيت قد تقلل أيضا من ذلك الشعور بعدم الرضا .

وفي الفصل السادس تلقى المؤلفات الضوء

على **المعايير المتعلقة بالعمل المنزلي** والتي على أساسها تتبع ربة البيت أسلوبا معيناً او روتيناً معيناً في أدائه . وقد كانت هناك

الآخرين طوال الوقت - اننى اعشق الخروج
- اننى مسيطرة - اننى حاملة - اننى قلقة . »

وبهدف وضوح المقارنة فانا نسوق اجابة
اخرى للاختبار ذاته ، لربة بيت من الطبقة
العامة تكشف عن تصورهما لذاتها :

« اننى ربة بيت جيدة - اننى اجد
معاملة ابنائى - اننى اجد العمل المنزلى
- اننى اجد معاملة زوجى - اننى اجد
الفصيل - اننى اشعر بالسام احيانا - اننى
اشعر بالفضب احيانا - اننى شديدة السعادة
بعملى - اننى سعيدة باولادى - نادرا ما
اكون تعيسة . »

وتتضح من المقارنة السابقة نتيجة هامة
اخرى ، تضاف الى النتائج سالفة الذكر
وتؤيدها ، وهي ان صورة المرأة من الطبقة
العامة عن نفسها يتضح فيها بشدة توحدها
بدور ربة البيت ، واقبالها على العمل المنزلى،
بينما تظهر قدرة المرأة من الطبقة الوسطى
على رؤية نفسها ووصفها لها من منظور
الشخصية وسماتها .

وفي الفصل الثامن تبحث المؤلفة موضوع

الزواج ، وتقسم العمل بين الزوجين من
وجهة نظر بعض المتخصصين في علم الاجتماع
الاسرى ، كما تتعرض المؤلفة في هذا الفصل
الى وصف تقسيم العمل المنزلى بين الزوجين
وتحليله كما تبحث معتقدات ربات البيوت
من افراد العينة حول الادوار الذكرية
والانثوية .

وقد اجريت الاستبيارات مع الزوجات
فقط ، ولم تشمل الأزواج ، وقد طلب منهم
تقييم مدى اشتراك أزواجهن معهم في العمل

والسبب الرئيسى في ذلك هو ان اعداد المرأة
لتكون ربة بيت يختلط مع تنشئتها لدورها
الانثوى بالمعنى الواسع . وتفصح نتائج البحث
عن ان جميع افراد العينة قد قررن انهن على
وهي بوجود صلة وثيقة بين طرفهن في اداء
العمل المنزلى وبين الطرائق التى كانت امهاتهن
يستخدمنها لاداء العمل نفسه . وفى هذا
تقول احدى افراد العينة :

« ان لي نفس المعايير التى كانت تتبعها
امى فيما يتعلق بأعمال المنزل . فقد كانت
تفعل كل ما ينهى عمله ، ولم يكن هناك من
يستطيع ان يتجول بعينيه في المنزل ليقول
ان هذا العمل او ذاك ينقصه شيء .. اننى
دائما احاول ان اتمثل بها . »

ومن النتائج الهامة في هذا الصدد ،
ان هناك فروقا طبقيّة بين ربات البيوت فيما
يتعلق بصورة الذات ، فقد كان هناك ميل
لدى اللائى ينتمين منهن الى الطبقة الوسطى
الى ذكر احد دورى الزوجة ، والام او كليهما،
دون الاشارة الى دور ربة البيت في تصورهن
لذاتهن . كما وجد ميل لديهن ايضا الى رؤية
انفسهن من خلال ادوار اخرى غير منزلية ،
كالادوار الدينية او السياسية ... الخ . اما
ربات البيوت من الطبقة العاملة فقد كن يملن
الى اختصار دورى الزوجة والام تحت كلمة
« ربة بيت » ، وذلك في وصفهن لذواتهن .
وفيما يلي اجابة احدى ربات البيوت من
الطبقة الوسطى على اختبار المشرجل ، الذى
يكشف عن تصور الذات ..

« اننى متقلبة - اننى اعمل بجِد - اننى
اتكلم كثيرا - اننى سعيدة معظم الوقت -
اننى امرأة راضية - اننى احتاج وجود

في هذه اللحظة فانه يقوم بتنظيف الحجرة الأخرى ، كما أنه ينظف النوافل بانتظام ، ويقوم بتجفيف الأطباق ، وهو يعينني على الانتهاء من عمل المنزل لانه يحب أن يجلس معا سويا بعد الظهر ، وهو يكرى ملابسه أيضا. وعندما تكون في المنزل معا فانه يشاركني في رعاية الطفل ، فهو يحمله في المساء ويشير له لفائفه ، وفي يوم العطلة يصحو له مبكرا في الصباح كي يعطيني الفرصة لانام بضعة ساعات . »

وهذه صورة أخرى لزوج حصل على تقدير منخفض في المشاركة في كل من العمل المنزلي ، ورعاية الأطفال ، تقول زوجته :

« انه لايساعدني ابدا في الأعمال المنزلية ، ولا في شراء لوازم المنزل ، ولا في الطهي ، انه يقول دائما : اننى اعمل طوال اليوم ، وعندما أعود الى المنزل اكون مرهقا تماما . وهو لا يشترك في رعاية أبنائه ابدا . انه يحب الأطفال ، ولكنه لا يراهم . فقد كان على أن اؤدى واجب العزاء منذ يومين ، ولكنه لم يدعى اذهب لانه قال لى : انا غير مستعد لأن أرى الأطفال الى حين عودتك . لذلك فانه اذا كان على أن اذهب لأى مكان لقضاء أحد شئوني فلا بد أن تكون « مارى » اكبر بناتى بالمنزل . اننى أقصد انه يرفض مجرد الجلوس مع أبنائه لحين عودتى ، لا لانه يكره الأطفال ، بل لانه ببساطة قد ورث هذا الاتجاه من والده دائما ما يردد كلمته الماثورة : اننى لا يمكن أن اقبل أن تدلنى امرأة على ما ينبغى فعله . »

اما من حيث تحليل معتقدات ربات البيوت التى تدور حول الادوار الذكورية والادوار الانثوية فقد ثبت من البحث أن معظمهم يذهب الى أن مكان الرجل ليس في

المنزلى وفي رعاية الإبناء على السواء بثلاثة محكات تتراوح بين عال ، ومتوسط ، ومنخفض ، وقد أفصحت إجابات الاستبانات عن ثلاث نتائج هامة :

١ - ان قلة من الأزواج فقط هم الذين يساعدون زوجاتهم بقدر مرتفع . فقد كان ١٥ ٪ من الأزواج فقط هم الذين حصلوا على تقدير عال في المشاركة في العمل المنزلى بينما حصل ٢٥ ٪ منهم على التقدير ذاته في المشاركة في رعاية الأطفال .

٢ - اختلفت نماذج مشاركة الأزواج لزوجاتهم باختلاف الطبقة الاجتماعية فقد كان اشتراك الأزواج من الطبقة المتوسطة في العينة ، أكثر انخفاضا من اشتراك الأزواج من الطبقة الدنيا ، وذلك فيما يتعلق بالعمل المنزلى ورعاية الأطفال .

٣ - كان هناك ميل أكثر من قبل الأزواج للمشاركة في رعاية الأطفال منه في العمل المنزلى .

ومن بين من حصلوا على تقدير عال في المشاركة في كل من العمل المنزلى ، ورعاية الأطفال ننتقى هذه الصورة لزوج يعمل في تجارة الملبات ، وكانت زوجته تعمل على الآلة الكاتبة قبل أن تترك بطفلهما :

« اننى اساعده في عمله ، فاطبع له أوراقه ، وأضيف بعض فقرات اذا لزم الامر . كما أنه يساعدني في عملى أيضا . انه طاه ممتاز ، وهو لا يمانع في أن يأتى في نهاية اليوم ليطهى وجبة . وفي الاسبوع الماضى مثلا قام بطهى ثلاث وجبات . واذا حدث أن كنت اقوم بتنظيف حجرة بالكنسة الكهربائية وأقبل هو

ابنائها في الوقت نفسه . ويريد رضاء ربة البيت عن عملها المنزلي كلما ساعدها زوجها في أن يحمل عنها بعض العبء في تربية الاطفال لانه عندما يحدث ذلك فان الضغوط الناشئة عن أداء دور ربة البيت ودور مربية الاطفال تخف حدتها .

وتلقى الكاتبة الضوء على دورى الزوجة كربة بيت ومربية اطفال معا ، وعلى المشكلات الناجمة عن الجمع بين هذين الدورين . وهي ترى أن هناك تناقضا واضحا بينهما ، ولا ينجم هذا التناقض فقط عن أن الاطفال مخلوقات فوضوية ، تفسد نظام البيت المنظم ، ولا عن حاجتهم لأن تطعمهم الأم ، أو تلعب معهم ، أثناء اعدادها الطعام أو تنظيفها للحجرات ، بل أن هناك تناقضا أساسيا يكمن في طبيعة هذين الدورين ذاتهما . فترية الاطفال عمل منتج ومثمر Productive ، بينما لا ينطبق ذلك على العمل المنزلي . فالعمل المنزلي عمل له أهداف وقتية ومتكررة ، فالمنزل ينظف اليوم ، وتعاد نظافته في الغد ، وهكذا لمدة سنوات قد تربو على الثلاثين أو الأربعين . أما الامومة فان لها هدفاً وحيداً بعيد المدى ، فالأم تربي الابناء حتى يعتمدوا على أنفسهم ويستغنوا عنها بالتدريج ، ولذلك فقد كان أحد المحكات الأساسية في اختيار العينة أن يكون لدى كل امرأة طفل على الأقل في سن ما قبل المدرسة .

ونظراً لكثير من الزوجات الى دوورهن كربات بيوت ، ومربيات اطفال على انهما وجهان لعملة واحدة ، وغالباً ما يعتبرن تجربة الطفل ، وتنظيف ملبسه ، وتربيته ، جزءاً من العمل المنزلي ، كما أن المعايير التي يضعنها لأنفسهن والمتعلقة بالعمل المنزلي ، غالباً ما تنسحب على تربيتهن لأطفالهن ، وأهملها

البيت ، حتى وإن كن يحبلن مشاركة الرجل لهن في الاعمال المنزلية مشاركة أكثر . وبالمثل فإن من كانت تريد منهن أن تسهم بقدر أقل في العمل المنزلي فانها كانت تجابه بتلك الضغوط الاجتماعية الناشئة عن المعيار القائل بأن المرأة تنتمى الى مملكة العمل المنزلي ورعاية الاطفال .

كما اسفرت نتائج البحث أيضاً انه خلال دورة الزواج تكون هناك فترات تتسم بالمشاركة أكثر من غيرها . فحين تخرج الزوجات الى العمل تزداد درجة مشاركة الأزواج لهن في الاعمال المنزلية ، وفي رعاية الابناء . وهذه النتيجة تتسق مع ما ذهبت اليه بحوث أخرى كبحت «هوفمان» Hoffman الشهير عن النساء العاملات وتأثير عملهن على الأسرة ، ولكن ذلك لا يعني أن آراء الزوجين متحررة أو متنادية بالمساواة ذلك لانه عندما تكف الزوجة عن العمل خارج المنزل فان رغبة الزوج في مساعدتها تقل ، ويعكس تقسيم العمل بينهما عندئذ نموذجاً تقليدياً واضحاً . ويبدل ذلك على أن معتقدات الزوجين الاصيلية عن الادوار الذكورية والانثوية لم تتغير .

وتعالج الكاتبة في الفصل التاسع والآخر

تربية الاطفال كوظيفة مرتبطة كل الارتباطات بالعمل المنزلي . فمعظم ربات البيوت من الامهات ، وكل الامهات ربات بيوت . وقد ظهر من خلال هذا الفصل والفصول السابقة ، أن الاطفال يؤثرون في مدى الاستمتاع بالعمل المنزلي ، لانهم يجعلون ساعات العمل الاسبوعية اطول ، كما أنهم كثيراً ما يظهرون كمواضع محبطة لربة البيت كعاملية منزلية . فدائماً ما يقطعون عليها عملها ، ودائماً ما تجد نفسها وسط اعمالها المنزلية الكثيرة ، مطالبة برعاية

بعمامة . وتطرح عدة أسئلة أهمها : ما هو مدى رمي ربات البيوت - أو مدى الوعى الذى ينبئ أن يكن عليه - بوقوفهن كنساء ، وهل ينظرن الى انفسهن كجماعة مضطهدة ؟ وهل تلاقى حركة تحرير المرأة صدى بينهن ؟ وإلى أى مدى نجحت حركة التحرير هذه في توصيل إيديولوجيتها وأفكارها اليهن ؟ وما هي أنسب الوسائل ، وأنجع الطرق لتحرير ربة البيت؟ .

وتجيب الباحثة عن هذه الاسئلة اجابة مركزة فتقول : أن انتماء معظم النساء للادوار التقليدية لربة البيت والزوجة والأم ، لا يمكن أن يعالج فقط بالنظر لواقعهن من بناء اجتماعى واقتصادي معين ، بل يجب أن تمتد لتشمل فهما شاملا للكيفية التى تستطيع بها النساء أن يتوحدن مع قهرهن . بمعنى آخر أن الابنية والنظم التى تضطهد المرأة ، لا يمكن أن تتغير ما لم يوجد وعى مسبق لدى المرأة لأهمية هذا التغيير ، وهذا هو دور حركة تحرير المرأة .



ثانياً - تقييم ونقد :

نجحت المؤلفة في ايضاح نظرتها الجديدة الى العمل المنزلى ، وفي تحليلها له كعمل يمثّل غيره من الاعمال ، كما انها اظهرت زيف تلك الاسطورة السائدة في الثقافة الانجليزية ، وفي ثقافات اخرى كثيرة ، والخاصة بسلبية العمل المنزلى ، وسهولته ، وطبيعته بالنسبة للمرأة وألّتى تتضح من أسئلة توجه الى النساء في عالمنا المعاصر مثل : هل ستعملين ؟ أم ستبتقين في المنزل ؟ وكان البقاء في المنزل لا يتضمن عملاً . (٣)

معايير النظافة والترتيب . وتعد هذه المماثلة بين الدورين ، مجرد انعكاس لمعايير المجتمع ، والاتجاهات الاجتماعية السائدة في النظر الى المرأة ، والتي تذهب الى أن دور ربة البيت يشمل ادوار المرأة ، والزوجة ، والأم ونادرا ما تفرق بين هذه الادوار ، أو تذكرها منفصلة.

وتنتهى الباحثة في هذا الفصل الى نتائج هامة استقتها من بيانات بحثها ، وهي أن الأم الماصرة تؤدي دورها في سياق اجتماعى لا يعبث على الرضا . ومنشأ عدم الرضا هو العزلة الاجتماعية ، والمسؤولية المستمرة ، كما وجدت أن الأم كاملة منزلية تواجه صراعا بين المطالب المختلفة للعمل المنزلى بحيث يعد الطفل أحيانا وسط خضم هذه المطالب عائقا في سبيل الرضا عن العمل المنزلى ، أما بالنسبة للطفل فيبعد الجمع بين مطالبه ومطالب العمل المنزلى شيئا محبطا له وللأم . وعلى الرغم من أن الرجل يحاول أحيانا أن يعالج تلك المشكلة بالتدخل في رعاية الاطفال ، فإن تدخله يكون غالبا محدودا بالنشطة معينة مفضلة لديه كاصطحاب الاطفال للنزهة أو وضعهم في الفراش ، لكنه يحجم عن الاشتراك في أنشطة أخرى لها مظاهر أكثر روتينية ، وأقل متعة في تربية الاطفال ورعايتهم . وهذا التوسع في دور الأب يعطى الأم الفرصة لاداء بعض الاعمال المنزلية ، وترتيبها على ذلك فانه يعطيها مزيدا من الاحساس بالرضا عن العمل المنزلى .

وفي الخاتمة تركّز المؤلفة على تلخيص

أهم نتائج بحثها . وتكرس الجزء الأخير منها لمناقشة مسألة مركز ربة البيت في المجتمع

(٣) هناك عبارات تشير الى ذلك في الثقافات المختلفة ، ففي الثقافة الأوروبية تجيب المرأة اذا سئلت عن هويتها (مجرد ربة بيت Just a House wife) وفي الثقافة المصرية تجيب (مجرد ست بيت) وتشير عبارات معربة مثل (فلانة مش بتشغل) ، دى قاسية في البيت .. الخ) الى أن البقاء في المنزل يتضمن الجلوس وعدم القيام بعمل وعبادة (فلانة بتشغل وجوزها قعدتها في البيت) تشير ايضا الى أن البقاء في البيت راحة ، بعكس العمل الذي لا يكون الا خارجة .

كان يصبح أكثر إحصاءاً ودلالة على ما احتواه بين دفتيه من حقائق ومعلومات (٤) .

إن كتاباً عن سوسيولوجيا العمل المنزلي، لابد أن يتضمن موضوعات سوسيولوجية متخصصة من بينها : تصنيف الخلفيات الاقتصادية والاجتماعية التي يجري في إطارها العمل المنزلي في ثقافات مختلفة ، والمقارنة بوجه خاص بين الدول المتقدمة تكنولوجياً ، وبين الدول النامية والمتخلفة ، من حيث طبيعة العمل المنزلي في كل منها . وتحليل دور ربة البيت وما يتضمنه من قوة تتمثل في تأثيرها في نماذج شخصيات أطفالها وسلوكهم فهي المنشئة الأساسية لهم ، بل إن مركزها المحوري في الأسرة يمكن أن يؤثر في صحة أفرادها ومرضهم على السواء . كما لابد أن يحتوي مثل هذا الكتاب على دراسة التفاعل الاجتماعي لربة البيت ، وتحليل عملها المنزلي كعمل يجعلها تتفاعل مع زوجها وأبنائها وجيرانها وأقاربها ، وصديقاتها ، ومعارفها ، والباقيين سواء من يدهون إليها في المنزل ، أو من تذهب هي إليهم ، وتفاعلها مع الدولة والأسعار عن طريق وضعها لميزانية الأسرة ، وتحديد لها مواصفات السلع المتوقعة على مدى أقبالها أو أحجامها من شراء سلع معينة . وكذلك في اتخاذ القرارات اليومية المتعلقة بنماذج الاستهلاك والمواضات ، والشئون العامة ، وأهمية النظر إلى مطالبتها التكنولوجية وكل ذلك يدخل في إطار علم الاجتماع الأسري وعلم الاجتماع الاقتصادي .

كما أن كتاباً عن سوسيولوجيا العمل المنزلي لابد أن يشمل توضيحاً للعلاقة بين

وكان تعمق المؤلف في تحليل صور ربات البيوت عن أنفسهن ، وعن اتجاهاتهن نحو العمل المنزلي وما يتضمنه من أعمال فرعية مختلفة ، ومدى شعورهن بالرضا أو عدم الرضا عن عملهن ، ونفاذهما إلى طبيعة العمل المنزلي نفسه ، بما يستفرقه من وقت وما يتفرع إليه من أعمال ، والكشف عن المعايير التي تحكم إنجازها ، كل ذلك كان عملاً جديراً بالاعجاب ، كما وفقت الكتابة في عرض أفكارها فجاءت فصول الكتاب منطقية مرتبطة ، يسلم كل فصل منها إلى ما بعده في سلاسة ووضوح.

لكنني بالتعمق في دراسة محتويات هذا الكتاب لا أجد مبرراً لهذا العنوان البارز الذي اتخذته وهو (سوسيولوجيا العمل المنزلي) فقد كان الكتاب فيما عدا الفصل الأول منه ، وأجزاء يسيرة من الفصل الثالث والسابع والثامن ، سيكولوجية النزعة قلباً وقالباً . فهو يلقى الضوء كله على مسألة الرضا أو عدم الرضا عن العمل المنزلي ، ويحل دور العاملة المنزلية من وجهة نظر سيكولوجية بحثة وذلك بالكشف عن صورة الذات ، وأحياناً يفرق في تحليلها بمنظور علم النفس التحليلي فيأتي ذكر (فرويد) في عدة صفحات من الكتاب . أما تحديد الباحثة للطريقة على أساس تقليدي وهو مهنة الزوج ، فلم يكن منطقياً مع اتجاهها التجديدي ، كما أنه لم يكن واضحاً في الدلالات في ثنايا الكتاب . ولا يشفع لها في ذلك ما يبرز به موقفها ، من أن ذلك التحديد كان أكثر ملائمة في المقارنة بين نتائج بحثها ونتائج بحوث أخرى تناولت الموضوع نفسه .

والخلاصة أنني أرى أن استبدال عنوان هذا الكتاب بـ (سيكولوجية العمل المنزلي)

(٤) ربما كان السبب في تلك النزعة السيكولوجية التي لونت الكتاب هو أن المؤلف قد أخذت أفكار هذا الكتاب وموضوعاته من رسائلها للدكتوراه التي قدمتها سنة ١٩٧٤ ، وكانت بعنوان « الاتجاهات نحو العمل ، واتجاهات الرضا لدى ربات البيوت » وهو عنوان ينهيه عن منظور سيكولوجي .

Ann Oakley. "Work Attitudes and Work Satisfaction of Housewives", unpublished P.H.D. thesis. University of London, 1974.

بالمرأة جاهره بأنها لا تحب العمل المنزلي ولا تجيده . كما ان مفهوم العمل المنزلي نفسه لابد وان يدرس في اطره الاقتصادية المختلفة ، فهو في المجتمع الزراعي الريفي غيره في المجتمع الصناعي الحضري ، غيره في مجتمع الرعي (٦) وهكذا .

العمل المنزلي ، وبين اختيار الشريكة في الزواج ، فكم من رجل فضل الزواج بامرأة معينة لأسباب من بينها انها تعيد الطبخ ، او انها قدمت اليه اكلة مفضلة بطريقة مشوقة ، او لانها ممتازة في العمل المنزلي او « شغل البيت » كما تشيع الإشارة اليه في لغتنا الدارجة (٥) وكم من رجل اعرض عن الزواج

(٥) انظر في ذلك نتائج البحث الذي قامت به باحثتمصرية عن الاختيار للزواج والتغير الاجتماعي ، وقارنت فيه بين جيلين : جيل الشباب من ريف وحضر ، وجيل آبائهم « اما المهارة في اداء اعمال المنزل (الشظارة في شغل البيت) فقد اتى ترتيبها الثالث بين مجموع الصفات المفضلة عنداختيار الزوجة ، وذلك عند كل من الآباء الحضرين والريفيين على السواء ، بل لقد كان هناك اجماع منهم على هذا الترتيب بلغ حد التطابق .

وقد كانت المهارة في اعمال المنزل ، امرا هاما وجوهريا لى اختيار زوجة المستقبل في المجموعات الثلاث المكونة لعينة الأبناء ، وهي المجموعة الحضرية ، والمجموعة الريفي - حضرية ومجموعة القراء الريفيين .

كما ان احدا من افراد عينة الأبناء ، لم يقرر ابدا في اجابته بأنه لا يرغب في توافر هذه الصفة في زوجته المستقبل .»

انظر : سامية حسن الساعاتي ، الاختيار للزواج والتغير الاجتماعي، دار النجاشي بيروت ، ١٩٧٢ ، ص ٣٠٢ .

(٦) انظر في ذلك نتائج البحث السابق نفسه وفيه تقول الباحثة :

« رأينا ان اغلبية افراد عينة الأبناء في مجموعاتها الثلاث يربون بلا استثناء في ان تكون زوجة المستقبل دبة بيت ماهرة ، لكن مفهوم ربة البيت الماهرة هذا مفهوم نسبي ، لذلك رأينا ان نتعرف على اهم مقاصده الشاملة في عرف كل مجموعة من المجموعات الثلاث . وكانت اهم الاجابات الشاملة ما يلي :

(١) تهتم بشئون المنزل .

(٢) تعيد الطبخ .

(٣) مديرة .

(٤) توازن بين عملها ومستوايتها المنزلية .

(٥) توالم بين واجبها كزوجة وام .

(٦) تعيد العجن والخبز والحلب ، وتربية الطيور .

وكان السبب الثاني اكثر تواترا في اجابات مجموعة القراء الريفيين ، اما السبب الرابع فكان اكثر شيوعا في اجابات الطلبة الحضرين ، عليهم فئة الطلبة الريفي - حضرين ، ولعل ذلك يتفق مع تعيد هاتين المجموعتين اللأخر لاشتغال المرأة خارج المنزل واعتبار ذلك قضية مسلم بها .

اما السبب السادس والاخير فاقترع على فئة القراء الريفيين ولعلنا نلاحظ ان مفهوم المهارة لديهم واسع ، ويتطلب دراية بامور كثيرة ومتشعبة . ولا غرابة في ذلك فللمهارة (او شظارة البيت) كما يقول الريفيون ، من اولى الصفات التي ترفع قيمة الخطيبة وتحدث عنها النساء في القرية اذ يقرن « ان بنت فلان ، ناز وشراة » ، وقلها حامي « اي انها سريعة في العمل » .

انظر : سامية حسن الساعاتي ، المصدر نفسه ، ص ٢٣ .

وانظر ايضا للباحثة نفسها تفصيلا لالاعمال المنزلية في الثقافة الريفية في وثائقها الحضرية في :

سامية حسن الساعاتي ، الدور الوظيفي للزوجين في الأسرة المصرية ، المصدر السابق ، الفصل الثالث عشر .

من لا تتمتع بملاقات جيدة مع زوجها ، أو لا تتمتع بتقدير زوجها أو ابنائها لعمالها فسوف لا تستشعر بدوافع الإبداع في عملها ولا الرضا عنه ، وينطبق القول ذاته بنسب مختلفة على ردود فعل أصدقائها وأقاربها .

وفي النهاية كان لابد وأن يتضمن كتاب عن سوسيولوجيا العمل المنزلي تحليلاً وافياً لديناميات العمل المنزلي ، ودراسة لمسدى مشاركة الآخرين غير الزوج والأبناء لربة البيت في العمل المنزلي وانماط تلك المشاركة ، فهناك المشاركة المتبادلة ، وهي التي تحدث بين ربة البيت وجيرانها أو صديقاتها ، كان يتبادلن المشاركة في أعمال منزلية معينة كطهي أطباق معروفة وشائعة في أوقات معينة كالاعبياد مثلاً ، أو كأعداد الخبز بطريقة معينة (٧) .

وهناك مشاركة طويلة المدى يقوم بها خدم دائمون ، أو مشاركة موقوتة يقوم بها خدم لساعات معينة من اليوم ، كما أن هؤلاء الخدم الذين يقومون بدور مساعد في العمل المنزلي قد يعتد دورهم أحياناً ليشمل رعاية الأطفال أيضاً ، أو أداء العمل المنزلي برمته وفي ذلك انعكاسات بعيدة المدى على العلاقات والتفاعلات الاجتماعية لربة البيت في أسرهما وفي عملها الخارجي أن كانت تعمل .

وقد أهتمت المؤلفة كثيراً بالجزء الذاتي السيكولوجي الذي تحصل عليه ربة البيت من خلال قيامها بعملها وتمسكها بالمعايير التي حددتها ، والروتين الذي وضعت لنفسها . ولكنها نسيت أو تناست أبعاداً اجتماعية غاية في الأهمية ، وتشمل الجزاءات الاجتماعية التي تحصل عليه من خلال تعليقات زوجها ، وابنائها ، وجيرانها ، أو صديقاتها ، أو من مقارنة عملها بالأعمال المنزلية التي تصورها وبرزها وسائل الإعلام المختلفة من إذاعة وصحافة وتلفزيون وسينما . إن ربة البيت حين تعمل فإنها لا تعمل في فراغ وإنما تعمل وهي تضع في ذهنها توقعات الآخرين منها ، وتتدخل علاقاتها مع هؤلاء الآخرين ابتداء من زوجها وأولادها وانتهاء بمعارفها ، فيمدى إقبالها على العمل المنزلي وتقبلها له ، أو إضرابها ونفورها منه . فالزوجة الحبة لزوجها ، والتي تتميز علاقاتها معه بالتفاهم والود ، تفكر في زوجها أثناء عملها المنزلي ، وتضع نصب عينيها أن تدخل السرور على قلبه حين يعود وأن تنجز عملها على وجه يرضاه وترتضيه هي لاسعاده ، كما أن ثناءه عليها ، ومكافأته لعملها بالتقدير يجعلها أكثر رضا وإقبالاً على عملها المنزلي ، ويصدق ذلك أيضاً على ابنائها وأصدقائها وجيرانها . أما



(٧) يشيع في القرية المصرية ، أن يتبادل ربات البيوت الرغبات ، المساعدة في الأعمال المنزلية لاعداد الخبز بطرق معينة تستلزم عمليات شتى من طحن وجهن وخبز ، وأن يتبادلن المساعدة في الأعمال المنزلية في الأعياد والمواسم وبخاصة في العيد الصغير الذي قيامهن بعمل الكحك وبإخذ ذلك شكل تجمعات متعاقبة تتشابه فيها العلاقات الاجتماعية بينهن بشكل واضح .

من الكتب الجديدة

كتب وصلت إلى إدارة المجلة، وسوف نعرض لها بالتفصيل في الإصدار القادمة

- Aykroyd, W. R., The Conquest of Famine, Chatto & Windus, London 1974.
- Johnson, Harry G., Technology and Economic Interdependence, Macmillan, London, 1975.
- Lawrence, Daniel, Black Migrants : White Natives, A Study of Race Relations in Nottingham, Cambridge University Press, 1974.
- Macguire, William, The Freud/Jung Letters, Routledge & Kegan Paul, 1974.
- McIntosh, Mary, The Organisation of Crime, Macmillan, 1975.



العدد التالي من المجلة

العدد الرابع - المجلد الثامن

يناير فبراير مارس ١٩٧٨

قسم خاص عن :

ألفا المعرفة

بالإضافة الى الابواب الثابتة

الخليج العربي	٥	ريال	سوريا	٣	ريال
السعودية	٥	ريال	المتاهرة	٢٥٠	مليم
البحرين	٤٠٠	فلس	السودان	٢٥٠	مليم
اليمن الجنوبية	٤٠٠	فلس	ليبيا	٣٥	قرشا
اليمن الشمالية	٤٠٠	ريال	مستط	٤٠٠	ريال
العراق	٣٠٠	فلس	الجزائر	٥	دنانير
لبنان	٢٠٠	ليرة	تونس	٥٠٠	مليم
الأردن	٢٥٠	فلس	المغرب	٥	دراهم

الاشتراكات :

للإشتراك في المجلة يكتب إلى : الشركة العربية للتوزيع - ص ب ٤٢٢٨ - بيروت

مطبعة حكومة الكويت